رواية

بَديعَـة

حديثٌ عن الفئران المذعورة

بقلم

مي الترزي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : **رواية بديعة**

المــــــؤلف : مي الترزي

صورة الغلاف: ريمون الماركيز

تصيم الغلاف: محمد خليل

رقــم الإيداع : 26254/ 2018

الترقيم الدولي: 3-100-834-977-978



الطبعة الأولى 2018

الإهداء

إلى أبي وأمي...أجمل وأصدق وأنبل ما تُتوَّج به أيامي...

إلى أخي، أحمد...توأم روحي الذي أشدّ به أزري وأُشركه في أمري...

إلى ثريا قزّاز...صديقة عمري وأسباب نجاة كل قواربي الضالّة...

إلى يمامتي الصغيرة، فريدة...شِبّي واقرأي هذا الكتاب لا في جُحر من جحور الخوف الملعونة، إنما بين السُحب البيضاء. طيري واعلي وحلّقي يا يمامة...

إلى كل الفئران المذعورة في كل ربوع الأرض... اصبروا وصابروا ورابطوا.

بديعة، أو بيتهوفن، أو فان جوخ، أو مي الترزى

بقلم: الدكتور محمود الربيعى

عضو مجمع اللغة العربي

حين كانت تزورنا صحبة والديها وهى طفلة، كانت تجلس صامتة: أسألها حتى عن اسمها فلا تجيب، وأداعبها فلا تستجيب. عندئذ ألجأ إلى استفزازها فأقول لها: وإذن فأنت لا تسمعين! فتبتسم لكنها لا تنطق. أسأل والديها: هل سمع «مي» بخير، فيؤكدان لي أنه بخير، فأتحول إليها متحديا ولائما: وإذن فأنت تعرفيننى، وتسمعين أسئلتى، وتفهمين عنى .. آه يا «مكارة»!! ومع ذلك تنتهى زيارتهم لنا وتغادرنا «مي» صامتة كما دخلت علينا.

ومرت الأعوام. وزارتنى الشابة الأنيقة المبتسمة، الضحوك، الفصيحة، تتأبط هذا العمل الضخم المعقد، وطلبت إليّ فى أدب جم، وجرأة بالغة، أن أكتب له مقدمة؛ لأنها تنتوى نشره. لم أصدق عينىّ، وتعاظمت دهشتي، من أن «مي» التى أراها الآن هي «مي» التى وصفتها فى الفقرة السابقة، وأنها يمكن أن تكتب هذا النص البالغ الجمال.

قرأت «بديعة» — وهذا هو عنوان النص — قراءة أولى، فوقعت فى حيرة وكدت أن انتزع نصا من كلامها، وأتوجه به إليها، ولكننى لم أفعل. واخترت أن أشرك فيه القراء معى:

«ما اسمك يا حلوة؟

- «ليّال»

- وكيف حالك يا «ليّال»؟

- بخير الحمد لله

- كم عمرك؟

- سبع عشرة.

- وهل قمت برسم هذا؟ [وأقول أنا: وهل قمت بكتابة هذا؟]

- نعم

- وحدك؟

- نعم

- أأنت متأكدة أن أحدا لم يساعدك فى رسم هذا؟ [فى كتابة هذا؟]

- لا، لم يساعدنى أحد.

- وكيف تمكنت فى هذه السن الصغيرة ودون توجيه، من رسم هذه اللوحات وحدك؟!»

حقا، لقد أدهشتني «مي» الترزي وفاجأتني، ومما زاد فى دهشتي وعجبي أننى حين طلبت إليها أن تطلعني على كتاباتها السابقة في فن «السرديات» أخبرتني أنه ليس لديها تجارب سابقة فى هذا المجال!

لم يكن أمامي سوى أن أعكف على النص الذى تركته لي.ومن حسن حظي أنه وافق هواي، ووافق المنهج «النصي» الذى أومن به، وهو الثقة فى «النص»، «كل النص»، ولا شيء غير «النص»، وأن علينا أن نثق دائمًا في «الأغنية» لا «المغنى».

ولا يغرنّ القارئ تعدد العناوين، وكثرة اللوحات القلمية المعروضة فى « بديعة»، وتناثرها، فإنه واجد تحت هذه السيولة الكتابية نسقا وتيارًا عميقًّا رابطا – يجمل به الإنصات إليه، ولمّ أطرافه،، وجعله المصدر والمرجع والأصل، الذى تستقى منه الفروع جميعًا.

هذا نوع من الكتابة الحرة. «واقعية دون ضفاف» إن أردت القول، تجمع الواقع إلى المتخيل، والمجرد إلى المحسوس. إطارها ذاتى دون شك، وهل ثمة كتابة إبداعية إلا وهى ذاتية؟ فيها أمكنة، وفيها أزمنة، ولكل معناه، وحّيزه، وقيمته، وفيها نصوص مقتبسة، وإشارات واسعة إلى أعمال بعينها في عالم الإبداع الأدبي، والفني، وحتى الديني، وفيها – فوق ذلك كله – أشواق النفس، وخبايا الروح، وتمزق الإنسان بين حاجته إلى الوحدة وحاجته إلى الأنيس.

فى غرفة «ليال» – وهي عالمها الكامل الذى يذكرنا «بغرفة الإنسان الخاصة» لفيرجينيا وولف A Room of One's Own تبذر كل البذور، وتنمو كل المخاوف والآلام، وكذلك كل الحقائق الفنية والواقعية. ومن ضربة ريشة على لوحة تتخمر المعانى والقيم، وتغزل الخيوط. وبعد تجارب خاطفة لرسم عجوز سوري مهاجر بائس، تدخل «بديعة» ابنة «ريا» أخت «سكينة»، أشهر امرأتين فى تاريخ علم الإجرام المصرى.

وشيئًا فشيئًا تتماهى الشخصيتان «ليال» الراوية، وبديعة البطلة. «ليال» فأر مذعور خائف، يغوص فى الوحدة والصمت وعدم الثقة بالآخر، و«بديعة» فأر أشد ذعرا، شهد الرعب بعينيه، وعاش الطفولة المعذبة حقا وواقعا، كما عاشت ليال وإن ترفا ومجازًا، و الشقاء على كل حال هو الشقاء، و سواء أجاءك من التهديد بالموت (حالة «بديعة») أو من شجار الوالدين وإهمالك وتلقيبك بالكرسى (حالة ليّال) فالنتيجة فى نهاية الأمر واحدة.

من باب الر سم تدخل «ليال» إلى عالم الفن لتر سم لوحتها الأم «وجه بديعة»، ومن هذا الباب نفسه تدخل الموسيقى التى يبدعها فأر مذعور آخر اسمه بيتهوفن «الباثاتيك» [خوف، فأمل، فخوف]. وايرويكا [التحدى] والتا سعة [البهجة]، ويدخل فان جوخ الذى يؤدي لهذا النص خدمة بالغة فى الزمان (الحس التاريخي العميق بفن الرسم والتحليلات الفنية للوحاته، وبخاصة لوحة «زهور عباد الشمس») وفي المكان (انتقال السرد إلى مسقط رأسه فى هولندا، وما أدخله ذلك من تطور أساسي فى الحدث بلقاء «ليّال» و «وراما» الذي بدلها من الذعر أمنا، ومن اليأس أملا).

وإذن فثمة خيط مكاني رابط فى هذ النص، من القاهرة إلى أمســتردام إلى القاهرة، وخيط زماني رابط من تاريخ أحداث الإســكندرية الإجرامية على يد ريا وســكينة والبقية، حتى اللحظات الراهنة، التي تنمو فيها قسمات لوحة «وجه بديعة» على مهل، وخيط بشرى رابط هو تلك الشخصيات المادية والمعنوية التى تتحرك أمام أعيننا عن طريق الكتابة الإبداعية: ليال وبديعة وبيتهوفن، وجوخ، وراما.

لكن الخيط الرابط الأكبر هو ذلك الخيط النفسي المتجلي فى العالم الواسع المخيف الذى تتصــارع فيه المشــاعر، وتختلط القيم، وتضــطرب العواطف وتتضــارب الرغبات. الأشياء وأشباهها، والأشياء ونقائضها. الأمل واليأس، الخوف والأمن، الظلام والضوء، الحب والكراهية، السعادة والشقاء الإيمان والشك، إلى آخر هذه المتناقضات.

فى هذه المساحة من الرواية تتجلى قدرة الكاتبة، فهي محللة نفسية آنا، وناقدة أدبية آنا، وناقدة فنية آنا، و صانعة حكم وأمثال آنا، وهي أيضًا فأر مذعور ككل الفئران أحيانًا، خائفة من كل شــيء، أو من لا شــيء، أو مما لا تدرى. يســاعدها فى التعبير عن أعمق أعماق المعانى لغة بلاغية حديثة، سـهلة إن شـئت، وصـعبة إن شـئت، وسـبر لأغوار الصـمت، وسيطرة على «تيار الوعى»، و «حديث النفس»، وكل تقنيات الرواية النفسية، دون ذكر لأي منها، ودون إدعاء للمعرفة بأى منها.

الجو قاتم جدا – ولا شك – فى الأغلب الأعم من صفحات السرد فى هذا العمل: الوحدة القاتلة، والخوف القاتل، واليأس القاتل، والعزوف عن الحياة القاتل، والسلبية القاتلة. لكن التعلق بالفن، والإخلاص له، وحب أهله، سواء أكان أدبا (فى إبداعات الأبنودى ونجم، وسيد حجاب، ومحمد مصطفى حمام، والإمام الشافعى ومحفوظ، وباولو) أم موسيقى (التحليلات العميقة البديعة لسونتات وسيمفونيات بيتهفون) أم رسما (التحليلات الكاشفة لأعمال فان جوخ)، وفوق كل ذلك الدخول إلى حلبة الفن مبدعة بالرسم، بل وجر بديعة – عن طريق الرمز – لتدخل الحلبة، راسمة وجه أخيها سيد، كل ذلك دليل على أن الفن هو الملاذ والملجأ لكل الفئران المذعورة فى هذه الدنيا، بل هو العنصر الإيجابي الوطيد فى هذه الدنيا المليئة بالسلبيات، وكل ألوان المحبطات.

حين تظلم الدنيا، علينا الاعتصام بمصباح الفن. الفن ابداعا، وابتكارا، وأدوات، ورؤى، هو خلاص البشرية إذن من كل أوضارها. وهو بصيص الأمل الذى لم يفارق تلك الرواية حتى فى أحلك أجزائها قتامة وبؤسا. وصحيح أن الدين ينضم إلى الفن فى مرحلة لاحقة، بصفته شفاء أيضًا، ونحن نعلم أن الدين والفن فى رؤية ماثيوارنولد مثلا ينبعان من منبع روحي واحد، ويحققان هدفا تطهيرًا واحدًا من أوضار المادة وشرورها.

وعلينا نحن القراء أن نتحلى بالصــبر، و ندس طا قاتنا فى طيات الكلام وتلافيفه. وسنجد أن الأمل مضفور بعناية فى خلايا أكثر أجزاء «بديعة» يأسا، ولنستمع إلى صوت هذا الأمل فى مرحلة مبكرة جدًّا من مراحل العمل: «لولا الأمل لما اشــتهت بديعة «مدوّرة» جديدة تتزين بها، ولا واصــلت اللعب مع أبناء الجيران. ولا تخلت فى النهاية عن حلم الوابور الذى كان ليأخذها بعيدا عن بيوت لا تعرف إلا النّيْل من نســوة وثقن فى أهله حتى انتهى بهن الحال جثثا هامدة تحت بلاطه، وتحت الصندرة حيث تنام «بديعة»».

قبل رحيل «ليال» إلى أمستردام كانت قد وصلت إلى قمة السوداوية: « صرت حانقة على العالم كله، كارهة لكل الناس، ولكل شــىء».لكن هذا التحول المكانى كان إيذانا بالتحول النفسى، وذلك لأن الأمل – مرة أخرى – لم يكن غائبًا فى العمق. ولقاء «ليال» مع «راما» – العربية الأصــل صــاحبة محل الزهور – بين المقابر فى امســتردام هو الدليل على أن الأمل يمكن أن يتخلق من عمق أعماق اليأس، وأنه بضدها تفنى الأشياء، وتوجد أيضًا.

ويبدو أن هذا الذى لم يتجاوز حتى الآن مرحلة المواعظ والنصــائح، يتعاظم بفعل العدوى. فى الماضــي كان الســلبى يعدي الإيجابي فيكاد يقضــي على كل أمل فى موقف صــلب من الحياة، والآن يبدو أن العجلة بدأت تدور فى اتجاه عكســى. حقا إن لكل منا صندوقه الأسود البائس داخل نفسه،

ولكن الاتصــال البشـرى الإيجابى من الممكن – فيما يبدو – أن يفتح هذه الصــناديق السوداء لتغرد فيها الحمائم. تهمس ليال فى مرحلة لاحقة إلى بديعة (التى ما تزال تعمل على إتمام رســم وجهها: «يا بديعة، إن صــندوقى الأســود يوشــك أن ينفتح وتدخله زواجل الحمام وأسراب الفراشات والعصافير. لا تقلقي. لا يمكن أن أنساك. سأرشد الأسراب إلى صندوقك».

هكذا يمضــي خط التحول من الســلبي، إلى الإيجابي قدما فى الرواية، ومعنى هذا أنه اكتســب قوة ضــمنت له الثبات والاطراد. وســنجده بعد ذلك صــوتا مزدوجا صــادرا عن شــخصــيته ثانوية فى الرواية، لم يرد لها ذكر ســوى مرة واحدة، اســمها ريكي، وصــادرا فى المرحلة ذاتها على لسان «ليّال» نفسها. يقول ريكي: «بلغت ذروة السعادة حين علمت أن لما أعانيه اسما»، وذلك حين شخصت حالته التى تضمه إلى مجموعة الفئران المذعورة جميعًا طبيا بأنها «الرهاب الاجتماعي». وتبكي «ليال»، بدموع الســعادة، قائلة لرفيقتها الرمزية «بديعة»: «لا يا بديعة، بالعكس. أنا بعيّط عشــان مبســوطة» (وهذه العبارة العامية واحدة من عبارات قليلة تستخدم فى الرواية، وخاصة فى الحواريات).

ويبدو أن هذا الخط الإيجابى يكتسب الآن نوعا من الثبات يصعب معه أن تعود ليال إلى حالة «الرهاب» السلبية المدمرة. هذا و«راما» هي العنصر الفعال الحاضر فى هذا التثبيت لعنصر التحول وتقويته. تقول «ليال»: «لكن راما بكل ما ينتابها من لحظات أسى عميق، وبكل أحاديثها واسترسالها عن الموت والهلاك إلا أنها أشعلت بداخلي شمعة، وأمامي شمعة ... شمعة أنارت روحي اليائسة، وشمعة أنارت طريقا ظننت أن آخره سيكون كأوله».

لسنا هنا إذن أمام رمز ضوئي تفاؤلي واحد (شمعة) بل نحن فى الواقع أمام رمز مزدوج (شمعتان)؛ وهذا الرمز لا يعمل فى بث الضوء فى اتجاه واحد، وإنما فى اتجاه الماضى والحاضر (شمعة أنارت روحي اليائسة)، وينتشر – فى الوقت ذاته – نحو المستقبل (وشمعة أنارت طريقا ظننت أن آخره سيكون كأوله).

على أن هذا الضوء، يزداد اتساعا وثباتا بتحوله من أن يكون ظاهرة خارجية (شمعة أو أكثر) إلى أن يكون إحساسا داخليا يتمدد فى نفس ليال على شكل «خلاص»، أو على الأقل «إمكانية خلاص»: «أنت بددت يأسي إلى أمل لم أعرفه قط ...لا أقول إن خوفي وا ضطرابى قد زال .. ولا أقول إننى لا أخشى العودة إلى القاهرة ومواجهة الضباع مجددا .. لكنني أرى خلاصا ما ... أرى إمكانية ما ..».

وتتسارع تجليات هذا التحول، بفعل سحر الأماكن من ناحية، وسحر الفن من ناحية أخرى. على أن السحر الأكبر الذى لا يعادله آخر هو سحر الاتصال البشرى. لقد رأينا «ليّال» فى الجزء الأعظم من الرواية تغوص فى الوحدة، عالمها حدود نفسها، وحدود غرفتها، وحدود أدوات فنها، وحدود شخوصها المتخيلين. والآن نراها واثقة فى شخصية بشرية من لحم ودم هى شخصية «راما»، ربما لأول مرة فى الرواية. و سنرى أن لهذا فعل السحر كما قلت، لأنه سيلوّن – منذئذ – علاقتها بالناس والأشياء.«إن كان الارتباط بالأماكن أمر عجيب في قوته و سرعته، فالارتباط بالبشر أعجب، وأكثر سحرًا». فأين هذا من هروبها من جميع البشر، وتقوقعها، وانكفائها على نفسها فى الجزء الأعم من الرواية؟.

وأخيرًا يتم التحول وتكون رايته عنوان آخر صورة قلمية فى الرواية «إلى السعادة»، ومن تجلياته أننا الآن بحضرة السيمفونية التاسعة لبيتهوفن – آخر ما كتب. وأننا نظفر برسالة إيجابية جدًّا من أم «ليّال» لها. تلك الأم التى لم تكن تنعتها فى الماضى إلا بأنها «كرسي»، وتهددها بأن موقفها فى الحياة من شأنه أن يجعل كل أصدقائها يبتعدون عنها. والأهم من هذا وذاك رسالة ليال نفسها ردا على رسالة أمها:«وأنا أفهم، وأحبك، وسأدعمك إلى الأبد». ويجدر بنا أن نقف طويلا عند عبارة «إلى الأبد» هذه – لقد عبرنا طريق اليأس والكراهية، بل والتردد إلى غير رجعة، وها نحن أولاء أمام الرواية الأساسية للنص تخبرنا بأن التعاون على الإيجابية بات مؤبدا. وهكذا يكون مسك الختام: أغنية للسعادة ode to joy، وهي الحركة الأخيرة من سيمفونية بيتهوفن التاسعة.

هل نحن – مع «بديعة» – أمام رواية محكمة الصنع؟ بل هل نحن أمام رواية أصلا؟ أعترف أن هذا السـؤال لا يشـغلني كثيرًا، فأنا من المؤمنين بأن الرواية المحكمة الصـنع ليست بالضرورة أفضل الروايات، كما أن الشخص الحسن الهندام ليس بالضرورة أفضل الناس. وأميل إلى امتحان سـؤال آخر: أي نوع من الكتابة ذلك الذي نواجهه في هذا النص المعنون «بديعة – حديث عن الفئران المذعورة»؟ إننا نواجه أسـلوبا كتابيا حرا هو ابن زمانه ومكانه.

هو نص تربوي من الطراز الأول، يرصد الحياة الداخلية لطفلة كبرت في جو الخوف من الحياة ففعل بها هذا ما فعل، من تقطيع روابطها مع الحياة الاجتماعية العادية، وأحالها إلى «غرفة خا صة» وفأر مذعور، لكنها غا صت فى عالم الروح كاملا بتناة ضاته التي تتراوح بين الوجود والعدم، وهدتها الفطرة منذ البداية إلى أن تثق فى شـىء واحد فقط هو حب الإبداع، والإخلاص له، والفناء فيه. وما الر سم الذى عشقته سوى عنصر من عنا صر هذا الكيان الكل الراقد تحت السطح في نفس كل إنسان.

نظرية جبل الثلج إذن The iceberg هي التكنيك المفضـل في هذا النص. الكشـف عن أعماق النفس البعيدة التى لا يتوصـل إلى أسـرارها إلا عن طريق الفن الخلاق. ذلك الفن الذي يكشف لنا عن وحدة الوجود التي تجمع فتات الواقع الأليم، وتنظمه فى سلك واحد (قصـيدة، أو رواية، أو لوحة أو سـيمفونية) فيحول هذا الواقع إلى نعيم، نازعا عنه – بحميا الفن _ كل ما فيه من أسرار الشقاء.

هكذا بدأت الرواية بطيئة تبحث عن طريق، وتمهلت في الوسـط إلى درجة قريبة من الركود، بل إنها دارت حول نفسها فى كثير من صفحاتها، وذلك قبل أن تنطلق فعالة جادة في بحثها حول اكتشاف الذات حتى وجدتها.

اللوحة في فن الرسم تعادل السرد في فن الرواية – خيطان يجدلان في ضفيرة واحدة، وحين تؤذن هذه بنهايتها تؤذن تلك باكتمالها. ولأن كل ذلك يؤدى عن طريق حديث النفس، والصوت الداخلى الصامت، وتيار الوعي، تعود إلينا حين تنتهى من القراءة أصداء من روايات تيار الوعيي المعروفة فى أدبنا وأدب العالم، ونستحضر هنا بصفة خاصة رواية «إلى المنارة» To The Lighthouse لفيرجينيا وولف، وما تكشف عنه من رؤية وبصيرة.

إن صح أن هذه أول محاولة لمي الترزى فإننى أتوقع لها حظا عظيمًا فى دنيا الكتابة، وأحب أن أطمئنها إلى أن هذا النوع من الكتابة الشفافة الصادقة البسيطة البليغة ستقع على قلوب قرائها بردًا و سلامًا، كما أن الر سالة التي تريد أن تو صلها إليهم ستجد طريقها إلى عقولهم وقلوبهم؛ ذلك لأننا جميعًا فى نهاية المطاف «فئران مذعورة» تضطرب فى معترك الحياة.

الْجُزْءُ الأَوَّل

1..وَمَرْيَمُ وَجْهٌ حَقِيقِيٌّ

عيناه ترجوان الخلاص. خلاص أبديّ أم مؤقّت؟ لا أدري. لكنهما مُشبّعتان بأقصى ما عسى التوسّل أن يبلغ من قوّة؛ يبدو لي أنهما ستقبلان بأي شكل من أشكال النجاة يوافيهما. إنه...سيقبلُ بأي خلاص.

يحملُ في يده حقيبة سفر بنيّة صغيرة لا تحاولُ إخفاء ما ظهر عليها من علامات تقدّم السنين بها. فها هي مهترئةٌ قديمة. تنسلّ الخيوط من نسيج قما شتها في رُقع كثيرة حتى أن المرء ليخشى أن تنفتح وتهوي على الأرض فتُربك هذا العجوز الضعيف الذي بالكاد يحملها. إنه ينحني عليها انحناءً لا إراديًا كأنه يتّكئ عليها، فأتساءل: أيحملها أم تحمله؟

وجهه عابسٌ حزين. ويُصاحب رجاءَ عينيه نظراتُ ألمٍ، وحسرة، وذُعر، ومهانة، وفتورٌ مُنقطع النظير. وشحوب وجهه يُضفي على بشرته صُفرةً وشيئًا من رمادي تذيبان أي ملمح من ملامح الحياةِ الناجيةَمعه من مشقّة سفره الطويل.

إنه لا يقف وحده. ومع هذا فهو وحده جدا. إذ يقف وحيدًا بين حشد من الناس – رجال ونساء وأطفال و شيوخ غيره، فرادى وعائلات– لا يعرفهم. أو ربما تعرّف إلى واحد أو اثنين من بينهم خلال رحلته الممتدّة من بلاده إلى هذا المنفى اللعين. أقول «ربما»

لأنني لا أتصــوّر أنّ لحظة الانكســار التي أراها الآن، يمكن أن تكون قد ســبقتها أي لحظة أمل دفعته للاندماج مع أي من تلك الوجوه الكثيرة في أي حديث من أي نوع.

عجيبٌ شأنكِ أيتها الحدود الغبية! نَرسمكِ ثم نتشبّث بكِ بجنون. شأنكِ شأن أصنام الطين والعجوة.متى أوجدناكِ ومتى ألبسناكِ كل هذا الكم من الهيبة والتقديس؟

إنّ العجوز يلوّح بذراعه عاليًا مخاطبًا عساكر الحدود اللبنانية. يتوسّل إلى العساكر مع زُمرة من المتوسّلين المُشرّدين. «نرجوكم. ضاعت بلادُنا وجئنا علّنا نجدها في أرضكم. أرأيتم بلادنا؟ أمرّت بكم اليوم؟ وكان لنا عوائل وأحبّة حالت بيننا وبينهم الغارات والمدافع والصواريخ والطائرات الغادرة. هل جاؤوكم؟ هل سألوا عنّا؟ ها نحن نقف على أعتاب بلادكم. نسأل عنهم».

هل ردّ نداءه أيٌّ من عســاكر جيش الحدود؟ لا أعلم، لأنّ ما أنظرُ إليه هو صــورة فوتوغرافية ثابتة على شاشة لوحي الإلكتروني «آي باد»، يعوقني ثباتُها الإلمام بتفاصيل ما وقع لهذا العجوز قبل وبعد هذا المشهد. فأنا لا أعلم ما اسمه، أو كم عمره، أو مع من أتى، أو كيف أتى، أو المصير الذي لاقاه بعد التقاط هذه الصورة ببضعة دقائق، أو مِن أي المدن أو الضواحي السورية قد فرّ مع الفارّين اللاجئين من القنابل آملًا أن يجد بقيةً من بلاده في غير بلاده.

أنا لا أعلم إلا عينيه المُرتجيتين أي لون من ألوان الخلاص، وحقيبةَ سفره البنّية الصغيرة المهترئة التي (تحملُه). أنا لا أعلم إلا الرمادي والصُفرةَ الغالبة على وجهه من أثر الحزن والخوف؛ كسى اللونان شحوبَ وجهه في الصورة، فكسوتُ بهما شحوبَ وجهه على سطح اللوحة أمامي.

أبوسعي تبديد الحقائق قبل رسمها؟ ليت بعض الحقائق تتبدّد في الواقع بمجرّد تبديدها على «الكانفس» (canvas). ليتني إن أنا استبدلت صُفرة وجه العجوز بورديّ الحياة، تسري الحياةُ إليه فعلًا من مكاني هذا إلى حيث يكون. لكنني...لا أستطيع. وطالما أنني لا أستطيع، فسأنقل تفاصيل وجهه وعينيه وانحناء ظهره وحقيبته الهالكة بكل صدق. ولينظر العالم إلى الحقيقة على سجيّتها كيفما تكون. ولتنظر الحدود الجغرافية الغبيّة – بنفسها – إلى فعلها بهذا العجوز المتوسّل.

أترك الفرشاة. أنظر إلى اللوحة التي وصلت معها إلى منتصف الطريق حتى الآن. لم تكتمل بعد ومع هذا، فإنّ الانكسار والتوسّل قد بدآ يظهران عليها وبقوّة. وإنّ هذا تحديدًا هو ما أتأمّله الآن وأترك «البالتة» (palette)والفرشاة، وأُبعد جذعي قليلًا عن اللوحة، من أجل تبَصّره.

ما أصــعب المنفى. ما أصــعب اللجوء. ما أصــعب البحث عن بلادنا في غير بلادنا. والتجوّل في شوارع المنفى وأزقّته وضواحيه، آملين أن نجد أي ملمح من بين ملامح أرضه الكثيرة يُذكّرنا ببلادنا. ثم نحن نتشبّث بهذا الملمح تشبّث طفل صغير بأمّه. ولو ا ستطعنا أن نلبث عنده طوال النهار والليل، لفعلنا راغبين.

أعدّلُ و ضعي من القرفصة على الأرض أمام «الكانفس» (canvas)، إلى الا ستلقاء على ظهري. أحدّقُ إلى ســقف الغرفة محاولةً تخيّل مصــير هذا العجوز. ثم يتحوّل انتباهي إلى الغرفة فأجوب أركانها وحوائطها بنظري. أنظر إلى باب الغرفةوالســرير و«الكومودينو» الأبيض يميني. ثم يســارًا حيث تســريحتي البيضــاء والنافذة الصــغيرة المختبئة ملامحها خلف ســتار خفيف من «الدانتيل» الأبيض الناعم. ثم إلى الخلف، أي إلى خزانة ملابســي المســتطيلة الطويلة إلى جانب مقعد كبير من البنّي الفاتح فوقه وســادتان صــغيرتان من الأبيض المكســور والوردي الفاتح. إنها غرفة صــغيرة. لكنها لي أنا. لي وحدي. هي بيتٌ داخل البيت.هي عالمٌ داخل العالم.

يتسرّب الآن إلى الغرفة أصواتٌ مختلطة من الخارج: صوت بيانو منخرطٌ مع خطوات نعال تقترب وتبتعد. الأغلب أنّ أمّي تستعد للخروج. أنظر أخيرًا أسفل الباب حيث تتسرّب الأصوات إلينا أنا والعجوز. خلال هذا الفراغ الرفيع بين الباب وأرض الغرفة تسري كل الأصوات. والأنوار. فها هو النور الآتي من غرفة والديّ المجاورة لغرفتي، ينطفئ فجأة. وصوت خطوات نعال ماما يقترب. و...أوه! يُباغتني طَرْقُ الباب. تفتح ماما الباب وتدخل. ثم تحدّثني واقفةً، لازالت تُمسك بمقبض الباب. كأنها تنوي قول شيئ ما بشكل سريع فلا تتعطّل عن مشوارها المعيّن.

- (ليال)، سأذهب الآن. لديّ موعد مع (طنط عزّة).

ثم تجعّد حاجبيها وتتفحصني:

- أأنتِ بخير؟

- نعم، أنا بخير.

- لا أعلم لماذا...لا يبدو لي...الأمر كذلك.

لا أجيبها. فقط أشيح بوجهي عنها.تتراجع بسرعة عن إلحاحها في السؤال. لكنها سُرعان ما تستبدل بالسؤال سؤالاً آخر توجّهه إليّ بذات الحذر:

- طيّب...هل فكّرتِ في الأمر؟ هل تَغيّر رأيك بشأن موضوع أمس؟

- لا، لم أغيّر رأيي. لن أذهب.

في تلك اللحظة كانت عينا ماما قد وقعتا على لوحة العجوز. ويبدو أنّ الانكسار والحُزن باللوحة قد سريا إليها كما سريا إليّ منذ هنيهة. لأنها صبّت قلقها وغضبها من ردّي السلبي على أسئلتها في تعليق ملتوٍ عن مضمون اللوحة. قالت بنبرة تعيسة يخيّم عليها اليأس:

- كم أتمنّى أن أدخل عليكِ ذات يوم فأجدك ترسمين ورودًا حمراء أو بيضاء. أو منظرًا طبيعيًا ساكنًا...شاطئًا هادئا...أشجارًا خضراء...على أي حال، أتركُ إليكِ هذه الرسالة. ها هي. صدّقيني أنا مستاءة جدا من هذا الحال ومن كل ما آلت إليه الظروف من أوضاع بيني وبينك. حتى أنني لم أعد أجرؤ على البوح إليك – وجهًا لوجه – بكل ما أحمله في قلبي وأودّ أن أخبرك به. لذا، اضطررت أن أخطّ مشاعري وأفكاري إليك في هذه الرسالة تقرأينها وحدك متى شئت. كتبتها بكثير من الحب والإخلاص. وأتمنّى أن يصلك صدقها الذي لم أستعن بسواه في كتابة كل كلمة فيها.

تَرَكَتْ الرسالة المطوية على الكومودينو ثم استدارت وأعادت غلق الباب، وخرجت.

لم أركض باتجاه الرسالة فورًا. بل أنني لا أزال مسمّرةً أمام اللوحة مسطّحة على ظهري مشتّتة النظرات. وبالرغم من كل ما يُبديه تصرّفي وهدوئي هذا من لامبالاة بالأمر، إلا أن قلبي يخفق خفقانًا سريعًا يكاد يطيح بالضلوع التي تسيّجه. إلى حد كبير، أتوقّع مضمون الرسالة.

فلا يمكنني أبدًا الجزم بأن الفضول واحدٌ من بين المشاعر الكثيرة التي تسكنني الآن. ومع هذا فلا يمكنني أيضًا إنكار صفته عنّي كليًا. إذ أنني – بعد أن قرّرت تأجيل قراءة الرسالة لوقت غير معلوم – أجدني فجأة أعدل عن قراري هذا وأهمّ واقفةً لأمضي باتجاه الرسالة. إذن...ما يزال بداخلي شيئ من فضول.

أُمسك بالرسالة. أفتحها. خفقان القلب يزداد بمعدّل ملحوظ. أشعر بساقيّ تنثنيان من تحتي فأجلس على السرير، ثم أبدأ بقراءة الرسالة:

«ابنتي الحبيبة ليال،

أعرف أنك فتاة شديدة الحساسيّة. ولقد ازدادت حساسيتك في الآونة الأخيرة بما يكفي ليُصعّب عليّ أن أحدّثك بصراحة وجهًا لوجه. وأظن (بل أنني متأكّدة) أنك تلاحظين بنفسك كيف صار أبسط النقاش بيننا حول أي أمرٍ من الأمور مهمة مستحيلة. وأظن أنك توافقينني الرأي بأن المشكلة لا تعود مُسبّباتها من قريب أو من بعيد إليّ أنا. بل...أنتِ المشكلة يا ليال.

نعم، أنتِ المشكلة يا ابنتي الحبيبة. يؤسفني جدا أن أقول لك مثل هذا الكلام. أنتِ مُشكلتكِ الأولى والوحيدة. حاولتُ أكثر من مرّة أن أمد إليك يد المساعدة لكنك كنت تركلين يدي المُحبّة في كل مرّة. لماذا يا ليال؟ لماذا كل هذا الغضب من الناس؟

ولا سـيما من أقربهم إليك؟ أعرف أنني قد أكون أخطأت كثيرًا في طفولتك. أنا وأبوك على حد سواء. إنني لا أُعفي نفسي من المسؤولية أبدًا. لكنك...كبرت الآن. ألا تستطيعين النظر أمامك إلى هذا الحد؟ ألازلت تُصـرّين على النظر ورائك؟ مضـى ما مضـى يا ليال. الآن...أنت مسؤولة. الآن يتوجّب عليك فهم كل الأمور القديمة. وحلّها بنفسك.

أنا مؤمنة بنقاء قلبك بالرغم من كل شيء. لكن هذا لا يكفي. لا أ ستطيع أن أنظر إليك وأنت تُفسـدين حياتك بنفسـك وأقف صـامتة عاجزة حتى عن إسـداء النُصـح إلى ابنتي الوحيدة. أرجوك يا ليال لا تفعلي هذا بنفسـك. لا تتركي كل من يحبّونك لأسـباب واهية. كلهم يبتعدون عنك يا ليال. وسـيظلون يبتعدون عنكِ واحدًا واحدًا طالما أنّك لن تُغيّري من نفسك. سيبتعد عنك كل من يحبك.

وتلك الوجوه التي ترسـمينها لن تفيدك بشـيء. لا شـيء! إنها مجرّد ألوان على لوحة خرساء. تلك ليست الحياة. الحياة ليست ألوانًا ورسومًا. الحياة تواصل مع كل من حولك من بشر. لكن، بشر حقيقيون. تربطك بهم صلات دم أو صداقة أو محبّة خالصة. تحدّثينهم ويحدّثونك. لا وجوه بكماء كتلك التي تقضين كل أوقاتك ترسمينها. لا تفرّين من الوجوه الحقيقية إلى وجوه لا وجودًا حقيقيًّا لها في حياتك. ولن تفيدك ولن تضـرّك حتى. فكّري أرجوك.

و(مريم) وجهٌ حقيقي يا ليال. إنها صديقتك منذ الطفولة. منذ أن كنتما بنتين صغيرتين بريئتين تستكشفان الحياة معًا. لا يمكن أن تنبذيها وتنبذين صداقتها هكذا بعد كل هذه السنين. أعرف أنه قد يكون لديك سبب أو أسباب قوية. لكن...مهما تكن قوّة تلك الأسباب كلها، لا مفرّ أبدًا من الذهاب إلى عُرسها غدًا. مهما تكن أسبابك، لن تفهمها مريم أبدًا. ولا يستطيع أحد أن يلومها. بل أنّ أحدًا لن يفهم ما عسى أن يمنع الصديق من حضور أهم يوم في حياة صديقه الحميم. صدّقيني أفهمك وأفهم خوفك. لكن أرجوك. اذهبي. لا تتركي مريم في يوم كهذا وحدها. إنها تحبّك.

اذهبي غدًا يا ليال. وبعدها، سنرى كيف يمكننا حلّ ما أصابك من سوء. ولا زلتُ أقدّر أنه...ربما...يكون من الأفضل أن نستشير طبيبًا متخصّصا. أعرف أن هذا الأمر يُغضبك كثيرًا، لكن صدّقيني يا بنيّتي، لن تندمي أبدًا.

أحبك كثيرًا.

أمّك المُحبّة دومًا، (هالة)».

أبتسم ابتسامة مليئة بالأسى. بماذا أشعر الآن تحديدًا؟ حزن؟ ألم؟ خوف؟ ربما. لكن الأكيد أنني أشعر باختناق شديد يهيمن على صدري. بل على روحي كلها. كأن روحي تنخلع منّي ببطء. ومع مُضيّ الثواني، ينخلع جزءٌ منّي معها؛ جزءٌ من قلبي، وجزء من صدري، وجزء من حلقي، وجزء من إحساسي بكل أطرافي ومفاصلي. جزء منّي يموت في كل لحظة.

بعد بضع دقائق، زال الاختناق ليحلّ الغضبُ محلّه. إنني حانقة على الحياة التي تتلخّص في رسالة ماما في هذه اللحظة. كم أودّ تمزيق الرسالة تمزيقًا وإلقاء فُتاتها على سريرها! لتعلم أنني حانقة ولا يعنيني ما تقول. أو أحمل حقيبتي وأرحل. لكن إلى أين؟ أو أمزّق لوحة العجوز ثم آتي بالفرشاة التي استعنت بها على رسم عينيه، وأغرسها في قلبي. لكنني أجبن من أن أفعل.

«لوحةٌ بكماء خرساء. رجلٌ عجوز أحمق. لا أعرف اسمه ولا يعرف اسمي». هكذا أخذت أردّد وأنا أعيدُ النظر إلى اللوحة.وإذ بي أضحك على حين غرّة، ضحكة عالية هستيرية وأنظر إلى عيني العجوز وأقول: «ماما تريد استبدال ورود حمراء بك. لا عليك. لا تحزن يا عزيزي. فهي – إن استطاعت – لأمسكت بكل هذه الفراشي والألوان وألقت بها من النافذة أيضا.

ولاستبدلت ستارًا شفّافًا لا ينغلق أبدًا،بباب غرفتي المنيع المُغلق دومًا، لتخترق عالمي الخاص متى حلا لها. بل أنها إن رجع إليها الأمرُ لاستبدلت بي ابنة أخرى (طبيعية). ابنة تُشرّف والديها. ابنة أكثر حياةً وأكثر إقبالًا. ابنة لا ترسم وجوهًا خرساء ولا تغلق باب غرفتها عليها أبدا».

وسرعان ما تتحوّل الضحكات الهستيرية إلى بكاء مكتوم، وحزن عميق تتجدّد ملامحه بداخلي. وأجدني أردّد من رسالة ماما: «إنها مشكلتك أنت. حلّيها بنفسك». إنني على أعتاب نوبة أعرفها. نوبة من الهذيان وتخبّط الأفكار. أشعر بدوار. والأرض من تحتي كذلك تدور.

أمزّق الرسالة؟ لا، لن أفعل. لكن لأدعها في مكان بعيد لا تقع يدي أو عيني عليه بسهولة. أفتح أول درج من أدراج الكومودينو الثلاث. آتي بصندوق أزرق صغير أحتفظ فيه بكل ما ليس ذا قيمة. فلألقِ بك أيتها الرسالة الغبيّة مع كل ما لا قيمة له عندي. ولأول مرّة تستوقفني الفكرة: إن كانت كلها أشياء لا قيمة لها، فلماذا إذن أحتفظ بها في صندوق حيث أنام وأصحو؟ لا أعلم. غريب. شأني شأنٌ غريب كل الغرابةمثلي أنا.

أُعيدُ طيّ الرسالة وأودعها في الصندوق. ثم أعيد الصندوق في الدرج. وأدفعه.

2..كَمْ أَشْتَهِي إِصْبَعَ الْعَسَلِيّةِ

ما زالت الأرض تدور وتدور. لم أنتبه أن ضـروس فكيّ أخذت تصُـرُّ بقوة لمدّة طويلة إلا حين أيقظني ألم الضغط عليها. أحاول إرخاء عضلات فكيّ. لكن سرعان ما أستبدل به غرس أظافري الطويلة نسبيًا في لحم راحتيّ في حركة عصبيّة. فكرة الانتحار تعود فتزورني من جديد. أنتِ ثانية؟ والله لا أهلًا ولا سـهلًا. أذرعُ الغرفةَ بقدمين ثقيلتين ورأس أثقل. وتحلّ محل فكرة الانتحار فكرةٌ أخرى تنتابني فجأة. فأجدني أسير كأن أحدهم قام بتنييمي مغناطيسـيًا وأمضـي باتجاه لوحة العجوز. كنت أنوي تمزيقها وأنا في طريقي إليها. لكن ما إن وقفت أمامها حتى انكسـرت روحي وتبعثرت أمام حقيبة العجوز على الأرض. خذلته الحدود، أأخذله أنا أيضا؟

صـحيح أنني لم أقم بتمزيقها، لكنني وجدتني أبكي وأقول وأنا أنظر إليها: «اعذرني»، قبل أن أزيحها من على الحامل وأُسندها إلى إحدى أرجل الطاولة المقابلة للحامل.

على الطاولة كوب لي أحبه كثيرا منقوش عليه أزهار الpeonies (الفاونيا) الوردية وهي أحب الأزهار إلى قلبي. هشَـة. كثيفة. مُنغلقة. فخورة. تبعث شـيئًا من الراحة والبهجة إلى كل ناظريها. أَحَبُّ الأزهار إلى قلبى نُقش بانتظام على مدار كوب

فأصــبح أحبَّ الأكواب إلى قلبي. اخترته خصــيصــا دون غيره ليحمل بداخله فُرَش الرسم: فرشاة طويلة، فرشاة قصيرة، فرشاة ذات شعيرات مستقيمة متساوية في الطول، و فرشاة منمنمة شعيراتها بالكاد تراها العين لكنها داهية ماكرة إذ تنفرد بقدرة هائلة على وضع حبّة الضوء الصغيرة في بؤبؤ العين فتُحييها. أو تتمايل في حركة انسيابية سريعة في خصلة من خصلات شعر فتاة فتجود عليها ببُعد إضافي يَهَبها حقّها المشروع من الحركة والإيقاع. أشــكال وألوان من الفرش من شــعيرات الجَمَل، لكلٍ وظيفةٌ وبطولات يحكيها ويتفاخر بها.

إلى جانب كوب الفرش، بالتة خشــبية بيضــاوية إذا ما اكتســت بالألوان الزيتية من أحمر وأخضــر وأصــفر وأزرق وأزرق مائل إلى البنفســجي، وأخضــر مائل إلى الأزرق، وأبيض ناصع بياضه يسمونه «zinc white»، وأبيض مكتوم يسمونه «titanium white»، وغيرها، أصبحت لوحة في حد ذاتها. أستمتع بالنظر إليها وبتحليلها إذا ما فرغت من رسم لوحة ما. أُحلّل ما جاء فيها من عناوين. أستشف منها حالتي ومزاجي . «الأحمر غالب هذه المرة. لِمَ هذا الغضب يا ليال؟». «لم تتركي لونًا مُشرقًا إلا وألزمتيه شيئا من البنّي المكتوم. ألم يكن من الأفضل لو تركتِ للإشراق مساحة أكبر كي يتنفّس؟».

بين البالتة وكوب الفرش، أضع السكاكين- سكاكين الرسم. أحب إحساس السكاكين عند الر سم. أحب ملمس الألوان المُجسّمة التي تولدها. اندفاعها جميل. ميلاتها ر شيقة. دقّتها عجيبة. حدّتها مُبهرة. لاأستخدمها كثيرا كالفراشي، لكن لطالما أُعجبت بوقع السكاكين على اللوحة. أحترمها وأقدّرها. وأُلقي عليها التحية أحيانا(قليلة)في لوحاتي، لأني حقيقةً ألفت الفرش أكثر واعتدت مشهد شعيرات الإبل وهي تلتحف لونًا من الألوان.

تحت الطاولة، حقيبة برتقالية متوسطة الحجم من البلاستيك الثقيل. كانت أمي تستخدمها للاحتفاظ بمعدات الصيانة المنزلية من مفكّات و شاكوش وما شابه. وعندما علمتُ بنيتها للتخلص منها – لسبب ما – هرولت إليها: «لا يا ماما! دعيها. أحتاجها». ثم استصحبتها إلى غرفتي الصغيرة فصارت جزءًا من الغرفة وقطعة أثاث تماما كالسرير وخزانة الملابس؛جزء لا يتجزّأ من الغرفة وأحد أهم معالمها. ومنذ ذلك الحين، صرت أحتفظ فيها بكل ألواني الزيتية وببعض الفرش التي لا أستخدمها كثيرا، وزجاجات الزيت، والتربنتين، وقطعة قماش بيضاء ملطّخة بالألوان أستخدمها بين الحين والآخر لتنظيف يديّ، أو أنظف بها إحدى الفرا شي إذا ما أردت أن أخلّصها من لون قديم قبل أن أكسوها بجديد. أي أنّ قطعة القماش القطنية تلك تعمل عمل « ضابط الإيقاع» في هذه السيمفونية الزيتية.

يقف حامل اللوحات شامخًا، عاموديًّا، أمام مشهد الطاولة بما عليها وما تحتها. أقول «شامخا» لا لأنه حديديٌّ صلب، لكن لأنه يحتضن بحُنُوّ أنامله لوحاتي على اختلاف أحجامها وموضوعاتها. يحتضنها إن كانت طفلةً مرِحة مبتسمة تبعث الأمل في نفوس الرائين، ويحتضنها إن كانت عجوز أتعب الدهرُ عينيه وأخذت خطوط وتجاعيد وجهه تعاتب كل من نظر إليه ولم يبالِ. وأقول «شامخا» لأنني أرى في التودّد إلى الاختلافات والتناقضات تفهّم وحكمة. وفي التفهّم شموخ، وفي الحكمة شموخ، وفي التودّد إلى اختلافات الكون الفسيح شموخ.

أنظر إليهم: الحامل، والطاولة، والأدوات، نظرة المناجي المحتاج. تلك النظرة نظيرها الوحيد في لغة التواصل بين الناس هو تلك الثواني (أو ربما جزء من الثانية) التي تسبق لحظة نُطق أحدهم بكلمات متضافرة لتشكّل جملة ذات معنى معيّن. الإشارة المُرسَلة من العقل إلى اللسان آمرة إياه: «قُلْ»، هي ذاتها تلك الإشارة المُرسلة من الحامل والألوان إلى قلبي آمرة إياه: «ارسمْ». فعقلي يأنس «الرسم» لا «القول». ولساني لا يجيد فنون التعبير، لكنّ القلب - وحده القلب- يشعر ويُخاطب ويقول. يذهب قاصدًا أماكن نائية فيعود أحيانا ولا يعود أحيانا كثيرة ويبقى في الحالتين مُحَمّلًا بكلمات إذا ما قيلت، ضاعت. وإذا ما نُقشت نقشا استراحت وأجادت القول- القول المنقوش.

أنظر إليهم: الحامل، والطاولة، والأدوات، نظرة المُناجي المحتاج: «سأرسمها».

لطالما زارتني ليالي وأيامًا. لم أدعها. و الله لم أدعها! هي زارتني. ربما أرادت شـيئًا مني. ربما أرادت مخرجًا أو منفذًا تطل منه على العالم.ربما أرادت لصوتها أن يُسمع. ربما أرادت أن تعود من مخبئها الصـغير مجددًا (أو لأول مرة) لتحدّث الناس. لتخبرهم عن نفسـها. عن لياليها المظلمة. عن عتمة غرفتها. عن أحلامها الصـغيرة مثلها. عن دميتها التي لم تشترها حتى الآن. عن «عَسَلِيَّة» ا شتهتها. عن ثوب وردي جديد يحمل معه آمال الأنوثة التي لن تعشيها أبدا.

لا أدري لماذا زارتني أو أي ر سالة من تلك الر سائل أرادت إيصالها لي. لكن الحقيقة الوحيدة تبقى أنها زارتني فعلًا، وأنها أرادت البوح بشـيء ما – أيًّا كان. وسـأرسـمها لهذا السبب تحديدا. سأرسمها حتى تُسمع الجميع أحلامها وأمنياتها الصغيرة. سأرسمها حتى تفتح تلك النافذة على مصراعيها بقوّة وتتكلّم، وتُلقي بالخوف العالق بقلبها إلى الشارع ثم تتطلّع إليه من أعلى فتراه صـغيرًا وتسـخر منه كما سـخر منها كل هذه السـنين. تسـخر من خوفها كما سـخر من طفولتها وبراءتها. كما سـخر من ثوبها الوردي الجديد ومن إصـبع «العسليّة» الحلوة.

(بديعة)...تعالي معي. سآخذك إلى غرفتي. سيحملك حامل لوحاتي الحاني المُحتضن. لا تخافي. هذا الحامل لن يؤذيك أبدا. لَكَم احتضــن موجوعين ومهمّشــين من قبلك فلم يخذلهم. وهذه الطاولة بكل ما عليها من أشياء لم ترِها أبدا في حارتك الضيّقة القديمة تُبطِل مفعول الأيادي الغادرة العابثة في ذاكرتك.

لا تخافي يا بديعة....تعالي معي. أنا مثلك خائفة. أنا مثلك مُتعبة. أنا مثلك أخشــى اللعب في الحارات. أنا مثلك أشتهي الثوب الوردي الجديد وأشتهي إصبع «العسليّة».

تعالي يا بديعة....

أخذتُ بديعة إلى غرفتي. سحَبَتها أفكاري سحبًا. حُبًّا بالله كفى! لبديعة صوت، وهذا الصوت عليه أن يُسمَع.

3 ..بَدِيْعَةُ

كنتُ طفلة في الخامسة أو السادسة من عمري حين رأيتُ بديعة لأول مرّة. أخذني أبي في زيارة لها. بل أن الزيارة لم تكن (لها) حقيقة، إنما قَطَعَتْ بديعة طريقنا صُــدفةً فتوقّفنا عندها أثناء زيارتنا الطويلة. كانت تســكن غرفةً بين الغرف الكثيرة في هذا القصــر الكبير الذي شــعرت بهيبة جمّة وأنا أمسُــك بيد والدي وندخل ســويًا بوّابته العتيقة الضــخمة بين مجموعة من الحرّاس. نمر في طريق طويل، ثم نصعد سلّمًا بعد سلّم. ولم أعرف إلا فيما بعد أن هذا القصر لم يكن «قصرًا» تمامًا. إنما كان «القلعة»: قلعة صلاح الدين.

دخلنا غرفًا كثيرة. لا أذكر منها ســوى بعض المشــاهد القليلة. أوّلها مشــاهد مشــوّشــة مبعثرة لأســلحة مُعلّقة على الحوائط. وقد لا يكون لها أي وجود حقيقي، إنما هكذا تُبدي لي ذاكرتي لسبب من الأسباب. ثانيها، غرفة (محمد علي باشا) حيث انفرد ببعض المماليك وقتلهم، ولم يفر من المجزرة سوى مملوك واحد أخذ حصانه وقفز من النافذة. سألت بابا: «مات؟». قال: «مات». ثم أخذت أتخيّل المشهد. «تُرى، ماذا حدث يومها بالضبط؟».

وترسّـــخ في ذهني منذ ذلك اليوم أنّ هذا الوالي (محمد علي) «رجلٌ شـــرّيرٌ، لأنه «قتل رجالًا أَكَلَ معهم وشَـــرِبَ، وتحايل عليهم وغشّـــهم، وجعل هذا الرجل المســـكين يقفز بحصـــانه فيموت ميتة فظيعة. هو والحصـــان. لكن هيبة المكان ومنظر الزوّار المتجمهرين حول مجلس «الرجل الشرّير» أثار فضولي: «لماذا يبجّلون رجلًا شرّيرًا قاتلًا يا بابا؟»».

لم ينافس غرفة «الرجل الشرّير» في نفسي سوى ثالث المشاهد التي رسخت في ذهني من تلك الزيارة: حائط تعلوه صور رجال ونسوة كُثر.

- مَنْ هؤلاء يا بابا؟

- إنهم عصابة كبيرة عاشت في زمن بعيد في الإسكندرية، كانت تقتل النساء ثم تدفن جثثهن تحت بلاط منازلهم. هذه (ريا). وتلك (ســكينة) أختها. و(محمد عبد العال) زوج سكينة. و(حسب الله سعيد مرعي) زوج ريا.

- ومن هذا؟

- هذا الضابط الذي ألقى القبض عليهم.

- ومن هؤلاء؟

- هؤلاء بعض النساء التي قتلتها العصابة.

ثم انحنى وحملني على ذراعه لأتمكّن من النظر إلى الصور عن قُرب، وأشار بسبّبابته إلى صورة معيّنة بين الصور وقال:

- وهذه (بديعة)...ابنة ريا.

عُدتُ إلى البيت عصر ذلك اليوم لا أفكّر إلا في «الرجل الشرير» والآخر الذي قفز بحصانه ومات، والعصابة «الشريرة» التي قتلت النساء وعاشت فوق جثثهن. استوقفتني فكرة «الشر» كثيرًا. يمكن تقسيم طفولتي إلى قسمين محوريّين: ما قبل القلعة، وما بعد القلعة. إذ كنت أتصوّر – قبل أن يصحبني أبي إلى القلعة – أنّ منتهى الشرّ هو أن يضرب القط (توم) الفأرَ الصغير (جيري) على رأسه لأنه سرق قطعةً من جبنه. أو أن يسرق (جعفر) مصباح (علاء الدين) أو بساطه السحري ليفوز بحب أميرة ديزني الشهيرة (يا سمينة). أما أن تُفاجئني الحياة، في قلعة من قلاعها، بأن فيها أناسًا حقيقيين بيننا يستطيعون أن يخونوا ويقتلوا بعضهم بعضًا بأساليب دامية مُرعبة كالسم، أو السلاح، أو الخنق...فتلك فكرة لم أكن أتصوّر إمكانية حدوثها من قبل. هذا نوع من الشرّ «الشرّير»...«الشرّير جدا». أكثر من توم وأكثر من جعفر. وأكثر من كل الشخصيات الكارتونية التي كنت أشاهدها في أفلام ديزني وغيرها.

ظللت لمدّة طويلة أصـــحو في الفجرمن كل ليلة أرتعد من شـــدّة الخوف. لا أرى في الظلام ســـوى صـــورتي ريا وســـكينة. أراهما بوضـــوح كبير كأن أبي لا زال يحملني أمام صورتهما في القلعة. أرى عينيهما «الشرّيرتين» الراسختين أعلى وجه بيضاوي طويل هو وجه ريا، وآخر دائري ممتلئ هو وجه سكينة. يصوّر لي خيالي أنهما تختبئتان تحت سريري تتربّصان لقتلي خنقًا. فأقفز مُرتعبة من أعلاه وأركض إلى غرفة والداي فأنام وسطهما حتى الصباح وأنا أتصبّب عرقًا وأسمع دقّات قلبي العالية.

لم أحكِ لأحد من والديّ أبدًا عن هذا الخوف الذي كان يتجدّد كل ليلة ويدفعني إلى النهوض من ســريري إلى ســريرهما. ولم أخبر بابا يومًا بما أحدثته زيارة القلعة في نفســي من رُعب لم أعهده من قبل. احتفظت بسرّ (ريا وسكينة) بداخلي لسنوات طوال. وما أكاد أظنّ أني قد نسيت أمرهما، حتى تعود الذاكرة فترُمّم عظام الصور وتُحييها من جديد لتُكرّر تتابع زياراتها لي ليلةً بعد ليلة...وأنا في سن الثامنة. والعاشرة. والثالثة عشر. والخامسة عشر. والتاسعة عشر...إلخ.وفي كل مرّة أتخيّل الامرأتين تتربّصان بي تحت السرير أو في أحد أركان الغرفة؛ لا أراهمابعينَيْ ليال الأكبر سنًا (الآن)، إنما بعيني ليال الصغيرة التي تقف في القلعة مُمسكةً بيد أبيها.

أما بديعة...فتلك قصّة أخرى.

إنّ بديعة ظلّت مُهمّشة في ذاكرتي تهميشها على حائط القلعة بين الصور. بل وتهميشها في حديث أيّهم إن حدث أن أشار إلى قصّة ريا و سكينة من قريب أو من بعيد، وتهميشها حتى في الأعمال الدرامية التي تناولت القصّة فزادت صورة الامرأتين السفّاحتين إجرامًا، وزادت الطفلة الصغيرة التي شهدت كل جرائمهما تهميشًا.

لم تتحوّل بديعة من هامش ذاكرتي إلى متنها، إلا منذ فترة قريبة.لا أتحدّث عن سنة ماضية، أو شهر ماضي. بل أتحدّث عن هذا الأسبوع السابق تحديدًا حين وقعت يدي على كتاب بين كتب مكتبة منزلنا الكثيرة الخاصة بوالدي: «رجال ريا وسكينة» ل(صلاح عيسى). أمسكت به ولما أمسكت به، لم تكن الأنامل القابضة على الكتاب أنامل ليال ابنة الخامسة والعشرين، إنما ليال الطفلة ابنة الخمسة أعوام. أخذته إلى غرفتي كطفلة وجدت لُعبة جديدة أعجبتها وانبهرت بها فأرادت أن تصحبها خلسةً، بسرعة، إلى مخبئ هادئ وحدها بعيدًا عن أعين الأطفال، لتقلّبها بين يديها وتتفرّسها وتتواصل معها على طريقتها.

استلقيت على السرير وفتحت الكتاب و بدأت في القراءة فورًا آملةً أن أجد أجوبة مستوفية عن الأسئلة التي راودتني منذ زمن طويل عن هذه العصابة «الشرّيرة الفظيعة»

إنّ في الكتاب تحليلًا وافيًا للحالة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية التي عاشت في ظلّها أفراد العصابة، فجعلت من صورة الامرأتين المتربّصتين تحت سريري، صورة أشمل لها أبعاد وزوايا وعُمق ممتد. كما عرّفني الكتاب على ضلعين إضافيّين للعصابة لم ينالا حظّهما من ذات (السيط) الذي حظى به كلٌّ من ريا وسكينة وزوجيهماوفتوّتى الإسكندرية (عرابي حسّان) و(عبد الرازق يوسف). وبشكل أخصّ، شرع أمامي بابًا جديدًا للقصّة...بديعة.

ووجدتني وأنا أُنهي آخر صفحات الكتاب قبل أن أعيده إلى أرفف المكتبة أقول: «إن كان الخوف شخصًا لكان بديعة».

لأوّل مرّة لا تكون الطفلة بديعة ضلعًا هامشيًا يمر اسمها – هكذا – عبثًا، دون أدنى اكتراث. بل إنها بما تناوله الكتاب عنها أصبحت شخصًا مهمًّا له كيان و شخصيّة وأحلام (وإن كانت صغيرة) وأعين (ترى بها كل ما وقع في بيوت البغاء). وتظهر محورية وجودها الحقيقي حين تقلب أقوالها أثناء التحقيق بعد القبض على العصابة، كلَّ موازين القضية لتُزيح الستار عن أدق التفاصيل الخاصة بصلات العصابة بالضحايا، والإسلوب الذي اتّبعوه في قتلهن ودفنهن. فتدفع بأهلها واحدًا تلو الآخر إلى حبل المشنقة.

لا يمكن وصف ما أحدثته تفاصيل حياة وأقوال بديعة في نفسي من تأثّر كبير. كنت وأنا أقلّب بين صفحات الكتاب، أرى وجهها يظهر ويكلّمني. ماذا يقول؟ لا أعلم. لكنها كانت تنظر إليّ وتحدّق. وتأتيني قبل النوم وأثنائه. أراها وحدها. أراها تقف في شارع طويل مُظلم ضيّق تصرخ وتستنجد. ولا يردّ ندائها أحدٌ. أراها تتبوّل على نفسها. وتركض بعيدًا. وأتساءل: «كيف تمكّنتُ وتمكّن التاريخُ من تخليد اسمَي ريا وسكينة إلى هذا الحد متناسين ما عسى أن يكون قد لحق بملاك صغير كان قريبًا كل القرب من السفّاحتين هاتين؟! كيف يمجّد التاريخ – بشكل من الأشكال – «أشرارًا» يجعل لهم (غُرفًا) في القلعة، وصورًا ذات أحجام كبيرة على حائط من حوائطه،أو يجعلهم أبطال فيلم من أفلامه، بينما يتجاهل تمامًا كل مَنْ ألقت بهم الأقدار على أرصفة الذاكرة تائهين حائرين لا حول لهم ولا قوّة؟!».

لا أدري ما العلاقة بين رسالة أمي وبين استدعائي لصورة بديعة وهذا الإلحاح العجيب لر سمها؟! ما العلاقة بيني وبين بديعة؟! أنا لست ابنة لعصابة تقتل النساء (أو غير النساء) ثم تسرق حليّهن وملابسهن وتخفي جثثهن كأن جُرمًا لم يكن. لم أعش في الحارات ولم أنم لليال متتالية يلاحقني الجوع والظمأ. لم أعش في غرفة ضـيّقة تفوح منها الروائح الكريهة وتزورها كل أنواع الحشرات والفئران ليلًا أو نهارًا، أو ليلًا ونهارًا. أبي وأمي لم يضرباني أو يعنّفاني أبدا ولم يهدّداني بالقتل والدفن «تحت الصندرة مع النسوان اللي بنقتلوهم».

لسـت بديعة.أنا لا أُشـبهها في أي شـيء. بل أنني لا أشـبهها في كل شـيء. إلا شيئًا...الخوف المُركّب المُستتر.

4 ..نَّافِذَةٌ بَيْضَاءٌ

أتلعثمُ كلما سألني سائلٌ مهتمّ بالر سم: «كيف يكون الر سم؟ كيف تبدأ اللوحة، كيف تمضي، وكيف تَتِم؟». أتلعثم لا لأن سؤاله حطّ عليّ بغتةً دون أن أ شعر فطارت الإجابات من وقع المفاجأة على نفسي، لكن لأنّ عمليّة الرسم نفسها – وهي الإجابة هنا –تبدو لي في الحقيقة لغزًا كبيرا، ومشاعر مُعقّدة وغريبة يستعصي عليّ فهمها قبل شرحها. و كلما مرّت السنين، وكلما زاد معها عدد اللوحات التي أُتمّها، يزداد اللغزُ تعقيدا. تبدو لي عملية الرسم أقرب إلى نقوش فرعونية يأتيها الخبراء وعلماء اللغة والآثار من كل بقاع الأرض لفكّ رموزها وقراءتها.

تشـير معظم قواعد ونظريات الرسـم الأكاديمية إلى أن مراحل الرسـم تبدأ بمفهوم ما يسمى بال«كتلة والفراغ». أي أن الر سام يبدأ لوحته بو ضع الخطوط الخارجية الأ سا سية (outline) المُحدِدة لعناصـره في تكوين فنّي آخذا بعين الاعتبار المسـا حات الفار غة المحيطة بكتلة العناصـر تلك لتجعل من العمل ككل، في النهاية، مشـهدًا متكاملا متوازنا مريحا للعين. بالضبط كالمهندس المعماري الذي يحدّد طول

وعرض وعُمق وامتداد أي مبنى وعلاقته بالأرا ضي والمساحات من حوله على ر سمه البياني التخطيطي كخطوة أولى قبل البدء في رســم تفاصــيل مشــروعه الهندســي. عملية الغرض منها أقرب إلى وظيفة البوصلة: من هنا الاتجاه فَسِرْ مِنْ هنا.

نعم تحديد اتجاه البوصــلة مهم. وتحديد وجود العناصــر في المســاحة المحيطة بها مهم.لكن هل ينطلق قطار الرســم من هذه المحطة فعلا؟ ماذا عما قبل المحطة؟ ماذا عن الطريق الذي يوصــل إلى المحطة؟! أقصــد، عندما يجلس الرسّــام (أو يقف) ويقرّر رســمَ شخص، أو منظر طبيعي، أو طبيعة صامتة، وقبل حتى أن يُمسك بقلمه أو بفرشاته ويبدأ في تحديد اتجاه البوصلة تلك، هل يكون قلبه وعقله فارغَين؟في حالة سكون تام؟ وهل يمكن أن تخلو العقول والقلوب من أي محتوى كان وتســكن تماما إلا حين يوافيها الموت؟ فالإنسان،طالما أن له قلبًا ينبض، يظل أ سير شبكة من الأفكار والمشاعر اللامتناهية. لا يمكن أن يكون «صــفرًا». هو بالتأكيد «رقمٌ». و لا أعني بالرقم هنا المعنى الحرفي، إنما أعنيه كحالة مقابلة لحالة «الصفر» (اللاشيء). فهو بالتأكيد يشعر (بشيء) ويفكّر (بشيء). هو إما سعيد، أو حزين، أو قلق، أو خائف، أو جائع، أو مهموم، أو مستكين. إما يسترجع أمرًا كان بالماضــي، أو منشــغلٌ بأمر يصــير في الحاضــر، أو متطلّع إلى أمر قد يكون في المستقبل. والرسام لا يمتلك صفات بيلوجية وكيميائية مختلفة عن سائر البشر. فهو أيضا إما حزين، أو سعيد. والماضي والحاضر والمستقبل يشغلونه كعقارب الساعة.... بلا توقّف.

حالة «الرقم»، حالة (الشيء)، شبكة الأفكار والمشاعر التي تسكن الروح هي الطريق الذي يو صل إلى أعتاب المحطة؛ هي الخطوة التي تستبق صفارة الانطلاق في الرحلة. هي التي تحدّد الوقت الذي سيأخذه المسافر للوصول إلى المحطة، وحالته عندما يصل، و اختياره للباب الذي سيقصد للصعود إلى داخل القطار، والمقعد الذي سيجلس عليه، والعمل الذي سيختار القيام به أثناء رحلته لتم ضية الوقت. هل جاء مُتعبًا حزينا، فر ضت عليه ظروف المعيشة القاسية أن يترك أحبابه ويرحل؟ أم جاء مهرولًا مشتاقا فرحا، على مشارف رؤية حبيبته؟ هل سيجلس على آخر مقعد في آخر القطار ليتفادى الحديث مع بقية الركّاب؟ أم سيختار أول مقعد يراه ليكون أول النازلين فيرى حبيبته بسرعة؟ هل سيمضي وقت رحلته شاردًا في النافذة يفكّر في مَنْ تَرَكَهم، يناجي المارة خارج القطار يود لو أن أحدهم يختطفه ويخلّصه من هذا الكابوس المزعج؟ أم يستأنس بالركّاب من حوله، يشغل وقته في الحديث معهم ليمرّر الوقت بسرعة من فرط سعادته؟

إنّ الدوافع و شبكة المشاعر والأفكار المُهيمنة على الرسام قبل شروعه في الرسم، هي خطوة في حد ذاتها وإن لم تكن خطوة ملموسة. هي الخطوة التي تُحدّد-بنفس منطق القطار-بالتة الألوان التي سيختارها الرسام: هل ستكون بالتة حزينة مُتعبة كذاك الذي ترك أحبابه ورحل؟ أم بالتة مُبهِجة كبهجة مَنْ على وشك أن يجمعه القدر بمحبوبته؟؛ وشكل وسلاسة الخطوط في اللوحة: خطوط سريعة تحاول بسرعتها قهر الوقت لتصل إلى مُبتغاها فورا؟

أم خطوط بطيئة ومحسوبة تنقل حالة من التأمل أو الهدوء أو الحزن؟؛ و العنا صر التي سيبرزها و العناصر التي لن يعيرها ذات القدر من الاهتمام: هل سيبرز المارة خارج القطار لأن «الخارج» هو الأمل والخلاص المرجو؟ أم الركّاب هم العنصــر الأهم لأنهم وجوه الفرح ورفقاء الرحلة الطيّبة التي تَعِد بالأمل في نهايتها حيث «الخارج» لا يهم كثيرا؟؛ والإحســاس العام الذي ســيخيّم على اللوحة في النهاية بناءً على طبيعة الحوار القائم بين الرســام وبين ما يرســم: حوار مناجاة؟ أم حوار مواســاة؟ أم حوار تعرّف و تقرّب؟ أم هي حالة أقرب إلى حالة تأمّل وتفكّر في المعطيات والأسباب والماهيّات والأعماق؟

فالحقُّ كل الحقّ لي أن أتلعثم عند الإجابة عن الـسؤال. فكيف لعاقل أن يرد على سؤال مركّب من هذا الكَمْ من الأسئلة؟! عند سؤالي، أُشفق على نفسي. وأُشفق على السائل الذي لن ينال مُبتغاه.والأفضل ألّا أطيل هنا...

بنا إلى بديعة المُنتَظِرَة في غرفتي لعلّي حين أجالـسها وأقْبل على ر سم وجهها الـ صبوح، ينطلقُ لساني وتنفَكّ الرموز وينحلّ اللغز.

***

لم تحظَ بديعة بما حظيت به أمُّها وخالتها وبقية أهلها من اهتمام وشــهرة، لا في عالم الجرائم والصـحافة الصـفراء، ولا في عالم الطفولة وحقوق الإنسـان. حتى أن صـورتها مع أمها المعروضـة في القلعة لا تعادل بأي شـكل من الأشـكال حجم صـورتَي ريا وسـكينة وموقعهما المركزي في وسـط الحائط، يليهما حسـب الله وعبد العال. أما صـورة ريا مع ابنتها بديعة فلم تكن إلا صـورة ثانوية هامشـية. كأنها وُضـعت صـدفةً على إحدى الزوايا النائية كنوع من (الحَشْو) للمساحات الخالية. لم يتسنَّ لي النظر إلى وجه بديعة عن قُرب إلا في الأ سبوع الما ضي وأنا أقلّب في صفحات كتاب صلاح عيسى. يعرض عيسى في كتابه، إلى جانب سرد الأحداث التي وقعت،والتحليل النفسي والاجتماعي والسيا سي، صورًا مصاحبة لأفراد العصابة كلها، وصورًاالكثير من الضحايا، و صورًا لقسم شرطة اللَّبَّان الذي جرت فيه التحقيقات، وصورًا نادرة لبيوت ريا وسكينة التي سكنوها بين العامين 1919 و 1921، وصورة بديعة.

أُحِبُ التاريخ. بل أحب فكرة التاريخ. أحداث مرّت. كانت حقيقة. كانت واقعًا. كانت «حاليّا». كانت «الآن» لزمن ما. ثم توقف الزمان، وثُبِّتت أنا سه وأ شجاره وطُرُقه وحواريه وسـماه وحمامه في مشـهد واحد ثابت لا يتحرّك. سَـكَنَ المشـهد. في الذاكرة، أو في فيلم وثائقيّ، أو في صـفحة كتاب. وسَـكَنَتْ بديعة. نظرتُ إلى وجهها: صـورة مشـوّهة قديمة تغيب عنها التفاصـيل. يغلب عليها الأبيض والأسـود والرمادي بدرجاته، فبديعة وُلدت و(ثُبِّتت) في زمن لا يعرف الألوان (أو ربما لا يعترف بها).

لكن هذا كله لا يهم. فأنتِ الآن معي. سأعطيك حصّتك من الألوان التي انتُزِعت منك جورًا. سيداعب الأحمرُ وجنتيك. وسيسبح جلبابك في أزرق دافئ تداعبكِ أمواجُه ثم يُرسيك على رمل شاطئه الأصفر الذهبيّ. و شيء من هذا الأصفر سيسافر إلى جبينك. وعندها، ستعرفين الأصفرَ تماما كما عرفتِ الأحمر والأزرق. أَعِدُكِ بذلك. فالألوان لكِ. كلّها لكِ يابديعة.

أقتربُ من الحامل المنصوب. أضع كانفس أبيض جديدا عليه برفق ثم أزحزحه يمينًا و يسارا حتى أرتاح إلى استقامته. أُخرج ألواني الزيتية من الصندوق البرتقالي. أُفرغ من كل لون قدرًا بحجم حبّة لوز على البالتة الخشبية البيضاوية التي لا تزال تحتفظ ببعض من بقايا ألوان (العجوز). أضعها على الطاولة إلى يميني ثم أجلس على الأرض أمام الكانفس الأبيض المستقيم. أُجلِس بديعة...في خيالي. ثم في صورتها على لوحي الإلكتروني. أبتسم لها. أحيّيها. أذكّرها بالأحمر والأزرق والأصفر الذي وعدتها بهم. أنظر إلى البالتة المكتظّة بالألوان فأبتسم وأعدها بأكثر.

تبدأ اللوحة من هنا. يبدأ الرسم من قبل أن يبدأ الرسم. تبدأ من قبل أن أُقبل على كوب ال«peonies» وأختار فرشاة لأبدأ بها. يبدأ الرسم برجفة. بنبضات قلب صبيانية متسارعة. لا يبدأ الرسم بفرشاتي ولا بألواني، إنما يبدأ ببديعة. يبدأ بابتسامتها الخجولة وبعينيها المتطلّعتين إلى العالم الكبير بلهفة.

يبدأ بما تريد بديعة أن تخبرني به الآن، وبوَقْعِ أخبارها تلك على نفسي. وفي وقع الأخبار على نفسي يكمن اللغز. لا أدري إن كانت الأصوات التي أسمعها هي تمتمات بديعة حقا تهطلُ عليّ من الجنان العُلا، أم هي شيء آخر بداخلي أنا يتكلّم متنكّرًا في زيّ وصوت وصورة بديعة. حقًّا لا أدري. لكن نفسي تدري يقينًا كيف مزّقتها نظرات بديعة وابتسامتها. ونفسي تسأل: «ترى، هل أنت بخير الآن يا بديعة؟».

يبدأ الرسم بإلحاح العنصر المرسوم على إيجاد منبر يخرج منه إلى العالم. يرى الرسام هذا الإلحاح. يفهمه ويتفاعل ويتعاطف معه. ثم يبدأ بجعل لوحته نافذةً يقف خلفها العنصر أمام العالم، ويحكي.

يا بديعة، تلك النافذة البيضاء المستقيمة في وسط غرفتي الصغيرة، لكِ. سيراكِ العالم منها. أنت حقيقة. أنت مرئية. يراكِ من يراك. يسمعكِ من يسمعك. كيف لهذا الصوت الرشيق أن يضيع في الأجواء المزدحمة ويختفي؟ كيف للفراشات أن يُخرِسها ضجيجُ المدن؟

5..ضَجِيْجُ المُدُنِ

«سيبتعد عنكِ كل من يحبك».

أسترجع ما جاء في رسالة أمي. يا له من أمر مُضحِك! ظننت أن بإخفائي للرسالة وإبعادها عنّي في صندوق مختبئ، سأنساها. وكأن العقل يُقِرّ فقط ما يراه أمامه ويستبعد من خارطته كل ما هو ماديًّا بعيد. وكأن الإنسان لا يمتلك ذاكرة تكون أحيانا أقوى وأشرس من كل واقع وكل «حالي» وكل مادّي ملموس. بل أن أكثر ما أثار غضبي من رسالة ماما هو كيف أخذتني الكلمات من يديّ بهدوء بادٍ إلى كل ما «كان». إلى الذاكرة.

وُلدتُ في مارس من العام 1990 في القاهرة. أبي «خالد» يعمل جرّاحًا للقلب في إحدى المستشفيات الخاصة الكبرى في العاصمة. وأمي هالة ربّة منزل تخرّجت في كلية العلوم وتزوّجت من أبي في عمرها العشرين ثم آثرت البقاء في المنزل دون عمل لتؤسّس عائلتها التي كانت تحلم بها.

أمي قصيرة القامة، نحيفة جدا. أخذتُ عنها قلّة الجسم وقصره. شعرها أسود قصير، دائمًا ما تقوم بربطه في شكل «ذيل حصان» تتساقط منه خصلات عشوائية متناثرة توحي بشيء من الضجر واللامبالاة.

لعينيها وَقعٌ خاص عليّ منذ أن كنت طفلة. إنهما عينان عسـليّتان تبدوان أحيانًا، مع اختلاف الأوقات، كأنهما زجاجتين شفّافتين تلتمعان التماعًا عجيبًا! إلا أن تلك الشفافيّة الحلوة، وهذا اللون العسليّ المُشبّع بكثير من أصفر وأخضر معا، لم يكن لهما يد في هذا الأثر الكبير الذي أحدثته عيناها في نفسي. إنما، التعبير الذي هيمن عليهما باستمرار.

كنت دومًا أتحاشى النظر إلى عيني ماما لما يُلقيه الفعل من رُعب حقيقي في قلبي. إنّ لها نظرة ثاقبة، غضوبة، ما أن ينظر إليها المرء حتى يتمنّى لو تنشقّ الأرضُ من تحته وتبتلعه. يحيط بالعسلي الجميل، حُمرةٌ تلوّن المساحة البيضاء في كلتا العينين. غالبًا ما يكون سبب هذا اللون الأحمر الغالب، هو البكاء. فماما كانت دائمةَ التنقّل بين حالتين أساسيّتين: الغضب والحزن؛ تتنقّل بينهما بسرعة. لا أتذكّر إن كانت تمُرّ عليها أوقات ابتهاج، تضحك فيها وتسترخي. حتى ابتسامتها كانت من النوع الفاتر الذابل، كورقات الزهر في أواخر أيامها. لا يحتاج الإنسان لأكثر من نظرة أولى ليوقن أنها ابتسامة لا تريد أن تكون.

إن دُعيت للخروج، أبت. وإن اضطرّت له، تناولت في ظلام الغرفة أوّل ما تقع عليه يداها بين ملابسها دون أدنى اعتناء بالأمر. تنهض من سريرها بصعوبة. تنام معظم الأوقات. لا تترك غرفتها إلا لزيارة الحمّام. حتى أنّ فعل الخطو نحو بابه بدا غالبًا مهمّة شاقّة جدا تُقبل عليها بقوّة الدفع. أما المطبخ،

فلم تكن تزره أبدًا تقريبًا اللهم إلا لتشـرب أو لتُحضـر لنفسـها سـيجارة تشـربها وهي مستلقية على السرير في عتمة الغرفة. لا تطهو. بل ولا تأكل حتى. كل أشكال التصالح من الحياة والإقبال عليها غابت عنها. فغابت عن البيت.

ولخالد كما لهالة، قصّةٌ يطول شرحها.

أبي طويل، متوسّـط العرض. شـعره بنّي كثيف خصـلاته ملفوفة. وجهه في المُجمل، وجه بيضاوي صغير. له لحية وشارب خفيفان نادرًا ما يقوم بحلاقتهما تمامًا. فهو يستعين بهما على إضـفاء هيبة لنفسـه يوازن بها ملامحه الصـغيرة (في السـن لا الحجم)، أو كما يسمّونها: «baby face». عيناه واسعتان مشرقتان مليئتان بالحيوية والنشاط. أنفه مدبّب قصير، وشفتاه ممتلئتان ورطبتان كشفاه الأطفال.

على عكس ماما، فإنه قليل النوم، وقليل المكوث في غرفة نومهما. بل وقليل المكوث في البيت كله. وهو دائم الحركة، سريع الكلام، ذهنه دائم الحضور، وله إسلوب خاص في قَصّ الحكايات حتى ليَحْسَـب المُسـتمع من شـدّة حماسـه وطريقة عرضـه للأحداث، أنه مُمثّل يقف على خشبة مسرح محاط بالكاميرات. لا شك أن له سحر و«كاريزما» خاصة.

وله هوايات متعدّدة كذلك، ما بين سباحة وتصوير الفيديو. كما أن له حِسًّا فنّيًا وتجارب في الرسم على قلّتها تُشير إلى موهبة رسم كامنة إن هو أعارها بعضًا من اهتمام وعكف عليها ليُنمّيها. لكن طبيعة عمله كجرّاح، شغلته عن ممارسة تلك الهوايات إلا في أحيان بعيدة متفرّقة. وكلما أعادته الأقدار إلى باب واحدة منهم، نجده يقول: «لم أعد جيّدًا كما كنت».

لكن ثمّت هوايتان لم تستطع العمليّات الجراحية مُجتمعة أن تُبعده عنهما: القراءة، والبيانو. مارس بابا البيانو منذ أن كان في السابعة من عمره. اشترى له جدّي (مصطفى) بيانو كبير من الخشب البنّي اصفرّت مفاتيحه مع مرور الوقت. ولما تزوّج أبي من أمي، صحب البيانو معه إلى منزلنا. ثم اختارت ماما غرفة المعيشة مكانًا له، فبقي فيه حتى يومنا هذا.

على الرغم من الاختلاف الكبير بين طباع أمي وطباع أبي إلا أنهما يتشابهان في أمرين مهمّين: الغضب و(حب) الشجار. فبابا غضوب تمامًا كأمي. وهو عنيف، سليط اللسان، كالنار...يشتعل بسرعة ويصعب السيطرة عليه. وهو ثرثار ومجادل. كثيرًا ما يبدأ نقاشًا حول أمر ما ثم لا أدري كيف ولا متى يتحوّل النقاش إلى شجار عنيف يأكل الأخضر واليابس.

وأنا الأخضر واليابس. تشتعل في صدري نيران شجارهما. أحترق لما أراه وأسمعه. أركض خلف الأبواب وأنظر إليهما من ورائها. خائفة. تتجمّد الدموع في عينيّ. بالكاد يلامس رأسي مقبض الباب. أشبّ على أطراف أصابعي وأُنزله بصعوبة لأدخل إلى غرفتي وأبتعد قدر الإمكان عن النيران المشتعلة في الخارج. لكن النيران كانت دائمًا تصلني. فآخذ نصيبي منها «بالتمام والكمال».

أكثر ما أذكره من طفولتي هو تلك اللحظات التي قضيتها خلف الأبواب أتسمّع وأراقب شجارًا وقع بين والديّ،وهذا الشعور القاتل بأني غير مرئية. غير موجودة. إن مررتُ صدفةً بينهم ذات مرّة، لم يلتفتا إليّ. مَثَلي مَثَلُ البساط الذي تطأه أرجلهم. أو التبغ الرمادي الذي يتخلّف عن سجائر ماما ويملأ هواء الغرفة.

تعلو نبرات الصوت وتحتدّ شيئًا فشيئا. أراهما يقفان كأن كلًّا منهما يستعد للانقضاض على الآخر ويطرحه أرضًا لينزل عليه ضربًا. أسمع ماما تنفجر في بكاء هو أقرب إلى العويل. أسمع بابا يفتح باب المنزل ويصكّه ويخرج. أسمع ماما تصرخ: «آه! آه! آه! سأموت». يهدأ صوتها تدريجيًا حتى يختفي. « ما تت ما ما؟». أركض مفزوعة حيث تجلس. أنظر من بعيد. لم تمت.أراها تدفن رأسها في جسم وسادتها وتبكي بكاءً مكتومًا. أراها تُمسك بهاتف المنزل

وتنهال به ضربًا على رأسها فيُسفر عن إصابة سيظل أثرها محفورًا أعلى جبينها.أراها تنبطح بجسـدها على خزانة ملابسـها وتضـرب بكفيّها ورأسـها على ألواحه المسـتطيلة العالية من الغضب. ثم توجعها يداها فتنظر إليهما وتقرفص على أرض الغرفة وتبكي.

مشـاهد تتكرّر كل بضـعة أيام إن لم يكن كل يوم. وأحيانًا أكثر من مرّة في اليوم الواحد. يصعب على المرء التنبّؤ بوقوعها، أو فهم الأسباب المؤدية لها. وكوني طفلة صغيرة لم تتعدّ الست أو السبع سنوات، كان ليصعب عليّ أكثر أن أفهم أو أتنبّأ.

لكني كنت متعطّشة للفهم. في رأسي أسئلة تحيّرني: ما معنى هذا كله؟ متى ينتهي؟ متى تدخل عليّ ماما وتحتضنني وتُفهمني أن كل شيء سيكون على ما يرام؟ وأنها تحبّني؟ أم أنّ شـيئًا لن يكون على ما يرام؟ أم أنها لا تحبّني؟ متى يأتيني بابا وينظر إليّ نظرةً أبويّة حنونة ويُخبرني أنّ الأمر بسيط؟ أم أنّ الأمر ليس ببسيط؟

أذكر نظرتي للعالم حولي كونه بيت كبير لكلّ غرفةٌ يسكن ويريح ظهره المتعب فيها ليلًا، إلا أنا. ليس لي غرفة في هذا المشـهد الواسـع. أذكر دهشـتي كطفلة كلما حدّثني غريب: «عجيب! أيكلّمني؟ أيراني؟».

صار الوقت عنصرًا ثابتا بالنسبة لي، لا تغيّره شمس ولا يحركه قمر ولا يزحزحه عن مكانه فتيلًا فجرٌ يذهب ويعود. أنا، ليال، ابنة الثمان سنوات، أسيرة غرفتي الصغيرة (نعم، هي ذاتها الغرفة التي أُجلس فيها بديعة الآن). أركض إليها كلما أخافني شجار. أجلس فيها؛ في أبعد الأركان من الباب،أي أسفل النافذة. تُطل جارتنا أحيانًا. لا تراني ولا أراها فهم يسكنون طابقًا أعلى منّا. لكني أسمعهم بوضوح. أسمعهم يضحكون ويغنّون ويناقشون أمرًا ما. أسمع الأم تنادي إحدى بناتها فتدنو البنت. يحملها جدّها ويداعبها. أستأنس بهم. أحاول أن أجعل من صوتهم خلفيّةً للوقت الذي أمضيه، عوضًا عن الأجيج الخارجي.

وعلى خلفيّة أصواتهم الدافئة، أرسم (كل صورةٍ تلحّ عليّ)، أو أكتب (أي فكرةٍ أو شعور يخطر ببالي)، أو أتطلّع من النافذة إلى احتمالات الواقع الأجمل والأهدأ. أبقى على حالتي حتى يبتعد صوت النزاع شيئًا فشيئا. أو لا يبتعد. لا يهم. فأنا آمنة مطمئنة طالما أني هنا، وحدي، في هذه الغرفة.

كرهت كل ما هو دون غرفتي في البيت حتى جعلت منه عالمًا خاصا. عالم لي وحدي. أذهب إلى المدرسة.أعود. أجد البيت مظلمًا. مظلمًا فعلًا لا مجازا. تطهو ماما أو لا تطهو وعادة ما لا تطهو. أسمعها تبكي بحرقة. ثم تهدأ.

ثم تعود لتبكي. ثم تأتيها مكالمة تليفونية. تجيب أو لا تجيب وعادة ما لا تجيب. تكره الأنوار. أو للدقّة، لا يزعجها الظلام. ولا تشتاق لنور الشمس في الصبح، فتترك النوافذ مغلقة. لا يأتينا النور. لا يحبّنا. بيتنا مظلم فعلًا لا مجازا.

وفي ظلام البيت يعود أبي الذي لا يُزعجه الظلام أيضًا. يُلقي التحيّة على ماما أو لا يُلقي. وعادة ما لا يُلقي. يُلقي عليّ التحيّة أو لا يُلقي. وعادة ما لا يُلقي.ينسحب بسرعة إلى غرفة المعيشة التي يتّخذها – تقريبًا – غرفة نوم له. ينام فيها. ويُلقي بثيابه على كراسيها أو حول أريكتها. ويقصدها فور وصوله من عمله، ويجلس إلى البيانو نابذًا وحدتي وصراخ ماما، ويبدأ في عزف مقطوعة ما ل(موزارت).

أتستنجد بموزارت يا بابا؟

لا بأس. فأنا أيضا أستنجد بغرفتي.

أسلفت أنّ هذا العالم كان بيتًا كبيرا لكلّ غرفة فيه إلا أنا. والآن أقول أستنجد بغرفتي. ثمّ تناقض؟

لا، ليس في هذا تناقض. فالغرفة الأولى- غرفة الكون- هي الشعور بالأُلفة. الانتماء. الأمان. الانسجام مع المحيط. أما الثانية، فهي الملجأ. المخرج. المهرب من كل ما هو جارح أو مؤلم أو غير مفهوم لطفلة بالكاد تفهم معنى الحياة.

لم أجد الأُلفة فأخذت أبحث عن الملجأ. لم أنتَمِ فهربت. وليس في هذا تناقض.

كنت آمنةً في غرفتي الصــغيرة، نعم. أراحني أن أحدهم لم يطرق بابي أبدا، نعم.أخذت لسنوات طويلة بين أركان هذه الغرفة أرسم، وأرسم، وأرسم. كان الرسم نافذتي الوحيدة إلى العالم الخارجي. منبري الأوحد لأبرهن به على قدرتي على فعل شيء، أي شيء،

عدا (هذا الشــيء) الذي لا أســتطيع التنبّؤ به أو الســيطرة عليه. قدرتي على التعبير، على نقش الكلام، على إيقاد نورعوضًــا عن نوافذ البيت المغلقة فعلًا لا مجازًا. قدرتي على الطيران والسفر إلى ربوع بعد ربوع كل يوم. قدرة ليال الصغيرة على العودة ليلًا بعد التيه في الأجواء المزدحمة. وعلى خلق صوت جميل قاهر لضجيج المدن.

6..قَصْرُ الْبَاثِيتِيكْ

القهوة! كيف نسيت القهوة؟! و (بيتهوفن)! ما خطبك يا ليال؟ تنسين أصدقاء الرسم بكل بساطة؟!

أعتذر منكِ يا بديعة... انتظريني هنا. سآتي فورا.

أُسرع إلى المطبخ. أحضّر كوبًا من القهوة، أعتذر منه هو أيضا إذ نسيته. أعود إلى الغرفة وأشرع النافذة على مصراعيها لاستقبال نسائم الربيع حتى تلطّف من ازدحام الأنفاس في الغرفة. أصلا غرفتي صغيرة، فكيف إن ازدُحمت؟ ونحن ثلاث. لا! نحن أربع: أنا وبديعة، وبيتهوفن وكوب القهوة. لا، لا! نحن أكثر! نسيت أن أحصي الحامل، والكانفس، والفرشات- فرشاةً، فرشاة- و الألوان- لونًا، لونا. فإن أحصيهم نصبح ما لا يقل عن ثلاثين. ثلاثون شخصًا في غرفة صغيرة! فرقة باليه. أو أوركسترا.

أمسك بالآي باد ثم أفتح تطبيق الأغاني والموسيقى المُحمّل عليه. لا أمتلك موهبة البيانو مثل بابا. لكنني أحب الموسيقى الكلاسيكية جدا، خاصة موسيقى بيتهوفن. وعادةً ما أرسم وأنا أستمع إلى لحن من ألحانه؛ صارت عادةً وثيقة الارتباط بالرسم.

أختار مقطوعة «الباثيتيك» («Pathetique»). أحب الكثير من مقطوعات البيانو وسيمفونيات بيتهوفن إلا أن الباثيتيك لها مكانة خاصّة جدا عندي.

اسمعي يا بديعة...

كتب لودفج فان بيتهوفن مقطوعة الباثيتيك عام 1798م، وتعتبر ضمن مؤلفاته للبيانو، أو كما يسمونها «بيانو سوناتا» (Piano Sonata). المقطوعة لها روحها الخاصة. هي غرفة غريبة في بيت كبير. ربما كغرفتي تلك بما فيها من فرقة باليه وأوركسترا. أحبها لأنها تشبه غرفتي؟ لا أدري. لكنها بالتأكيد حالة وجدانية فريدة. مذاق ليس كمثله مذاق. لا أعلم إن كان بوسع القلم وصف حالة موسيقية دقيقة، أو إن كان بمقدور الكلمات - كلمة، كلمتان، أو حتى عشر مجلدات- أن تشكّل جسرًا يعبر خلاله الإنسان من كونه (قارئًا) إلى كونه (مُستمعًا)؛ «مستمعا» بكل ما تحمل المُفردة من معنى. أخشى أن يكون طلبٌ كهذا مرهقًا ومُعجزا بالنسبة إلى قلمي.

لكني لسبب من الأسباب، أتذكّر فجأة بيتًا للشاعر (عبد الرحمن الأبنودي) يقول فيه: «نُسْكُتُو ولّا نِحاول؟ لأ، نحاول». أعيد قراءة البيت بصوت مسموع ثم أقرّر بعزم.... «سنحاول».

Play.

تبدأ السوناتا بنوتات متقطّعة، قويّة، عالية، حازمة. يبدو لي أنها إشارات إنذار. كأن بيتهوفن يقول لنا فيها: «انتبهوا! أمرٌمهم يوشك أن يحدث». ممرٌّ طويل، وطوله هذا متعمَّد من بيتهوفن. أي أنه طويل مع سبق الإصرار والترصّد. لكنه ترصّد جميل، وتربّص محمود، إذ يأبى بيتهوفن أن يُدخلنا ساحة مقطوعته قبل أن يحذّرنا من هول أمور سنراها بالداخل. شيء ما سيحدث في هذا القصر.

ثم إذ عزمنا السير- نحن المشتاقون- بعد أن غادر منّا من رهب الإنذار، يطمئننا بيتهوفن ويداعبنا قليلًا على طريقته بشيء من الحزن في لحنٍ مِنْ نوتات متشابكة مو سيقيًا، هادئة، وخافتة، يعترضها قلقٌ مفاجئ دون إنذار (أنذرنا في بداية المقطوعة واكتفى). نرى أزهارًا في حدائق ممتدّة. نقترب منها فنجدها متحجّرة لا تتمايل ولا تتراقص كما هي سُنَنُ الأزهار في كل مكان. نرى عصافير على جذوع الأشجار. نقترب منها فإذ هي عابسة، غاضبة، توشك أن تنقضّ علينا في أية لحظة. نرى نافورة رخاميّة كأن (مايكل أنجلو) أتى بها للتوّ من مدينة(فلورينس)الإيطالية.نقترب من سورها الأبيض الأملس اللامع، فنجدها جفّت، وجيوش من الحشرات ملأت قاعها وسكنته.

تنتهي ساحة ما بعد الممر بهدوء كذاك الذي يسبق العاصفة. فعند الدقيقة الثانية تقريبا، وعند و صولنا إلى باب القصر، ينفتح الباب الخشبي الضخم على مصراعيه وتبدأ الدراما. مشاعر متصارعة ومتسارعة.

يخبرنا بيتهوفن عن أزمته. عن نفسه المُتعَبَة، الغاضبة، والحزينة. في الموسيقى هنا شعور غالب بالجديّة: جديّة الموقف وجديّة الألم. «لا تستهينوا بهذا الجسد المتعب». «لا تستهينوا بحكايتي».«لا تستهينوا بظلمة هذا القصر».

ينعطف مسار السوناتا يمينًا في الدقيقة الثانية والنصف تقريبًا حين يسترجع لنا أحلامه القديمة وذكريات طفولته. هنا، يزورنا الأمل. البراءة. البهجة. صِبيةٌ يلعبون. أزهار تتفتّح. يسرد ويُطيل في السرد قبل أن ينحدر بنا يسارًا ليُخبرنا كيف تحطّمت هذه الأحلام وكيف انكسرت آماله البريئة الواحدة تلو الأخرى. هنا يزورنا اليأس. الخوف. القلق. شيء من العجز والمرارة. حطام. لكن سرعان ما يسحبنا مجددا نحو الأزهار. و قبل أن نستأنس بصحبتها، يجرّنا جرًّا إلى هول الحطام. ويظل بين هذا وذاك. هنا وهناك. أزهار فحطام. خوف فأمل فخوف فأمل.

بعدها، يعيد الرحلة بطولها من البداية مرة أخرى، من الممر إلى العصافير الغا ضبة، إلى باب القصر، إلى داخل القصر، ثم يروي الحكاية ذاتها. يشد على أيدي الحروف. يؤكّدها ويؤكّد ما جاء فيها من تفاصيل. وكأنه يخشى أن نكون قد نسينا. أو ربما سحبته أمواج الذاكرة العالية هو فنسي أنه قد أنذَرَنا فأخبَرَنا. أو ربما يتذكّر ويعلم أننا نتذكّر لكنه ينشد تأكيدًا قويا وواثقا.

يمينًا ويسارا. أزهار فحطام. خوف فأمل فخوف فأمل فخوف...فتحدّ!

مدّة الباثيتيك سوناتا تستغرق حوالي العشرين دقيقة من العزف المتواصل، إلا أنني أكتفي بوصف مدخلها وأول خمس د قائق منها لسببين. أولهما، أنني أرى على قلمي مؤ شرات أرق. بدأ يرتجف. لم يعد يقدر على موا صلة بناء هذا الجسر المعنوي بين الكتابة والسمع. وثانيا، لأن هذا الجزء من المقطوعة تحديدًا هو ما يعنيني هنا. قصدته لأُسمع بديعة وأشاركها معنا. فبيتهوفن صديقٌ قديم، أريدها أن تتعرّف إليه قبل أن أبدأ حديثي المطوّل معها. قـ صدت أن يكون أول كلامي لها هو أن أريها بادئ ذي بدء كيف أنها ليست وحدها في دنيا الخوف.

في غرفتي الحديثة، ابنة ال2015، تجلس بديعة ابنة ال1920، جنبًا إلى جنب مع بيتهوفن ابن ال1770. في غرفتي، تجلس حواري الإسكندرية، وشاطئها، وجلبابها، ومنديلها، والبذنجان المقلي، و«سيدي المرسي أبو العباس»، و«مقام سيدي عماد»، والحانات الشعبية، إلى جانب أوبرا ألمانيا وطبيعتها وبيانو موزارت وهايدن وبيتهوفن، ونابليون وأصدقائه ومريديه، وأحلام الثورة. أليست غرفتي عظيمة؟

اسمعي يا بديعة...

ليســت الباثيتيك، أو أي عمل موســيقي من أعمال بيتهوفن مجرّد عمل فنّي لشــخص موهوب يجيد العزف على آلة أو عشــر آلات وبارع في التأليف. أعمال بيتهوفن نتاج فنّي نابع عن إنســـان متعب حزين. لا ينتمي. فاقد للأمان. قلق. ثائر. هي أعمال مركّبة كلها. كانت صادمة قي زمانها ولازالت صادمة و صادقة إلى يومنا هذا. ليس في مو سيقى بيتهوفن تملّق أو كذب أو محاولة لتجميل كل ما هو قبيحٌ في حقيقته.

عانى بيتهوفن من ا ضطراب نفسي شديد ومؤلم. نعم، تحذيره لنا في مطلع الباثيتيك، لم يكن عبثًا. والعصافير العابسة، والأزهار المتخشّبة في مو ضعها، والنافورة الجافّة، كلها لم تكن عبثًا. وهذا «الخوف فأمل فخوف فأمل» الذي تكرّر بشــكل ملحوظ في الســوناتا، لم يكن عبثًا. لم تكن مجرّد محاولة من بيتهوفن لخلق دراما وهميّة أو مُصــطنعة ليجذبنا إليه. إنما كانت مرآةً دقيقة يرينا من خلالها اضطرابًا نفسيا عميقا سكن روحه.

هذا «الخوف فأمل فخوف فأمل» معاناة حقيقية و صراع شخصي يومي له ا سم ومعنى وأعراض وتشــخيص ودواء وعلاج؛ ألا إ نه «اضــطراب ثنائي القطب» (Bipolar» «Disorder). اضطراب جعل من حياته الشخصية جحيما. وأثّر على كل علاقاته الشخصية والاجتماعية وجعل منه- كما و صفه كل من حوله- شخصًا « صعبا»،يصعب فهم طباعه والعيش معه.

كلنا يألف مشــاعر الخوف. كلنا يعرف معنى الأمل. وكلنا ينتقل بين الأمرين. بل وبين غيرهما من المشاعر والتعقيدات الإنسانية التي لولاها لما حظينا بهذا اللقب: «بَشَرْ».

الانتقال بين المشاعر المتشابهة المتناغمة، أمرٌ طبيعي. والانتقال بين المشاعر المضادة المتنافرة، أمرٌ صــعب، لكنه أيضــا طبيعي. لكن ثمّ أناس ينتقلون بين المشــاعر المضــادة المتنافرة بمعدّل وحجم يفوق المتو سّط العام الطبيعي لجموع البـشر. هنا يـصبح الانتقال بين المـشاعر أمر غير طبيعي. يـصبح غولًا يـسيطر على حياة الـشخص كل يوم. كل ساعة. كل دقيقة. ينتقل صاحبه من حالة «هياج»(mania) شرسة وغير معقولة توهمه بأنه قادر على قهر العالم وطيّه واختراقه في لمح البـصر،إلى حالة «اكتئاب» (depression)مرعبة مـصحوبة بأفكار انتحارية ورغبة عارمة لترك العالم كله. تســتغرق كل حالة منهما أســبوعًا أو بضــعة أســابيع تختلف من مريض لآخر. بين كلتا الحالتين، فترة من «الســكون» الهادئ، أو كما تســمى «المرحلة الانتقالية» (transitional phase) وهي القطار الســريع (نســبيًّا) الذي ينتقل به الشخص المـصاب بهذا الا ضطراب من حالةإلى أخرى. من السعادة المر ضية إلى الاكتئاب المرضي، ثم إلى السعادة المرضية مرّة أخرى، وهكذا.

خلال تلك الفترات الثلاث، يتعرّض المُضــطرِب في الغالب إلى العديد من المشــاكل الحياتية اليومية كمشاكل مزمنة في النوم، فقدان للشهية، فقدان القدرة على التركيز، عصبية مفرطة، وغيرها من الأعراض التي تجعل من صاحبها شخصًا «صعبا» لا يستطيع من حوله فهمه أو التعامل مع طباعٍ لا يدركون عنها إلا ما يُمليه عليهم الانطباع العام الســطحي بكونها طباع «شــاذّة». والحقيقة أن المضــطرب، والذي يعاني قبل من حوله من أوجاعه النفسية، ليس إلا شخصًا ضعيفًا ينتقل دون سيطرة أو قصد من «خوف إلى أمل إلى خوف إلى أمل». بل من خوف وحزن وغضــب شــديدي القســوة، إلى أمل وســعادة غير منطقية ومنهكة إلى أبعد الحدود.

لست طبيبة، ولست في وضع يؤهّلني لشرح هذا النوع من الاضطرابات النفسية أو غيرها بشكل علمي ممنهج. ما أنا إلا فتاة أحبّت بيتهوفن واستمعت إلى باثيتيك-ه فصدمها الإنذار ثم أخذها الممر بما فيه وما بعده حتى ألقى بها في أحضــان «الخوف فأمل فخوف فأمل». أفزعها فراحت تتعقّبه وتسأل عنه.

نامت بديعة....

٧.. «Outline»

بديعة...هلّا تستيقظين يا صغيرتي؟ لم أقصد تضجيرك بالحديث المطوّل عن بيتهوفن واضــطراباته. ما أردت إلا أن أعرّفك على الوجه الذي سـيرافقك طوال رحلتك في غرفتي إلى أن تطيري من نافذتك ها هنا. كما أردت لك أن تســتمعي إلى متاعبه ومخاوف قلبه الصغير مثلك لأنه ثمّ تشابهٌ ما.

نعم...على اختلاف الثقافة والنشأة والوطن والظروف والأزمنة، ثمّ تشابهٌ ما.

على أي حال، الآن وقد استيقظتِ، لنبدأ في بناء أُسس نافذتك الجديدة...

على أنغام الباثيتيك أســرق رشــفةً ســريعة من القهوة. آتي بقلم رصــاص 2Hومحّاية أضعهما داخل الصندوق البرتقالي،وأستخدمهما في وضع الخطوط الخارجية الأساسية أو ال «outline»لما أرسمه دوما.

معظم الرسّامين يبدأون مباشرة بوضع الخطوط الخارجية الأساسية للوحاتهم بألوان الزيت. والبعض الآخر يستعينون بقلم فَحْمٍ داكن السواد للغرض نفسه. أما أنا، فأفضل البدء بقلم رصاص شديد الخفّة. لا أدري...القلم الرصاص يشعرني براحة معيّنة وأنا أبدأ به لوحةً جديدة. أشعر أنني أُحكمُ به السيطرة على خطوطي الأساسية.

ربما لأن أوّل خامة رسم استخدمتها في طفولتي كانت الرصاص. وربما بهذا أشعر أنني «أرد الجميل» لصـديق من أصـدقاء الطفولة إذ أترك له رسـالة في كل مرة قبل أن أذهب إلى عالم الألوان: «لا، لم أنسَك. لازلتَ صديقي يا القلم».

قد يبدو قلم الرصاص ال-2H رمزًا غامضا، أو شفرة مُبهمة يستعين بها مُخبِر سرّي أو جا سوس على شاكلة «العميل x» مثلا. أو كالأحرف المقتضبة التي تظهر في نهاية مقال لا يودّ صاحبه الإفصاح عن هويّته، فنجد في نهاية مقال أحدهم توقيعًا با سم «ش.ش.ع.» أو «م.ص.» على سبيل المثال. يضحكني التشبيه كثيرا، لأنه على عكس الشخصيات الخفيّة التي تحيط بها هالة من السرية والتحفّظ وربما الخوف، ليس في الفن أي من هذا كله. الفن وا ضح و صريح وحقيقي. لا يخشى ولا يرهب إلا شمسًا أو قمرا يأتي ليخبره أن اليوم أو غدا عليه أن يلزم بيته. ويلزم الصمت.

خُلق الفن ليكسر ويقهر الصمت. والخوف.

ببساطة، أقلام الرصاص لها أسماء دالة على درجاتها المختلفة نسبةً إلى نسب خامتَي الرصاص والفحم فيهم. وهذا يعني درجات مختلفة من السواد بدايةًمن الرمادي الفاتح،

وصـولا إلى الأسـود الداكن. تبدأ الأقلام من 6Hوهي الرصـاص الخفيف جدا مرورًا بال H ثم HB ثمF ثم B ثم 2B و 3B وحتى 9B. بعدها، تأتي درجات الفحم بسـواده الداكن ونعومة ملمسه. فهو أشبه بالطبشور، على عكس الرصاص القوي المتماسك الحاد كسن الإبر.

أنظر إلى بديعة. أحاول تلخيص وجهها دون الخوض في التفاصـيل الدقيقة لملامحها لأضـع ملخّصًـا لوجهها على الكانفس. فال outline هو تلخيص للعنصـر المرسـوم. هو الهيكل العام للبيت مجرّدًا من تفا صيله بين زخارف دقيقة تزيّن المقاعد، أو ورود منقو شة على بردة هنا أو هناك، أو أشـكال هندسـية متشـابكة ومتداخلة على سـجّادة إيرانية ورثتها العائلة عن جدّة أو عمّة أو خالة. كل هذه تفاصـيل تأتي لاحقا. ليس الآن.فالآن الملخّص: الشـكل الخارجي العام الذي يحدّد وجود العنصـر وعلاقته بما حوله من فراغ أو عناصـر أخرى تشاركه المشهد فتأخذ منه ويأخذ منها.

لذا، أحاول أن ألخّص و جه بديعة في خطوط سـريعة من الرصـاص على الكانفس الأبيض. أُطيلُ النظرَ في وجهها لتأكيد النِسَب والمساحات.

أتساءل: هل من العدل أو المنطق أن يُلخّص وجه كهذا؟ كيف يُلخَّص وبه ما به من همّ كبير، وجرح غائر في الروح، ومشاهد حفرتها في الذاكرة أصوات صراخ لنساء يحتضرن ويستنجدن؟ كيف للرعب أن يُلخَّص؟!

أحاول أن أتمالك مشاعر تكاد أن تنهمر. فالرسّام عليه أن يكون طبيبًا في بعض الأحيان فيتجرّد من عواطفه لينقذ أو يساعد مريضًا يستنجد به. يحتاج أن يكون قويًا ليساعد ضعيفا. يحتاج أن يَبصُر ليُبصِر و أن يَسمَع ليُسمِع.

أقول: لن يستمر طويلًا. سيمُر. هذا تلخيصٌ إلى حين.

أنظر مرة أخرى إلى وجه بديعة كما رأيته في الكتاب (كتاب صلاح عيسى سابق الذكر). الخطوط العامة تشير إلى فتاة صغيرة، مستقيمة، تتّجه بوجهها وجسدها نحونا. الشعر قصيرجدا. كثيف. أسود. مجعّد. أُلخّصه في خطوط رصاصية خشنة ومتداخلة بشكل عشوائي غير منتظم يوحي بحياة الفقر المُذِل الذي يجعل من كل أعمال تهذيب أو تمشيط أُم لشعر طفلتها فعل من أفعال «الرفاهية». عمل جنوني طائش يستدعي سخرية أهل حارة (النجاة) وقد كان أقصى طموح الفرد فيها، لا حياة أسرية مستقرّة (فهم لا يعرفون الاستقرار)، ولا عمل يضمن لهم مصدر رزق ثابت (فالاحتلال وسنين الحرب نهبت مما نهبت إمكانية أن يسيطر المصري على مصدر رزقه)، لكن فقط...«رغيف عيش» يمكنهم من مواصلة العيش يوما واحدًا إضافيا.

رشفة قهوة أخرى.

في وجه بديعة شيء من الخجل الطفولي الآسر. ألخّصه في دائرة بيضاوية تتوسط خطوط الشعر العشوائية. ثم أرسم خطًّا طوليًّا يقسم الدائرة إلى نصفين متطابقين. يعترض الخط الطولي ثلاث خطوط عرضية تقسم الدائرة إلى ثلاث مساحات متساوية عرضًا. أول المساحات من الأعلى يحدد منطقة الجبين إلى الحاجبين. المساحة المتوسطة تحدد العينين والأنف. وتبقى المساحة السفلية الأخيرة من نصيب أسفل الأنف حتى الفم وآخر الذقن. أما الخط الطولي فهو مقياس تأكيد تطابق كل ملمح منهم في جانبيه الأيمن والأيسر. أي كأنه المرآة التي يرى فيها الملمح امتداده المتطابق في الشكل والحجم والتكوين على ضفّة الوجه المقابلة له.

رشفة قهوة أخرى.

أضع نقاطًا صغيرة في المساحة المتوسطة تشير إلى بداية ونهاية كلتا العينين تاركةً بينهما مساحة تساوي عرض العين الواحدة لتكون من نصيب بداية عظمة الأنف. ثم أضع نقاطًا أخرى تحدّد بداية ونهاية الفم وجناحَي الأنف، وخطوطًا خارجية سريعة تحدّد الرقبة الصغيرة وتسحبها لتُضفرها مع خطوط مائلة تشير إلى جلباب بديعة.

رشفة قهوة أخرى.

أترك القلم الرصـــاص . أقف. أتراجع ثلاث أو أربع خطوات إلى الخلف لأنظر إلى ال outline من بعيد فأرى إن كانت النسب الموضوعة تريحني، أم أن خطًّا ما سيدعوني إلى تعديل ما.

هل أنتِ مرتاحة إلى هذا التكوين يا ليال؟ أنُكمل؟

أقول: مرتاحة؟ كيف أكون وكلما نظرت إليها، أرتجفُ؟ يحاصرني الشعور بالذنب؛ لِمَ لا أُكرّس كل هذا الوقت والجهد لاختراع ماكينة وقت - بدلًا من رســم هذه اللوحة – فتعيدني إلى الإسكندرية 1920 لأنتشل بديعة من الحواري الضيّقة والأزقّة السوداء، فلا يحلّ بها ما حلّ بها؟

ليال! أجننتِ؟ أســألك عن الخطوط الخارجية على الكانفس الأبيض فتحدثينني عن ماكينة وقت سحرية تَجُر أذيال قرن مضى؟ ثم مَنْ لبديعة الآن إن لم تكوني أنتِ؟ دعكِ من عبث الحديث عن الماكينة الوهمية وعودي إلى الحديث عن الطبيب الذي عليه أن يَبصُــر ليُبصِر وأن يَسمَع ليُسمِع.

ماذا؟! يَسمَع ليُسمِع؟! لكن صحيح..أين أذني بديعة من اللبنة الأولى تلك كلها؟

لم تترك لنا بديعة أي منفذ ولو صغير نرى منه أذنيها. شعرها الكثيف، على قصره، لم يترك لنا أي مجال لكي نرى أذني البراءة والطفولة. كثافته تنسدل على أذنيها

فتحجبهما عنّا بإحكام وكأنه مُتعمّد. لا أدري ما إذا كان شعرها بعد أن وقع أسيرًا للفقر والجوع والمهانة، اضـطُرَّ أن يرضـخ لأوامر ما فأُجبرَ على طمس معالم أذى تعرّضـت له الأذنان، أم أن بديعة هي التي أرادت أن تُخفي عنّا هول تراكم ما سـمعته في بيوت البغاء وفوق الصندرة؟

أصوات نساء سكارى يضحكن ويتمايلن بخلاعة. صخب. نهم. ضجيج فرح يتحول فجأة إلى أصوات مكتومة صادرة عن عملية كتم الأنفاس. أصوات أيادي وأرجل تدب في الأرض بفزع تحاول الإفلات من مخالب الأسـود الباطشـة عند الصـيد في ذروة الجوع. أصوات مطارق تنهال على البلاط اللا صق بأرض الغرفة. أصوات خافتة نسبيًّا لجواريف تغرس أنيابها في أكوام التراب تحت البلاط المخلوع وتزيحه لتفسـح مجالًا ترقد فيه جثّة الغزالة بعد أن نالت منها الأسود.

«أنا خايفة»... كان أول ما قالته بديعة لوكيل النيابة (سليمان بك عزت) أثناء التحقيقات بعد القبض على العصابة السداسية الأضلع.

-خايفة من ايه؟

خايفة من أمي وجوز أمي وخالتي سكينة وأهلي كلهم، لإنهم كل ما يقعدوا ياكلوا يدولي لقمة حاف، ولما أطلب غموس يضـربوني ويشـتموني ويقولوا لي اطلعي برة يا بنت الشرموطة. فأخاف وأجر نفسي زي الكلبة، وأخرج على الحارة أتفرج على الزار وألعب مع العيال.

تؤلم الأصوات أحيانا.

يولد الطفل فتتشــكّل أول تطلعاته في إطراء يتلقّاه من أبيه أو أمه. يقول الأب: «برافو يا ولد»، فيشــعر الولد كأنه ســيد هذا العالم. بطل من الأبطال الخارقين الذين يشــاهدهم على التلفاز وينبهر بهم. تقول الأم: «أنا فخورة بكِ»، فتشعر البنت أنها أميرة من أميرات «ديزني» تملك الدنيا بما فيها. فكيف إن كان أول ما يسمعه الولد أو يخترق أذن البنت من والديهما هو التوبيخ والإرهاب والسباب «ببنت الشرموطة» لا لشيء سوى أن البنت طلبت غموسًا لرغيفها الحاف؟!

تراكمت الأصــوات في وجدان بديعة. صــوتٌ بعد صــوتٍ بعد صــوت. اســتقرّت في ذاكرتها. طُبعت على أذنيها حتى صارت جزءًا من صفاته التشريحية الدقيقة.

ولربما علمت بديعة هذا بفطنتها وحساسيتها فآثرت إسدال خصلات شعرها بمرتفعاته ومنخفضاته على أذنيها كي لا نلاحظ ما انطبع عليهما ونروح نسأل عن الأصوات المختبئة في تجاويف الأذن. فبديعة الطفلة لا تحب الخوض كثيرا في التفا صيل المؤلمة إنما تفضّل مشاهدة الزار واللعب مع «العيال» في الحارة.

طبيعي. طبيعي جدا.

8.. «الْحِيطَانْ لِيهَا وْدَانْ»

عندنا في مكتبة البيت كتاب أُسمّيه: «الكتاب الحائر». مسكين. يظل يدخل ويخرج من المكتبة باستمرار. لا يدري أين سيبيت أو متى سيعود إلى صحبة بقية الكتب جنبًا إلى جنب، غلافًا إلى غلاف. يومًا أجده على الطاولة في غرفة المعيشـــة مســـتلقيًا إلى جانب «الريموت كونترول» وعلبة الســـكاكر التي تحبها ماما. و يومًا أجده على الكومودينو في غرفة والداي موضـــوعا إلى يســـار بابا. يومًا في المطبخ. وآخر على ســـطح الحوض الرخامي في الحمام. وكلما رأيته ابتسمت وهمست: «آه! رجعنا تاني...مسكين».

لا ينافس حب موزارت شيء في قلب بابا المولع بالفنون إلا حب القراءة– خا صة هذا «الكتاب الحائر». كتاب غلافه رمادي قديم طبعة مارس 1956 (طبعته الثانية). إنه كتاب «الأمثال العامية» ل(أحمد تيمور باشـا). يحتوي الكتاب على 3188 مثلًا بالعامية المصـرية ينقلها إلينا أحمد تيمور «مشروحة ومرتبة على الحرف الأول من المثل»، على حد وصفه.

لا أعتقد أن هذا الكتاب هو أحب الكتب إلى بابا، إلا أنني أشـــعر أنه كتاب «الراحة» الذي يلجأ إليه كل فترة بين فترات من قراءة الكتب الدسمة

أي كأنه ال child's pose(وضع الطفل) أو ال downward- facing dog pose(وضع الكلب الناظر إلى الأسـفل) في اليوجا: وضـعان الراحة للعضـلات قبل أو بعد تمرينات عنيفة. فكل فترة أجده ممسـكا به، يضـحك، يسـألني: «ليال، هل سـمعتِ بهذا المثل من قبل؟» أو «أتعرفين متى قيل هذا المثل؟ كانوا المصـريين أيام المماليك بيعملوا (كذا) بعدين حصل (كذا) فقالوا (كذا)». ثم يقهقه.

يحكي لي عن قصة «اللي اختشوا ماتوا». مجموعة النسوة اللائي خجلن من أن يخرجن عرايا عندما نشـب حريق في حمام شـعبي سـنة 1889، فماتوا. و لم تنجُ إلا النسـوة اللائي خرجن و«ماختشوش». أبتسم. أتأمل المثل. أسترجع أمثال أخرى تستوقفني أيضا. «يا داخل بين البصلة وقشرتها» أقول: «ا شمعنا البصلة؟ لماذا لا تكون برتقالة؟ أو تمرة؟ أو فص ثوم؟».

و كانت جدّتي من أمي كلما حكى أحدٌ حكاية، أو انفعل أو باح بسـر أو بخبر سـعيد أو حزين، تقول وهي تومئ إيماءة من يشـعر بخطر: «وطّي صـوتَك يا ابني الحيطان ليها ودان!». أتساءل: «ا شمعنى الودان؟ لنا خمسة حواس، ا-ش-م-ع-ن-ا (الودان)؟! لماذا لا تكون للحيطان عيون مثلا؟» أتمعّن في الفكرة. وإذ بي أسافر فجأة إلى المكسيك. أجدني أقف أمام لوحة من لوحات الرسّامة السيريالية المكسيكسة (فريدة كالو): « Me and My Doll»(«أنا و دميتي»).

في اللوحة ترسم فريدة نفسها جالسة إلى جوار دُمية بيضاء على سرير صغير من القش الأصفر الذهبي. تتطلّع كلٌّ من فريدة والدمية إلينا، وعلى وجه فريدة تحديدًا نظرة حزن وانكسار وشيء من اللامبالاة. يداها منغلقتان على بعضهما، وفي يدها اليمنى تمسك بسيجارة. شعرها الأسود مرفوع إلى الأعلى كما كانت تُصفّفه في معظم الأحيان حتى صار علامة مميّزة لها. ويكسو جسدها النحيل الطويل زيّ مكسيكي من الأبيض والأخضر معا. في اللوحة إحساس غالب بالوحدة والفراغ.

ولو كانت للحيطان عيون لاكتفت بالنظر إلى لوحة فريدة ونَقْلِها لنا هكذا، صورة جامدة يفهمها كل منّا على طريقته الخاصّة. فالنظر أمرٌ نسبي جدا. ترى لوحة فتنصبّ عناصرها على وجدانك. تُذكّرك بأمور وصور مضت في طفولتك، أو مشهد رأيته أثناء مراهقتك، أو تجدّد مشاعر رافقتك في سنوات غربة أو مرض أو خوف. ترى لوحة فتفهمها وتفسّرها بما لديك من مخزون ذكريات ومعتقدات ومشاعر متراكمة. تُسقط عليها روحك وهويّتك أنت. شئت أم أبيت، وعيت أم لم تعِ، تُسقط عليها روحك وهويتك أنت.

وأجمل ما في الفن هو ذلك الباب المفتوح أمام خيالك. يحترم عقلك، ويحترم ذكرياتك، ويحترم روحك وهويتك. يحترم غضبك لو كان الغضب هو دليلك إلى قراءته. ويحترم حزنك إن كان الحزن هو سبيلك إليه. يقول شخص: «أنا فهمتها هكذا». فيرد الآخر: «بل أنا رأيتها هكذا». وتبقى «الهكذا» و«الهكذا» كلها مباحة ومقبولة لدى اللوحة. فلن توبّخك على فهمها هكذا، ولا تكافئك على رؤيتها هكذا.

ولو كان للحيطان «عيون» لتركتنا حائرين بين الهكذا والهكذا. نرى في دمية فريدة ذكريات طفولتنا. ونرى في فريدة أنفسنا أو شخصًا نعرفه. و نرى في الغرفة والسرير مشهد من فيلم رأيناه، أو غرفة دخلناها، أو مكان ما اعترض طريقنا من قبل. ونرى إحساسًا نعيشه أو قد عايشناه في زمن ولّى. لكن....أين فريدة من هذا؟!

بالنظر- بمجرد النظر- إلى لوحة فريدة نجد عناصر محددة: امرأة – دمية – غرفة نوم – سرير – حائط – أرض – سيجارة. و لا نعلم يقينًا لماذا اختارت فريدة تلك العناصر تحديدا ولماذا اختارت هذا التكوين. لماذا الدمية؟ ولماذا السيجارة؟ وما معنى تلك النظرة؟ لا نعلم. بمجرد النظر والمشاهدة والتأمل قد نستنتج أو نشعر....لكننا لا (نعلم).

نحن لا نعلم حقيقة التفاصيل إلا عندما (نستمع) إلى القصص والحكايات المنقوشة على جدران المعابد – معابد الذاكرة.

نحن لا (نعلم) إلا عندما يكون للحيطان («ودان»).

كَتبَت فريدة في مذكّراتها تجربتها الأليمة في سن الثامنة عشر حين تعرضت لحادث سنة 1925 منعها فيما بعد من الإنجاب طوال حياتها. عندما رسمت فريدة هذه اللوحة كانت قد خسرت ثلاثة أجنّة فشل رحمها المصاب في الاحتفاظ بهن قبل أن تنمو بداخلها. أصبحت الأمومة مجرد حلم. تفكر فيه، تحلم، تتمنى..

لكنها لا تقدر. انتهى. حلم اســتبدلت به تربية الحيوانات التي أحبتها كثيرا وشــاركتها لوحاتها في هذه المرحلة من حياتها، خاصة القردة. وجاءت لوحة «أنا و دميتي» عام 1937 لتجســد ألم فريدة العميق لما افتقدته من أجنّة. نظرتها إلينا لا إلى الدمية تجســيد لمشــاعر الانفصال والوحدة؛ بينها وبين الأمومة حاجز منيع. والسيجارة التي عادة ما لا تشربها أُمٌّ بصــحبة طفلها، تقول لنا هنا في اللوحة: «لم يعد يهم». وفي موضــع آخر من مذكراتها تقول فريدة: «أرسم نفسي لأنني وحيدة. فأنا أكثر شخص أعرفه».

و لولا أُذُن الحيطان لظلّت لوحة فريدة مجرد لوحة – أشــكال وألوان في تكوين معيّن خالٍ من البُعد الإنساني الحقيقي له المبني على التجربة الشخصية.

نعم...نحن نعلم حينما نســتمع. لكن الأصــوات والكلمات تؤلمنا أيضــا أحيانا.وقد تؤلمنا إلى الحد الذي يجعلنا نقول في النهاية: «ليتني لم أســمع. ليتني لم أعلم». و أنت في النهاية لا تملك إلا نفسك. فحاول مهما تحاول لن تستطيع كفّ أذى كلمات مؤلمة يقذفها شخص آخر فتستقر في قلب أذنيك تماما – «على المقاس وبالسنتي»!

وآه يا ماما لو تعلمين كَمّ الكلمات والأصولت المؤلمة المستقرة في أذني.

لم أكن تجاوزت العشر سنوات حين صار لقبي في البيت - رسميًا - «الخرسا».كنت طفلة هادئة جدا. منغلقة وخجولة. دائمًا وحيدة. أجلس في غرفتي تفاديًا لشجارٍدائم الوقوع بين أبي وأمي. أتفاداهما لأنهما يخيفانني كثيرا. لا أخبرهما شيئًا عني. أولا، لأنني كنت أعتقد أن أموري لا تهمهما كثيرا. وثانيا، لأنني حتى إن أردت فلم أكن لأستطيع. أخافهم جدا. تنشلّ الكلمات وهي في الطريق إليهم فلا تصلهم أبدًا.

لم أعتد التعبير عن مشاعري بلغة الكلام، ولا أعلم كيف صار هدوئي الزائد نمطًا غالبا على سلوكي خارج البيت كما داخله. لا أتذكّر أني يومًا ذهبت لماما أقول: «أنا خايفة» أو «أنا مبسوطة» أو «أنا جعانة». ولا ركضت إلى بابا أُريه لوحةً أرسمها وأبادله حديثًا عنها. لم أفعل هذا لا معهما ولا مع غيرهما.كأن المشاعر كلها أصبحت سرًّا أقسمتُ ألّا أتقاسمه مع أحد، خاصةً هذا الرجل وهذه السيّدة اللذان يشاركنني هذا البيت الموحش. ولم تكن أيًّا من العوامل اليومية المتغيّرة لتزيح الحاجب القابض على لساني فتدفعني للكلام. كنت أصحب والداي في أي من الزيارات أو المناسبات العائلية أو غير العائلية، وحالي حال الحقيبة الساكنة التي تحملها ماما، ثم تضعها على الأرض حين تصل إلى المكان المحدّد فتبقى هناك – على الأرض – إلى أن يأتي موعد الرحيل

فتحملها مجدّدًا عائدةً إلى البيت. وكنتُ إن اصــطحبني مجموعة من أطفال العائلة لنلعب، أشاركهم مشاركة جسدية. أتتبّع خطوات الأطفال في صمت. أو آوي إلى مكان ناءٍ هادئ وأجلس فيه. كالحقيبة؛ على الأرض.

كانت أمي تتفنّن في إقناعي بمدى عجزي عن التواصـــل والكلام معهم ومع غيرهم، بشتّى الطرق. وفي كل مرّة يُبهرني الابتكار. ويُؤلمني.

لم تعُد (فرح) طفلة. أ صبحت الآن آنسة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا. لكنها كانت طفلة في الثالثة، وكنت أنا في الثالثة عشــر حين وبّختني أمي ذات مرّة قائلة: «حتى فرح الطفلة تنظر إليك باندهاش! لا تعلم ما إذا كنتِ جمادًا أم إنســانا!». أظنها كانت تحاول بهذا دفعي للكلام. لأنني كنت كلما نهرتني ألتزم الصمت الشديد. ولم يكسر صمتي شيءٌ سوى البكاء – البكاء الصــامت. والمضــحك أنني إلى الآن، وها أنا في الخامســة والعشــرين من عمري وأكبرالآنســة فرح بعشــر ســنوات، إلا أنني كلما رأيتها ارتبكت جدا. وضــوعف صمتي. أرهبها وأخجل منها كأنها تكبرني بعشرين عاما لا أكبرها أنا بعشرة! فلا يبقى إلا أن أناديها بـ«طنط». أجدى وأوقع.

وفي ذات ســنوات مراهقتي التي أعلمتني فيها ماما مشــكورة بتوجســات فرح بشــأن ماهيتي، اســتمرّت مشــاحناتها الحادّة مع بابا دون انقطاع. فإذا اجتمعنا صــدفة في غرفة المعيشة، وما لبث أن نشب شجار مدوّ بينهما لسبب ما أفهمه أو لا أفهمه،

حتى يبدأ قلبي في الخفقان بسرعة من شدة الخوف. يقول عقلي: «خطر! خطر! اركضي بعيدا». فأركض بعيدا. وقبل أن أصل إلى باب غرفتي (بعيدًا) أسمع ماما: «أيوة أيوة. اذهبي إلى مقبرتك يا خرساء». فأشعر بالخوف وخفقان قلبي يتضاعفان، وتزداد معهما رغبتي في المكوث بالغرفة وحدي إلى أطول وقت ممكن. إلى الأبد إن استطعت. إلى يوم البعث إن أمكنني.

صوتٌ بعد صوتٍ بعد صوت.

ولما كان لقب «خرساء» هو لقبي المفضل لدى ماما، و«المقبرة» هي اللقب الرسمي الذي أهدته إلى غرفتي، كانت «الشرنقة» هي طريقة بابا في وصف الغرفة. يقول: «خير؟ لِمَ تركتِ شرنقتك على غير العادة؟». أو «اذهبي، اذهبي إلى شرنقتك». لا أجيب. لا بابا ولا ماما. فقط أزداد حنقًا وضيقا وتعاسة وخوفا ومكوثا في «شرنقتي» و«مقبرتي». وربما لو كان لي أخوة لأتوا لي بألقاب وأوصاف أكثر ابتكارًا أيضا. لكن لا يهم. فأنا طفلة وحيدة على أي حال.

يتساءل أبي كما تتسائل فرح. «إنت ايه لازمتك؟ زيّك زي الكرسي». و يتسائل أحيانا أخرى: «أريني أريني...هل لديك لسان مثلنا؟ لا أظن».

في المرحلة الثانوية طلبت لأول مرة المساعدة في دراسة مادة الرياضيات من أهلي. تطوّع بابا للمهمة. كان يساعدني في دروس الرياضيات التي كنت أكرهها ولا زلت. وكانت المساعدة تقتضي أن يترك لي بعض الأسئلة التي يتوجب عليّ حلّها فيقوم بتصحيحها بعد عودته من عمله في المستشفى. فإن كانت إحدى الإجابات صحيحة، مرّت عاصفةٌ محتملة مرور الكرام. أما إن أخطأت في حل أخرى، أجده راسمًا حول الإجابة الخاطئة دائرةً كبيرة يتوسطها تعليق مكتوب فيه: «متخلّفة»، أو «تخلّف»، أو «تخلّف عقلي رسمي»، أو «حمارة». طبعا يختلف السباب حسب طبيعة وحجم الخطأ الذي ارتكبته في حق مادة الرياضيات الموقّرة.

وفي أوقات فراغه نجلس سويًا حول طاولة السفرة. يترأّس بابا الطاولة وأجلس أنا على مقعد يجاوره. يفتح الكتاب ويقرأ. ثم يشرح. ثم يسأل. تمر الدقائق والثواني معه بأعجوبة! أشعر خلالها كأني أجلس أمام وكيل نيابة في قسم من أقسام الشرطة. يذكّرني بابا أثناءها ب(أحمد زكي) في فيلم «زوجة رجل مهم». نظراته تُرعبني. أتوجّس مما عساه أن يحدث إن أنا لم أبلِ كما ينبغي. خاصّة وأنا أعلم أنه ينظر إليّ نظرته إلى «حمار» يجر عربة «كارُّو». أنا لا شيء. وأنا أُوَبّخ لهذا السبب.

أختلس النظر إلى الساعة المعلقّة أمامنا على حائط المنزل. عقاربها بطيئة. هل لي أن أتدخل فأسرعها بعض الشيء؟ دفعة خفيفة أعدك أيتها الساعة،

لعلّ الوقت يمر.انظري إلى حالتي...تعاوني معي... ســاعديني... أريد أن ينتهي هذا! قلبي يخفق. العرق يتصبّب. لكن بابا لا يراه. و لا تراه ماما لأنها إما في غرفتها، أو مشغولة على الهاتف. كم شكا أبي قدرتي على التركيز. «ركّزيّ». فأحاول. لا أقدر. إشارات الإنذار الواردة من عقلي لا تهدأ: «خطر! خطر! خطر!».

وفي النهاية، تدور عقارب الســاعة دورتها الطبيعية وينتهي وقت الدرس في موعده المحدّد لا قبل ولا بعد. وأعود إلى غرفتي أخيرا. أعود فتاة «خرســا» تعيش في «مقبرة»، «متخلفة» و «حمارة» لا تقوى على التركيز، «مالهاش لازمة»، تتســاءل الأطفال ما إذا كانت «إنسانا أم جمادا» فتكتشف في النهاية أنها «كرسي». وبرجل مكسور.

يا فرح أنا كرسي. والكراسي لا تتكلّم ولا تجيد فنون التواصل مع الناس كما الناس. اعذريني على الحيرة التي أوقعتك فيها دون عمد ولم أكن لأعلم بها لولا أن نبّهتني ماما للأمر. فالكراســي في نهاية المطاف، «كراســي». علت أو قصــرت، مخمليّة كانت أو رديئة ممزقة، تظل كراسي. والكراسي لا تستطيع الكلام ولا الرد ولا رفع المظالم ولا مشاهدة الزار ولا اللعب مع «العيال» في الحارة.

طبيعي. طبيعي جدا.

9.. قُضْبَانُ الْوَابُورِ

انتهت الباثيتيك. أضــع القلم الرصــاص جانبًا وأُعيد تشــغيل المقطوعة من جديد. لا أســأم منها أبدا. كلما ســمعتها شــعرت وكأني أســمعها لأول مرة. أرى فيها صــورًا جديدة وتزورني عبرها أفكارٌ لم تكن زارتني من قبل.

هذه المرّة أتأمّل: معجزة! سحر! غير معقول!

وكبديعة التي سُــبّت ب«بنت الشــرموطة» لما طلبت غموسًــا لرغيفها الحاف، كان بيتهوفن يُعنّف في طفولته ويعاقبه والده بالزجّ في غرفة مظلمة يحبســه فيها كلما لم يبل بلاءً حسنا في درس من دروس البيانو التي كان يتولّى أبوه أمرها.

والمنطق يقتضي أن يؤدي الارتباط بين دروس البيانو والتعنيف الجسدي والمعنوي الذي تعرّض له بيتهوفن من والده بسبب البيانو، إلى الكُره أو الفزع من البيانو. إلا أن المنطق يختفي عند شريان الفن. يهرب. كأنه يخشاه. هرب المنطق فانتهي الأمر بهذا الطفل الصغير لاجئًا إلى البيانو من البيانو. لهذا أتأمل وأقول: معجزة... سحر... غير معقول.

ويستمر كل ما هو غير معقول في هذه القصّة الألمانية النشأة الإنسانية الهوية، ليجود علينا بيتهوفن بكل ما هو صــادق وجميل في شــكل «خوف فأمل فخوف فأمل»، وعصــافير متربّصة، ونوافير جافة.

الآن، أمسك بفرشاة صغيرة، عريضة، شعيراتها مسطّحة، لآتي بالظل والنور. نعم، أستدعيهما معا. فلولا النور لما كان ظلٌ ولولا الظل لما كان نورٌ. وكأن الله حين جعل من كلٍ زوجين، لم تقتصر «الكل» على مخلوقاته الحيّة فحسب، إنما التضاد والمقابلة في كل شيء: الفقر والغنى. القوة والضعف. الخير والشر. الظلم والعدل. القدرة والعجز. الليل والنهار. القرب والبعد. الحزن والفرح.... والظل والنور. أو «الدُكنَة والضَيْ» كما يصفهما عبد الرحمن الأبنودي في قصائده.

وهل لي أن أنسى وأنا بصدد الحديث عن التضادات والتباينات، أبيات (محمد مصطفى حمام) من قصيدته «علمتني الحياة»؟ لا، لا يمكن. أجدني أدمدم:

أيها الناس كلُّنا شاربُ ... سَين إنْ علقماً وإنْ

نحن كالرّوض نُضْرة ... نحن كالنَّجم مَطلعَاً

نحن كالريح ثورة ... نحن كالمُزن مُمسكاً

نحن كالظنِّ صادقاً ... نحن كالحظِّ منصفاً

التناقض. التضاد. أتذكّر دروس مواطن الجمال للنصوص الشعرية والأدبية المقرّرة علينا في مادة اللغة العربية. لم أكن أفهم معنى «تضاد يبرز المعنى ويوضّحه» التي كنّا نُلحقها دومًا ودون أي تردّد بكل كلمتين متضادتين تقابلننا، كالشمس والقمر،

مثلًا. لم أفهم كيف للتضـــاد أن يُبرز أي معنى أو يوضـــحه. ما علاقة المقابلة بإبراز المعنى؟ ظننتها «فلسـفة كبار»، فالتضـاد تضـاد «وخلاص»! لِمَ التهويل فيه وفي موقعه من أي جملة أدبية كانت أو غير أدبية؟!

أتسرّع في الحكم على نفسي: «كنت غبيّة!». ثم أتراجع: لا، لم أكن غبيّة. كنت صغيرة. ثم أنني لم أكن قد قرأت بعد قصّتكِ مع «المدوّرة»يا بديعة.

«وكنت عاوزة أشـــتري مدوّرة على راســـي زي بقية البنات، ما حدش منهم رضـــي يشـــتريهالي...حتى ســـكينة كانت عاوزة تديني المدوّرة بتاعة واحدة من النســـوان اللي قتلوهم...لكن أني مارضتش».

بديعة «مارضتش». بينما ارتضت أمها وخالتها خلخال هذه وملاءة تلك، لم ترض بديعة مدوّرة لا هذه ولا تلك. ولا غيرهن. بل اكتفت بمنديلها القديم خشية أن يراها أحد – كما قالت – أو، على الأرجح، أَبَت فطرتها النقية أن يرافقها في رحلاتها مع أطفال الحارةأَثَرٌ لضحيّة من ضحايا أهلها.

قابلَ رفضَ بديعة رضا أهلها.قابلت فطرتها النقية نفوسُهم الفاسدة. قابل نهارها ليلُهم. قابل خيرَها شرُّهم. قابل «ضيّها» «دُكنتُهم». فتمَّ المعنى.

ذلك تضاد آخر أبرز المعنى وأوضحه.

الظل و النور....

قلت: أســتدعي الظل والنور. نعم. أســتدعي الظل أولًا على البالتة إذ أخلط عليها بالفر شاة مزيجًا من أخ ضر Sap Green ، وأزرق Prussian Blue ، و بنّي دافئ Burnt Sienna ، و بنّي داكن Burnt Umber. ثم أ حدّد بهذا الخليط ا لداكن مواطن الظل على وجه بديعة – كل البقاع العميقة التي انحرف مصـدر النور- شـمسًـا كان أو «سـبرتاية» - بعيدًا عنها قبل أن يجود عليها بشــيء من فيض خيره. ولأن «غموس» الفرشــاة الألوان، أشــبّع الفرشــاة بغموســها اللوني، أتأمّل بديعة، ثم أمســح باللون الداكن على التجاويف الظاهرةلوجهها: تجويف جفنَي العينين، والمســاحتان الغائرتان أســفل الذقن والفك. ثم أمرّر الفرشــاة على شــعرها؛ من خط منبته الملتصــق بأعلى جبهتها حتى حدوده الخارجية الأبعد الذاهبة إلى اللاشيء في الهواء من حوله.

أتوقّف عن المواصلة وتأمّل الصورة الفوتوغرافية أمامي. أبتسم. لا أدري كيف ولماذا ذكّرتني حدود شــعر ها ا لذاهبة إلى اللاشــيء في الهواء من حولها بما رو ته بديعة عن «الوابور»: «ومرّة لما فتحوا عليا الباب الصــبح، كنت رايحة أهرب...وأروح أتشــعلق في الوابور... وأسافر كفر الزيات عند خالي...لكن ماعرفتش».

ربما لأن في خصلة الشعر تجسيدٌ حيّ للمفارقة الواقعة بين إمكانية الطيران في الهواء، وحقيقة الأغلال والقيود المانعة. بين حلم الهرب لغدٍ مشـرق فيه ما فيه من اطمئنان وسعادة، وتغاريد عصافير صباحية متفائلة، وصوت الرجل صاحب «صندوق الدنيا» الذي يمر في الحواري مناديًا بصوته الجهوري: «اتفرّج يا سلام!». فيُقبل عليه أطفال الحارة من كل حدب و صوب. يطمع كل منهم في نظرة، ولو مختلَسة ومقتضَبة –من داخل القماشة السوداء المحيطة بالصندوق. نظرة، ولو مصحوبة بركلة قدم من طفل عن اليمين، ودَفعة يد من طفل من الخلف، ودفعات متتالية بكوع طفلة عن اليسار تقول منزعجة: «اوعى بقى شوية عايزة أشوف». نظرة، ولو ضبابية إلى هذا العالم الصغير الكبير في الداخل على خلفيّة القصص الغريبة المثيرة التي يرويها صاحب الصندوق. نظرة، ولو واحدة لا غير إلى أمل جائز بلا أي قيد كان. وبين عراقيل الواقع بكل ما فيه من سلاسل حديدية متشابكة بإحكام، لها أنياب متشعّبة وممتدّة من الجذور تُمسك الواحدة منها بحلم من الأحلام فتغرسه بقوّة في الأرض – أرض اللاممكن والمستحيل.

خطٌ واحد مستقيم (أو مموّج أو مجعّد). لكن شتّان ما بين بدايته المُثبّتة في فروة الرأس، وبين نهايته المنطلقة والحرّة في الأجواء وهي ترقص وتتمايل طربًا على هفيف النسائم. خط واحد يجمع بين «حلم الشعلقة في الوابور» والسفر إلى كفر الزيّات «عند الخال»، وبين الجسد الصغير الغير قادر على فعل بطولي كهذا وحده...«لكن ماعرفتش».

لا أدري لماذا استرجعت قصة الوابور بالتحديد عندما تأمّلت الشعر وأوفيته نصيبه من ألوان الظل. فهأنذا أتأمله مجدّدًا لأجد أن المفارقة بين حلم الطيران والعجزعنه لم تكن إلا امتدادًا طبيعيا ومنطقيا لفكرة التضاد الذي «يبرز المعنى ويوضحه» الآنفة الذكر. فالمفارقة تتجلّى في كل خصلة شعر على حدة، ثم تعود لتتجلَّى ثانيةً في كل الوجه بمساحاته المظلمة والمضيئة معًا.

وليكن...كلها تضـــادات تؤكد المعنى الواحدة تلو الأخرى، حتى يتمّ المعنى مرّات بدلًا من المرّة ليستقر في الوجدان.

آه لو يعود الزمان إلى الوراء يا بديعة فأعود معه إلى أيام المدرسة. والله لكنت أجيب عن كل أسئلة مواطن الجمال بهذا المنطق وبهذه الطريقة: «تضاد يؤكد المعنى ويوضحه ويظل يؤكّده حتى يستقر في الوجدان». ألا تكون تلك الإجابة أغنى وأكفى؟!

ثم-بعيدًّا عن دروس اللغة العربية التي مضـى عليها أكثر من عشـر سـنوات-ألم تسـألي نفســك يا ليال، ما الذي يمكن أن يجعل طفلة في عمر بديعة تفكّر في الهرب؟ هكذا؟ بلا حول ولا قوة؟ كيف يصـبح الذهاب إلى الخال دون الأب حلمًا؟ كيف يصـير الابتعاد عن أحضان أُمّ فكرة جادّة محل التنفيذ؟ كيف نرى في بيت نجهله أمانًا أكبرمن بيت نعيش فيه؟ وهل يهرب الإنســان إلا حينما يصــبح هناك مجرّد احتمال بأن المجهول قد يحنوعليه إن ذبحه المعروف وتخلّى عنه المألوف؟

أضع الفرشاة على الطاولة. أتطلّع إلى اللوحة بمساحات «الظل» الداكنة على وجه بديعة من بعيد. أسأل نفسي: «تُرى، من بين كل هذا الظلام الدامس الذي حاصرك يا بديعة، أي مساحة أو نقطة أو خط بالأخص دفعك إلى حلم الهروب؟ أهي أذناك المختبئة وراء خصلات شعرك تخفي عنّا بشاعة ما سمعتيه؟ أم هو ذا الخط الرفيع الفاصل بين شفتيك أتعبه العجزُ عن الدفاع عن نفسه وردّ الأذى عنه فرأى في الهروب حلًّا كافيًا؟ أم هي كل هذه المساحات مجتمعة؟ أم غيرها لا نعلم عنها شيئًا، ستظل سرًّا في دكّان (أبو أحمد النُصْ) أو في جلباب (سليمة بائعة الجاز).

لا ضير، سنواصل. لن نستسلم! فليكن الظل ما يكون وليفعل أفاعيله على وجهك كما يشاء. وحده لا يهم. وحده لا يقوى على شيء؛ هو ضعيف إذ أنّ أقصى قواه تتلخّص في أن يُسدل ظلامه على الأشياء، والظلام ضعيف إذ لا يرى. وإن رأى، فإنه لا يُبصر.

أُمسك بالفرشاة مجددًا إلا أنني هذه المرة لا أكسوها بلون فورًا، إنما أمرّرها أولًا عدة مرّات متتالية في زجاجة التربنتين. ويصاحب التمريرات قسم ضمنيّ: والله لأخلّصنّك من ظُلمة المساحات التي صوّرت لكِ أنّ خلاصًا ما ينتظرُ بين قضبان الوابور.

يذوب خليط اللون في التربنتين بسـرعة. دون أدنى مقاومة. بل وأنه حين يذوب ينتشـر في السـائل بانسـيابية أخّاذة. كأنه فجأة تحوّل من بقعة عجين ملوّن إلى راقصـة باليه رشـيقة تحتفي بنولها حريّتها على شـكل رقصـة جميلة. تنطلق في كل الأركان بلا نمط معيّن. فقط تترك أنغام الباثيتيك تسـيّرها كيف تشـاء حتى تملأ الزجاجة ثم تهبط وتسـتقر في القاع بانسيابية كالتي بدأت بها الاستعراض.

أقول: الآن نال الظلامُ حريّته. قاع الزجاجة مأواه لا وجه بديعة.

أبتسـم. أنظر إلى بيتهوفن وهو يعلو بباثيتيك-ه ويأخذها إلى ال«الخوف فأمل فخوف فأمل». أمازحه فأقول: «لا. الخوف مستقرٌّ في قاع الزجاجة يا عزيزي. الآن الأمل».

الآن الأمل...

آتي بالفرشـاة. لا ألتفت إلى بعض رواسـب اللون القديم العالقة على بعض شـعيراتها. فخليط «النور» الذي يوشـك أن يولد سـيسـبقه إلى الكانفس. ألا تعلم تلك الرواسـب الجاسوسية الحمقاء أن سرعة الضوء قاهرة عجيبة؟ أغمز لبديعة: اسخري منها كما أسخر منها فإنها حمقاء!

ها قد و صل النور إلى سطح البالتة: خليط من Flesh Tint (زهري فاتح أقرب إلى لون البشـرة)، و White Zinc (أبيض ناصـع)، و Yellow Naples (أصـفر فاتح ومكتوم)، ومسـحة خفيفة بالكاد يلامس بها طرف الفرشـاة ال Cadmium Yellow (أصـفر ناصـع كأصفر حبّة الليمون مكتملة النُّضوج).

هلّلي يا بديعة! إنّ النور في طريقه إلى كل ما ارتفع وبرز من ملامح وجهك بثقة أمام الضوء ليراه، فرآه.

أتّكئ على فرشاتي وأمضي بالنور على المساحات البارزة في وجه بديعة مستعينة بصورتها الفوتوغرافية: عظمة الحاجبين، جفني العينين المتحركين، عظمة الفك، عظمة الذقن، وعظمتي الوجنتين.

كل عنصـر يعلو ويرتفع نسـبةً إلى ما حوله يعطي الضـوء مائة سـبب ليحطّ عليه بقوة فيُكسبه صفاته ويجعله عنصرًا مضيئا واضحا وهّاجا كالمشكاة. ولا أعلم إن كان النور يهب ضوءه لما يرتفع فقط لأنه بالفعل لم يرَ سواه، أم أن النور لا يحترم إلا الأشياء الواثقة، الثابتة، التي تقف أمام الكون فتسمو وتصرخ: «ها أنا أقف! لا يخيفني شيء ولا أتوارى»، وأن الغائر المختبئ لا ينال منه ذات الاحترام. أم أنه، حقيقةً، يشـفقُ خِفيةً على هذا الغائر المنطوي الذي لا يقدر على الغوص في أعماقه فيأبى أن يمضي قبل أن–على الأقل–يُسقط نوره على المرتفعات فتسعد المنطويات بأن تجد حولها نورًا يوازن ظُلمتها ويحيط بها؟

ستظل علاقة الظل بالنور كما علاقة الخير بالشر، والظلم بالعدل: علاقة أبديّة معقّدة، لا الرابح فيها رابحًا طول الخط ولا المهزوم فيها مهزومًا إلى يوم الدين. وستظل تُبهرك في كل مرّة تحاول فيها النظر بتجرّد من بعيد فلا تعلم إن كانت العلاقةُ علاقةَ هرّة و فأر متناحرين، أم علاقة هرّتين صغيرتين تلعبان معًا بكرات الصوف في جحرهما الدافئ الصغير.

بينما تأخذ الباثيتيك منعطفًا آخر من الهدوء القَلِق، أحاول حلّ لغز آخر اشتبك دون قصد بلغز الظل والنور: في النهاية...هل بإمكان النور بسرعته وقوّته وقدرته على إبرازعظمة هنا أو نتوء هناك في وجه بديعة أن ينسيها أذى بيت (علي بك الكبير)؟ هل يستطيع الفك البارز أن يغيّر شيئًا من واقعها البائس...أي شيء؟ فها هي بديعة بكل المساحات المضيئة في وجهها لا زالت خائفة ولا زالت تحلم بالهرب إلى كفر الزيّات. فبماذا نفعها النور؟

لكن يا ليال...النورُ أملٌ. ولا يصحّ أن نُجهض مفعول الأمل مهما تمادى اليأس وتسلّل إلى داخلنا. لولا الأمل لما اشتهت بديعة «مدوّرة» جديدة تتزيّن بها، ولا واصلت اللعب مع أبناء الجيران رغم كل ما يدور خلف حيطان منزلها، ولا تخلّت في النهاية عن حلم الوابور الذي كان ليأخذها بعيدًا عن بيوت لا تعرف إلا النيل من نسوة وثقن في أهله حتى انتهى بهن الحال جثثًا هامدة تحت بلاطه. وتحت الصندرة-حيث تنام بديعة.

بين الحين والآخر،تفرض المعاني نفسها على أرواحنا. تقفز صورةٌ أو لحن أو فقرة من كتابٍ أو موقف ما، من باب ما من أبواب الذاكرة–وأبواب الذاكرة كثيرة–فتـ شاركنا الزمان والمكان ومُتعة التأمّل. أقول هذا لأنني وأنا أجلس «في حالي» مع بديعة وبيتهوفن والألوان الآن، بعد أن سافرت معهم من لغز إلى لغز، تأتيني قصيدة «علّمتني الحياة» مجدّدًا. إنما هذه المرّة أجد نفسي أتأمل مساحات الظل والنور التي للتوّ انتهيت منها وأتمتم:

ويـطول الصراع بين النقيضَيـ ـنِ ويَـطوي الزمانُ جيلاً

وتـظـلّ الأيـام تعرض لونَيْـ ـهـا عـلى الناس بُكرةً

فـذليـلٌ بالأمس صار عزيزاً وعـزيـزٌ بـالأمس صار

ولـقـد يـنـهض العليلُ سليماً ولـقـد يـسـقـطُ السليمُ

ربَّ جَوعانَ يشـتهي فسـحة ـرِ وشـبـعانَ يستحثُّ

وتـظـلّ الأرحـامُ تـدفع قابيـ لاً فـيُـردي بـبـغـيـه هابيلا

ونـشـيـد الـسـلام يتلوه سفّا حـون سَـنُّوا الخراب

وحـقـوق الإنـسان لوحة رسّا مِ أجـاد الـتـزويـر

صـورٌ مـا سرحتُ بالعين فيها وبـفـكـري إلا خشيتُ

التضاد. الشيء ونقيضه. الذكريات المؤلمة، والأمل بالاستيقاظ إلى يوم جديد أجمل من كل ما سبق. المدوّرة القديمة الهالكة، والمدوّرة الجديدة بهيّة الصورة والألوان. مدوّرة (هانم) أو (فردوس)

التي لن تلبسها بديعة أبدًا، ومدوّرة ارتضتها سكينة لنفسها فارتدتها مع خلخال هذه وملاءة تلك حتى يكتمل «الطقم»: طقم مقتنيات الضحايا. وابور يأخذنا إلى مجهول مشرق، ووابور آتينا بواقع مرير. هروب يعذّبنا، وهروب يهدهدنا.

يا الله! ما بالي أعود لقصة الوابور وفكرة الهروب كلما قصدت فرارًا؟ يا ليال كنتِ قد أعطيتِ الظلامَ حريّته فلِمَ العودة إلى قاع زجاجة التربنتين؟ أم هي الرواسب الجاسوسية على صغر حجمها تفعل الأفاعيل وتتفرّع وتتشعّب مثل الخلايا السرطانية الخبيثة وتكمن تحت كل مسحة لون مشرق وتتربّص؟ وتنفجر وتُفصح عن نواياها العدوانية وتستعرض قوّتها في اللحظة المناسبة: حين تضعف الفراشة وتتلجلج وترتعش في لحظة من لحظات اليأس حين يخيّم عليها دون استئذان.

لا أدري، لست واثقة. أخجلني ضعفي أمام معنى «الهروب» واستسلامي له فلم أعد أستطيع النظر إلى وجه بديعة.

اعذريني يا بديعة...

أنأى بوجهي عن بديعة وأنظر نحو النافذة يسارًا: هَرَبَ يَهْرَبُ هُروبًا أو هَرَبًا فهو هارِب. والمفعول مهروب فيه. «هَرَبَ فلان في الأرض»: أي أبعد فيها. و«هرب فلان من فلان»: أي فرّ منه، ولّى خوفًا (معجم المعاني الجامع).

طبعًا...وهل يهرب المرء إلا خوفًا؟ هل لإنسان أن يفرّ فرحًا؟ أو أمنًا؟ أو استقرارًا؟ بل هل يفر الإنسان إلا توقًا للفرح والأمن والاستقرار؟

«وبالليل يقفلوا عليا الباب بالمفتاح، والدنيا ضلمة فأخاف وأخرّي على روحي».

أتصوّر أن خوفك يا بديعة لم تتسبّب فيه«الضلمة» فحسب، إنما الأفكار والصور ورائحة العفن وقسوة الأب والأم والزمان التي تزورك مجتمعة في الغرفة وأنت مستلقية على سريرك.فإن حاولت إحداهن الفرار، أعادتها الأخرى إلى قلبك كرهًا.

عجيبٌ هذا الخوف. له جيش وعساكر ونظام وخطط عسكرية واستراتيجية وحِيَلُ قتال وخرائط يوزّع عليها المهام والأهداف ومواطن القوة والضعف، فلا يفلت منه إلا من تشبّث بقضبان الوابور.

10 ..الْتِلْمِيْذُ وَأُسْتَاذُه

– أصلًا بيتهوفن تلميذ موزارت.

– صحيح. لكنه بلا شك التلميذ الذي تفوّق على أستاذه.

أعلّق على رأي أبي بابتسـامة لا داعي أن أخفي المكر الكامن فيها. فأنا أعلم علم اليقين أن ردّي هذا سـيغضـب عازف البيانو الكهل الذي يعتبر موزارت الجد الأكبر لعائلته، فلا يكترث بعبارة «جمهورية مصـر العربية» المطبوعية على جميع وثائقه الرسـمية من شـهادة ميلاد، وبطاقة شخصية، وشهادة زواج، وشهادة تخرّج من مدرسة وجامعة. لا زال يحدّثنا عن موزارت و شجرة عائلته ونشأته ومؤلفاته المو سيقية وطباعه الشخصية كأنها حكايات عائلية موروثة تناقلها أجداده أبًا عن جد حتى وصلته فحفظها عن ظهر قلب، ثم أخذ ينقلها لنا مخافة أن تندثر أساطير «الجد» الأكبر للعائلة الكريمة.

يواصـل أبي دفاعه المسـتميت عن «الجد» وهو ينظر إلى عينيّ بحزم لا يقبل الرفض أو الجدال، ويقول:

– مـستحيل! لا يمكن أن يتفوّق على أ ستاذه. موزارت بدأ من لا شيء إنما بيتهوفن بدأ من حيث انتهى موزارت. كما أنّ تأثّره بموزارت واضـح جدًا. لا أفهم كيف لا ترين هذا بنفسك؟!

– لا أحد يبدأ من لا شـيء يا بابا. كلنا يأخذ عن الآخر ويضـيف. ثم أن العبرة ليست بمن بدأ أولًا ومن التحق بعدها بالركب. إنما العبرة بمن تميّز ومن كان فنّه أقرب وأصدق في التعبير عن المشاعر الإنسانية بكل تعقيداتها وتركيباتها المدهشة.

لا يطيق أبي فكرة أن يتفوّق بيتهوفن على موزارت حتى إن كان هذا التفوّق مجرد حروف في كلمات قيلت على لسـاني أنا، لا مقالة في جريدة عالمية شـهيرة أو فقرة لمؤلف معروف في كتاب من الكتب الأكثر مبيعًا في العالم.

الآن يكمل مرافعته المصـيرية كأنه مُحامٌ حقوقي ويلجأ هذه المرّة في حُجَجه الدفاعية إلى البيان العملي فَيَهمّ واقفًا بعزم وهو يسوق براهينه سائرًا نحو البيانو:

– المشاعرالإنسانية؟! وهل يعرف بيتهوفن عن المشاعر الإنسانية غير الشاذ والمعقّد منها؟ ماذا يعرف عن المشاعر الإنسانية السوية؟ ماذا يعرف عن الرقيّ؟ اسمعي يا ليال....

ثم يجلس على المقعد الخشبي الصغير المو ضوع أمام البيانو ويمد يديه وأنامله العشر على متّ سعهم، كلٌ في و ضع الا ستعداد على مفتاح من مفاتيح البيانو البي ضاء أو الـ سوداء. لحظة صـمت وتركيز يتبعها شـهيق وزفير سـريعان، ثم يبدأ بعزف مقطوعة « Turkish March»(المارش التركي)؛ وهي السوناتا الحادية عشر لموزارت.

أضـحك في مقعدي بهدوء وأنا أسـتمع إلى مقطوعة سـمعتها ألف مرة منذ أن جئت إلى الدنيا وبلغ إدراكي معاني الأشياء.

- أعرفها طبعًا يا بابا...ولا أنكر عنها أبدًا صفة الجمال.

- ماذا إذن؟!

يتساءل بابا ثم تأخذه المقطوعة معها إلى بلدان وأماكن-وربما أزمنة-أخرى بعيدة، فلا يبقى بيننا إلا جسدُه المستقيم وأنامله الطائرة فوق مفاتيح البيانو.ولا أظن أنه فعلًا كان ينتظر تعليقًا أو رأيًا منّي. كان سؤاله أقرب إلى الاستنكار من التساؤل الصادق. لم يكن ينتظر «نعم» أو «لا» كإجابة، لكنه على الأغلب أراد أن يُنهيَ الجدلَ القائم بيننا بعبارة ختامية استنكارية لصالحه تُشعره أنه قد فاز في المعركة. وفي الليل ينام مرتاحًا على وسادته واثقًا من أن بيتهوفن لم يتفوّق على أستاذه، وأن «الجد» الأكبر لا يوجد من ينافسه بعد.

يتركنا بابا ويسافر إلى فيينا كثيرًا.كلما احتدّ نقاش، أو علا صوت، أو تأزّم وضع، أو اندفعت غصّة إلى الحلق قبل أن تلحظها العين فتُطلق لها العنان، يذهب إلى مقعد البيانو ويسافر. لا يبالي. ولمّا ازدادت اندفاعات الغصّات إلى الحلق، ازدادت معها رحلاته إلى فيينا، فازداد بيتنا ظُلمةً على ظُلمة.

في طريقي إلى الباب قبل أن أترك غرفة المعيشة وفيها بابا عالقًا حيث هو عالق، أختلس نظرة سريعة إلى ماما التي لم يدفعها لا فضول ولا اهتمام إلى المشاركة في الحوار الدائر بيننا رغم أن مقعدها لا تُبعده عنّا سوى بضعة سنتيميترات.

- ما رأيك في هذا الكلام يا ماما؟

- لا أدري. لا تهمني الموسيقى كثيرًا.

تجيبني ماما وهي مستلقية على كرسيها الهزّاز. تضغط ضغطات خفيفة بقدمها الأيمن على الأرض فتتأرجح بالمقعد خلفًا وأمامًا. بين يديها لوح إلكتروني مشبّثةٌ عليه عيناها من تحت نظارتها الرفيعة ذات العدسات المكبّرة التي تعينها على القراءة. فَمُها يرسم دوائر متكرّرة و سريعة تُحدثها العلكة بين فكّيها لتسلّيها أثناء التصفّح. وربما لتشغلها أيضًا عن أحاديثنا المملّة حول الموسيقى.

***

منذ أن جاءت صديقة ماما الحميمة إلى بيتنا ذات يوم من العام 2011 وفتحت أمام أمي عالم الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) على مصراعيه، وقعت ماما أسيرة لسحر هذا العالم. سجّلت لها (طنط عزّة) حسابًا شخصيًا على موقع «الفيس بوك»، وحمّلت لها صورة فوتوغرافية ليتعرّف على حسابها بقية الأهل والأصدقاء فيطلبوا إضافتها. كما سجّلت لها أيضًا بريدًا إلكترونيًا e-mail وأرتها كيف تتصفّح مواقع مختلفة مثل YouTube وGoogle وغيرهما.

كان يومًا حافلًا لا يُنسى.

- لا يا عزة! أيعقل؟ شاب الشعر وكلها سنوات وتتساقط الأسنان وتريدينني أن أتعلّم الدخول على هذا الإنترت؟! فلنترك أمور الشباب للشباب. ليس الإنترنت لأمثالنا.

- بلا سفسطة وكلام «فاضي»! اسمعي الكلام يا هالة. هذا الإنترنت سيضيف عمرًا إلى عمرك، و سيجعل لك في سنوات تساقط الأسنان ونيسًا، و سيو صلك بأحباب قدامى وجدد، ويعرّفك على أماكن وأشياء لم تعريفينها أبدًا. ستسافرين من خلاله إلى العالم كل يوم وأنتِ هنا؛ تجلسين على هذا المقعد ذاته وقهوتك و سيجارتك هاتين ترافقانك. «ماتبقيش بومة بقى!».

لطنط عزّة أسلوب خاص وساخر يروق لأمي. فهي مرحة ومنطلقة، تحب الناس، ثرثارة وكلامها سريع. لا تُنهي حكاية إلا وتبدأ في أخرى. تستيقظ من الفجر الباكر لتمضي بجسدها الصغير الممتلئ إلى المطبخ فتحضر الفطور لعائلتها الكبيرة نسبيًا (فعائلتها مكوّنة من خمسة أفراد بالمقارنة إلى عائلتنا الثلاثية). ثم تقصد ناديها تتريّض فيه قليلا قبل أن يأخذها مشوار بعد مشوار، فلا تعود إلى البيت إلا ليلًا في أغلب الأحيان.

تزور بيتنا بغتةً، دون ســابق علم لأهله. تجد ماما نائمة فتوقظها. تجرّها جرًّا وتحاول بكل الســبل إقناعها بأن تبدّل ثيابها لتذهبا ســويًا إلى أي مكان «يغيّروا جَوْ». تســمّي أمي «بومة» لأنها مختلفة عنها في معظم الصــفات والطباع. فماما كســولة، تميل إلى الاكتئاب، خجولة، تفضّل المكوث في البيت ولا تبرحه إلا نادرًا، لا تشارك في أية أنشطة، وقليلًا ما تختلط بالناس. كثيرًا ما تقاوم محاولات طنط عزّة لســحبها خارج البيت، إلا أن طنط عزّة تجيبها في كل مرة ب «يا بومة!» وتُطيل في مد حركة الواو لتؤكد على المعنى، فتضحك ماما و تسلّم.

لهذا، كانت عملية إقناع ماما بالانضــمام إلى عالم الإنترنت أمرًا هيّنًا على طنط عزّة التي صــارت معتادة كل أســاليب ماما في المقاومة، وتتعامل معها بفن وحنكة. فما كان منها إلا أن أغرتها بهذا «الونيس» الجديد وبقائمة مما يمكن أن يفعله لها مختومة بعبارة «يا بومة»، حتى سلّمت ماما و لان حزمها وتشبّثها برأيها. وجاء مشهد رفع الراية البيضاء بسرعة. ولأن طنط عزّة، بالإضافة إلى صفاتها المرحة والعفوية، تتمتّع أيضًا بذكاء شديد، وخبث محمود، فقد تركت «الكرزة التي تزيّن أعلى الكعكة» إلى آخر جولة من جولات خطّة الإقناع المُحكمة. فوقع الخبر على ماما كالصاعقة:

– وأزيدك من الشعر بيتًا؟ أتذكرين (أمل)؟ صديقتنا من الصف الثالث الابتدائي بالمدرسة؟ البنت النحيفة صاحبة الجديلتين القصيرتين، من أم سورية وأب مصريّ. كانت أمّها تخبز لها فطائر الجبن بالزعتر تقول اسمها «مناقيش». وجرت العادة أن تتقاسمها معنا كل يوم في الفسحة. هاهاهاهاها! كنت تأكلين واحدة وتكتفين فآكل أنا نصيبي ونصيبك «لحد ما طلعوا عليّا منقوشة منقوشة» وصرت كالفيل!

تحيّر القصة ماما فتنشغل بفضولها عن الضحك على قصة المناقيش، وتسأل طنط عزّة بسرعة ترتجي بها إجابة سريعة بالمِثل:

–بلى، بلى. أمل عبدالرحمن. ماذا عنها؟!

تبتسم طنط عزّة وقد حسمت المعركة لصالحها فراحت تستمتع بلذّة النصر. تأخذ رشفة صغيرة وواثقة من قهوتها ببطء غير مكترثة كثيرًا بنظرات الفضول القاتل في عيني أمي. وبعد لحظات تجيبها بتروّ:

– وجدتها على الفيس بوك الأسبوع الماضي. طلبت إضافتي فقبلت، وتبادلنا السلام والحديث ورأيت صورتها. الجديلتان القصيرتان اختبئتا تحت الحجاب. وعيناها لاتزالان واسعتين ورموشها السوداء الكثيفة لازالت تكحّلهما. بعض التجاعيد هنا وهناك تبرزهما ابتسامتها في الصورة. لكن وجهها في المجمل لازال جميلًا ونضرًا وفيه من البراءة التي عهدناها عليها دائمًا.

-غ-ي-ر م-ع-ق-و-ل...

جاء رد ماما على قنبلة طنط عزّة مشبّعًا بالذهول الجمّ. تحاول ماما استيعاب الخبر بكل زواياه واستشفاف توابعه المحتملة. فماذا يعني أن ترى صديقة لم تقابلها منذ أكثر من ثلاثين عامًا ولم تكن تتصوّر أن تجمعها بها الأيام مجدّدًا إلا في عالم الأحلام؟! وماذا يعني أن يصير عالم الأحلام حقيقة تعايشها بكل تفاصيلها؟

أعجبت طنط عزّة نظراتُ الاندهاش على وجه ماما فلم تستطع مقاومة توالي الانفجارات:

- تزوّجت من مهندس معماريّ اسمه (عادل)، تعرّفت إليه أثناء تحضيرها لرسالة الماجستير في العلوم بمدينة ماربورغ الألمانية.

- أمل حصلت على الماجستير؟

- نعم، والدكتوراه أيضًا. الاثنان من ألمانيا. وهي الآن دكتورة في إحدى الجامعات الخاصة بالقاهرة.

- ما شاء الله.

مدّت ماما يُمناها تقصد فنجان القهوة ثم تراجعت. كأن السؤال باغتها:

- كل هذا عرفتيه من الفيس بوك؟!

هنا شعرت طنط عزّة بنضوج فريستها فجاء طلبها مباشرًا وبلا تردّد:

- يا ليال! أحضري لوحك الإلكتروني أو جهاز اللاب توب بسرعة من فضلك! أمك من اليوم سيصبح لديها حسابًا على كل شبكات التواصل الاجتماعي فيكِ يا مصر!

تقهقه طنط عزّة فتتبعها ماما. أسمع ضحكهما من البلكون. كنت أتابع حديثهماوأنا أجلس هناك أحاول قراءة كتاب بين يديّ. صوتهما العالي حال بيني وبين القراءة المتعمّقة حتى انتهى بي الحال ممسكة بالكتاب، أتظاهر بقراءته، ولا أقرؤه. الحقيقة أنني كنت منشغلة بحوارهما الممتع. فلما نادتني طنط عزّة لم يكن طلبها مفاجئًا أو غريبًا. كان الغرض من طلبها واضحًا جدا ولا يستوجب الاستفسار.

«حاضر يا طنط» كانت تكفي وأنا أَهُمّ متّجهة إلى غرفتي لإحضار«الآي باد» وأذهب به إلى مجلسهما بالصالون.

جئت بطلب طنط عزّة ثم جلست إلى جوارهما على مسند الأريكة التي كانتا تجلسان عليها. بصراحة أردت أن أكون قريبة من هذا الحدث الجلل. تنظر ماما إليّ وهي تبتسم ابتسامة خجلى.

- أرأيت يا ليال ماذا تريد طنط عزّة فعله بي؟!

ابتســمتُ. لم أعلّق. ظللت أنا وماما نراقب طنط عزّة، التي كانت تتوسّــطنا، وهي تملأ البيانات المطلوبة لتسجيل الحساب الجديد.

- أية صورة شخصية تودّين أن أحمّلها لك؟

- لا! لا! لا يصل الأمر إلى صورة يا عزّة!

انفجرنا في الضحك أنا وطنط عزّة بينما ظلّت أمي محتفظة بابتسامتها الخجولة القلقة.

على العموم هذا شأن العام 2011. أما الآن، فقد انتقلت أمي من «لا! لا! لا يصل الأمر إلى صــورة يا عزّة!» إلى حســابين شــخصــيّين على التويتر والإنســتجرام ســجّلتهما بنفســها لنفسها، ودون معاونتي لا أنا ولا طنط عزةّ، وإلى رَفْعِ صور شخصية الواحدة بعد الأخرى. كان آخرهما صــورة لها مع طنط عزّة وطنط أمل كتبت تحتها: «ليس في الحياة ما هو أجمل من جلسة صداقة عذبة».

11 ..سَلالِمُ الجَامِعَةِ

كانت تُلملم أغراضــها؛ الكتاب فوق الكتاب، ورزمة أوراق مع رزمة أوراق أخرى، وقلمًا أو قلمين. وسارت إلى باب قاعة المحاضرات حين لمحتني أسير إلى جانبها. رفعت حاجبيها فجأة واتّسعت عيناها لتخبرني مندهشة:

- أنت يا ليال تشكّلين لغزًا حقيقيًا بالنسبة لي. أنت من أنجب الطلّاب هنا في الجامعة. ما من أستاذ أو أستاذة إلا وأشاد بأدبك وتفوّقك.

واصلت الدكتورة (إيمان)حديثها بينما خرجنا من باب قاعة المحاضرات وسرنا إلى سـلّم المبنى نهبط أدراجه وقد أحاطت كتفيّ بذراعها الأيمن فاضـطررت أن أبطئ من خطوي:

-... ومع هذا فأنت شديدة الخجل. لا أراك أو أسمعك تتكلّمين لا داخل المحاضرات ولا خارجها. لا تشاركين في المناقشات التي تدور حول أي موضوع نثيره أثناء الدروس، ولا تطلبين الإذن لسؤال، أو تسارعين بإجابة كبقية زملائك وزميلاتك.

ثم ما إن وصـلنا إلى الباب الرئيسـي الكبير المؤدّي إلى فناء حرم الجامعة الواسـع حتى توقّفنا عن السير إنهاءً للحديث.ختمت كلامها تقول:

- كلّها شـــهور وتتخرّجين من هنا. وكنت أفكّر جديًّا في مناقشـــة عميد الكليّة وبقية الأ ساتذة في أمر تعيينك بالجامعة بعد التخرّج. إلّا أنني أخ شى أن يبقى خجلك هذا الزائد عن الحد عائقًا دون قدر تك على التدريس بالكفاءة المطلو بة، والتواصـــل مع الطلبة والطالبات والأساتذة. فهي وظيفة تحتاج إلى الكثير من التواصل.

لم تنتظر تعليقًا من جانبي. ألقت ما في جعبتها من خواطر وتســاؤلات بنبرة صـــارمة، خفّفت الابتســـامةُ وذراعُها المحيط بكتفيّ من حدّتها قليلًا، ثم حيّتني متمنيةً لي التوفيق، ومَضَتْ. «ربنا يوفّقك».

لا أدري لماذا أســترجع تلك الواقعة تحديدًا الآن وأنا في الغرفة أتأرجح بين (الظل) و(النور)، ووجه بديعة و شيءٌ منّي مشبّث معها بقضبان الوابور. شيءٌ منّي يريد أن يذهب إلى «كفر الزيّات». عند «خالي».

أقول هذا ولســت واثقة من دقّة اختيار لفظة «أســترجع» (أو أي من مرادفاتها). لا أظن أن «الاسترجاع» - هنا - هو الوصف الأدق لما أنا عليه من حال. فتلك الواقعة وغيرها من الوقائع المشـــابهة تلازمني كل يوم. لا تفارقني. تجاور الأنفاس والأفكار ودقّات القلب المتسارعة أو المتباطئة. مرّت سنة، سنتان، ثلاث سنوات، أربع سنوات، خمس سنوات،

والواقعة لازالت تنبض وتلوّح بيدها في آخر كل طريق.بل وأحيانًا ليست بقليلة أبدًا، تلوّح في مستهلّه لا آخره.تستيقظ، وتنام، وتضحك أو تبكي، وتتعجّل أو تُبطئ، لكنها في كل أحوالها لا تأتيني وحدها أبدًا. لا تأتيني إلا بصحبة مشاهد أخرى محفورة كذلك في الذاكرة وتلازمني يومًا بعد يوم بعد يوم.

إنها قافلة من المشاعر والأفكار والمشاهد التي تبرك بالقرب منّي يوميًّا...فهل لي أن أنساها حتى «أسترجعها»؟ لكنني مجازًا أقول «أسترجع»؛أسترجع الواقعة وأسترجع سلالم لا حصر لها احتضنتني لساعات طويلة على مدار أربع سنوات، هي مجموع سنوات التحاقي بالجامعة.

أحفظ الجامعة عن ظهر قلب. أعرف مداخلها ومخارجها ومتوسّط أعداد الطلبة والأ ساتذة المتوافدين عليها على تباينه في أوقات زمنية مختلفة من اليوم الدرا سي الواحد. أعرف مواقع تواجد الطلبة ال «popular» (وهم طلبة أصحاب نفوذ من نوع معيّن وهبوه أنفسهم لما يعتقدونه في أنفسهم من مستوى اجتماعي أو إ سلوب حياة خاص أعلى شأنًا ممن دونهم من الطلاب)، ومواقع تواجد الطلبة الـــ « losers» (وهم نقيض النوع الأول لما يفتقدو نه من هذا اللون من النفوذ المهيمن على الحياة الاجتماعية دا خل الجامعة؛ بعضهم يتطلّع إلى محاكاة الطلبة ذوي «النفوذ»، والبعض الآخر لا يبالي، فهو منغلق على نفسه)، وطلبة الكليّات بل والأقسام الأخرى، وتجمّعات الأساتذة والمعيدين، وتجمّعات عمّال النظافة والبنّائين والأمن وقائدي الشاحنات التابعة للجامعة.

أستيقظ كل صباح ولا يشغلنى سوى سؤال واحد: كيف يمكنني أن أتفادى أكبر عدد ممكن من هؤلاء اليوم؟

ولي مع سلالم الجامعة علاقة شديدة الخصوصيّة يمكنني تلخيصها في مشهد من أيام عامي الثالث أو الرابع الجامعي حين وجتني أصيح: «أوه! كم أنا محظوظة اليوم!».

حينها، أخذت أتأمّل السلالم الرخاميّة البيضاء بعينين التمعتا بالفرح فبدت لي السلالم بأبيضها الناصع ومخلّفات البناء التي كانت تغطّي معظمها وتتطاير أجزاء منه في الهواء كالدخان، كعروس جميل تُزَفُّ. أتأمّلها من بعيد وأتفحّص شكلها وهندامها بكثير من الفضول والإعجاب.

لا، لم تكن كبقية سلالم الجامعة. كانت سلالم بمذاق خاص. فهي نائية، تتبع آخر مبنى من مباني الجامعة التابع لكلية الأسنان ولم يكن مرّ على بنائه إلا عام بالكاد. يتوافد عليه العمّال طوال اليوم لمواصلة عمليّة البناء فيه. ينزعج الطلاب والأساتذة من أصوات معدّات البناء الطاغية على أركانه، كما ينزعجون من كونه بعيدًا عن كل البؤرالحيويّة وعن الحرم الرئيسي فينطلقون بعد كل محاضرة منه في أسراب قاصدة إحدى المباني الرئيسية القديمة والمزدحمة طيلة الأوقات.

كلّها أسباب تجعل من السلالم عروسًا في عيني أتأملها وتسحبني الأماني عبر السحب الجيرية أعلاها إلى وعود بأيام أهدأ لا تتسارع دقّات القلب فيها كثيرًا. ربما، تتسارع «قليلًا» فقط.

بين المحاضرة والأخرى، أسلك طريقًا طويلًا كنت قد اكتشفته أثناء عامي الدراسي الأول وهو طريق مواقف الشاحنات وسائقيها وبعض أفراد الأمن وعمّال آخرين. أسلكه لا لأنه مسيّج بأشجار كبيرة ومزدهرة تسُرّ النظرَ، لكن لأن السائرين خلاله قليلون جدًا. أسير بين الشاحنات العملاقة وأتّخذها لنفسي حجابًا فلا أعود منشغلة بإمكانية رؤية وجه مألوف يحيّيني فأضطر أن أرفع رأسي وأرد التحيّة ب«صباح النور» التي تشعرني أحيانًا وكأن الروح تنخلع من القلب. أسلكه من مبنى كلية الإعلام حتى المبنى القديم لكلية الأسنان البعيدة نسبيًّا. أما وقد اكتشفت السلالم الجديدة في المبنى الأبعد الجديد، فلم يعد هنالك بدّ من قصده دون غيره. أصعده وأظل أصعده حتى تنأى الأصوات وتصغر الوجوه من نوافذه الزجاجيّة المطلّة على حرمه الثانوي الصغير. أصل إلى آخر طابق ثم أمضي في ممرّات تؤدّي إلى ممرّات خالية وهادئة جدًا، لم تُهيّأ بعد لانعقاد المحاضرات فيها. ثم أقصد أبعد دَرَج في أبعد ممرّ لأبعد طابق... وأجلس.

يمر عامل من العمّال. يتفحّصني ويتفحّص كتاب أمسك به. ينظر ثم يمضي. يمر عامل آخر. ينظر إليّ وإلى قدميّ المزروعتين في الدَرَج من تحتهما. ينظر إليّ ثم يبتسم فأبتسم. ويمضي. يمر عامل آخر فيستوقفه تواجدي المفاجئ له في مكان ميّت كهذا، يسأل: «إنتِ كويسة يا بنتي؟». أبتسم وأجيبه: «أيوة. شكرًا». ويمضي. تمر عاملة نظافة. تبتسم فأبتسم. ثم تمضي لتعود بمقعدها البلاستيكي الأخضر وتضعه بالقرب من السلّم وهي تقول: «اتفضلي يا أستاذة. السلّم بارد عليكي يا حبيبتي». أبتسم وأجيبها بخجل: « شكرًا جزيلًا». وتمضي.

تأكلني الأ سئلة وتـ شغلني طوال رحلة جلو سي على الـ سلالم. أقول: أنا...لماذا أنا أنا؟ أقصد...لماذا أنا هكذا؟ لماذا يخيفني البشر ويخيفني الازدحام؟ لماذا تدغدغني حاجة ملحّة للهرب من الوجوه والخطوات؟ لماذا هذه الرغبة الشديدة المهيمنة كحاجة من حوائج الحياة مثل الأكل والشرب وقضاء الحاجة؟

كنت أسأل نفسي طوال سنين الجامعة: «لماذا؟». ثم تنافس رغبةَ الإجابة عن هذا السؤال رغبةٌ أخرى لإقناع نفسي بأن كل شيء على ما يرام، فأجدني أرسم ردًّا دافعُه الانكار: «أنا أحب القراءة. والقراءة تحتاج إلى الهدوء. هذا كل ما في الأمر يا ليال». فأهدأ. مؤقتًا. لأن الأسئلة لا تنفك تأتيني ركضًا على درجات السلّم من الحين إلى الحين.

وعلى السـلالم، أنشـغل بالقراءة سـاعة، ثم أقف وأترك مقعدي لأتطلّع من نوافذ المبني سـاعة. أنظر إلى التجمّعات بالأسـفل وأنا أراها من منظور الطائر المحلّق عاليًا (بلغة الرسم). أرى بؤرًا من القوافل والأسراب البشرية. أرى تجمّعات ملوّنة بعيدة تتكوّن من طلبة وطالبات يتسـامرون ويضـحكون. وتجمّعات «بيضـاء» لطلبة يرتدون سـترة الأطباء ويحملون بأيديهم أوراق أو ملاحق أو كتب منهمكين في الدراسة. طالب وطالبة مستلقيان يمدّان قدميهما على مقعدين آخرين أمامهما. يشير وضعهما والتساق جسديهما ببعضهما وتبادل النظرات الرقيقة بينهما إلى علاقة عاطفية تجمعهما. طالبات تتربّعن الحشـيش الاصطناعي المكحّل لمساحة دائرية كبيرة كالميدان تتوسّط المساحة الخارجية للمبنى حيث أقف. بينهن طالبتان تتشاركان الاستماع إلى الموسيقى أو الأغاني أو شيء من هذا القبيل. في الأذن اليمنى لواحدة منهما سـمّاعة موصـولة بجهازها المحمول ومؤدية إلى السمّاعة المقابلة في أذن الأخرى. وطالب مهرول خلال المشهد، تشي خطواته السريعة القلقة بتأخر محتمل على محاضرة أو فحص يخشى أن يفوته.

أتأمّلهم واليقين مزروعٌ في قلبي بأنني لا أمتلك مقعدًا بين المتسـامرين، ولا فسـحة من مكان بجوار الدارسين، ولا أرى نفسي في موضع العاشقين. الخوف يبعدني جدًا عنهم.

لم تكن ا لدكتورة إيمان وهي تعرض عليّ قائمة النصـــائح التي تبعَثْها بتمنّي التوفيق تنتظرردًّا منّي. وا ضح جدًا.فهي لم تنتظر أ صلًا! لا ولم تهيّئ لي هُنَيهة زمنيةلتُفسح لي مجالًا للردّ أو التعليق. ألقت أسـهمها ومضــت. أتعجّب من الأمر وأتسـاءل: عجيب! قالت أنني لغز يحيّرها ومع هذا فهي لم تحاول فهم اللغز. اكتفت بالتصنيف لا التحليل أو الا ستفسار الصادق (ألا تُشبه بابا كثيرًا في هذا؟).

أبتسم ابتسامة لا تخلو من السخرية: على أي حال، ما كانت معطيات الواقعة لتختلف كثيرًا إذا ما كانت أستاذة إيمان ألحقت تصنيفها بسؤال. فبماذا كنت أجيبها؟ «بخاف»؟!

عجيبٌ هذا الخوف...يأتيك من حيث لا تحتســب ولا يحتســب الآخرون. تخيفك أمور يأنسها غيرك فتضيع كل الملامح المشتركة بينك وبينهم. تصبح «شيئًا» غريبًا لا يشبه ما حوله. وتُلقي بك مخاوفك بعيدًا لتبيت وحيدًا، غريبًا، عاجزًا، مُشــتّتًا. ترى مَنْ حولك (بشــرًا صــحيحين) و تراك (فأرًا مذعورًا) صــغيرًا يدور وحده في حلقة مفرغة. تحاصــره الأفكار والأفكار وأفكار الأفكار ثم الأفكار...ثم المزيد من الأفكار...والأفكار. ترهقك الأفكار. تهزمك. يؤكّد لك من حولك أنك (صــحيح). أما أنت فتكاد تُقســم بالله العظيم الواسع العليم أنك (غير صحيح)، ولا تمتّ للصحّة بصِلة من قريب

أو بعيد. تُقسم لهم ولكَ- وأنت تنظر في المرآة لوجه تعلمه ولا تعلمه – أن لعنةً ما أصابت قلبك وعقلك. وأن قوّةً ما تتحكّم في دقّات قلبك فتَعبث بإيقاعه، وفي لسانك فتعقده عقدة غليظة مُحكمة. تقرأ عليه تعويذات فلا ينطق. ينعقد. يسُرّ أهواله في نفسه وينأى بها بعيدًا طيرًا مجروحًا هاربًامن السرب المحلّق للطيور «الصحيحة». ينظر إلى السرب من بعيد، فأبعد، فأبعد،خلال أحشاء زجاج النافذة الشفّافة. يتفحّص السرب. يفهمه. لكنه يوقن أنه لم يكن يومًا ولن يكون أبدًا جزءًا منه. يتضرّع لبارئه: «إله الكون...لِمَ خلقتني طيرًا وأنت تعلم أنني لن أجيد الطيران أبدًا؟».يرى انعكاسًا طفيفًا لوجهه وأجنحته في الزجاج: ربما...كنت لأكون شجرة كتلك الواقفة بين المتسامرين. لا. حتى الشجر يتواصل مع الأجواء بتمايل أغصانه وتساقط أوراقه على الأرض ونموّ أوراق جديدة له على الفروع المُثمرة. لست طيرًا ولست نباتًا. قد أكون جمادًا. قد أكون «كرسيّ». بل إنني هكذا فعلًا.

حمدًا لله أن الدكتورة إيمان لم تُمهلني وقتًا أعينها خلاله على فهم اللغز الذي – على حد زعمها – يشغلها (كثيرًا). فلو أجبتها بأني لا أُحسن التواصل لا لشيء سوى لأنني «كرسيّ» والله لكانت تحيل أوراقي بنفسها لمستشفى الأمراض العقلية لا إلى عميد الكليّة وبقية الأساتذة!

لكنها الحقيقة. والوصف الأدق لما أشعر به. والصورة الأوضح التي ارتسمت منذ زمن طويل عن نفسي. إنّ صورة الكرسيّ هي ال self-portrait(البورتريه الذاتي) الخاص بي. وليس تشبيهًا بليغًا أو صورة جمالية لمعنى مستور في لوحة سيريالية خيالية. لا ولا معنى مجرّد إلى أجزائه وتفاصيله في لوحة تجريدية أو تكعيبية مُركّبة. إنما هي لوحة كلاسيكية واقعية تنتمي إلى مدرسة ال realism، فهي شديدة الواقعية. واقعية إلى درجة مرعبة. واقعية إلى حد الهلاوس.

وبالرغم من أن الدكتورة إيمان لم تمنحني حق الرد الذي تشدّ على أهميّته كعمود من أعمدة «المهنيّة» و«المصداقية» و«التوازن» في مواد الصحافة التي تُدرّسها، إلا أني أمنحه أنا لنفسي. وأجيبها عنوةً ولو في خاطري:

«عزيزتي الدكتورة إيمان،

بعد التحية الطيّبة، أرجو أن تقبلي اعتذاري عن اللّغز الذي تسبّبت – دون قصد – في شغل بالك به ليالي متّصلة. أعتذر عن الأيام التي أرّقك فيها التفكير في أمري. بل وأعتذر عن انشغالك بالأمر إلى الحد الذي جعلك تحيطين كتفيّ بذراعك بينما تعرضين عليّ تساؤلاتك ثم تمضين بسرعة دون انتظار الرد. ربما خفتِ من الرد.

فحل الألغاز، على تشويقه و شفائه للصدور الحائرة، قد يأتي أحيانًا بردٍ يُفرح الصدورفيتم شفائها، أو يُطبق عليها فتعود لتمرض. أفهمك تمامًا. لكن اسمحي لي أن أهب نفسي حق الرد المنزوع منّي حتى لا أُزعجك أو أشغل بالك ثانيةً.

أ ستاذتي الفا ضلة، يؤ سفني أن أخبرك أنني، على ما ترينه من جسد والحمد لله صحيح، وقدمين وذراعين ووجه كوجوهكم وأنف كأنوفكم، إلا أنني «كرسيّ». نعم. أقصد ما قلت تمامًا. وصدّقيني، لم أختر أن أولد على هذه الشاكلة، ولست سعيدة كثيرًا (ولا قليلًا) بهيكلي الخشبي هذا وبمساميره الحديدية الصَدأة المُمسكة بمفاصله الخشنة. وإن كنتِ لا تصدقينني، فاسألي ماما، هي من حملتني تسعة أشهر وجاءت بي إلى هذه الدنيا، وتستطيع أن تؤكّد لك وتشهد بأنني «كر سيّ» يُحيّر من حوله من بني البشر. و صدّقيني ولتصدّقني ماما أيضًا (إن أرادت) أنني لم يأت بي إلى هنا إلا الخوف...خوفٌ مركّبٌ ومُستتِر.

لا أتواصل معكم أو مع من سواكم لأن الخوف يهزمني في كل مرّة. تخيفني نظراتكم وإن غمرها الود. يخيفني حديثكم وإن لم يتعدَّ النمط الطبيعي المعتاد. تخيفني الأسئلة وإن بدت لكم أسئلة «عادية». فما يبدو «عاديًا» لكم يبدو «فظيعًا»، «غريبًا» بالنسبة لي – أنا الفأر المذعور والطير المكسور جناحاه. لكم عالمكم ولي عالمي الذي تختلف فيه المعاني والمرادفات. لذا، فلفظة «عادي» بالنسبة لي، كلمة لا وجود لها اللهم إلا في محيط غرفتي الصغيرة الآمنة واللوحات الطيّبة التي أستأنس بصحبتها.

ولأنني أعى تمامًا أن لي لغة تبدو غريبة لكم في مفرداتها و صورها، سأتحدّث إليك من منطلق لغتك الأكاديمية، من منظور علوم التسـويق من جانبه النفسـي. أتذكرين درس «البحوث التسويقية» الذي تطرّقت فيه إلى ضرورة البحث عن ال mental image (الصورة الذهنية) لمنتج ما لدى المُستهلك؟ نعم، سأبدأ من هنا. فإن لديّ الكثير من الصور الذهنية عن الحياة الاجتماعية في الجامعة التي أود مشاركتك فيها.

إن الجامعة وهي مكان آلف شكله وحجمه وتفاصيله وبعض الوجوه الثابتة فيه، ليست إلا غابة كبيرة بعيدة كل البُعد عن مأمني تسكنها وحوش وحيوانات مفترسة متربّصة. إن هدأ حَرَمُها وقاعاتها، صار أكثر رُعبًا والقلب متوجّس من ضبع يظهر في المشهد فجأة، أو أسـود تركض بعزمها في اتّجاهي من حيث لا أشـعر، أو طير جارح يحطّ عليّ من علٍ فلا أقوى على طلب النجدة قبل أن يودي بحياتي على مرأى ومسـمع من بقية الحيوانات المتوحّشة. وإن زال الهدوء وتحوّل سكونه إلى ضجيج وازدحام، تضاربت دقّات القلب مفزوعةً محاولةً تفادي الكائنات الكثيرة الغريبة حولها قبل فرار حتميّ لا بدّ منه.

« صباح خيركم» و«مساء نوركم» و سلاماتكم على اختلاف نبراتها ولغاتها، لا تقفز إلى أذني إلا بغتةً مُفزِعةً مهما سـبقها إنذارٌ بإيماءة أو ابتسـامة. ولا تحلّ على نفسـي إلا مطارقًا تكسّر وتبطش، لا ردّ لها ولأذاها مهما أتتني رقيقة وخافتة ومكسوّة بطيّب القول وأحسنه.

أحاديثكم ليست سوى مركَّبات لفظية لا خير ولا سلام يُرتَجى منها. هي القطار يمضي سريعًا مستقيمًا آمنًا حتى تنزلق قدمٌ على قضبانه فيدهسه بلا رحمة. وأنا أخشى أن تزلَّ قدمي كخشـيتي الغابة وأصـوات المطارق المُرعبة. أخشـى الترقّب وأخشـى دقّات القلب التي ليس لي عليها أبدا سـلطان. مهما أحاول، لا تزيد محاولاتي الدقّات إلا تضـاربًا أسـرع وأشرس، يرُج ويرُج ويرُج.

كأني أ سمعك تردّدين أن تلك كلها «أمور عادية»؟ أذكّرك أن قامو سي مختلف وأن كل «عادي»، «غريبٌ» في لغة الطيور المريضة في أقفاصها.

اعذريني...لم أقصـد أبدًا تجاهلكم، وما كان نفوري من التواصـل معكم إلا فرارًا من ضـباع أطلّت فجأة وأسـود تتربّص وطيور جارحة تُفزعني، ومطارق تجعل الموت أقرب إلى القلب من فكرة الحياة، وقطار أخشى أن تزلّ قدمي أمامه فيدهسني وهُم لا يشعرون.

نعم، فَرَرتُ وأَفِرُّ وسـأَفِرُّ. لكن، أرجوك أخبريني... هل يفر المرء فرحًا؟ أو أمنًا؟ أو اسـتقرارًا؟ بل هل يفر المرء إلا بحثًا عن الفرح والأمن والاسـتقرار؟ أو حين يزدحم حرم الجامعة بضـباع وأسـود، ويعلو فيه صـوت المطارق، وتسـير فيه قطارات لا ترحم؟ هل يتشبّث الإنسان بسلالم الجامعة أو بقضبان الوابور إلا عندما يرى طيف الأمل في هذه البُقعة البعيدة، البعيدة جدًا؟....».

أخلُص من كتابة الرسالة قبل أن تخلُص الرسالة بكل ما أود أن أُخبر الدكتورة إيمان به. أنهيها بالتشديد على الاعتذار منها كوني لست «كبقية زملائي وزميلاتي»، ثم بالتحية والتمنّي لها بالتوفيق وبدوام الصحّة والعافية و«التواصل». شغلني عن استكمال الرسالة جهازُ هاتفي المحمول الذي أخذ يرنّ فجأة. تُظهر الشاشة اسم المتّصل بفونت كبير وواضح لا مفر من رؤيته

والتحقّق من مضمونه: «Mariam is calling» («مريم تتّصل»). فتزداد الأصوات مطارقًا على مطارق، ويزدحم المشهد بضباع بعد ضباع، وتسبقني دقّات القلب إلى المأوى من الفزع قبل أن أهِمّ راكضةً إليه.

الجهاز على الصامت. لا أُجيب.

12 المُحَرّرُ الصَحَفِيُّ القَاطِنُ بِالطَّابِقِ العُلْوِي لِعَقْلي

- يا ليال، تعالي معي من فضلك.

- حاضر.

تركتُ الطاولة الدائرية التي جلسنا أنا وسبعة آخرون من الشباب والشابات حولها. لحقتُ به مُسرعةَ الخطو لتواكب خطواتي القصيرة خطواته الواسعة. فعلتُ كما طَلَبَ وذهبت معه، إلا أنني – وإن لم أخبره ولا أخبرُه أحدٌ– لم أكن ألحقه وحدي. ذهبت ومعي سرًّا دقّات قلب لا تهدأ، وعينٌ شاردة تنظر ولاتُبصر، وخطوات مهتزّة غير واثقة تتشبّث بالأرض كلما دبّت تتمنّى لو أنها تغوص الأرض فتصبح من سكّان ما تحتها لا ما فوقها، وجسد ويدان ترتجفان مختبئتان في جيب معطفي شتاءً، ومضمومتان مشبّثتان بحقيبة يدي صيفًا. وهذا حال كل الفئران المذعورة على كل حال.

مشى ومشيتُ من خلفه في ممرّ ضيّق قصير في آخره عن اليمين غرفة بابها الخشبي مفتوح و ضوؤها الأصفر مشتعل وممتد إلى الممر خارجًا. أرجّح أن شخصًا أو مجموعة أشخاص بداخلها. لم يقل شيئًا ولم أسأل. كنت في طريقي – على قصره – أفكّر: ماذا فعلتِ بنفسك يا ليال؟ كانت فكرة «هباب»! يا ليتني لم آتِ إلى هنا أبدًا. لا أريد هذا. أريد غرفتي. الآن. الآن! لن آتِ إلى هنا مجدّدًا. انتهى!

دخل أســتاذ (محمد) فدخلت. كان دكتور (داوود) ينتظرنا جالسًــا على مكتبه. جلس أســتاذ محمد على المقعد الوحيد المقابل للمكتب وبقيت واقفة أمامهما. شــعرت لوهلة أنني أمام قاضٍ في محمكة أو ضابط شرطة في القسم، فارتبكت أكثر وازدادت دقّات القلب ولحقت بها رجفات لا أســتطيع تحديد ما إذا كانت رجفات برد أم حرارة زائدة. ثم وقعت عيناي على بعض الرســومات التي كنت قد قدّمتها للمركز أثناء تســجيلي لدورة الفنون الجميلة فيه، فلعنت اليوم الذي رســمتها كلّها فيه لأنها –على ما يبدو – هي من جاءت بي إلى هنا لأقف أمام رجلين غريبين يتفرّسان فيها وفيّ، وشيء ما يوشك أن يحدث، سأضطر أن أنتظره لأن ليس لديّ خيار آخر.

ابتسما لي، إلا أن ابتسامتهما لم تخفّف من حجم ارتباكي لأنني لم أفهم المغزى الحقيقي منها. ثم جاء سؤال دكتور داوود في لحظة من لحظات ذروة اضطرابي:

- ما اسمك يا حلوة؟

- ليال.

- كيف حالك يا ليال؟

- بخير الحمد لله.

- كم عمرك؟

- سبع عشرة.

- وهل قمت برسم هذا؟

- نعم.

- وحدك؟

- نعم.

- أأنتِ متأكّدة أن أحدًا لم يساعدك في رسم هذا؟

- لا، لم يساعدني أحد.

- هل سبق لك أن التحقتِ بدروس أو دورات رسم من قبل؟

- لا، هذه أول مرّة.

- وكيف تمكّنت في هذا السن الصغير ودون توجيه من رسم هذه اللوحات وحدك؟!

زادني السؤال رجفةً. كنت على وشك أن أجيب: «أرسم منذ أن كنت صغيرة جدًا. يقول والداي إن أول ما رسمته كان بورتريه لأبي في سن الخامسة، رسمته على white board (صابورة بيضاء) اشتراها لي والداي للّعب.

لكنني كنت أقوم بالرسم عليها معظم الأوقات. ولما رآ ما رسمت جاءا بكاميرا وقاما بتصويرها فورًا، فشعرت أن الموضوع مهم. ولما تكرّر الأمر، اشترا لي sketchbook وألوان وبقية مستلزمات الرسم. ومنذ ذلك الحين وأنا أرسم يوميًا تقريبًا فصرتُ أتعلّم من خطأ ومن صواب».

قلت: «كنت على وشك أن أجيب»، لأنني لم أجب بهذا في النهاية. فعقلي الذي يعمل عمل المحرّر الصحفي، يدرس ويحلّل كل خبر وكلمة وحرف. بل وكل فصلة وضمّة وسكون صامت الحركة. يُمعن في إجابة يخشى طولها، فيفكّر، ويحذف، ويحذف، ويحذف. يفحص الخبر بدقّة بالغة إلى حد الجنون:

«أرسم منذ أن كنت صغيرة جدًا»...لا داعي ل«جدًا»؛ أي معنى أحاول تأكيده؟ أنني عبقرية مثلًا؟ سأحذف جدًا. «صغيرة» تكفي وتفي بالغرض. ولا داعي لقصّة والداي و ال white board ورحلتي مع الرسم. تلك قصّة طويلة في غير محلّها. ثم بماذا يفيد هذا الاستطراد أصلًا؟ لأدخل في صلب الموضوع. لو أجيب عن سؤاله باختصار، يكن أفضل. أخشى أن يملّ أو يفكّر أنه أمام طاووس مُغتَرّ بنفسه. لن أخبره بهذه القصّة.

«منذ ذلك الحين وأنا أر سم يوميًا تقريبًا»... سيقول أنني أبالغ. لن ي صدّق أنني أر سم بهذه الكثافة فعلًا. سأ ستبدل «يوميًا» ب «كثيرًا». هذا أدق و ي سهل ت صديقه أكثر. لا. بل أحذف هذا الجزء بالكامل.

«فصرت أتعلّم من خطأ ومن صواب»...« صواب»؟ أقول له عيني عينك أني أ صيب؟ من أنا لأ صيب؟ أنا صغيرة جدًا ولم أتعلّم الر سم وبالتأكيد أخطائي تفوق صوابي بكثير. ســأكتفي بكلمة «خطأ». لا. بل أجمعها لتكون «أخطاء» فهي بالتأكيد كثيرة ومتكرّرة. وأحذف «صواب» حتى لا يفكّر أنني ساذجة وأرى في نفسي ريمبراندت أو مايكل أنجلو.

تمعّن المحرّر الصـحفي في الخبر، حلّل العناصـر الواردة فيه، حذف ما (ينبغي)حذفه، ثم توكّل على الله ونشر الخبر وهو مرتاح الضمير لأنه لم يفصح فورًا عمّا جال في نفسه، وإن صَدَق، إنما «عقلها وتوكّل».

- أرسم منذ أن كنت صغيرة فتعلّمت من أخطائي.

- غير معقول! أنت فنّانة. خطوطك واثقة وإحساسك جميل. أنت مميّزة حقًا.

ثم صمتَ قليلًا وهو يقلّب بين الرسومات الماثلة أمامه، فقاطع صمته أستاذ محمد:

- عندما رأيت رســوماتك اســتوقفتني. لم يلتحق بالمركز هنا دارسٌ أو دارســة بهذا المستوى منذ زمن طويل. رأيت أن أُطلع دكتور داوود عليها أيضًا.

اختلطت المشــاعر عقب الإطراء. ألقى ثناء كلا الأســتاذين بالفزع بعيدًا وإن لم يُذهب بعض التوجّســات إلى ذات البُقعة البعيدة معه. لم تعد دقّات القلب تُنذر بالانفجار، لكنها لا زالت متسارعة. فإلى جانب المحرّر الصحفي القاطن بالطابق العلوي لعقلي، يسكن محقّق دائم التوجّس، كثير الأسـئلة، لا يمل من سـؤال (ماذا لو؟): «ماذا لو لم يصـدّقاني فعلًا؟ أرأيتِ النظرة يا ليال؟ كانت نظرة يملأها الشـك. أكنتُ أضـيف أن أبي عازف بيانو ليتأكّدا أن الفن يسري في عائلتنا؟ أكان هذا ليُعزّز من موقفي أكثر؟ طيّب، ماذا لو لم أبل بلاءً حسنًا فيما هو قادم؟ ماذا لو كل ما سأر سمه بعد الآن لن ينال ذات الا ستحسان منهما؟ بالتأكيد لن يســتمر هذا الوضــع. بالتأكيد ســينحرف مجرى الرياح عاجلًا أو آجلًا. آه! وتلك الابتسامة! ماذا لو كانت ابتسامة سخرية؟ ربما يكون من الأفضل لو أترك هذه الدورة نهائيًا ولا أعود إلى هذا المكان أبدًا. الوضع أصبح أكثر تعقيدًا. هذا شعورٌ لا يُحتَمل!».

أبتســم وأنا أتذكّر المشــهد. عجيبٌ هذا الخوف الذي يقتحم حُرمة كل لحظة ســعيدة وينتشلها انتشالًا فيحيلها إلى لحظة من لحظات الهلاوس المجنونة حيث تكثر الأفكار بشكل هستيري وتتخبّط ببعضها البعض. فلا تعود تعرف إن كان ينبغي عليك أن تفرح، أو تحزن، أو تخاف أكثر، أو تتوجّس، أو تتطيّر، أو تستبشر، أو تبكي، أو تُحلّق، أو تحكي،

أو تصمت، أو تهدأ، أو تغضب. تنهمر الأ سئلة والأفكار سيولًا سيولًا فيهزمك الخوف. تنسى ما أسعدك وتنسى لِمَ أسعدك، لأن الشيء الوحيد الذي تتذكّره هو أنّك خائف، ولا شيء سوى خائف. خائف من صورة تراها، أو خائف من ضبابيّة مشهد لا تفهمه ومشاعر لا تدري أي الطرق تسلك معها. فتبقى وحدك مع خوفك الغامض المُركّب.

عجيبٌ هذا الخوف الذي يجعل من الإطراء اللطيف وضعًا معقّدًا، حادًّا، لا يُحتمل.

لكنني عدتُ يومها إلى قاعة الدروس في المركز مع أســتاذ محمد. وألقى علينا أوّل محا ضراته. ثم عدت إلى المركز في الإ سبوع التالي، وبعد التالي، حتى انقضى على التحاقي بالمركز شهرين تامّين إلى أن جاء يوم من أيام الشهر الثالث – آخر شهور الدورة:

- أتسمحين لي بالجلوس إلى جوارك؟

- بالطبع يا أستاذ محمد.

ابتسمَ وو ضع كر سيّه إلى يميني ثم ا ستدارليجلس عليه. ثم عدل عن مو ضع الكر سيّ فزحزحه إلى الخلف قليلًا كي لا يُربكني قُربه منّي، وجلس. لكنني ظللت مرتبكة جدًا على الرغم من هذا.

نظر إلى لوحتى الزيتية التي كنت أرسـمها. ثم نظر إلى المنظر الأخّاذ أمامنا وتأمّله إلى أن وقعت عيناه على مجموعة الحشائش الخضراء الكثيفة وسط الحديقة، والتي كنت أرسمها في حينها، وزهور الياسـمين تتوسّـطها، فتأمّلها أكثر. ثم عاد ونظر إلى الكانفس المنصـوب أمامي ليقارن هذه بتلك.

- أوه! أنت تذكّرينني بنفسي في صغري كثيرًا يا ليال. كنتُ شديدَ الدقّة في التفاصيل.

كدت أبتســم وأخبره أنني في تلك اللحظة بالذات، تمنيّت لو أن بإمكاني رســم رائحة زهور الياسمين التي فاحت وعطّرت الجو، وزقزقات العصافير بين أغصان الأشجار وهي تـ شدو بأحلى الألحان. لكن المحرّر الـ صحفي لا يهدأ حتى يحرّر! تمعّن وتفحّص ثم رأى أنها فكرة مملّة فأصدر حكمه: سأكتفي بالابتسام.

- جئت أجلس إلى جوارك لأتعلّم منك. أريد أن أرى بنفســي كيف تخلطين الألوان وكيف تضربين بالفرشاة. الفضول يأكلني!

ابتســمت بكثير من الخجل المُشِــل لا أدري ماذا أقول. لاحظ أنني مرتبكة فرأى أن يرحل.

- وكنت مثلك أيضًا لا أجيد الرسم وأحدهم يحدّق في لوحتي وفيما أفعل.

ثم وقف وربت على رأسي بيده اليسرى مرّة أو مرّتين، وأخذ مقعده ورحل. ووا صلت الرسم.

***

لم أصحُ ذات يوم لأجد المحرّر الصحفي وسيادة المحقّق قرّرا ملازمتي فجأة. بل لا أذكر متى ولا كيف وُلدا بداخلي، ومتى قطنا بالطابق العلوي لعقلي. كبرا معي، هكذا...لا أدري متى ولا كيف. ولا أذكر يومًا واحدًا تخلّا عن مرافقتي فيه. كل منهما يجد عملًا يقوم به بشكل يومي. المحرّر يدقّق في الكلمات والألفاظ، ويحذف أو يضيف بلا كلل، والمحقّق يسأل: «ماذا لو» حتى إن لم يجد إجابات ترضيه.

في المقهى، أمسك بكتاب لمصطفى محمود. يمر عابرٌ غريب. يرى غلاف الكتاب ويتعرّف عليه. يقف. ألمحه بطرف عيني فأتظاهر بأنني لم أنتبه. ينحني بجسده إلى الأمام قليلًا ويقول: «هذا الكتاب من أروع ما قرأت. سيعجبك بالتأكيد. كتابات مصطفى محمود فيها من العذوبة ما سيجذبك حتمًا لقراءة المزيد منها. هي الإدمان».

لن أخبره أنها كانت المرّة الرابعة التي أقرأ فيها كتاب: «حوار مع صـــديقي الملحد». ولن أبادله رأيي في كتابات مصـــطفى محمود كما فَعَل. و لن أخبره أنني أنا أيضًـــا متيَمة بالعلم والمنطق المكســو بالصــوفية والفلســفة التي يقدمها مصــطفى محمود في كتبه. لن أخبره إلا: «نعم، الكتاب جميل». لأن المحرّر الصحفي رأى فيما رأى أن دون هذا سيكون ثرثرة مملّة.

ابتَسَمَ الشابُ الغريب ومضى.

ثم جاء سيادة المحقّق دون أن أدعوه. جلس على الطاولة أمامي وباشر عمله فورًا:

«ماذا لو رأى الفتى الغريب في ردّي المُقتضــب ســماجة وثِقل ظِلّ؟ ماذا لو أن الأمر لا يتعدّى كونه أشــفق عليّ؟رآني أجلس وحدي وســط هذا المقهى المزدحم بالتجمّعات فأشفق عليّ ورأى أن يُلقي عليّ التحيّة في هيئة مشاركة حول الكتاب على سبيل الصَدَقَة التي بعشر أمثالها؟»

في البلكون القديم ببيت جدّتي العتيق، أجلس إلى جوارها، أنا وماما و(لينا) ابنة خالتي (نادية). نحتسي ثلاثتنا شايًا بالنعناع الأخضر في نسمة هواء مغرب من شهرأكتوبر. تصعد إلينا من أسفل أصوات السيارات المزدحمة، ونرى أمامنا جار شاب يقف في الشرفة المقابلة يلاعب كلبه ال Golden Retriever كبير الحجم ذا الشعر الأصفر الذهبي الناعم المنسدل على جسده القوي.

تبتسم جدّتي في سكينة وهي تنظر إلى السماء كأنها تهمس بتسبيحة أو بحمد قُبيل وجوب آذان المغرب الأحمر. تتناقل كأسها الزجاجي الصغير الشفّاف بين يديها يمينًا ويسارًا وتشدّ عليه بكفيّها وأصابعها العشر ليسري دفؤه إليها.

- كيف حالك يا ليال؟

- الحمد لله.

- جدّتك اشتاقت إليك كثيرًا يا حلوة...ما جديدك؟

- لا شيء...وأنا اشتقت إليك يا تيتة.

ابتسمَت وابتسمتُ ثم حوّلت نظرها إلى لينا.

- وأنت يا لينو؟

- أنا بخير يا تيتة، اشتقت إليك جدًا جدا...كنت أنوي زيارتك البارحة لكن انشغالي في العمل حال دون مجيئي مع الأسف.

- خسارة! بالأمس أعددت فطائر نقانق. لو جئتِ كنتِ لتأكلينها طازجة و ساخنة. على كل حال، نعيد تسخينها بعد قليل ونأكلها الليلة معًا...وكيف عملك الجديد؟

– ولله لا أعلم يا تيتة، هذا أول شـــهر لي. لكنني لم أرتَح للجوّ كثيرًا. ولا أشــعر أنني ســأندمج مع زملائي ومديريّ الجُدد. يكلّفوني بالكثير من المهام والأعمال التي لا أفهمها تمامًا ولم أعتَد القيام بها من قبل. وضّــحت لهم مرارًا أني أحتاج إلى تدريب وتوجيه تقني يعينني على اكتساب المهارات المطلوبة، لكن الحقيقة، كلهم هناك يرفعون شعار «نَفْسي نَفْسي».

تتدخّل أمي وتُدلي برأيها:

– هذا حال الجميع والله يا لينا. لم أسمع بشخص مرتاح و سعيد في عمله. الكل يشكو إما من قلّة تدريب، أو انعدام ضــمير، أو التكلفة الزائدة بمهام تنهك العقل والبدن إلى ساعات متأخرة من اليوم.

تهز لينا رأســها بإيماءة تدل على أنها توافق ماما الرأي. لكنها لا تجيب. تلمح في عين جدّتي وهي تبتلع رشفة من شايها، لمعة الرغبة في قول شيء ما فتفسح لها المجال وتنتظر:

– أتدرين يالينا؟ قسوة العمل من الأمور التي تقوّي شخصية الإنسان وتزيد من إدراكه للكون من حوله، ومن قدرته على تحمّل أمور كثيرة فيما بعد. اصبري. اصبري. ستتذكرين تلك الأيام وتحمدين الله أنك عايشــتينها وتعلّمتِ الكثير منها...وأنتِ يا ليال؟ هل من جديد في أمر تعيينك؟

- لا يا تيتة.

- تبتسم وأبتسم.

لن أخبرها أني لا أنوي الالتحاق بأي وظيفة رسمية، وأني سأتفرّغ لشغفي بالرسم. لن أخبرها أني بصدد الإعداد لأول معرض فن تشكيلي لي. لن أخبرها بفكرة المعرض الذي أعد له ولا أنني سأسمّيه «وجه الحرب» لأنه مُستوحى من وجوه البشر ومن المشاعر المعقّدة للبشر العاديين العزّل أثناء الحروب؛ أثناء تهجيرهم وتشريدهم وفقدهم لحبيب أو أب أو ابنة أو طفل رضيع، أو حياة اللجوء على فظاعتها من ذل وقهر وغربة وقلّة حيلة. لن أخبرها عن الطفل الزنجي الذي أرسمه، والضماد الأبيض الملفوف حول رأسه خافيًا من تحته ذقنه النازف الذي يسري أحمره إلى الضماد. عيناه تنظران إلى الأُفق البعيد، تلتمعان لكن لا تدمعان، كأن الدموع احتبست فيهن. كأن حتى البكاء أصبح عملية شاقّة لا يقدر عليها هذا الجسد النحيل الواهن اللاجئ في بلاد العجم الغريبة. لن أخبرها بأي من هذا كله.

آذان المغرب.

13 ..تِلْكَ أَشْيَاءٌ لاَ تُشتَرَىْ

كنتُ قد تركت لوحة بديعة وقمت إلى نافذة الغرفة شــاردةً في معنى التضـــاد وفي فكرة الهروب ووابور بديعة، وأ سترجع،على التوالي، بعـضًا من ذكريات الما ضي. رأيتها واحدةً واحدة تلتمع كلها في أزرق سماء العصر الذي يحيط بنا الآن.

أنظر إلى الطريق وإلى حديقة صــغيرة تقع يمين مســكننا. رائحة التربنتين وألوان الزيت تخترق شــعيرات أنفي المُدبّب وتســكن فتحتيه فتؤنس وحشــة الذكريات. أشــعر بحاجة ملحّة إلى ضخّ هواء جديد نقيّ إلى صدري فأ ستن شقه ببطء حتى ينت شر الهواء الجديد في أعماق الرئتين ويرفع معه الأ ضلع والـ صدر إلى أعلى فأ شعر بقوّةٍ ما لـ سببٍ ما. أحتفظُ بما استنشقت بداخلي قليلًا قبل زفير بطيء ينفرج من الصدر رويدًا رويدًا.

أســـتدير وأعود إلى بديعة وبيتهوفن والألوان. وإلى القهوة التي بردت قليلًا مع مُضِــيّ الوقت. لا بأس. سأ شربها باردة. أ شعر بارتباك شديد وأنا أقترب من الخوض في تفا صيل عيني بديعة. ثواني قليلة تفصــلني عن تأملّهما عن كثب ونقلهما بما تحويان إلى الكانفس حيث مساحات الظل والنور المنتشرة عليها والتي لم تجف بعد.

هل سأقدر؟

العين وما أدراك ما العين. جعبة مكتظّة بصور ورؤى وحكايات. نعم، للحيطان «ودان» لا أعين. لكن العين تبقى هي العين...صـــدَقَ من أســـماها مرآة الروح. فالأرواح المُتعبَة تقفز أوجاعها إلى أعين أصـــحابها فلا يُخطئها إلا قلب قاس أو أبله لا يفهم بلاغة خطابها ومقاصده. وفي عيني كل طير مكسور إشارة إلى تأوّهات قلبه، ولكل فأر مذعور سرٌّ مستور في عينيه.

أنظر إلى بديعة فإذ بها تنأى بعينيها بعيدًا عنّي. إن كنتُ أخشى تأمّل ما ستين ثُبّتتا بإعجاز في تجويفين أسفل جبهتها، فهي أيضًا تخشى الإفصاح عن صور أليمة تُخبّئهما بحرص في ظلمة التجاويف. أما بيتهوفن فينظر إلينا بحدّة. تُخيفني ولا تخيفني حدّة نظرته. ســـمع حديثي عن العين فانتبَهَ! هو بالأخصّ يدرك قيمة البَصَــر؛ لولا جوهرتاه العســـليّتان لما هانت عليه أيام لا تهون.

أقترب من اللوحة ثم أتراجع.أعود وأقترب، وأعود وأتراجع. أســـرح مع الباثيتيك. أسافر إلى ألمانيا كما يسافر أبي إلى فيينا. يبدو أنني أماطل، لكن...لا بأس. سأقصّ عليكِ يا بديعة حكاية أولًا عسى أن نقدر بها على كسر هيبة سلاطين الأعين وحرّاسها، فنُحاكيهم، ونُصادقهم، ونسكن إليهم ويسكنون إلينا.

اسمعي يا بديعة....

في زمان مَضَى قبل مُضيّ زمانك،عاش رجلٌ قالوا عنه «غريب الأطوار». لم يكن غريب الأطوار. كان فأرًا مذعورًا. اقترب من البيانو وسـط غرفته. لكنه، لم يقترب من البيانو كما يقترب شخص من زهرة يو شك أن يقطفها. إنما اقترب منه كما النحل مع الزهر: التـصقا التصـاقًا: هذا داخل ذاك.أي اقترب ثم اقترب بعد أن اقترب حتى ألصـق جسـده بالكامل بجسم البيانو. ثم انحنى برأ سه إلى الأمام باتجاه مفاتيحها الخشبية. ثم جاء بقطعة خشبية صغيرة مُستقلّةوو ضعها بين إحدى أذنيه ومفاتيح البيانو. ثم ناجاها وتو سّل إليها: «أنت رفيقتي الوحيدة...أرجوك لا تضنّي عليّ بلذّة الاستماع إلى صوتك!!».

انجذبت بديعة للحكاية فتحوّلت نظرتها من شرود هارب منّي إلى تحديق ثابت يناشدني موا صلة تفا صيل الحكاية. أرى دمعة سرت من عيني بيتهوفن متذكَرًا أيام خذلته فيها أذناه حين أفسـحت مجالًا أمام حاسّـتها لترحل عنها...فرَحَلَت عنها. تسـلّلت من أذنيه بلا أسـباب مُسـبقة فلم تُبقِ لبيتهوفن منها سـوى هيئتها: هلالان مجوّفان تكحّلهما التعاريج المُقوقعة.

أواصل لبديعة:

صارأ صمّ يا بديعة. لا يسمع. الموسيقار المعروف، الذي ذاع صيته في فيينا وألمانيا وأوروبا كلها، صار أصمّ لا يسمع موسيقاه. ومع هذا، فإنّ التصاقه برفيقه الوحيد – البيانو – أسفر عن مقطوعات موسيقية من أعذب وأصدق ما يكون. ألّف ألحانًا لا يسمعها. سمعها العالم بحاسّتهم ولم يسمعها هو إلا عبر أطياف يراها على شواطئ الذاكرة.

وذات يوم، وهو واقف يقود أوركستراه، يُلقي إشارات العزف بعصاه، استدار وحيًّا الجمهور قبل وجوب التحيّة. ظنّ أن العرض قد انتهى وأن سيمفونيته التاسعة (وهي آخر ما ألّف) قد تمّت. لكنها لم تكن قد تمّت. اقترب منه أحد أعضاء الفرقة وأدار جذعه باتجاه الفرقة ليُعلمه أن المقطوعة لا زالت مستمرّة. فاضطرب المايسترو واحمرّت وجنتاه خجلًا. واضطربت القاعة بربكة الموقف، وأصوات تهمس لبعضها البعض، وربما ضحكة أو ضحكتين هنا أو هناك تسخر من المايسترو العاجز، ونظرات مُشفقة على جبل هزّه الريح.

لكن «الجبل» قاوم الريح وواصل قيادة الفرقة محاولًا تمالك مشاعره المُشتّتة، ومتظاهرًا أمام فرقته وجمهوره بأنه بخير وأن كل شيء على ما يرام، وبأنه لازال (يقدر). ولما انتهى العرض، عاد الرجل وأدار جذع المايسترو نحو جمهوره ليحيّيهم، فحيّاهم.

اسمعي يا بديعة...ليست الأوجاع كالأوجاع. تختلف الأسباب والأشكال والدرجات. لكن الفئران المذعورة تأوي إلى جحور متشابهة فيستأنسوا ببعضهم البعض، والطيور الجريحة تسكن في عششٍ متجاورات فيجمعهم دفء الجيرة وحنان الوصل.

«كنت على وشك أن أُنهيَ حياتي. لم يمنعني عن الانتحار إلا الفن».

جاءت هذه العبارة ضمن رسالة وُجدت بين أوراق بيتهوفن بعد موته. الرسالة كتبها بيتهوفن أثناء ذروة صراعه مع السمع موجّهًا إيّاها لأخيه، ولا أحد يعلم إن كان كتبها فقط للتفريج عن همّه في نوبة من نوبات الاكتئاب، أو أنه كان ينوي بالفعل إرسالها لأخيه ثم عدَل عن الفكرة (ربما حدّثه محرّره الصحفي ونصحه بذلك).

فَقَدَ المايسترو سمعه فزاده ذلك اضطرابًا على اضطراب. تأتيه النوبات القديمة أعنف وأشرس مما مضى. تزداد الصراعات يومًا بعد يوم. تنكمش روحه وتتقلّص. ولم يأت العِلْمُ بعد – ولا أظنه سيأتي أبدًا – بجهاز MRI أو أشعّة فوق الصوتية تستطيع رؤية جروح غائرة في الروح، أو خلايا اضطرابات نفسية سرطانية، أو أجزاء متآكلة من القلب وليدة خوف ليس كالخوف: خوفٌ مُرَكّبٌ ومُستَتِرٌ. لو كان العلم قد توصّل إلى مثل هذا من اختراعات، لكنا حتمًا تمكّنا من رؤية الثقوب المؤلمة في روح المايسترو. وفي أرواح كل الطيور الجريحة، بطبيعة الحال.

تلك أوجاع ليست كالأوجاع...تلك أوجاع لا تُرى.

تنشغل بديعة بالقصّة وبتخيّل تفاصيل الحكاية عن تذكّر مشاهد تؤلمها. تسرح بخيالها فترى الرجل – بطل الحكاية – واقفًا في «فَسَـحَايَة» بباحة الحارة، هيئته كهيئة أبيها وخالها و«عم عبدالرازق» و«عم عرابي» ورجال الحارة. تراه مرتديًا جلبابًا هالكًلا ومُرقّعًا ، على رأ سه طربوشٌ مائل أحمره ذاهب إلى بنّي من قِدَمه وتآكل أنسجته، وفي قَدَميه خُفّان بنّيّان لا يفارقانه طوال موا سم العام. تر سم في خيالها العـصى القـصيرة بيد الرجل وهو يقود فرقته على شكل خرزانة أشاح بها أبوها في وجهها ذات ليلة. الجمهور، أطفال الحارة من الجيران المألوفة وجوههم، ومن الغرباء كمن تُسـابقهم إلى صـندوق الدنيا أو تُقابلهم في السـوق فيلعبون معًا ويتّفقون على لعبة جديدة يُصـبحون عليها في اليوم التالي، ثم يبيتون ويصـحون ناسين بعضهم البعض وناسين الاتّفاق.

أنظر إلى عينيها السارحتين في تفاصيل الحكاية وأبتسم. لا أتدخّل في خيالها الصغير. لا أعدّل لها هيئة الرجل وأخبرها أنه يرتدي بذلة أنيقة أشـبه بزيّ (ألفريد ملنر) أو (اللورد كرومر). ولا أخبرها أنه لا يرتدي طربوشًـا لا أحمر ولا غير أحمر، إنما يترك شـعره الطويل حرًّا يهتز في الهواء مع كل إيماءة برأسـه تحدثها رجّة الاندماج مع الموسـيقى. ولا أخبرها أن «الخرزانة» و«الخفّين» ليس لهم حيّز في هذا المشـهد بتاتًا. أترك لها حق التحليق بالخيال بمنطق مُعطيات واقعها في حواري الإسكندرية القديمة بفقرها وجوعها.

أتركها مع خيالها.

أحوّل النظر إلى بيتهوفن ا لذي تذكّر الواقعة فانهمك في باثيتيك-ه يخدّر مشـــاعره ويداويها بالموسيقى.

ماذا فعلتِ أنتِ يا ليال؟! ذكّرتِه بوجع لم يطِب بعد! والله ما قصـــدت أبدًا يا بيتهوفن. لسنا بين جمهورك. لا يُربكنا أو يُضحكنا عجزك، ولا نُشفق عليك يا جبل. نحن جيرانك في العشّة المجاورة تُدفئنا جيرتك ويحنو علينا وصلك.

يبتســم بيتهوفن. يهدأ. يســتبدل باســتحضــار أوجاعه اســتحضــار صــور طبيعة ألمانيا بجداولها وأشــجارها الكثيفة الطويلة المتشــابكة، وســناجبها، وبطّها الســابح في أنهارها بأ نا قة، وطواحينها العاليات، ومراكبهاالراســيات على الموانئ، وحقول ال poppies الحمراء والصفراء، وأصوات القطارات في المحطّةتُنذر بالقدوم أو بالرحيل.

أتركه مع خياله.

الخيال سلاح قويّ يهوّن الصعاب ويستبدل بالصورالمؤلمة صورًا أخرى تُسري إلى النفس السكينة والسلام. تختلق بدائل جميلة لمشاهد قبيحة من الذاكرة يودّ الإنسان لو أنه يمحوها فتُمحَى كالموج يأكل قصور الرمال ولا يُبقي لها أطلالًا.هكذا...ببساطة. الخيال يكســر هيبة ســلاطين الأعين وحرّاســها. يُلصــق بين كل ســلطان وحارس شــاعرًا لا يملّ مناجاة الأمل الوسيم. هكذا...ببساطة.

أعود إلى اللوحة. لا مفَر من التقاء العينين بالعينين. يهوّن عليّ الأمر انشغالُ بديعة بالمايسترو الذي لا يسمع. أمسك بالفرشاة العريضة وخليط النور لازال مبتلًّا عليها. أُسقطه في التربنتين فيذوب النور كما ذاب الظل ويلتقيان عند قاع الزجاجة. أتبصّرهما وقد اقتربامن بعضهما كما اقترب بيتهوفن من مفاتيح البيانو: التصقا التصاقًا يأذن بالانصهار. كنت مخطئة؟ ربما. أعلنت حربًا بين النور والظل ولم أنتبه أن الصورة لا تكتمل إلا بهما معًا.

أترك الفرشاة تُلقي بظلّها على رواسب الظل والنورمن تحتها ثم أقلّب بين الفراشي الأخرى النظيفة في الكوب حتى تقع أصابعي على أرفع فرشاة بينهم فأستأذنهم لأخذها، فيأذنوا لي.فرشاة مُنمنمة، شعيراتها رفيعة جدًا وقصيرة. إذا رأيتها من بعيد حسبتها قلمًا ممشوقًا مسنونًا. تشي بالحدّة من شدّة رفعها. يستهين بها من يستهين بها، إلا أنها تصارع أكبرهم وأغلظهم على نقش أدق التفاصيل، فتنال منهم جميعًا. مَنْ في دقّتك أنتِ؟ من في رشاقتك أنتِ؟ من في حساسية ورقّة مشاعرك أنتِ؟

جرت العادة أن أستعين بالفرشاة المنمنمة لرسم العين، لأن العين – وهي العين – أكثر أعضاء الوجه تركيبًا وتعقيدًا. فهي أشكال فوق أشكال، وطبقات بعد طبقات، وغوائر ومنحنيات ومرتفعات ومنخفضات.

والعين هي الملف الوجيز الشامل لهوية الإنسان. فيها عمره، وجنسه، وعِرقه، ولغته، وحكايته، وحالته وتراكم حالاته، وحاضـــره وتراكم حواضـــره، وأُنســـه، وعِلّته، وفزعه، وروحه بأخضرهاوأسودها، ونفسه بفجورها وتقواها.

هي كرة بيضاء منصوبة في حِجر عظمي غائر. في آخرها أعصاب بصرية توصلها بالمخ. وحولها عضـــلات تتيح لها الحركة في محيط هذا الحِجر في اتجاهات عديدة. تطوّقها طبقات من شـــبكات الأوعية الدموية ومســـتقبلات ضـــوئية.لكننا لا نرى من هذه الكرة ومركّباتها إلا الجزء المتجلّي ما بين جفنين يحيطانها من أعلى ومن أســـفل، يأخذان انحنائهما من انحناء أعلى وأدنى «الكرة»،ويأخذان عُمقهما من عُمق امتداد الكرة في الحِجر العظمي بهيكل الجُمجمة. نرى مســـاحة (القرنية) الشـــفَّافة يســـري بها خَلطٌ مائي يغذّيها ويزيد من لمعانها وشـــفافيتها. تتوسّـــط القرنيةَ (القزحيةُ) التي تعطي العين لونها المُميّز: أســـود، بنّي، أزرق، أخضـــر، عســـلي، رمادي، رمادي مائل إلى أزرق، بنّي بمســـحة برتقالي غريبة، وغيرها. وسط القزحية الملوّنة نقطة سوداء تُسمّى (البؤبؤ)، تتّسع وتضيق حسب كمية الضوء النافذة إليها لتحمي العين ولتجعل الرؤية واضحة وغير مُشوّشة.

أنظر إلى صـــورة بديعة. إلى نظرتها. إلى ابتســـامة وصـــبيانية تشـــعّان منها لا تخلوان من الترقّب والتحديق وتوخّي الحذر، فتحيّرني...ابتسامة مصنوعة دَفَعَتْ بها دفعًا؟ أم ابتسامة حقيقية أعطاها الخجل مذاق الاضطرار؟

احترت ولما احترت اقتربت من الآي باد. مددت يدي اليمنى ومســحت بالســبابة والإبهام مســحتين قصــيرتين على الشــاشــة في اتجاهين معاكســين لأكبّر حجم الصــورة. مســحت مرتين أو ثلاث مرّات حتى صــارت الشــاشــة إطارًا لعيني بديعة فلا أرى غيرهما. لازلت لا أتمكّن من ا ستي ضاح التفا صيل. قِدَم الـ صورة ورداءة حالتها منعاني من إمكانية الإبحار فيهما. لا أرى سوى تلك النظرة المُبهمة التي لا أفهمها. دقّقت النظر فلاحظت في تجاويف العين الغائرة دُكنةً تفوق دُكنة لون الظل الممسوح مُسبقًا، لذا، قمت بمسحة من لون أكثر دكنةً في الزوايا الداخلية ما بين القناة الدمعية وبداية عظمة الأنف؛ هذه المرّة أزيد من أزرق Prussian Blue وبنّي Burnt Umber.

أدقّق النظر ثانيةً فإذ بي ألاحظ أن الجفن العلوي الأيسر هادل على القرنيّة البيضاء كأنه انبطح انبطاحًا عليها في لحظة اســتســلام ضــعيفة. هادلٌ لا نرى عُمقه الغائر في الحِجر العظمي كأنه ينفي وجوده ويعلن: «ممنوع الإبحار. الأمواج عالية». جئت مباشــرة بخليط من اللون اللحمي من وردي Flesh Tone، وأصــفر Yellow Ochre، ومســحتين أخف من أبيض White Zinc، وأزرق Prussian Blue الداكن. مسحتان؟ لا، بل ثلاث. أقرّر في آخر لحظة إضــافة أخرى من البرتقالي الناصــع Cadmium Orange. أمســح بالناتج اللوني على الجفن العلوي المتحرّك كله، ثم أضــيف من الأزرق والأبيض مع الأصــفر عند متوسط الجفن ليعلو ويبرز ويتم تكوينه بأبعاده الثلاث.

أدقّق النظر ثالثًا فأرى شبحًا يسير خلال القزحية السوداء نحو طاولة بيضاوية تعلوها أشكال غريبة لا أتحقّق من ماهيّتها. أسمع صوتًا ما يقترب نحوي أكثر. ما هذا الصوت؟ ومن أي طبقات أو شبكات العين نفذ؟ وكيف نفذ؟ وشبح من يكون؟ وما هذه الطاولة؟ وهل ما أراه هو شبح حقيقي أم أن النعاس بدأ يغالبني؟ أحاول وأحاول. لا أقدر. أتجاهل الشبح وأواصل.

أبيض كثير مع أزرق أقل بكثير على مساحة القزحية. ثم أزرق أكثر وبنّي أكثر لتحديد الأُطر المحدّدة للجفون.

أدقّق رابعًا فأرى الشبح مجدّدًا يطير خلال سواد القزحية. تعلو الأصوات المنبعثة منها فأنزعج وأتوقّف عن الرسم. لا أدري إن كانت الأصوات هي ما يخيفني أم يخيفني غموضها. لكنني أدفع بنفسي لتجاهل الشبح والأصوات راجيةً ألّا تعود، وأواصل.هذه المرة أقصد القزحية بضربات من Ivory Black، Prussian Blue، Sap Green، و Umber Burnt. اختلطوا فأسفروا عن لون خامس شديد الدُكنة تحسبه دون التدقيق أسود مكتوم.

بعدها، أبحث عن البؤبؤ فلا أجده. أسوده ذاب في أسود القزحية وصارا مساحة واحدة تحت تأثير انبعاجات الصــورة ورداءة كاميرات التصــوير الفوتوغرافي آنذاك. لكنّني أقرّر الإشــارة إلى حبّة البؤبؤ بنقطة من الأســود الخالص أضــعها في كلتا العينين. لا أدري لماذا أقرّر أن أتمرّد على غياب البؤبؤ بالذات. ربما لأنه صغير جدًا...وأنا أكره تجاهل «الصغار».

تـصيبني رعدة كتلك التي تُحدثها الـصدمات الكهربائية عند ملامـستي بالفر شاة لأعلى القرنية بينما أ ضيف، إلى جانب البؤبؤ الأ سود، حبّةَ ضوء دقيقة من الأبيض النا صع. ماذا حدث؟! ما بها؟! كأن حبّة الضوء البيضاء تتحرّك. أمعن النظر فأرى الشبح يجدّد ظهوره. أدقّق السمع فتسير الأ صوات نحوي أكثر. لن أدير ظهري هذه المرّة. سأتأمّل. سأنصت. لن تفلتوا منّي أيتها الوحوش.

أقترب من الآي باد فتتعالى الأصــوات وتتكاثف الأشــباح. أطيل النظر فإذ بالصــورة تتّضــح والغمام ينجلي. ثم أرى بديعة – داخل الصــورة – بجلبابها الهالك ومنديل رأســها تسير باتجاه بئر سلّم لمنزل ما:

- أمي بتقولّك هاتي الصينية وتعالي.

- قوليلها أنا مش فاضية...والصينية لسّة عند الخواجة.

- إحنا مانعرفوش خواجة...لازم تجيبي الصينية.

- ملعون أبوكي...وأبو أمّك...وأبو الصينية كمان.

ثم أرى بديعة تترك المنزل وتعود لتخبر أمّها بما جرى. ثم أراها تنتظر المرأة في الحارة، وما إن تراها حتى تركض نحوها:

- أمي بتقولّك عرابي عندنا وعاوز يشوفك.

بعدها أرى الطاولة وقد اتضحت معالم ما عليها. كانت «طبليّة» خشبية عليها كوكتيل من الخمور الرديئة مُعدّى من بقايا كؤوس الزبائن في الحانات الشعبية من الويسكي والكونياك والنبيذ وعرق البلح، يسمونها «الإسكولانس». يعرفها كل من جرّبها بقوة مفعولها. وعلب سردين وسمك مشوي وأرغفة خبز. يجتمع على الطاولة كلًا من ريا و سكينة وحسب الله وعبد العال وعرابي وعبد الرازق والمرأة التي نادتها بديعة لتأتي لأمها بالصينية – (نظلة أبو الليل).

تسير بديعة نحو الطاولة مشتهية طعامهم. تعطيها ريا نصيبها ثم ينهرها أبوها ويأمرها أن تترك الغرفة، فتتركها. يأكل الجَمْعُ ويتسامر. نظلة تترنّح من مفعول الإسكولانس. تقف وتتناول ملاءتها لتهم بالرحيل وتعتذر إذ تركت غسيلًا منشورًا في سطح المنزل وعليها أن تعود لتلملمه. يقف عرابي ويحيط المرأة فجأة من الخلف بساعديه ويشلّ حركتها.

ثم يسد حسب الله فمها وأنفها بمنديل مبلّل بينما يشد عبد الرازق رأسها إلى الخلف. تغادر ريا الغرفة. ترتعب سكينة وينفلت كوب النبيذ من يدها. تحاول الوقوف لتلحق بأختها. لا تقدر. ترى المشهد بالكامل وتحتفظ به في ذاكرتها فتتمكّن من وصفه لاحقًا: «كانت البنت بترغرغ زي ما يكون في بقّها ميّه، أو بتغرق، وكانت بترتعش لأنها مش مالكة ترفص لكونها ممسوكة بأربع رجالة...وفضلوا ماسكينها كده لحد ما قطعت النفس».

تواصل سكينة الزحف. تنتبه فجأة أنها تبوّلت على نفسها من شدة الفزع. يفتح رجلٌ من بينهم الباب لها لتخرج. تخرج. تساعدها ريا في النهوض إلى الطابق الثالث تاركين الرجال يحفرون ويضربون البلاط تهيئةً لمقبرة ملائمة لنظلة. يستريحون. ثم يواصلون عملهم الشاق.

ينتاب بديعة شعورًا بالظمأ فتترك اللعب في الحارة وتعود للمنزل. تتسمّر أمام الباب بعد أن تأكّدت أنه لازال مُغلقًا. تسير خارج الغرفة باتجاه الصالة دون أن تطرق الباب حتى تصل إلى نافذة في الغرفة تُغلقها ريا بورق قويّ لتسدّه. تنظر خلال ثقب صغير كانت قد أحدثته في الورق لتمد يدها الصغيرة منه وتأتي «بالقُلّة» لتشرب وأحدهم ليس بالمنزل. لا تمد يدها هذه المرّة. يدفعها فضول الأطفال إلى الاقتراب من الثقب

والنظرمن خلاله إلى ما يحدث داخل الغرفة.ترى عرابي وأباها يحملان جثّة نظلة. ترى عينيها المفتوحتين على اتساعهما والجسد في وضع ساكن غريب غير مفهوم. ترى أباها والرجال يُلقون بالجثّة في حفرة لم ترها في المنزل من قبل. ثم يردمون التراب فوقها ويضعون البلاط الجيري فوقه وفوقها من جديد وكأن شيئًا لم يكن. كأن يدًا لم تبطش. كأن نفسًا لم تُزهَق.

تذهب بديعة إلى أمها. تخبرها بما رأت. توصيها ريا بألّا تُخبر أحدًا. تنقل ريا الأخبار إلى حسب الله فيهدّد بديعة بالدفن إلى جانب نظلة إن أفصحت عمّا رأته لأي مخلوق كان.

ثم يبدأ المشهد بالأفول تدريجيًا في عين بديعة الثابتة في الصورة حتى يتم سواد البؤبؤ كما كان، وتعود صورتها الفوتوغرافية كما كانت: صورة ثابتة، ساكنة، بلا أصوات أو أشباح دخيلة تتحرّك خلالها. لكنني الآن، لم أعد لما كنت عليه من حال قبل ملاحقة الأشباح. فأنا الآن أشعر بإعياء شديد مما رأيت. أنظر حولي وأحاول أن أعيد إدراك حواسي إلى أنحاء غرفتي. «لستُ في بيت الكامب. لستُ في بيت علي بك الكبير. لست عند بئر سلّم نظلة أبو الليل. لستُ هناك. أنا هنا! أنا هنا!». أبحث عن بديعة حولي لأجدها لازالت بين أطفال الحارة – الجمهور – يستمعون إلى معزوفات الرجل «غريب الأطوار» الذي يحييهم وفرقته لازالت منهمكة في العزف. يكركر الأطفال، كل الأطفال،

ماعدا بديعة. ترى في الرجل حســاســيّة ورقّة مُفرطة تدفعانها إلى محاولة الاقتراب منه والارتماء بين أحضانه. منهُ تخفّف عنه وتوا سيه، ومنهُ تُشبع قلبها بشيء من حنان مفقود. إن لم يُفلح الجسد الصغير للنيل مما اشتهى: الهَرَب إلى كفر الزيّات عند الخال،فلعلّه يُفلح هذه المرّة في الهَرَب مع هذا الر جل الغر يب الذي قد يُشــبه أبا ها في ملمح أو ملمحين خارجيّين، لكنه حتمًا لا يُشبهه في القسوة والخِسّة والوضاعة.

ويبدو أن بيتهوفن رأى نفسه في خيال بديعة وكيف أنها ر سمته وا شتهت ضمّةً صادقةً منه فتأثّر من المشهد و سار نحو الطفلة المُستنجدة به. نعم، شعر با ستنجادها فأبى إلا أن يغيث فأرًا اســتغاث بقلبه. جلس وأحاط كتفيها بذراعه وعصــاه. وصــار المايســترو بين جمهوره يرى نفسه من بعيد لكنه – هذه المرّة – مستأنسًا ببديعة.

الحمد لله.

أضــع الفرشــاة جانبًا وأكافئ نفســي بقســط من الراحة بعد رحلة شــاقة أنهكتني حقًا. أمضــي إلى بديعة وبيتهوفن وأجلس إلى جوارهما والباثيتيك تحيط بنا وتحاصــرنا حصــارًا جميلًا صــادقًا هادئًا. وقبل أن أحتفل بإتمام رســم العينين قبل الانتقال إلى ملمح جديد من ملامح وجه بديعة، يقع ما تأمّلت عدم تكراره: تعود الأصــوات والأشــباح . يا الله! أعجّل السير نحو صورة بديعة مرّة أخرى وأثبّت النظر خلال بؤبؤها الأسود ثانيّة.

هذه المرّة أرى بديعة تقف عند ذات النافذة تنظر خلال الثقب تراقب مشـــهد قتل نظلة يتكرّر خمس مرّات بخمس بطلات مختلفات كلهن وجوه لنســوة تعرفهن معرفة جيّدة. تختلف الملابسات في كل مرّة لكن ثمّت ثوابت لا تتغيّر: الإسكولانس، وطاولة الولائم، والضحكات السابقة للعاصفة، والمنديل المُبلّل، وعمليّة الخنق المُتقنة، ووجوه العصابة، وحفرة المقبرة، ومشهد الدفن. أسمعهم يقولون «نبوية». ينادون «زنّوبة». يضحكون مع «فاطمة». ويناولون «فردوس» كأسًا من الإسكولانس «المخصوص المُعتبَر».

أرى بديعة تتبوّل على نفسها. أراها مُختنقة بالدموع. ترتجف. تسيل قطرات العرق من جبينها، من تحت إبطيها، على ظهرها، على صـــدرها...وعيناها مُثَبّتتان، بالكاد يتحرّكن خلال التجاويف.

شـــهدت بديعة خمس عمليّات قتل لخمســة نســوة ممن قتلهن أهلها. مشــاهد تسـكن بؤبؤيها، وقزحيتيها، وجفنيها، وأوعيتها الدموية، وأعصـــابها البصـــرية، وقنواتها الدمعية. ترافقها الصور في الحواري والأزقّة، وتصاحبها عند النوم فوق الصندرة في الغرفة المعتمة مع الروائح القذرة والأشباح النتنة.

تقول:

- كنت رايحة أتشعلق في الوابور وأسافر كفر الزيّات عند خالي.

فيسألها المحقّق:

- ليه؟ شفتي ايه؟

- شفت منام وشفت حاجة سودا كبيرة.

لكل داءٍ دواءٌ، ودواء الخوف- إن لم يكن الهرب – فهو الخيال. أم أنّ الخيال وجهٌ آخر من وجوه الهرب المتعدّدة؟ لكن الخيال وهو ما هو، سلاح رادع. يستبدل بالصور الصور. يفزع المرء من أمر رآه فيأتي الخيال ويحيل الصـور المفزعة إلى صـور أقل فزعًا. ويحيل «المؤكّد» إلى «مُبهَم». ليبقى باب الاحتمالات مفتوحًا يبشّر باحتمال وجود تفسير آخر لما تراه العين، غير ذاك الذي يجزع منه الاحتمال الإنسـاني. قد يكون وقد يكون أو قد يكون. فيبقى الأمل واردًا ورحيل الألم جائزًا ومشروعا.

أحال خيال بديعة الكبير مشاهدَ قتل ودفن الخمسة نسوة إلى «حاجة سودا كبيرة». أحال الجثث، والمطارق، والبلاط، والحُلى المسروقة من مكاحل ومعاصم وصدور الجثث، إلى «حاجة سودا كبيرة». ثم أحال الأمرَ برمتّه في النهاية إلى «منام». مهما طال لن يدوم.

«حاجة»...

فلا يمكن أن يكون أبطال المشـاهد هؤلاء من بني البشـر مثلنا، يتألمّون ويضـحكون ويأكلون ويشـربون. فهم بالتأكيد «حاجة». ولا يمكن أن يكونوا كُثرًا كما يبدون. لا يمكن أن يكون الألم ممتدًّا ومتكاثرًا إلى هذا الحد! فهم بالتأكيد « حاجة» واحدة وليسـوا «حاجات». يكفي.

«سودا»...

لأن الأسـود يمتص الضـوء ولا يعكسـه. والأسـود يحجب النظر مع حجبه للضـوء. يشـوّش الرؤية ويعتم عناصـرها وتكويناتها، كُتلًا وفراغًا. لذا، فهذه «الحاجة» لا يمكن إلا أن تكون «سودا» مُبهمة، يخيّم عليها الظلام ليبقى الألم الكامن فيها مجرد، مجرد.... مجرد احتمال.

«كبيرة»...

لأن الألم كبير. والهلع شبح ضخم ترى تفا صيله تحوطك من أمامك وخلفك وفوقك وتحتك وإلى جانبيك. لا مفر. تشعر به وببرودة تسري إلى قلب عظامك قبل أن يصل إليك وتراه أمامك. حتى إذا جاء أمامك ورأيته فعلًا، يتّضح لك أن البرودة لم تكن إلا أبواق إنذار خفيفة لارتجاف عنيف آتٍ لا محالة.

ولا يهوّن من هول ضـــخامته وبرودته إلا كونه تابعًا ل«حاجة ســـودا» لا نعلم تمامًا ما هي. فقد تكون شجرة كبيرة أعطاها الليل أ سود سيُستَبدل خلال ساعات قليلة بدرجات من الأخضر، فلا بأس. وقد تكون طائرًا أسود كبيرًا يخيفك شكله وحجمه ثم يقترب منك أكثر فتراه أليفًا مســتكينًا يظلّلك بجناحيه فتطمئن له وتهدأ وتصــبحان صــديقين حتى آخر العمر. فلا بأس كذلك.

«منام»...

وفي نهاية المطاف، وبتفسـير أو دون تفسـير، وقبل أن تشـعرأوبعد أن تدرك ما هي تلك «الحاجة السودا الكبيرة» بالضبط، تصحو من النوم وتعي أنه كان (مجرد) منام. لأن الواقع لا يمكن أن يكون بهذه القســوة. ولا يمكن أن يســلبنا كل حبال الأمل الموصــولة بنوافذ مطلّة على البساتين الواسعة.

ولأن الخيال هو الدواء، وهو شــجرة الصــبّار الوحيدة وســط الصــحاري الجرداء الممتدّة، فلا يصح إنكاره، أو السخرية منه، أو التدخّل في تفاصيله، أو مساءلته، أو الإضافة إلى أو الحذف من أي من تفا صيله الحُرّة. فمن حق الخيال أن يسبح أو يحلّق، وأن يعلو أو يهبط. ومن حقّه أن يستبدل بصورصورًا داخل باحات وحواري الأعين كيفما شاء.

عجيبٌ هذا الخوف الذي يجعل من مشــاهد عمليّات قتل، «منام» فيه «حاجة ســودا كبيرة».

لكن مشــهد المنام ذا «الحاجة الســودا الكبيرة»، لازال أمرًا منطقيًّا يمكن تصــوّره في سياق حديث بديعة المطوّل مع المحقّق والذي ا ستهلّته ب «أنا خايفة». إنه خيالها القويّ الذي استعانت به طوال مدّة التحقيقات على استبدال المعاني والصور والألقاب في حديثها:

- خايفة من ايه؟

- خايفة من أمي وجوز أمي و خالتي سكينة وأهلي كلهم.

«جوز أمي»؟! أيعقل أن يُيتّم الإنسان نفسه بنفسه هكذا بكل بساطة؟ لا، ليس بكل بساطة يا ليال. إنما بكثير من الألم والمرار والخُذلان، وتتابع «الحاجات» السوداء الكبيرة. إنه الخيال مجدّدًا، يلوي أذرع الواقع الوقح ويعيد توزيع الألقاب والأنساب من جديد رُغمًا عنه. فلا يمكن أن يكون من ينهر ابنته لأنها ظمأت، ويناديها بـ«بنت الشرموطة» لأنها اشتهت غموسًا لخبزها الصغير، ويهدّدها ولا يُهدهدها، لا يمكن أن يكون أبًا. هو بالتأكيد «جوز أم» لأن القسوة تصبح أقل إيلامًا إذا ما جاءت من غريب لا تربطنا به صلة دم وطيدة. أما غير ذلك، فهو وجع لا تقوى عليه الروح.

فعجيبٌ هذا الخوف الذي يجعل من «الأب» مجرد «جوز أم» غريب.

14..الْقِطَّةُ أَكَلَتْ لِسَانِك؟

«ستكون لوحة الطفلة السورية المُرتعبة في سرير من أسرّة الملاجئ هي اللوحة ال masterpiece. ستكون الأكبر حجمًا وسأعلّقها إما في مدخل قاعة المعرض أو في مكان آخر يتوسّط القاعة. لا أدري... سأختار أكثر الأمكنة وضوحًا وأجعل اللوحة تعلوه هناك. وستحيط بالطفلة السورية وجوه ومشاهد أخرى من ملاجئ الحروب والمخيّمات وساحات القتال والمستشفيات الميدانية.وربما حتى أعلّق إلى جانب كل لوحة، قصةَ أبطالها الحقيقيين: طفل يتّمته الحرب، أُمٌّ ثكلى فقدت أطفالها الثلاث وزوجها بعد قصف مدينتهم، شيخ ضائع وسط تبادل إطلاق نار في شارع منزله، أطفال يتوسطون حطام بيتهم الذي دمّرته الصواريخ. وربما.......».

– ليال، هل أرسلتِ تقرير هذا الإسبوع في موعده؟

– أوه..التقرير. لا زال ينقصه بعض التعديلات. سأعمل عليه اليوم وأرسله قبل أن أغادر المكتب.

- حسنًا، جيّد.

«...وربما أطفال يأخذون من ســاحات المخيّمات الواســعة مكانًا للّعبِ بكرةِ قدمٍ تشبّثَ بها أحدُ الصغار وأصرَّ على أخذها معه من مدينته الغارقة في الدماء، قبل الرحيل».

لم يكن أبدًا شــرودي أثناء العمل إلى دنيا غير الدنيا، وإلى حلم المعرض واللوحات وقصص الناس، أمرًا عارضًا أو استثنائيًا. إنه الخيال يستبدل بصور صورًا ليختلق البدائل ويهوّن الصعاب؛ صعابٌ ورثّتها لي طفولة يغلب عليها الخوف والانطواء، ثم حرمٌ جامعي مُكتّظ بوحوش وضباع وطيور جارحات تبعتني من بوابات الجامعة إلى بوابة الحياة العملية في الشركة.

ولأن الدكتورة إيمان لم تناقش بقية الأســاتذة في أمر تعييني لِمَا تخوّفت منه بشــأن المشــكلة الواضــحة لها بخصــوص قدرتي على «التواصــل» مع الآخرين «كبقية زملائي وزميلاتي»، فلم أُعيّن في الجامعة بعد التخرّج. لكنني عُيّنت في إحدى الشــركات الخاصــة الكبيرة في القاهرة القائمة على البحوث التســويقية. ولأن الشــركة لم يكن لها ســلالم نائية كسلالم الجامعة، ولأن طبيعة الحياة العمليّة تختلف تمامًا عن الحياة الدراسية، فلم أجد ما أفِرّ إليه منذ أيامي الأولى هناك، لكن حتمًا وجدت ما أتشبَث به وسط هذا الزحام المخيف: الخيال.

مبنى كبير يتوسّــط شــارع مزدحم بالمارة والســيارات والمتاجر. أمام بوّابته الرئيســية والوحيدة، يقف حارس وأربعة أفراد من رجال الأمن لهم زيّ رســمي موحّد يغلب عليه اللون الأزرق. دا خل المبنى مصــعد إلى طابق أول، و ثانٍ، و ثا لث، ورابع، و خامس، و سادس، و سابع. ينفتح المصعد في الطابق السابع على باب يُفضي إلى مكتب وا سع. في المكتب أبواب لغرف أ صغر، بداخل كل غرفة مكاتب (اثنان أو ثلاثة) من الخشب الفاتح ذي اللون ال ochre وأجهزة كمبيوتر. أما الحصّة الأكبر للمكاتب فهي من نصيب الساحة الخارجية الأكبر حيث مكاتب مرصــوصــة على طريقة ال open space ، أي لا يفصــل بينهم أي بابٌ أو حاجز، فهي ساحة وا سعة بلا أبواب يمر بها با ستمرار موظفون وعملاء كُثُر.

لم يكن المكتب الخاص بي في إحدى الغرف المغلقة (المُطمئّنة). بل كان يتوسّــط الساحة الكبيرة المفتوحة (المخيفة) تلك...في قلب الغابة بجوار عرائن الأسود والضباع.

تذهب إلى الغابة كل يوم، من الصــباح حتى المســاء، ثم يتهّمونك بالغرابة أو الاختلال حين تنهزم وترضخ لحاجتك للانزواء والتقوقع في بيتك الآمن الصغير.

أصـحو على دقّات قلب متخبّطة كانت قد سـبقتني إلى سـريري منذ الليلة السـابقة. أنام وأصـحو بقلب...ماذا؟ «يدق»؟ لا «يدق». رقيقة «يدق». تشـي المُفردة بتمايل أوراق الشـجر أو بانفلات حبّات الندى على أوراق الزهور المخمليّة الناعمة. ليس الإيقاع كالإيقاع. ليس في إيقاع قلبي أي تمايل ر شيق، ولا انفلات عشوائي لا يبالي، ولا تأنّ بطيء يصبر وينتظر. إنما في قلبي، اندفاع الرصاصت لا تعلم كيف ولا من أين انطلقت، وتسارع الغزلان المفزوعة وهي تسـتبق الخطوات، واسـتمرار تيارات البحار: لا تسـأم ولا تتعب ولاتتوقّف. لقلبي إيقاع الحروب المدوّي؛ كل أوقاته ليل، وكل أ صواته أبواق إنذار، وكل ملاجئه ساحات قتال.

أصحو على رعشة فجر يوم من يناير قارس البرودة. تنتشر وتتسرّب برودته إلى الحشايا والعظام. أنظر إلى يديّ وسـاقيّ فلا أجد قيودًا تحوّطها وتثبّتهافي موضـعي على السـرير. فأتساءل: غريب...كيف صار النهوض ثقيلًا وصعبًا إلى هذا الحد إذن؟ ثم أتذكّر أني في يوم من أيام شهر أغسطس الحار. فأعود لأتساءل: من أين تسرّبت إليّ كل هذه البرودة التي لا تُحتمل؟ وكيف لازمتني في كل فصول العام بكل شهوره من يناير إلى ديسمبر؟

متى أصبحت كل الفصول شتاءً؟ متى اختفت الشمس عند ذروة سطوعها؟ متى استغنت السماء عن صباحها واستبدلت به هذا الليل الطويل المبسوط؟ متى أصبح كل العام فجر يوم من يناير قارس البرودة؟!

لا أقوى على النهوض. لكنني أنهض. ويرافقني إيقاع الحروب في قلبي، ورجفة الصدر واليدين والقدمين والركبتين، من السرير إلى باب المنزل، إلى بوابة مبنى عمارتنا، ومن شارع إلى شارع حتى بوابة الشركة. أحقًا يومٌ جديد؟ أم مجرّد امتداد لكل ما سبق من أيام؟ لم أعد أستطيع التمييز، فكلها أيام مُستنسخة من أيام سبقتها. كلها أيام باردة وقاسية ومخيفة تُسلّمك من أسود إلى ضباع إلى طيور جارحات. ثم أحيّي – على استحياء – أول من أقابل من الضباع...الحارس (الطيّب). يليه أفراد الأمن الاثنان. ثم أقصد المصعد إلى الطابق السابع. بعدها، أسير في ممر يبدو طويلًا من وحشته، أدخل منه إلى باب المكتب الواسع فأمر على بقية الضباع. تنظر أو لا تنظر إليّ الضباع. تبتسم أو لا تبتسم. تحيّيني أو لا تحيّيني. أحيّيها أو لا أحيّيها.

لم تقف الضباع يومًا هكذا أمامي لتخبرني أنها ضباع. لكن، كيف لا تكون ولها عيون وأنوف وقامات، تعبس أو تبتسم، وتصمت أو تتكلّم، وتفكّر، وتسخر، وتعتذر، وتجامل، ويعلو صوتها لأنها منفعلة في شجار أو متحمّسة لنقاش...أو تُغنّي. بالتأكيد أن لها مخالب وأنها تقف هناك تتربّص، وأن مسألة انقضاضها مسألة وقت لا أكثر.

مرّ يوم، أ سبوع، شهر، وحين أتممت الشهرين على التحاقي بالشركة، أعلنت الضباع وأفصحت بلا خوف عن هويتها ومخالبها. ألم أخبركِ يا ليال أنها متربّصة وإن بدا العكس؟

جلسنا ثلاثتنا في غرفة من غرف الاجتماعات في الشركة: أنا و(عُمَر) و(سوزان)، مديراي في الشركة. استهلّا الحديث باختلاس نظرات متقطّعة ومُضطربة إلى بعضهما البعض. كانا شديدي اللطف معي؛ لُطفًا زائدًا عمّا اعتدته منهما. ثم بدأت سوزان:

- كيف حالك يا ليال؟

- الحمد لله.

لحظة صمت ونظرات مجدّدًا، يقرّر عمر أخيرًا أن يقطعها:

- ابدأي أنتِ يا سوزان.

- حسنًا.

تطلّعت سوزان على ا ستحياء إلى الأرض ثم نظرت إليّ بعد أن ألزمت وجهَها بابتسامة مفروضة مرسومة رسمًا، لم تُزِد إلا من ضربات المدافع والرشّاشات في قلبي المذعور.

- هذا شهرك الثاني معنا هنا يا ليال، ونحن حقًا سعدنا بانضمامك إلى فريقنا. لكن...

تنهّدت قليلًا ثم واصلت:

-....نحن قلقان بشأن أدائك إلى الآن بكل صراحة. لسبب ما، يبدو لنا أن أمورًا بسيطة تستغرقك وقتًا طويلًا لإنجازها. ونلمح مشكلة جوهرية لديك في التركيز...و...ماذا عنك يا عُمَر؟ أتكمل؟

- طيّب...من خلال عدّة مشاريع أشرفت عليك فيهم بنفسي، أرى أنك كثيرة النسيان، ولديك وجهٌ جامد...أي poker faceيؤثّر سلبًا على التواصل بينكِ وبين زملائك بسهولة. وفيك من الهدوء وشيء من (البرود) الذي لا يُشعرنا بلهفتك وإقبالك على التعلّم والاندماج في الوسط كحال أي موظف جديد يُشعّ حيويةً ونشاطًا وديناميكية، ويطمع في أن ينال إعجاب مديريه. كأنك بعيدة ومنفصلة عنّا بعض الشيء...أليس كذلك؟

لا أجيب. أتسمّر.

- نحن يا ليال لا نقول أنك سيئة. لكن...ربما...لست مخوّلة للقيام بمثل هذا النوع من الأعمال. التسويق مجال شاق ويتطلّب الكثير من الحركة. ربما...لا يناسبك. ربما أخطأنا عندما ظننا أنك تصلحين لشغل هذه الوظيفة. قد تُبدعين في مجال آخر من المجالات. لكن هذا المجال بالذات، حيوي جدًا ونشط.

ربما هذا لا يناسـبك. على أي حال، سـنُعطيك مُهلة شـهرًا إضـافيًا لتنتبهي خلاله إلى أدائك ولنعقد اجتماعًا آخر بعده. في الثلاثين من أكتوبر القادم نلتقي ونتّخذ قرارًا بشـأن بقائك..أو...يعني...تركك للعمل. أتريدين قول شيء؟ أي شيء؟

- لا.

- متأكدة؟

- نعم.

- حسنًا. نلتقي إذن في الثلاثين من أكتوبر. بالتوفيق.

لا أدري كيف اسـتطعت أن أتحامل على قدميّ وأنهض لأغادر الغرفة. لكنني فعلت. بقيا هما جالسـين، ووقفت. دفعت بابتسـامة حزينة إلى شـفتيّ، شـكرتهما، و تركت الغرفة. عدت إلى مكتبي الكامن و سط الفضاء الوا سع المخيف، فزاد شعوري بالبرد والارتجاف وحالة التـ سمّر المذهول. حاولت تمالك دموعي ومـ شاعري لأوا صل العمل. كنت أجهّز لتقرير ما لأرسـله إلى أحد عملائنا حين جاءني عُمَر وأخبرني أن لدينا اجتماعًا طارئًا. حاولت مواصلة كتابة التقرير. لم أقدر. نظرت إلى شاشة الكمبيوتر وحاولت قراءة آخر فقرة كنت قد أنجزتها قبل الاجتماع، لكنني لم أرَ تقريرًا، ولم أرَ كلامًا، ولم أرَ جهاز كمبيوتر. لم أرَ إلا ليال الصغيرة تجلس في غرفتها وتبكي لأنها تريد الفرار من بيت أصبح أشبه بساحة قتال عنيف، ولا تستطيع. لا ملجأ. لا مفر.

قفزت من مقعدي ، أخذت حقيبة يدي ودخلت إليهما:

- أنا...سأغادر الآن. عليّ القيام بعمل هام.

وقبل أن أغلق الباب من ورائي وأرحل كانت دموعي قد خذلتني وأخذت تنهمر بلا توقّف. أسرعت الخطو قبل أن يلمحني أحد. من أين أذهب؟ الممر المُفضي إلى باب المصعد طويل ومكتظ بمكاتب الموظفين. لو سلكته سيراني الجميع. آه! باب المطبخ الخلفي. سأذهب من باب المطبخ. لن يراني إلا (آدم) الساعي، وهو لن يخبر أحدًا. ولعله يستعد لصلاة العصر فيكون المطبخ خاليًا أيضًا.

هرولت نحو المطبخ. لم أجد آدم. دفعت الباب بسرعة وطرت سلالم الطوابق السبع. ولما وصلت إلى آخر درج في الطابق الأرضي، أخرجت هاتفي المحمول من الحقيبة بسرعة، فتحته، وتظاهرت بأنني منهمكة في أمرمهم عليه وأنا أسير باتجاه رجال الأمن. نادى أحدهم: «مع السلامة يا أستاذة». لا أدري لماذا زادني سلامه ضيقًا فصار البكاء نحيبًا. لم أحيّه. بقيت مشبثة بالهاتف حتى وصلت إلى قمّة الشارع بعد أن تركت مبنى الشركة ورائي بأمتار قليلة. الآن النشيج...

مضيت بمحاذاة سور طويل وعالي تمر به سيارات مسرعة في شارع عمومي. أَخَذَتْ عدّة سيارات أُجرة تُبطِئ كلما رآني سائقوها. تنفتح نافذة السيارة فيسأل كل سائق بصوت عالٍ: «تاكسي؟». لا أجيب. ولا أتطلّع. فقط، أكمل المُضي. انحدرتُ يمينًا إلى شارع جانبي ضيّق به أسواق صغيرة وبائع فاكهة متربّع بجوار عربته الملوّنة بما فوقها من برتقال وتفاح وعناقيد عنب وأسبطة موز وفراولة ورمّان، إلخ. على يمينه، مخبز تفوح منه رائحة المخبوزات الطازجة. لأوّل مرّة لا أنتبه إلى ألوان الفواكه ولا إلى رائحة المخبوزات التي عادةً ما تستوقفني. اكملت المُضي.

وأخيرًا وصلت إلى شجرة كبيرة تزيّن آخر الشارع الصغيرعند بُقعة شِبه خالية من المارة والسيارات على عكس الشوارع المحيطة بها والشارع العمومي الذي أتيت منه. ثم تربّعت الرصيف المنخفض تحت أجنحة الشجرة.

ظللت أبكي كطفل رضيع ينتابه جوع قارس، أو تؤلمه أسنانه الصغيرة وهي تشقّ طريقها في لثّته الوردية الناعمة. أخذ النشيخ يعلو شيئًا فشيئًا. بدأت بمحاولة السيطرة عليه لكن سرعان ما رضخت لتلك الرغبة الكامنة بصدري للإفراج عن أكوام الجبال المهمومة الراسخة فوقه، فأطلقتُ لها وله العنان. انحنيت بجذعي ورأسي أمامًا وإلى الأسفل.

لم أجد ســوى كفيّ أُســند عليهما جبيني المُهتز من فعل البكاء. أخذت الدموع تنهمر كأنها أفواج من أمم الماضــي والحاضــر؛ لم أدرِ متى اندفعت أول الدمعات ولم أرَ ما يُبشّــر بحلول آخرها. وبدت الأنفاس التي حاولت التقاطها بين الحين والآخر على صعوبتها أمرًا مســتحيلًا. وبدا كلُّ نَفَسٍ تمكّنت من انتشــاله من الهواء خِلسـةً كأنه آخر نفس سـيشـهده صدري في هذه الحياة. وبدا مع هذا كله أن الموت قريب. قريبٌ جدًا.

تطلَعت إلى الســماء الزرقاء بســحابها الأبيض الهش: «يا رب إن كنت كتبت لهذين الجناحين أن يبقيا مكســورين، فخُذني إلى جنانك حيث الأجنحة الســوية المُرفرفة. لم أعد أقوى على هذه الحياة! والله لم أعد أستطيع. لا أريد. كفى! كفى! كفى!».

ثم تذكَرت فجأة ليال، الطفلة المذعورة. تتجوّل في أركان بيتها المُظلم. تنهال أصـوات المـ شاجرات عليها من كل اتجاه. تفزع. لا تـ ستطيع رد الأذى، ولا تتمكَن من الانـ سحاب الهادئ. يخيفها صــوت عالٍ ومخيف، منبعث من غرفة المعيشــة. تســمعه، وهي الواقفة بعيدًا عنه أمتارًا، كأنه المطارق تنهال على أذنيها. ثم تنتبه أنها انهالت على بلاط جيري بعيد لا أذنيها. لا تصـدّق. كاد الصـوت أن يأتي بســمعها من شـدّة علوّه وقوّته كأنها هي البلاط الجيري البعيد ذاته. تتسمّر في مكانها. تكاد تتبوّل على نفسها من شدة الخوف.

تخرج أمها من غرفة المعيشة وتنظر إليها بازدراء بلا سبب واضح. تدفعها خفيفًا بيديها لتتفاداها وتمضي إلى غرفة نومها. ثم يخرج والدها مستكملًا الشجار ناظرًا عبر أكتافها القصيرتين باتجاه أمها من الخلف. كأنه لا يرى الفأر المذعور الواقف أمامه. يعود إلى الغرفة. تتعالى وتتشابك أصوات البيانو الغاضبة مع أصوات البكاء من غرفة النوم. «خذني يا رب». «آه...آه...آه...آه».

وبقي الفأر المذعور متسمّرًا حائرًا. لا يدري أين يروح وأصبح كل المكان مُفزعًا غريبًا موحشًا. لا يدري بمن يستجير وكل من حوله أناس غريبون أصواتهم مدوية مخيفة؛ هي المدافع.عيونهم غاضبة عابسة أحمرها دموي هي النيران مشتعلة في حقول الياسمين. ماتت الياسمينة. احترقت. يتحسّس الفأر الأرض من حوله باحثًا عن أي فرع من فروع الياسمين البيضاء الناجية من الحريق فلا يجد.ماتت كلها.أطلّت رائحة حلوة من جحره فسار إليه. وقبل أن يصل، خرجت أمه لتكمل آخر مشهد من ملمحة الرعب الدامي المركّب: تطلّعت إليه. ظن الفأر أن أمه على وشك أن تحتضنه وتفهمه مقاصد الحرب التي نشبت منذ قليل. لا احتضنته ولا أفهمته. اكتفت برمي آخر قنابلها في وجهه: «سأطلب الطلاق من أبيكِ. سننفصل. سأرحل وأترككم».

تتركنا؟ ما معنى «الترك» أصـــلًا؟! أليس «الترك» حالة لا تتحقّق إلا بتوافر نقيضـــها: التواجد...الارتباط. فأين (الارتباط) هذا الذي ســتبدده ماما إلى (الترك)؟ أليس ما أعيشــه منذ سنين هنا، هو الترك، كل الترك؟

تذكرت فرح الطفلة. رأيتها تنظر إليّ من بعيد باندهاش وتسأل: «يا ليال هل أنتِ إنسان أم جماد؟». فتجيبها ماما فورًا: «ليال كرســـي». ويضـــيف بابا: «وليس لها أية (لازمة) على الإطلاق».

تذكّرت (نانسي)، صبية تكبرني بأربع سنوات تعرّفَت إليها العائلة في تجمّع عائلي كبير حين كنت بعامي الثاني الثانوي. مَرِحة، ثرثارة، تســترســـل أمام الجميع بحكايات بعد حكايات عنها أو عن أحد أصــدقائها أو عن رحلتها الأخيرة لجبل (ماتشــو بيتشــو) بمدينة (بيرو)، أو عن مغامراتها مع هذا الرجل الغريب الذي قابلته في البرتغال الشـــهر الماضي.نانسي تحكي والجميع ينصت من جدو (عامر) الشيخ الثمانيني إلى (كريم) الذي لم يتجاوز الخمس ســنوات. أما أنا، فأراقب المشــهد من بعيد. أنظر إلى نانســي مدهوشــة بقدرتها «الفذّة» على الســـرد الواثق الممشـــوق. كيف يمكنها تضــفير الكلمات بكل هذا اليُسر؟ أين وكيف انفرج لسانها، وأين وكيف انعقد لساني؟

تثير قدرة نانسي على جذب انتباه ومشاعر شيوخ وأبناء العائلة في نفسي الشعور بالعجز والضعف. بَلَغَت القمر ولازلتُ أهربُ في الأرض لا أجد لنفسي فيها منزلًا يؤويني. «مش ممكن يا نانسي!». «ثم ماذا بعد ذلك؟». «أكملي أكملي يا نانسي!». تشهق جدّتي لجزء تحكيه نانسي. تقهقه خالتي. يضحك كريم. يستفسر الجد عامر عن معلومة قالتها نانسي. تنظر ماما إلى نانسي وتبتسم. ثم تنظر إليّ وقد ذابت ابتسامة الإعجاب في ابتسامة مُركبّة تجمع بين اليأس وخيبة الأمل والعتاب والسخرية والتوبيخ الصامت. أسمعها في نفسي تقول: «نانسي صبية جميلة وابنتي كرسي». نعود للبيت بعد الزيارة فأسمعها تتمتم في طريقها إلى الغرفة: «أنظر إلى بنات الناس وأحسدهم على خلفهم المُشرّف. وأنظر لابنتي الوحيدة فتقتلني الحسرة». عندها أتأكّد أنني أصبت قراءة ابتسامتها المُركّبة هناك – في بيت الناس «المحظوظة».

***

عُدت من ذكريات ذلك اليوم إلى حاضــر موقعي على رصــيف الشــارع. تطلّعت إلى الطريق أمامي والنشيج لازال نشيجًا محترقًا لا يهدأ. رأيت على مرمى البصر كلًّا من فرح ونانسـي وماما. رأيت نانسـي تروي حكاياتها دون انقطاع فينجذب إليها المارة ويركلونني ليتســابقوا إليها. ورأيت ماما تنظر إليّ متجهّمة الوجه. ورأيت في الســحاب الأبيض أعلى رأســها خيالًا فيه فرح ونانسـي ينادونها «ماما»، وماما تركض إليهما وتحتضـنهما وتقبّلهما عدّة قبلات على جبينهما ووجنتهما وأعلى رؤوسهن. فعلمت أنها أمي تتمنّى سواي وتسرّها في نفسها.

تذكّرت الكتب المدر سية التي ملأت أدراج مكتبي بالغرفة. صرت أقلّب في صفحاتها في خيالي، صـفحة بعد صـفحة بعد صـفحة. أرى أعلى كل صـفحة دوائر حمراء أو زرقاء أو خضراء أو رصاصية يتوسّطها: «تخلّف عقلي رسمي» مرة، و«حمارة» مرة، و«متخلّفة» مرة. بخط بابا النسخ الواثق طبعًا.

لســت فقط «كرســي» أبكم لا يجيد التخاطب والتعبير مثل نانســي أو فرح، إنما أيضًــا كرسي منبوذاستبدلت به أمه أحلى منه، وألصق أبوه على ظهره ورقة بيضاء كتب عليها بخطّه المرتّب الجميل على أنغام موسيقى موزارت: «متخلّف وليس له (لازمة) على الإطلاق».

فنبذه الجميع. كل المارّة نبذوه لأنه لا يُسمن ولا يُغني من جوع. فيتّمه بعد يُتم الأهل، يُتم الجيرة ويُتم الصداقة ويُتم الأغراب ويُتم الحياة. وبات كرسيًّا غريبًا وحيدًا عاريًا في فجر يوم من أيام يناير شديد البرودة.

تذكّرت ذراع الدكتورة إيمان المحيطة بكتفيّ وهي تعرض لي أسباب صرفها النظرعن فكرة تعييني بالجامعة وتقول: «لكنها وظيفة تحتاج إلى الكثير من التواصل». سمعتها تكرّرها عدّة مرّات، في كل مرّة يعلو صوتها أكثر فيعلو معه صداه في الجو. قالتها مائةً. سمعتها مائةً.

تذكّرت سلالم الجامعة في المبنى النائي بنوافذه الزجاجية. رأيتني أقف أمامه وأنظر إلى الباحة أدناه. استرجعت صورة التجمعات الملوّنة من الطلاب المتسامرين الضاحكين. والعاشقَين. والدارسين. وغربتي وسطهم كلهم.

«لماذا خلقتني طيرًا وأنتَ تعلم أنني لن أجيد الطيران أبدًا؟! ليس عدلًا! والله ليس عدلًا!!».

تطلّعت إلى السماء وقد تجعّدتا عينيّ كأنهما يتّقيان أشعّة شمس الظهر الحارقة. لم تكن شمس الظهيرة هي التي دفعتهما للانكماش، بل حُرقة أوجاع القلب وهو ينتحب. ليس فقط لأن الوقت لم يكن ظُهرًا، لكن أيضًا لأنه وإن كان ظُهرًا، تبقى الحُرقة المشتعلة في قلب الطير الذبيح أشد وطأة من الحُرقة المنبعثة من الشمس حول جناحيه في كل الأوقات.

رأيت في ظلمة جفنيّ المنغلقتين وجوهًا كثيرة: وجوه أليفة ووجوه عابرة رأيتها مرة أو مرتين في حياتي. «ما بك يا ليال؟ القطة أكلت لسانِكِ؟».... «هل أنت دومًا هادئة إلى هذا الحد المبالغ فيه؟».... «لا تصلحين»....«غير مُشرّفة»...«ما هذا البرود!»....«أنت قليلة التركيز»....«استيعابك بطيء»....«نخشى أن نكون قد خطأنا حين قبلناك»....«قد تبدعين في مجال آخر من المجالات»...«وبتقول بابا وماما؟».

وحينما استحضرت الوجه القائل: «وبتقول بابا وماما؟» اختلط بالبكاء غضبٌ عارم. نهضت بسرعة. كدت أنسى حقيبتي على الرصيف. تذكّرتها في آخر لحظة فحملتها بيديّ المرتعشتين. لمحت امرأة خمسينية في شُرفة منزل بمبنى أمامي، تقف وتتأمّل الطريق. تحمل كوبًا يبدو لي من بعيد أنه فنجان قهوة أو كأس شاي. أو مشروب آخر. كانت تحتسيه بهدوء وبدا على وجهها الاستمتاع بالمشروب في نسيم الشرفة. كدتُ أصرخ وأُخبرها أن الطقس أسفل منزلها ثلوج وسيول وأعاصير وصواعق. يا خالة، إما تأتي وتنجدينني من هذا الشتاء المخيف، أو تحملينني إلى عندك حيث النسيم الجميل. اشتقت للخريف والربيع والصيف. فصول العام أربع، لا أعلم منها إلا شتاءه القاسي يا خالة...

ويا رب... إن كنت كتبت لي شتاءً دائمًا وطقسًا كهذا الطقس البارد المستمر، فأسألك العوض بفردوس طقسه رحيم ودود يقتبس من رحمتك وودّك فيجود.

ضربت بقدمي اليُمنى عرض الرصيف بقوة. كأنني كنت أحاول معاقبة نفسي بكسر إحدى قدميّ. أو كأنني رأيت الوجوه التي أطلّت في عتمة العينين وتخيّلت ركلها عقابًا لها على الأذى التي تسبّبت فيه لي.

ثم تذكّرت يوم من أيام أسبوعي الثالث لانضمامي بالشركة. يوم أثار أحدهم في المكتب موضوعًا ما حول الفنون التشكيلية. لا أدري من أين جاءتني كل تلك الشجاعة المفاجئة، لكنني على الأغلب استأنست بالفرا شي والألوان التي أطلّت من الحديث حتى سكَنَ الفؤاد ورأيتني أشاركهم الحوار. وكان أول (وقد يكون آخر) موضوع أشارك فيه برأيي مع هذا العدد من زملاء العمل (كنّا أربعة أو خمسة أشخاص تقريبًا).

- وأخيرًا استمعنا إلى صوتك! يا زملاء...أرجوكم...تصفيق حاد. ليال تكلّمت!

دخل عمر المكتب، وبعد السلام و« صباح الخير»، وقبل أن يصل إلى مقعده ويجلس: فاجأته (دُنيا):

- «اسكت...مش ليال طلعت بتتكلَم»؟!

رد عُمَر بتلقائية واستخفاف لم يحاول كتمانه:

- «وبتقول (بابا وماما)»؟

قهقهت دُنيا. أعجبتها نُكتة عُمَر. وابتسم عُمَر فخورًا و سعيدًا لأنه أضحك دُنيا. ويبدو أن كل من في المكتب أعجبتهم النكتة أيضًا ألا وأن عدوى الضحك انتقلت إليهم بسرعة من دُنيا حتى أسمعت الضحكات كل من في الغرف المجاورة لنا.

سألت (لامياء) وهي تغادر غرفةمكتبها الخاص المُغلق:

- ماذا حدث؟

- ليال طلعت بتتكلّم!

خرج (أحمد) من المطبخ ممسكًا قهوته:

- وأين نصيبي من هذا الضحك كله؟ أريد نصيبي! شاركوني!

- اليوم يوم تاريخي! تكلّمت ليال وسمعنا صوتها. أتصدّق هذا؟!

مطارق على مطارق، و ضباع بعد ضباع، وهلع فوق هلع، ومن عجز إلى عجز، وخوف بلا أمل.

مسحت دموعي بظهر كفّي بعد أن هدأ النشيج. سرتُ بالاتجاه المعاكس نحو الشارع الرئيسي الذي انحدرت منه. استقللت أول سيّارة أجرة وقفت لي وتمتمت وأنا أسحب بابها الخلفي:

لستُ دُمية حقيرة (بتقول بابا وماما)! لستُ دُمية حقيرة (بتقول بابا وماما)!

عجيبٌ هذا الخوف الذي يجعل من صبيّة في الخامسة والعشرين من عمرها دُمية بالكاد تقول «بابا وماما».

15.. كْلِيُوْ

– وما الذي يميّز الواحدة دون غيرها إذن؟! أقصد، ما الذي يجعلك تقولين «هذه رائعة»، «هذه عادية»، و«هذه لا تُعجبني»؟

– أمور شتّى تتحكّم في هذا. الفكرة، العناصر، تكوين العناصر، الظلال والنور، الألوان، الانطباع الغالب عند النظر إليها.... يعني.... لن أصدقكِ القول إن قلت أنني أستطيع حصر العوامل المؤثّرة كلها.

– لكنني يا ليال– بصراحة – حين أنظر إلى أي لوحة لأي رسّام، لا أشعر بشيء! هي إما لوحة مفهومة أو غير مفهومة. إما أجدني أقول: «هذا رسّام جيّد لأنه تمكّن من رسم التفاصيل وكأنها مُجَسّمة حقيقية»، أو أقول: «هذا رسّام رديء يرسم كالأطفال». إنما لا أرى في أي لوحة ما هو أبعد من هذه المعايير القليلة للحكم على اللوحات. أبي خلَل أم ثمّ شيء لا أفهمه؟

– لا، ليس بك خلل على الإطلاق. أنت فقط كمن أمسك بكتاب كبير من مئات الصفحات، تصفّحه بسرعة، قرأ العناوين على عجل، ثم أغلقه ووضعه على الطاولة أمامه، وراح يكتب نقدًا أدبيًا مطوّلًا عنه بدأه ب:

«كتاب ساذج، ممل، خال من أي عمق أو بُعد أدبي». لا يمكن أن ينقد شخص كتابًا إلا إذا قرأه كلمةً كلمة، وحرفًا حرفا، معيرًا المقدمة والهوامش والملاحظات ذا القدر من الاهتمام كما المضمون، وباحثًا في تاريخ وشخصية الكاتب والظروف التي عاش فيها، والزمن، والسياق العام الذي كتب فيه كتابه. بنفس المنطق، تُقرأ اللوحات.

- حسنًا...أفهمك قليلًا. لكن، كيف يمكن أن أرى في لوحةٍ– مثلًا – صبيّةٍ تحمل سلّة تفاح، ما هو أبعد أو أعمق من كونها صبيّة تحمل سلّة تفاح؟!!

ضَحِكَت وضَحِكتُ لضحكها فانتبهَ لحديثنا الزبائن على الطاولات المجاورة.

- انتظري، سأريكِ شيئًا.

أمسكتُ بهاتفي المحمول وأخذت أقلّب بين الصور المُسجّلة عليه، بينما انتهزت (مايا) الفرصة لتواصل تناول أصابع البطاطس المقليّة، تغمس واحدة واحدة في صوص «الكاتشاب». ثم نادت على الجارسون فأتى.

- عصير برتقال من فضلك...وأنت يا ليال؟

- لاتيه من فضلك.

سجّل الجارسون طلبَي العصير والقهوة ثم ذهب. استكملت مايا الأكل منشغلة بالأحاديث الكثيرة المتشابكة من حولنا بُرهة، وبُرهة بتوجيه النظر إليّ في انتظار ما أريد أن أُريها إياه.

- آه! أخيرًا وجدتها! انظري إلى هذه اللوحة يا مايا، انظري جيدًا...ماذا ترين؟

أمسكت مايا بالهاتف، نظرت إلى صورة اللوحة، تريّثت قليلًا قبل الرد ثم عرضت رؤيتها بشيء من الارتباك الذي أظن أنني قد لاحظته عليها بالرغم من شخصيتها القويّة التي نادرًا ما يظهر عليها الارتباك.

- مممممم....أرى..رجلًا جالسًا يرسم موديل واقفة أمامه في غرفة ما.

- ماذا بعد؟

-........كرسيًا، وطاولة، وستارًا...وثريا ذهبية تعلو المنظر. باختصار أرى لوحة عادية لمشهد عادي متكرّر.

- إلى هنا، فأنت تتصفّحين الكتاب على عجل. الآن نبدأ في القراءة كلمةً كلمة، وحرفًا حرفا. أخبريني إذن، ماذا عن زيّ الرجل والمرأة في اللوحة؟

-.......الرجل يرتدي زيًّا غريبًا. قميص. و سترة مخطّطة أبيض في أ سود. وعلى رأ سه قبّعة سوداء كأنه مهرّج في سيرك. سرواله أ سود وا سع ينتهي عند أ سفل القدمين بجاربين ضـيّقين أحمرين فوقهما جوربان آخران من اللون الأبيض. ثم حذاء أسـود. يبدو لي الرجل بالسروال والجوارب والحذاء كأنه راقص في إحدى فرق الدبّيكة الشوام. هههههه....

أعجبني التشبيه فضحكت.

- سألتِني عمّا أراه في اللوحة وأجبتك! لِمَ تضحكين الآن؟!

لا، لا، على العكس. أعجبني التشبيه لهذا أ ضحك. لم أفكّر في الت شابه من قبل....ماذا عن المرأة؟

- المرأة ترتدي عباءة زرقاء وا سعة جدا جدا. « شوال بطاطس»! على رأ سها...أوراق شـجر؟ كأنها حلقة من أوراق شـجر مضـفورة...أو زينة رأس دائرية من ريش أزرق أو أخ ضر. تم سك بكتاب في يد، وفي اليد الأخرى...ما هذا؟ ما ا سم هذه الآلة المو سيقية؟ (ترامبت)؟

- نعم، ترامبت...وهل أضافت قراءتك لزيّهما إلى فهمك شيئًا؟

- أفهم الآن أنه رجل من الدبّيكة الشـوام يرسـم امرأة غريبة الأطوار ترتدي شـوال بطاطس وتزيّن أعلى رأسها بورقات شجر أو ريش أزرق.ما هذا العبث يا ليال؟! لو تركتني أتصـفّح الكتاب دون قراءته لكنت احتفظت بانطباع أفضـل من هذا عن اللوحة. أما الآن وقد تأمّلت زي الرجل والمرأة فيمكنني الجزم بأن من رسـم هذه اللوحة مخبول بالتأكيد! أو أنه يمتلك ذوقًا فقيرًا غريبًا في الملابس...ثم...ماذا يعني هذا الآن؟ أنني يمكنني بكل بساطة – مثلًا – أن أرسم رجلًا في زي فلاح القرية وامرأة تلف خصرها بأفاعٍ وعناقيد توت أحمر ثم أدّعي أنني فنّانة عميقة؟!

مايا ثرثارة ومرحة، تحب التفاعل مع الناس. تُشـبه طنط عزّة، صـديقة ماما، في طباع كثيرة. فهي مندفعة واجتماعية وطموحة وتتميّز بحس فكاهي ساخر يُعجبني وإن اختلفت مع مضـمونه. صـريحة ولها صـوت عالٍ تحدّث به كل فكرة تجول بخاطرها فورًا. عمليّة وزادت دراستها للطب من تشبّثها بالتفسيرات والآراء العملية في كل الأمور الحياتية. ناقدة شـديدة ودقيقة ونقدها لاذع غالبًا. ينزعج الكثيرون من صـراحتها الزائدة ومن نقدها المتكرّر إلا أنني – لـ سبب ما – لا أفـ صح لها عن ضيقي الـ شديد من حدّة حديثها، وأدفع بنفسي إلى تجنّب الضيق بالانشغال بالاستمتاع معها بأوقات حلوة نقضيها سويًّا وبذكريات ومودّة ولدت وكبرت بيننا عبر سنين منذ الطفولة.

- في سياق الحقبة الزمنية والمكان الذي رُسمت فيهما اللوحة، نعلم أن (يوهانز فرمير) قـصد رسم رجلًا هولنديًا يوحي زيّه بانتمائه إلى طبقة اجتماعية ذات مال ونفوذ. فكان زيّ كهذا – في عام 1665 –هو زي كل رجل ثري يمتلك المال والمكانة الاجتماعية المميّزة بل وحريصًا أيضًا على الأناقة ومواكبة آخر صيحات الموضة.

- موضة؟ هاهاهاها...لا تقولي أن زي المرأة هذا بورقات الشجر كان آخر صيحات للموضة في القرن السابع عشر أيضا!

- لا، بل زيّها الغريب هذا، والكتاب والترامبت الذي تحملهما في يديها دلائل تُرشدنا إلى هويّتها الحقيقية. فنعلم من خلال « شوال البطاطس» وزينة الشعر «العجيبة»، والكتاب والآلة أنها إلهة التاريخ: (كليو)؛ وهي إلهة من تسع آلهات إلهام (muses) عند الإغريق القدامى كان اليونانيون الإغريق ينظرون إليهم باعتبارهم مصادر إلهام الفنون كلها من أدب وشعر ورسم، وغيرها.

- إذن...فهو رجل ثري ذو نفوذ يرسم إلهة التاريخ اليونانية؟

– بالضبط...بهذا نكون قرأنا أول فصل من كتاب اللوحة. في الفصل التالي، يأتي اسم اللوحة الذي اختاره لها فرمير: «فن الرسم» (The Art of Painting). ونقرأ في الهوامش لهذا الفصل نبذة عن حدث جرى قبل رسم اللوحة بأثناء قليلة. فنعلم أن فرمير مرّ بموقف محبط أثّر فيه أشد أثر قبل أن يفكّر في فكرة اللوحة. إذ طرق رجل فرنسي باب منزله بمدينة (دلفت) الهولندية ذات يوم. وإذ بالفرنسي أحد رجال النفوذ الأغنياء، سمع عن موهبة فرمير فأراد أن يشتري منه لوحة. رحّب به فرمير ودعاه إلى الداخل ليأخذه في جولة سريعة بين لوحاته. تعالت أماني فرمير بأن رجلًا ثريًا ومرموقًا كهذا – أخيرًا – سيشتري لوحة من لوحاته، لعله بهذا البيع السعيد ينتشله من الفقر المروّع ويخلّصه من الديون المتراكمة على كاهله. ولو لبضعة أشهر أو حتى أسابيع.

« رحل الفرنسي كما جاء. لم يشترِ أيًا من لوحات فرمير. لم تعجبه كلها. ويبدو أن فرمير شعر بإحباط شديد قرّر في أعقابه أن يأتي بكل قدراته وموهبته كرسّام ويضعها في لوحة زيتية 110 x 130 سم تكون لوحة ال masterpiece بين مجموعة لوحاته كلها. والأرجح أن هذا التفسير لا يفتقد المنطق إذ يؤكده رفض زوجة فرمير التام لبيع هذه اللوحة بالذات بعد وفاته بالرغم من الديون التي غرقت فيها العائلة بموت ربّها. بل وأخفتها تماما في زاوية من زوايا البيت بعيدًا عن الأعين لفترة طويلة إلى أن سلكت طريقها إلى النور شيئًا فشيئا فيما بعد.

– أتؤاخذينني أو تقولي عني فتاة غبية إن أخبرتك أنني لازلت لا أفهم كيف لمعلومة كهذه أن تضيف أو تغيّر في تحليل اللوحة شيئًا؟ .... تأخّر الجارسون. جارسون! لو سمحت!

– أتى الجارسون مُسرعًا.

– العصير واللاتيه لو سمحت. أوشكنا على الذهاب!

– حالًا.

– عفوًا يا ليال، أكملي.

– إننا يا مايا بهذه المعلومة في الهامش نستنتج معنى جوهريًا يصب في متن الكتاب. نحن الآن أمام لوحة اسمها «فن الرسم»، بها رسّام في هيئة النبلاء وعِلية القوم يرسم إلهة التاريخ. ثم يأبى صاحبها (أي صاحب اللوحة) – رغم ديونه المزمنة – أن يبيعها أو يتقاضى عليها أجرًا في حياته أو بعد موته.

«كأن فرمير يرد بهذه اللوحة على الرفض الذي لاقاه من قبل الفرنسي ويقول له بها ما لم يستطع أن يقوله وجهًا لوجه: أن الرسام هو صاحب النفوذ الحقيقي والسلطة الباقية لأنه يشهد التاريخ ويسجّله – ولعله أحيانا حتى يشارك في صنعه – فيسجّل التاريخ اسمه في المقابل بين صفحاته إلى الأبد لأجيال كثيرة ستأتي. وليس لهذا ثمن يقدّر بمال.

- أوه...

ابتسمت مايا ابتا سمتها الهادئة الغامضة. ليس لها في العادة ابتسامة هادئة، لكنها تصير على هذا النحو حينما تسـرح في فكرة ما أو تحاول اسـتيعاب أمر طارئ أو مُبهم. لكنني في تلك اللحظة لم أكن أعلم تحديدًا ما إذا كانت تبتسـم لأن الفكرة أعجبتها، أم كانت تريد إضافة شيئ ما تردّدت في قوله، أم أنها ضجرت من الحديث فانشغلت بكيفية تغيير مساره، أم كا نت تعيد التفكير في رؤيتها المسـبقة عن الفنون عا مةً بعد محاولاتي المتكرّرة لاستضافتها إلى بوّابة هذا العالم. رأت القصر فدُهشت لأنها لم تره من قبل؟ أم زادها الوقوف عند البوابة خارج حرم القصـر اضـطرابا؟ أم أن الأمر لا يهمها على الإطلاق وهأنذا أهدر وقتًا طويلًا في التدقيق في مشاعر قد لا تهم صاحبتها بالأساس.

لكنني واصـلت. لا يمكن أن أتحدث عن لوحة «فن الرسـم» لفرمير دون التطرّق إلى الخارطة، والثريا، والكرسي، والقناع، والستار، والكانفس....آه! ونقطة الهروب.

- والخريطة المعلّقة تلك خلف كليو تؤكد رمز (التاريخ) والخلد في اللوحة. ويقول بعض النقّاد والمحلّلين الفنيّين أن فرمير ذهب إلى أبعد من هذا حتى بأنه بدّد تقسـيمات بعض المواقع الجغرافية على الخريطة بالرسم ليشير إلى أن هولندا ستنال وحدتها وهيمنتها من جديد...أو شيء من هذا القبيل.

«والثريا الذهبية الفخمة تأكيد على فخامة وهيبة النور المنبعث من الفن والتي تعلو رأس الفنان والتاريخ مباشرة. أما القناع الموضوع على الطاولة يسار اللوحة فغالبًا يرمز إلى فنون المسرح والتمثيل والتنكّر أو التقليد، ويبدو أن فرمير قصد الإشارة به إلى قدرة الفن على قهر المستحيلات وجعلها ممكنة ببساطة. في الستوديو. وأمام مرأى ومسمع أجيال مضت وستأتي عبر التاريخ الطويل.

«وانظري يا مايا إلى الستار والكرسي هذين الموضوعين أمام الطولة والمنصوبين على أرضية أقرب إلى الناظر مقارنةً بالرسّام وكليو وكل العناصر الأخرى...انظري كيف تحدَّد بوا سطتهما أبعاد كل العناصر في التكوين...تأمّلي. إننا نرى الستار والكرسي في المقدمة، تليهما الطاولة والرسّام، تليهما كليو. ثم نجد نقطة الهروب التي اختارها فرمير تنصبّ في النهاية بيد كليو. والأبعاد المختلفة تلك تترك تأثيرًا معيّنًا على قلب الناظر. فالستار مع المقعد في البعد الأول تعطيان الناظر إلى اللوحة إحساسًا بأنه بعيدًا عن المشهد، ومن ثمّ تُضفي هيبةًلما يحدث (بالداخل) وراء الستار. كأنه مشهد تمثيلي. استعراض. الكرسي يقول: «تفضّل. اجلس وانظر واستمتع وتفكّر في هذا المشهد المسرحي العظيم البعيد.

حيث يقوم الرسّـام بنفوذ موهبته ورؤيته الثاقبة الواثقة الفخمة بتسـجيل تاريخك أنتَ، أنتَ أيها الناظر. نعم أنت. أنت يا مَنْ تقف أمام اللوحة الآن». وقد يكون الناظر الذي قصده فرمير هنا هو الفرنسي نفسه. وقد يكون العالم. وقد يكون نفسه التي يحاول مواساتها من ألم الرفض بإقناعها وتذكيرها بقوة الفن الكامنة فيها».

- طيّب، وماذا تعنين ب«نقطة الهروب»؟

- هي تلك النقطة – الوهمية – التي تلتقي عندها كل خطوط المنظور فتبدو الأشياء من منظورها العلوي، أو السفلي، أو على ذات المستوى مع من يقف أمام اللوحة. حسنًا...أشعر الآن أن كلامي مُبهم كل الإبهام غامض كل الغموض. لا أدري كيف يمكن تبيان المقصود من مصـطلح نقطة الهروب...اسـمعي...تخيّلي معي أنك تقفين عند محطة قطار، قطارها يقف إلى يمينك. ألا يبدو لك أول القطار كبيرًا وواضـحًا ثم يبدو وكأنه يصـغر وينكمش حتى تختفي تفاصيله شيئًا فشيئًا إذا ما نظرت باتجاه آخره على المدى البعيد؟

- بلى! يختفي فجأة عن بعد.

- إنه يختفي عند نقطة الهروب؛ تهربُ خطوط هيكله إلى نقطة واحدة بعيدة.

- أوه!..وهل كل التحليلات هذه أفصح عنها فرمير بنفسه، أم قرأتينها في كتاب ما؟

- لم يفصح عنها فرمير. بعضها قرأته في مقالات أو كتب لنقّاد ومحللّين فنيّين، وبعضها نفذ إلى قلبي هكذا. بالتأمل.

جاء الجارسون بصينية العصير والقهوة. انتظرت مايا إلى أن وضع الكوبين على الطاولة ورحل قبل أن تقول وهي تبتسم:

- أستمتع بالحديث معك عن الفن كثيرًا يا ليال. لا لأن الفن يستهويني – فأنا كما تعلمين «حمارة» في تلك الأمور ولا أستوعبها مطلقًا صراحة – لكن لرؤيتك تتحدثين بطلاقة وشغف قلّما أجدهما عليك...أخبريني، كيف الوظيفة الجديدة في الشركة؟

تُشبه صداقتي بمايا علاقتي بكل من أعرفهم من أصدقاء، أقارب، أهل، جيران،زملاء، ومعارف.تختلف الوجوه والأ سماء والطباع ويبقى شيء واحد لا يختلف: إيقاع توا صلي مع من حولي.

إيقاعي في التوا صل متقلّب. يبدو مزاجي وغير مفهوم. قُرب بألفة وود كبيرين، يتبعهما بُعد مفاجئ وحا سم. قُرب فبُعد فقُرب فبُعد. أُقبل على من أحب بـشغف، ثم أنأى وأختفي بعيدًا دون سابق إنذار قبل أن ينتبه أحدهم إلى خطواتي المهرولة في الاتجاه المعاكس المهجور.

لا أتذكر كيف ولا متى انتظم الإيقاع على هذا النحو. فجأة، وقبل أن أنتبه، و جدت نفسي مُسيّرة على عشوائيته المُبهمة المُرهقة للعقل والروح والجسد. أحدّث مايا في مطعم جلسنا فيه مرات ومرات، عن فرمير وكليو والثري الفرنسي. أحدثها عن مفهومي عن قراءة اللوحات. تسأل وأجيب. تبتسم وأبتسم. نضحك. ونُسمع المحيطين بنا ضحكنا. ثم أعود في الليل إلى البيت ولا أنتبه إلا وأنا أبدّل ثيابي وأستعد للخلود إلى النوم أن قلبي يتسارع بداخلي وأن إيقاع الحروب فيه قد بدأ. أنتبه أكثر فألاحظ أن المدافع والصواريخ وتيارات أمواج البحار الغاضبة لم تتوقّف لحظة. كانت كلها معي بالفعل ورافقتني منذ أن كنت بصحبة مايا وفرمير في المطعم. إنما كيف لم أنتبه لها إلا الآن؟ ثم أنتبه وأنا مستلقية على سريري إلى يديّ وركبتيّ المرتعشتين. وإلى صقيع يناير المتسلّل إلى خريف أكتوبر المعتدل.أستمع إلى صوت أقدام بابا مقتربة من غرفتي. أظنه يريد أن يخبرني بشيء. أتظاهر بالنوم العميق. لا أريد.

أصحو على ذات البرد القارس في اليوم التالي. أسمع أصوات أبواق السيارات والشاحنات المدرسية والعمّال في مبنى قريب، والجيران. أسمع صوت أمي تتحدّث على الهاتف. تضحك. أو تحكي. أو تصمت وتصدر إيماءات الا ستماع إلى حكاية يرويها مَنْ تحدّثه. أسمع أبي يعزف على البيانو قبل الذهاب إلى العمل. تُزيد الأصوات من رجفة اليدين والركبتين ومن إيقاع المدافع في القلب لسبب لا أفهمه

يرن هاتفي المحمول. مايا تتّصل. الجهاز على الصامت. لا أجيب. تمر ساعة. تعاود مايا الاتصال. لا أجيب. تمر أربع أو خمس ساعات. رنين رسالة. أحمل الهاتف. إنها رسالة من مايا تقول فيها: «أين اختفيتِ؟». لا أجيب. رسالة أخرى بعدها بساعتين: «ليال؟». لا أجيب. يمر اليوم. أتفادى التفكير في اتصالات ورسائل مايا التي لم أجب على أي منها. أنشغل بمحاولة إيجاد تفسير منطقي لهذا الاختفاء كي أرد على رسائلها. لا أجد. فأتفادى التفكير في الموضوع أكثر.

مع دنو منتصف الليل، أقرّر أخيرًا الرد على رسائل مايا بمعاونة المحرّر الصحفي المُهذّب، المتحايل، القلق، الخائف. أُرسل: «مايا...انشغلت اليوم كثيرًا. اعذريني».

والحقيقة أنني لم أكن منشغلة «كثيرًا» سوى بهذا الشعور الغريب المهيمن على نفسي: شعور المُحلّق في الهواء. أو، دعني أقول العالق في الهواء. المُتعب، المذعور، اليائس، الجالس عاريًا وحده في الثليج المميت لا يرى في المكان حوله إلا نفسه. ولا يشعر في صدره سوى بهذا الأدرينالين المُشتعل في دماء الظبية المذعورة وهي تفرّ من ضبع متوّحش يتربّص بها. أو شخصٍ هارب بكل ما أوتي من قوّة من حريق نشب في بيته الصغير. ذلك الشعور الفطري الذي يفرض نفسه فرضًا ، لذا أقول «مهيمن».

بل وأضيف: المُستبد. القاهر.إلحاحٌ غريب! إلحاح الفرار توقًا للنجاة. لكن الفرار من ماذا، و إلى أين؟ لا أدري. ولا أمتلك رفاهية التفكير بتروّ في الأمر.

تسأل مايا: «تختفين كثيرًا يا ليال. يُزعجني هذا جدًا. وأخشى أن تتأثّر صداقتنا بسبب اختفاءاتك المتكرّرة. لا أريد هذا. حقًا لا أريده».

أتلعثم. ليس لديّ ما أقوله. أو، لديّ الكثير من الكلام العجيب لأقوله لكنني أُشفق عليها من الاستماع إلى كلام عجيب لن تفهمه. لذا، لن أقوله. أيُرضيك هذا يا محرّري الصحفي؟ بلى، كنت أعلم. يُرضيك. لكن...ماذا أقول؟ حُجة الانشغال راحت مصداقيتها. أصبحت غبيّة مُملّة. ثم ما المانع من أن أقول الحقيقة؟ أعرف...أعرف. لن تُصدّقني. لكن...أليست هذه الحقيقة؟

- كنت خائفة.

أستجمع كل ما أوتيت من شجاعة وأُخبِر مايا. فتسألني بكثير من التعجّب والاستنكار تتبعهما بابتسامة ساخرة:

- خائفة؟ من ماذا؟!

- لا أعرف...والله لا أعرف يا مايا. لكنها الحقيقة وما من حقيقة سواها.

- لا، لا...لا تخافي. لا تخافي منّي أبدًا أرجوكِ.

- حسنًا.

لكن الأدرينالين المشـتعل في جسـد الظبية المذعورة بلا عقل ولا يعرف سـبيلًا إلى المنطق. لكم أتمنّى لو كان ممكنًا أن يداوي هذا المنطق الهادئ الذي تتحدّث به مايا، ألم الطيران الحائر في الهواء الباردة. حقًا أتمنى. يا ليت «لا تخافي» كانت حلًّا. يا ليتها كانت الإجابة المفقودة التي ظللت أبحث عنها لسـنوات. لكن الأمر مُختلف يا مايا. مختلف جدًا.

تمر الأيام، وتدور الدوائر، والإيقاع هو الإيقاع. قُرب فبُعد فقُرب فبُعد. والر سائل هي هي: «ليال لِمَ لا تُجيبين؟». ومصير الاتصالات الواردة هو هو: لا أجيب.

يشـغلني في لوحة فرمير غير الرسّـام الذي يُشـبه الدبّيكة الشـوام على حد وصـف مايا، و« شوال البطاطس»، والقناع، والكر سي، والستار، والثريا، يشغلني الكتاب الذي تحمله كليو.

إنه كتاب من الyellow ochre الذابل. يوحي لونه بالقِدَم والعراقة. ويظهر غلافه كأنه مكسو بالأتربة. طبيعي...فهو كتاب أبديّ عتيق الوجود. ضخمٌ جدا، كأنه مو سوعة حُرّة، فهو حاضن لقصص كل مَنْ مرّوا (بها).ليس لغلافه عنوان.

وهل تهم العناوين لمثل الموســوعات من هذا النوع؟ يتلخّص حجم قيمته وأهميته في نظرة كليو التي تحمله برفق. إن كليو لا تنظر إلينا ولا إلى الر ّسام الذي ير سمها في اللوحة. يحســب الرائي مع النظرة الأولى، أنها تنظر إلى الأرض خجلًا. لكننا، بقليل من التأ ّمل، نجدها تنظر إلى الكتاب الذي تحمله لا إلى الأرض،وبفخرلا بخجل. وكأنها تقصــد بتلك الإيماءة البســيطة أن تحوّل عنها بَصَــرَ كل مَنْ نظر إليها، إلى الكتاب. كأنها تقول: «لا، لا تنظروا إليّ أنا، بل انظروا إلى هذا الكتاب».

يا كليو، أخبريني. هل بين صــفحات كتابك هذا قصــصٌ مشــابهة تحكي عن فئران مذعورة؟ هل بين ســطور حكاياتك أي إشــارة إلى وجع مماثل مضــى في زمان معيّن بين زماناتك في عهد قديم، أو عهد جديد، أو في غيرعهود؟

يا كليو، فيكِ تلخيص الأسباب...أجبيني...لماذا أنا أنا؟

يا كليو، كنتِ دومًا وستكونين...انظري إلى وجهي. نعم، هذا الوجه القبيح الذي أكرهه وأكره النظر إليه في المرآة. هذا الوجه العجوز التعس. يحسبه الناس شابًا، لكنه، في قرارة نفسه هو، يعلم علم اليقين كم هو عجوز؛ قلبه كبشرته وعظامه: منكمشٌ. عجوز عاجز يتمنّى الموت والرقود تحت الثرى في سلام. انظري! انظري! هل يبدو لك هذا الوجه القبيح العجوز مألوفًا؟ هل رأيت مثله من قبل؟

يا كليو، بحق تماثيلك الرخامية والإسمنتية العتيقة، ومساجدك، وكنائسك، ومعابدك، وخبايا أرضك، وخبايا سمائك، وقوافل وجيوش قاتلت من أجل صفحة – صفحة واحدة – في كتابك...بحق أفواج المهمّشين المتوافدين على أعتاب أبوابك...هل ثمّ خلل بي؟

«مريم تتّصل»...الهاتف على الصامت. لا أجيب.

16.. المَنْزِلُ الأَصْفَرُ

لم يكن بيتهوفن وهو يحيط كتفي بديعة بذراعه ويحتضـــنها إلا يحتضـــن قلبه الصـــغير المهلوع وهو ينظر إلى نفسه من بعيد: رجل عاجز يسخر الجمهور من عجزه وقلّة حيلته.

يســـمعهم يقولون: «لن يقدر». فيُعلي من قول: «ســـأقدر». يجيبونه: «عبث». فتفاجئه وتفاجئهم بديعة: «لأ، حيقدر».

لا تُشبه بديعة جمهور بيتهوفن الألمان. فجلبابها رث، وعلى رأسها منديلٌ قديم، وقدماها أسودان من أثر الركض حافية القدمين في الحواري المتّسخة بأرضها المحطّمة التي تتغذّى على فضـــلات المارة قبل الدواب، وتروي ظمأتها مياه المصـــارف. تَدُبُّ بكعبيها الجافين المشقّقين على إسكولانس انسكب أمام دكّان (أبو أحمد النُص)، أو أجسام دجاجات فاسدة ميّتة متآكلة منبطحة أمام دكّان (زنّوبة الفرارجية)، أو بيض مكســـور ســـقط ســـهوًا من ســـلّة (عائشة) مقطورة خالتها سكينة.

بالتأكيد هي لا تُشبه جمهوره في شيء. وبالتأكيد حسب الله سعيد مرعي لا يُشبه يوهان فان بيتهوفن جُملةً وتفصـــيلا. لكن القســـوة التي جمعت بين حســـب الله ويوهان، والخوف الذي جمع بين بديعة وبيتهوفن، لا يعرفان جنسًا ولا لغةً ولا شكلًا.

فلا يفرّق الخوف بين أنف مدبّب وآخر أفطس، ولا بين بشـــرة حنطية وأخرى بيضـــاء محمرّة، ولا بين جلباب وطربوش هالكين و بذلة مهند مة أنيقة، ولا بين رائحة عطور الأرســـتقراطيين الثمينة ورائحة البذنجان المقلي والفول وعلب الســـردين القديمة الملقاة على الطرق بين أكوام النفايات. إن كان للخوف خصـــلة واحدة طيّبة فهي عَدْلُه في هذا السياق.

لا أدري لماذا أقرّر فجأة الإمســـاك بلوحي الإلكتروني وأســـتبدل بمقطوعة الباثيتيك سيمفونية بيتهوفن الثالثة ال«إريويكا» (Eroica). لكنني أفعل.ثم تنزلق يدي اليسرى سهوًا على البالتة فتنطبع الألوان على راحة كفّي. أصفر وأزرق وأبيض امتزجوا دون عمد. أسكب نقطة من زجاجة التربنتين على القما شة البرتقالية بعد أن أخرجها من الصندوق. ثم أمسح بها أثر الثلاثة ألوان من على راحتي. تتعالى رائحة التربنتين في الغرفة كأنها موسيقى مصاحبة للEroica.

إنني لا أرى التربنتين المنتشـــر في الهواء لكن رائحته تكفي لتبرهن على وجوده وعلى انتشاره في الغرفة. ولا أشم للبالتة رائحة لكن شكلها وملمسها والأوان التي تكسوها، كلها كافية لتبرهن على هويتها ووظيفتها والحيّز الملموس الذي تشارك تكوين الغرفة فيه.

أما هذا الخوف الملعون، فلا شـــكل ولا هيئة ولا حيّز ملموس يبرهن على وجوده، ولا رائحة منبعثة ترشدنا إلي صندرته أو جُحره أو قصره العظيم.

خف كما شئت. أنت وحدك مع خوفك وستظل.

الآن أنظر إلى صورة بديعة كي أتمكّن من مواصلة الرسم...ما هذا يا بديعة؟ أين أنفك؟

أتأمل صورة بديعة ولا أرى أنفًا. كأن المساحة الوسطى لوجهها، من أسفل العينين حتى أعلى الفم، مساحة جرداء بيضاء – اللهم إلا تجعيدتان مائلتان إلى جانبي أعلى الشفة تشيران إلى ابتسامة خفيفة على وجهها. أحدّدهما – بدايةً – بذات الفرشاة الرفيعة التي رافقتني طوال رحلة تأمل العينين. ثم أهَمْهِم: ماذا الآن يا بديعة؟ حرمتني إمكانية أن أصل أذنيك وها أنتِ تعاودين الكرّة وتحرمينني الآن وصلَ أنفك الذي أزعم أنه بالتأكيد سيكون منمنمًا مثلك. لكن....منمنمٌ حاد ومدبّب؟ أم منمنمٌ دائري أفطس؟ منمنمٌ ذوعظمة بارزة إلى الأمام؟ أم منمنمٌ ذو عظمة غائرة إلى الداخل؟

يا ربي ماذا أفعل؟ حتى جناحا أنفها بفتحتيهما لا أجد لهما أثرًا!

لا تخافي يا بديعة...لا تخافي. استنشقي هواءً نقيًا. هنا، في غرفتي. هنا يكون الشهيق تربنتينًا ورائحة الزيت الغنيّة، والزفير يُذهب معه كل الروائح النَتِنَة الكريهة التي بالتأكيد تطاردك. للتربنتين رائحة نفّاذة تُذيب الألوان وتطغى على رائحة الجثث المتحلّلة المتعفّنة مهما كان عُمق «الفُحْرَة» (كما تنطقها بديعة) التي أعدّاها أبوك وعرابي ليردموا فيها نظلة وغيرها.

استنشقي يا بديعة. استنشقي!

لا تستنشق بديعة. تنظر إليّ نظرة مُشبّعة بالذعر أرى خلالها تسارع دقات قلب الظبية الهاربة من الضباع. أرى في وجهها احمرار تدفّق الدم والأدرينالين طلبًا للنجاة. أتهرب؟

حقًا إنك لغبية حمقاء يا ليال! أظننتِ أن «لا تخافي» هذه كافية؟ يا ليت «لا تخافي» كانت حلًّا. يا ليتها كانت الإجابة المفقودة يا بديعة.

لكن...لا تهربي منّي أنا. لا تختفي. لا تتركي غرفتي أرجوك!

مضيت إليها أحتضنها. لففت ذراعيّ حول رأسها فاستقرّ وجهها على صدري. يدي اليسرى تحيط بكتفيها واليمنى تربت على شعرها ورأسها من الخلف. أحسست برعشة في يديها وهي تحيط خصري بهما شيئًا فشيئًا بتوجّس شديد. ثم سرى انتباهي وجسدها يقترب أكثر من جسدي إلى ركبتيها المرتعشتين كما اليدين تمامًا. فرأيت أن آخذها إلى سريري. استلقينا ولازالتْ بين ذراعيّ ولازلتُ أحيط بيديّ رأسها وكتفها وأشعر بنبضهما المهتاج يضرب على صدري.

رأيت أن أقصّ عليها حكاية تمتصّ خيالها وانتباهها لتعيدها إلى حالة الهدوء الســاكن التي كانت عليها منذ قليل وهي بين أحضان بيتهوفن وسط أطفال الحارة.

أعجبتك قـصة الرجل «غريب الأطوار» الأ صم و صرتما صديقين. الآن أقص عليك حكاية رجل آخر «غريب الأطوار» كذلك والذي سكن (المنزل الأصفر). ما رأيك؟

اسمعي يا بديعة...

في زمان مضى قبل مُضيّ زمانك، عاش شاب وُلد في مدينة (زندرت) الهولندية في ربيع يوم من مارس. قال عنه أهله وأقاربه إنه شاب «غريب الأطوار». لم يكن «غريب الأطوار». كان فأرًا مذعورًا. أخذ يتحسّـس هويّته وملامحه الداخلية باحثًا عن وظيفة تُغذّي روحه وتُرضـي كيانه الفذ المُشـتعل بأوج الحماس.بدأ تاجرَ لوحات مع خاله وأخيه، ثم قسًّـا ومعلمًّا في الكنيسة الكاثوليكية مُفعمًا بالروحانيات وحياة الزُهد والرهبنة والتضرّع للرب. لم يبلِ بلاءً حسنا لا في هذا العمل ولا ذاك. أو على الأقل، هكذا ظن أربابه في العملين. طرده خاله ثم طرده القساوسة. لم يتفهّموا أمواجه العالية. لكنه كان وظل منشغلًا بالرسم. يتأمل ويدرس اللوحات التي وقعت بين يديه أثناء عمله مع خاله وأخيه،

ثم يرســم إســكتشــات لمن رآهم حوله أثناء مرحلة الاعتكاف. شــغله كثيرًا الفقراء والمهمّشون وعمّال المناجم والفلّاحون والمزارعون في الحقول. شغلوه فأخذ يرسمهم ويتقرّب إليهم بالرسم. ولما أحسّ روحَه تؤنسها متعة تأمّل العالم والتفاعل معه بالفرشاة والألوان، قرّر أن يترك كل تجاربه القديمة البائسة وأن يُصبح رسّامًا محترفًا.

بدأ لما بدأ (فينسنت فان جوخ) بلوحات كئيبة تغلب عليها دُكنة الألوان. لم تبتهج ألوانه إلا حينما ترك هولندا قاصــدًا باريس. في باريس، رأى ألوانًا مُشــرقة لم يكن تعرّف إليها من قبل. رأى إســلوب الرسّــامين الانطباعيين الفرنســيين، والمناظر الطبيعية التي أكثروا من رسمها : حقول، وأشجار، وأزهار، وشمس ساطعة، ونسوة جميلات يرقصن مع رجال مبتهجين؛ كلها أثّرت في نفســه جد أثر، وأخذت لوحاته من (هنا) إلى (هناك). انظري يا بديعة...انظري إلى هذين اللونين يمين البالتة هناك على الطاولة أمامنا الآن...هذا البنّي الداكن إلى جانب الزيتي القاتم؟ ثم انظري إلى الطرف الآخر من البالتة حيث الأصــفر الناصع كحبّة الليمون والأحمر المشتعل المُشبّع بالبرتقالي الحار كالشمس عند الغروب. ذهب فان جوخ من هنا (أشير إلى يمين البالتة) إلى هناك (أشير إلى يسار البالتة) حتى صار هذا الأصفر تحديدًا بدرجاته ومشتقّاته من أكثر الألوان التي انجذب إليها بقوة وطغت على معظم لوحاته فيما بعد.

سـلك فان جوخ طريقه من هولندا إلى شـمال فرنسـا أولًا، بباريس. أزعجه الشـمال ببرودته وكآبته فقرّر أن ينحدر جنوبًا إلى مدينة (آرل). وفي آرل، جاءته فكرة إنشاء ستوديو فنّي يكون ملتقى الفنانين، يتوافدون عليه بانتظام، ويتبادلون الخبرات والآراء الفنيّة بين جدرانه. حتى أنه ما لبث أن مضـى بين شـوارع المدينة، ورأى منزلًا أصـفر من بعيد حتى رأى فيه الأمل الجديد. إشراقة الشمس وبهجة الصبح. عزم أمره باستئجار شقّة فيه، وبدأ من هناك رحلة عكوفه على الرسـم المنتظم الجاد، وعلى إقامة صـداقات وعلاقات بفناني فرنسا للبدء في تنفيذ مشروع الستوديو.

وعجيبةٌ هي الرمزية الكامنة في اختيار فان جوخ لهذا البيت بالذات ذي اللون الأصـفر الذي سـيصـاحب طريقه حتى آخر حياته. لقد جاء تأكيدًا على عشـقه الجديد لهذا اللون الذي يبدو أنه قد سأل نفسه عنه بشكل ما: «كيف لم أعِرك اهتمامي من قبل؟». إنه أصفر الليمون. أو – للدقّة – أصـفر عبّاد الشـمس. هذا وأن حقول عبّاد الشـمس التي رأى فان جوخ من بين ما رأى عند وصوله إلى فرنسا، كانت من أكثر المشاهد التي أثّرت في نفسه: لونًا وزهرةً. بل وأنه من المحتمل جدا أن تكون تلك الزهرة بالذات هي سبب عشقه للون الأصفر الذي وُلد من ثمّ.

الحلم...إنه الحلم يا بديعة.

استأجر الشقة في المنزل الأصفر ثم عكف على حلمه فورًا. بدأ السعي نحو حلمه الجديد بتأكيد إمكانية تحقيق الحلم على شكل لوحة لعبّاد الشمس يعلّقها على حائط غرفته الجديدة، ستصبح ضمن سلسة ممتدّة من لوحات ودرا سات سير سمها فيما بعد لعبّاد الشمس أثناء أيامه الأولى في آرل.

هل تعرفين زهرة عبّاد الشمس تلك يا بديعة؟ لا أظنك رأيتِها من قبل. غدًا أشتريها لك ونضعها في فازة هنا في الغرفة إلى جوار السرير، وأترك لك تنسيقها. نسّقيها بانتظام أمواج بحر الإسكندرية، أو بعشوائية حارة (ماكوريس). نسّقيها كما تشائين.

يا بديعة، زهرة عبّاد الشمس هي زهرة كبيرة نسبيًّا بالمقارنة إلى بقية الزهور. فهي أكبر مثلًا من الورد البلدي. وهي مكوّنة من ورقات كثيفة ومستطيلة ناصعة الصفار. كأن الأرض اختلست بعضًا من خيوط أشعّة الشمس وأحالته إلى أشكال مجسّمة تنغرس فيها على هيئة تلك الزهور. يتوسّط الورقات الصفراء الطويلة قلبٌ دائري كبير (نسبيًا أيضًا) بنّيه داكن وله ملمس خشن وهش في آن واحد، كأكوام القش فوق أرض رطبة سميكة وقوية. لكل زهرة جذع أخضر أملس طويل يحملها حملًا مزدوجًا كخصلة الشعر: نهايته مغروسة ومستقرة في الأرض، وتعلوه الزهرة الحرّة المنطلقة في الهواء.

وربما لم تأخذ عبادات الشمس يا بديعة لونها الأصفر (الشمسي) هذا عبثًا. فعلاقة الزهرة بالشمس علاقة تفوق التطابق أو التواصل اللوني فحسب. إنها علاقة تواصل روحاني وثيقة. تصوّري أن هذه الزهرة يا بديعة تتبع الشمس أينما تروح؟ نعم! لذا، حظيت بهذا الا سم. كأنها في حالة تضرّع أو صلاة للشمس. الشمس قبلتها فتولّي الزهور وجهها شطرها في شكل جماعي أنيق. وتبتهل أو تدعو. وربما تصلّي أو تسبّح. لا تسأم من تتبّع الشمس. تُشرِق فتَشرُق. تُغرِب فتَغرُب.

ولأن الأرواح المتناغمة المتشابهة مهما باعدت بينهم الأزمنة والجغرافيا وفصول كتاب كليو الكثيرة، تلتقي في النهاية بشكل ما في وقت ما في صفحة ما بين صفحات كليو، حَدَثَ هذا التناغم والتآلف العجيب الذي يسميّه العشاق «كيمياء الحب»، بين فان جوخ الروحاني بطبعه والغارق محبّة في أمور الدين، وبين زهور عبّاد الشمس التي تناجي الأشعة الذهبية الصفراء في كل وقت وكل حين. عِشقٌ أسفرَ عن ولادة سلسلتين من الدراسات واللوحات لعبّاد الشمس.

هدأت بديعة.

لن أخبرها الآن لماذا استهللت حديثي بوصف الرجل «فأرًا مذعورًا». وأظنها نسيت. سأدعها مع خيالها السارح، لا تنتظر «غدًا» لأشتري لها الزهور، إنما تتخيّلها فورًا وتبدأ فعلًا بتنسيقها في الفازة وتمضي تجرّب وضع الفازة في أماكن مختلفة من الغرفة. أراها تضعها على الكومودينو. ثم على الطاولة الأبعد حيث الفراشي والبالتة والألوان. ثم تقرّر أخيرًا أن تُخرجهم من الفازة. لا تضعهم لا هنا ولا هناك. ولا تنسّقهم لا على غرار أمواج بحر الإسكندرية المنتظمة ولا على عشوائية حارة ماكوريس. تقرّر في آخر لحظة أن تحملهم بين يديها وتمضي بهم إلى بيتهوفن الجالس إلى جوار اللوح الإلكتروني على الأرض، مسندًا ذراعه على البيانو من الجانب الآخر، وتُهديهم إليه.

أسمعها تقول: «دول ليك يا عَمْ بيتهوفن. ماتضّايقش مِ العيال».

يبتسم بيتهوفن على استحياء ويأخذ الزهرات. ينقلهم إلى يده اليسرى ليحيط باليمنى كتفي بديعة. لم يفهم ما قالته من كلام غريب أخذت حروفه شكل الطلاسم على أذنيه. لكنه فهم النظرة المغمورة بالحنان والتعاطف، وفهم الابتسامة الودودة التي أطلّت بها نحوه، وفهم الزهور الصفراء التي أشرقت شمسًا تمضي إليه مسرعة من الشغف.

أتركهما وأعود إلى اللوحة. ماذا أفعل الآن بهذه الصحراء الجرداء يا ربّي؟! لا، ليست صحراء وليست جرداء يا ليال. إنها تلال مسترسلة من نفايات الحواري وروائح الحشيش والإسكولانس والنبيذ والكنياك والعَفَن النافذة من بيوت الهلاك والمرتبطة ذهنيًا بمشاهد القتل التي تتبعها، وروائح الجثث المنبعثة من البلاط والمصاحبة لبديعة أثناء النوم والمأكل والمشرب. أثناء اللعب وأثناء الحلم (أو الكوابيس). وأثناء تتبّع أشعّة الشمس كل صباح. تلالٌ وتلالٌ تراكمت فعَلَت فثَقُلَت فهَوَت. ثم هَوَت. ثم هَوَت...ثم اختفت.

إن حاولتُ الحفر والإتيان بما تحت التلال، تنبعث الروائح وتنتشر في الهواء فتُفزِع بديعة مجدّدا. وإن تركتها، ظلّت مساحة ملساء خالية، كل ما تحتها من آلام محجوبة عن أعين الرائين.

سأتركها. لن أقلّب التربة فأعيد الأوجاع إلى السطح وتفوح روائحها وتؤذي بديعة. ليست بالصورة المكتملة فقط تتم المعاني. أحيانا تكون الصورةُ الكاملةُ العناصرِ الواضحةُ انتقاصًا للمعنى الحقيقي. ربما يكون في إخفاء عنصر أو بعض العناصر تحفيزًا للعقل ليمارس وظيفته الأساسية التي ينشغل عنها كثيرا وسط ازدحام الحياة: التفكّر والتدبّر وملاحقة المعاني وفلول المعاني. «انظر. تأمّل. استنتج. ليست الصور تماما كما تبدو. ثمّت تلال من الأسرار لا تراها العين. أتراها روحك؟ إنها هناك..

.هناك...بالأسفل. صور تحت صور، ومعانٍ تحت معانٍ، وخوف تحت الأمل، وبُعد تحت القُرب».

أمسك بإحدى الفرشات العريضة المتوسطة الحجم. أمزج خليطًا من الدرجات اللحميّة أضيف إليها في النهاية شيئًا من أصفر الCadmium Yellow المُشرق لأذكَر بديعة بإمكانية غرس زهور عباد الشمس فوق تلال الأوجاع المنهزمة.

وفجأة، بينما فرشاتي تروح وتجيء على اللوحة، تباغتني فكرة...

بديعة! بيتهوفن! ما رأيكما أن نزرع عبادات الشمس هناك...فوق هذا السطح الأملس الواسع الخالي؟

تندهش بديعة وتعبّرعن حماسها للفكرة بقفزات قصيرة وسريعة في الهواء. يرى بيتهوفن حماسها فيبتسم ويسارع لأخذ الزهور التي أهدته إياها بديعة منذ قليل.

نمضي ثلاثتنا باتجاه اللوحة. يحتفظ بيتهوفن في سترته بمجموعة، ثم يوزّع ما تبقّى علينا أنا وبديعة. يأخذ كلٌّ منّا باقته ويمضي بها إلى السطح الناعم خلال الكانفس. بديعة تتقدّمنا بعدّة خطوات. تركض وتقفز في الهواء، وتغنّي أغنية ما حفظتها عن أطفال الحارة. يليها بيتهوفن مسرعًا بخطواته الرصينة المنتظمة على أنغام ال Eroica الحماسيّة. كنت قد نسيت فرشاتي فعدت آخذها ثم لحقت بهم.

ما إن وصــلت إليهما حتى وجدت بيتهوفن قد انتهى من غرس زهراته بانتظام جنبًا إلى جنب. بهذه السرعة؟ إن المايسترو حين يأخذه الحماس يندفع بحركة يديه وكأن كل يد في ســباق مع أختها. أما الآن و قد انتهى، فيقرفص إلى جوار بديعة التي بدت أكثر تأنّيًا في اختيارنمط تنســيق زهورها. ينظر إليها وهي تغرس آخر كل زهرة في قلب الزهرة الأخرى من تحتها. كانت قد غر ست ثلاث زهرات إلى الآن و ضعتهم الواحدة فوق الأخرى، فلما طال البُنيان التي تُعدّه، وا ستعصى عليها الو صول إلى قلب أعلى زهرة، قام بيتهوفن وحملها لتتمكّن من مواصلة غرس الزهرات في خط رأسي مستقيم.

لما انتهت، أفسحتُ لفضولي المجال وسألتها عن سبب تنسيقها للزهور على هذا النحو الغريب الغير مسبوق.

أجابتني:

- قُلتْ نِعْمِلوا كدة عشان (عَمّ أبو بيت أصفر) يشوفنا من بعيد فييجي.

- نِفسِك تشوفيه؟

- أوي أوي!

ألتفت إلى بيتهوفن:

ألم أخبركما يا صــديقي أن الفئران المذعورة تســتأنس ببعضــها البعض وأن الطيور الجريحة تأوي إلى عشش متجاورات؟

17 ..وَرَحَلَتْ

لم أدرِ لماذا ا ستاءت منّي (سارة) إلى هذا الحد. كنت في ذروة الهلع لما غَضِبَتْ لسبب لا أفهمه إلى الآن فضوعف هلعي وزادني رَبكةً.

كانت الغرفة صغيرة. لم أعِ أنها صغيرة إلا بعدها بأيام وأنا أسترجع تفاصيل الواقعة. أما ليلتها، فكنت أ شعر أن الغرفة غابة موح شة من شدّة الات ساع الغائص على مرمى الب صر. ربما أشعرني بهذا الاتساع (المُزيّف)، الازدحامُ الذي كانت عليه الغرفة حين كنت هناك. أينما نظرت، رأيت رؤو سًا متكدّ سة من البشر. كان كل صوت يُرَد عليه بصوت أعلى منه، فبدت لي مباراة في الأصوات. أكانت الأصوات حقًا عالية ومزعجة، أم أن الخوف الذي ضاعف من اتّساع الغرفة هو نفسه الذي أعلى من وقع الأصوات على أذني؟

وكان إيقاع الحروب في قلبي قد بدأ فعلًا وأنا لازلت في المصعد الخاص بالمبنى. بل أنه بدأ منذ أن كنت في السيارة أقترب من المكان أكثر فأكثر. بل بدأ منذ الليلة السابقة. لا، بل منذ أن تلقّيت الدعوة قبلها بأسبوع عبر مكالمة هاتفية من (داليا) زميلتنا أنا وسارة في العمل.

سأكون في انتظارك إن شاء الله في منزلي يوم الخميس الثالث من سبتمبر، يا ليال. لا زلتِ مستجدّة في الشركة والأغلب أنك لا تعلمين، لكني ألتزم بهذا الطقس منذ سنوات: أن أجمع كل أفراد قسمنا بالشركة من موظّفين قدامى ومستجدّين عندي في المنزل في ليلة خميس من كل عام. نأكل ونتسامر ونقضي وقتًا ممتعًا سويًا...لن أقبل أعذارًا، هه؟

فكرة رائعة! سآتي طبعًا. شكرا على دعوتك الطيّبة يا داليا.

داليا فتاة في بداية الثلاثينيات من عمرها. طويلة ونحيفة جدا. شعرها بنّي داكن مائل إلى أ سود، متو سط الطول وأملس. عيناها وا سعتان، تكحّلهما دائما بأ سود يُبرز ر سمتيهما. أنفها دائري صغير، و شفتاها ممتلئتان تزيّنهما معظم الأوقات بحُمرة ورديّة خفيفة. ليست ثر ثارة بالمعنى الدقيق، لكنها اجتماعية جدا. تسعى بين المكاتب في و قت من أو قات العمل بشكل يومي لتقف عند كل مكتب من المكاتب وتحدّث صاحبه أو صاحبته فترة من الو قت. «كيف حا لك؟». «لماذا لم تأت البار حة؟». «حقيبتكِ جميلة جدا. من أين ا شتريتِها؟». «أين فلان؟ مريض؟». «لِمَ لا نتناول غداءنا اليوم معا؟». «أنتَ جديد هنا؟ في أي كلية تخرّجت؟».

وعلى عكس داليا التي تعرّفتُ إليها عند التحاقي بالشـركة ولا يجمعني بها سـوى زمالة العمل، يجمعني بـ سارة صداقة قديمة ووطيدة منذ المرحلة التوجيهية بالمدر سة. لا أذكر تمامًا كيف نشأت هذه الصداقة ولا كيف استمرّت. وجدت نفسي فجأة قريبة جدا منها بل ومن أسرتها كلها. غمروني بلطف وحب غير مسبوقين، وأحببتهم كثيرا. مع الوقت، تلاشى شعور الصداقة وانخرط في مودّة عائلية خالصة بها الكثير من الدفء والألفة والمحبّة على الرغم من أن علاقة سارة بأهلي لم تكن على ذات الشاكلة. فطبع والديّ المتحفّظ كان دائما عائقا أمام إمكانية حدوث هذا النوع من القُرب والألفة مع أي من صديقاتي على مر السنين. (لم يكن بيتنا في يوم من الأيام، بيتًا مهيّأ لا ستقبال الضيوف والترحاب بهم. حتى أنني كنت أشـعر بخوف وارتباك شـديدين وأنا أُخبر والداي بأنّ إحدى صـديقاتي قد تأتي لزيارتي. فأُقابل إما بالرفض، أو بنظرة عتاب وضـيق من الزيارة الوشـيكة، حتى أصـبحت نادرًا ما أدعو أيًّا من صديقاتي إلى بيتنا. وعلاوة على هذا، فإنني كنت أ ستحي كثيرًا من فكرة أن ترى إحدى صـديقاتي حال بيتنا، أو تمرّ ماما وهي في حالة بؤس شـديد ترمقنا بنظرة خاطفة ولا تحيّيهن كما أحب أن تحيّي أمي صديقةً لي، أو تصل إلى الغرفة أ صوات شجار نا شب من الخارج يقع بين والداي).

إلا أن هذا الود وهذه المحبة الحقيقية لم يمنعا علاقتنا أنا وســارة من أن يشــوبها بعض (أو الكثير من) التوتر الذي يعكّر صــفوها من الحين إلى آخر. فبالرغم من كل ما نكنّه من محبّة لبعضنا البعض، غير أننا نختلف كثيرا في معظم الطباع.

ســارة تُشــبه مايا وطنط عزّة في كونها ثرثارة ومحبّة للناس. تُقبل عليهم بلا خوف، من تعرف ومن لا تعرف على حد ســواء. إلا أنها – على عكس مايا الهادئة التصـرّف والمتعمّقة التفكير دائمًا – تتّســم بتسـرّع واندفاع دون تفكير في الأمور وعواقبها. عاطفية جدا، وتتبع مشــاعرها في معظم الأحيان للحكم على الأمور حتى أن مواقفها لا تبدو منطقية أحيانا كثيرة. عصبية وقد تبلغ من الغضب أنها تقول ما لا تُحمد عقباه. لكنها مع هذا حنونة جدا، رقيقة المشاعر،

تبتســم لكل طفل تقابله، تتمنى للقريب والغريب الخير، وكريمة بســخاء. ينطبق عليها المثل الدارج: «اللي في جيبها لغيرها». تتميّز بابتسامة أخّاذة تكتسب بها حب الناس وثقتهم ببساطة وبسرعة. عيناها صغيرتان وبهما لمعة يمكنك أن تراها من على بعد أمتار. وجهها دائري صغير تكحّله غمّازة دقيقة على خدّها الأيمن. ثناياها منتظمة وبرّاقة

مما يضيف إلى جمال ابتسامتها وإشراقتها. شعرها كعينيها، شديد السواد كحطب الفحم الخام، ملفوف ولامع. قامتها متوسـطة الطول والوزن. تحب الألوان وتُكثر من ارتداء أجرئها وأنصعها بلا خوف. ذوقها في الملبس يميل إلى الطابع الصبياني، فهي تفضّل ارتداء ما هو مريح وعملي على ما هو أجمل أو أكثر إبرازًا لأنوثتها.

وإنها فوق هذا كله ذكية، تبشّر بأنها ستكون زوجة واعية ومثالية. فهي دائما مُلمّة بأخبار ارتفاع أو انخفاض أسعار الخضروات والفاكهة، وكيلو اللحم، والبنزين، وجرام الذهب، وإيجار العقارات. سـريعة وماهرة في المعاملات الحسـابية اليسـير منها والمعقّد. كثيرة الضحك والحكايات منقطعة النظير. تنسى كثيرا لكنها إذا انشغلت في سرد تفاصيل حكاية ما، أعطت الحكايةَ كل اهتمامها حتى أن ملامح وجهها ويديها وجلسـتها وسـائر حركاتها تصبح كلها مسخّرة لتجسيد الأحداث أو المشاعر الواردة في الحكاية.

لم تفهم سـارة إيقاعي المختلف في التواصـل. كانت دومًا – كمايا – يزعجها جدا اختفاءاتي المفاجئة المتكرّرة. تخبرني منحين لآخر: «إن مِتُّ لن تعلمي حتى بالأمر».

لا أعلم أبدا دوافع إيقاع ال«قُرب فبُعد فقُرب فبُعد» مع سـارة كما مع مايا. ولا مع غيرهما. لكني واثقة أتم وثوق من أن توتّر العلاقة مع سـارة بالأخص قد ضـوعف وتفاقم منذ تلك الليلة التي دعتنا فيها داليا إلى منزلها.

عندما ا ستقرّ الم صعد في الطابق الثالث ، دفعت بابه الحديدي القوي. سرت يمينًا إلى الشقة رقم «6» كما وصفت لي داليا. سمعت أصوات مَنْ بالداخل عالية واضحة حتى أنني في تلك اللحظة وقبل أن ينفتح الباب، كانت قائمة أسماء الحاضرين واضحة تقريبًا في ذهني. رننت الجرس. في غضون ثوان قليلة فتحت لي داليا باب شقّتها الخشبي المزخرف

- أهلًا وسهلًا!

- كيف حالك يا داليا؟

- تمام...تفضّلي. الجميع بالداخل.

سرنا بممر قصير وضيّق يُفضي إلى صالة واسعة. كانت الصالة في ذلك الحين مُكدّسة بوجوه كثيرة مألوفة من المكتب. سوزان، وعُمّر، ودنيا، ولامياء، وأحمد، وسارة، وغيرهم. كانوا تقريبًا خمسة عشر شخصًا. سرت بهدوء وتوجّس شديدين وخطوات مرتعشة إلى الداخل. لمحني سوزان وعمر من موقعهما القريب من الباب من حيث دخلت فألقيا عليّ التحيّة ورددتها بصوت خافت يكاد لا يُسمع. بحثت عن سارة في الغرفة فوجدتها جالسة في ركن منها تتحدّث إلى دنيا. كانتا منهمكتين في حديثهما الدائر حول أمور تتعلّق بالعمل. سعيت نحوهما ببطء. قدّرت أنهما لن تنتبها لقدومي فأمسكت مسكة خفيفة بكتف سارة لأعلمها أنني جئت. استدارت وحيّتني.

– ليال! لماذا تأخّرتِ؟! تعالي، تعالي...

ابتسمتُ وجلست بجوارهما بعد التحية والسلام على دنيا. كنت شديدة التوجّس من دنيا منذ ذلك اليوم المشؤوم (من أيامي المشؤومة الكثيرة) حين التفّت إلى عمر تزف إليه الخبر السعيد إذ أنني – والحمد لله – «طِلِعت بتكلّم». ربما ظنّت أنني فقدت لساني في حادث مروّع، أو أن «القطة أكلته» كما هو المثل السخيف الشائع، أو أن أصولي تنحدر من سلالة بشرية (أو غير بشرية) معيّنة نادرة من قبيلة نائية في أقاصي الشمال أو أقاصي الجنوب، لا تُحسن النُطق. لذا، بوغتت عندما فاجأتها بإبداء رأي لي حول أعمال (بابلو بيكاسو). فشكّلت المفاجئة سبقًا صحفيًا جديرًا بالإذاعة علنًا أمام جمهور المكتب المترقّب.

إن أكثر ما يميّز دنيا هي تلك الابتسامة البلهاء التي لا تفارق الثلث الأخير من وجهها. أو، للدقّة، فإن البلاهة المطبوعة على ابتسامتها تنعكس أيضًا انعكاسًا واضحًا في نظرة بلهاء مماثلةتجوب عينيها. فيها من البرود ما يدفعك للتوجّس من مجرد فكرة الاقتراب منها. لا أرى في عينيها الزرقاوين هذا الجمال الذي يتحاكى عنه المكتب. فقط أرى في الزُرقة بلادة مشاعر وسطحيّة منفّرة. اقتبستا من البحر زُرقته الهادئة ولم تقتبسا منه عُمقه.

تقضي معظم أوقاتها في الكافيتريا بالمكتب، تحتسي القهوة باللبن بينما تحدّث أحدهم مغتابةً هذا أو ذاك. لا أظن أحدًا قد سَلِمَ من ثرثرتها المتوحّشة. ضحكها من النوع (السخيف)؛ إنه هذا الضحك الذي يعتمد بالأساس على السخرية من الآخرين والانتقاص منهم. وهو بطبيعة الحال يستهدف الأضعف والأقل حظًّا من البشر، بمقاييس البشر.

تسير سوزان أمامها مرتدية سروالًا أحمرا مزركشا. ترميه دنيا بنظرة استحقار ثم تنظر بمكر إلى (مها) إلى يمينها وتبتسم ساخرةً من سوزان.

يضع (آدم) الساعي فنجان القهوة مع اللبن على المكتب أمامها، والذي أعدّه خصّيصًا لها وعلى حسب معايير مزاجها المعقّد، وما إن يستدير عائدًا بصينيته الفارغة إلى المطبخ حتى تومئ بوجهها فورًا في تعبير مُشمئزّ وتضغط بسبّابتها وإبهامها على فتحتي أنفها استنفارًا من رائحة العرق المتصبّب من آدم. «ماذا يأكل آدم لتكون رائحته نفاذة إلى هذا الحد؟ لا أقصد السخرية طبعًا من رجل فقير...أستغفر الله، لكن...يعني...النظافة الشخصية لا يجب أن تتأثّر بالفقر. إنها نظافة! مجرّد ن-ظ-ا-ف-ة!».

يتعثّرأحد الموظفين في نطق كلمة بالإنجليزية على نحو سليم أمامها، فتعيد ما قاله باستنكار وهي تسأل: «أين دَرَست؟». ثم تغمز لأحمد في الجهة المقابلة لمكتبها ويتبادلان ابتسامة السخرية المُشبّعة بالوضاعة ما يكفي أن يدعو المرء للتقيّؤ.

تفتخر بأ صولها التركية التي تـشعرها بأنها أعلى درجة (أو درجات) منّا نحن المـصريين المســاكين. تهتم كثيرًا بالمظاهر. وتقيّم الناس على هذا الأســاس. فإذا أكثر أحدهم من ارتداء «ماركات» عالمية، زاد احترامها وتقديرها (الثمين) له، ولحق بقائمة الأســماء التي تصــطفيهم لتغتاب بقية أفراد المكتب معهم في جلســات الكافيتيريا المُطوّلة التي تعقدها. أما إذا كان المقصـود شـخصًـا (عاديًا)، يرتدي ثيابًا (عادية) لا تحمل شـارة الماركة، وله سيارة (عادية) ، اندرج فورًا إلى قائمة المُغتابين المـساكين. تُعلي من صوتها وهي تتحدّث عبر الهاتف فتقول: «سأرتدي غدًا فستاني الGucci إن شاء الله، ما رأيك؟». «ستجدينها في حقيبتي ال Louis Vuitton». «أسرفتُ مبالغًا طائلة في سفرتي الأخيرة إلى باريس. تسوّقت بما يقرب من 50,000 جنيهًا مصريًا في أسبوع! تصوّري؟!».

وهي مع هذا لا تُنهي حديثًا إلا ب«إن شاء الله»، وتوبّخ فلانًا وعلّانًا لأنهم فاتتهم صلاة عصــر أو ظهر. مع كل آذان، تتحوّل إلى جهاز رادار دقيق. يتفحّص كل من في المكتب لتتحقّق ممّن نهض ليصـلّي ومن تخلّف عن الصـلاة – كل صـلاة – على مدار اليوم. تنتقد (هنا) لارتدائها سـروالًا ضـيّقًا. «لا يصِـفّ ولا يشِـفّ يا هنا». تحتقر لامياء لأنها خلعت حجاب رأسها العام الماضي، وتعوّل على هذا بأن الدنيا «صارت أكثر بشاعة»، و«وحشة»،

وأن «الناس أصبحت غريبة»، وأن «الله سيعاقبنا على انحرافنا عن صراطه المستقيم أشدّ عقاب». إذا ورد اسم لامياء في حديث ما، أنهته دنيا بدعوة (خاشعة) (من القلب): «ربنا يعافينا ويحفظنا». تُكثر من النقاش حول أحكام الوضوء، والطهارة، والصيام، وقيام الليل، والربا، ودرجات الزنا المختلفة التي «لا ينتبه لها الكثيرون» (إلا هي طبعًا).

عندما جلستُ بالقرب من دنيا و سارة في تلك الليلة، كانت الأولى تشتكي متضرّرة من «بطء وغباء» أحد الموظفين في الأقسام الأخرى.

- لا أرسل له رسالة إلكترونية إلا ويأتيني ردّه بعدها بيوم وأحيانا بيومين كاملين. يأخذه وقتًا طويييييييييلًا! لا أدري لماذا! حقًا غبيّ!

كانت سارة ترد على ثرثرة دنيا بردود مقتضبة. تبتسم إذا لم يُعجبها الكلام، وهو ما فعلته كثيرًا. فما إن وصلت حتى التفتت إليّ وكأنها جاءتها نجدة إلهية من السماء لم تتوقّع مجيئها، وهمست في أذني منتهزة فرصة انشغال دنيا بمكالمة هاتفية أتتها فجأة، وقالت لي:

- بنا نذهب إلى داليا وهَنَا. مللت الحديث مع دنيا كثيرا. لم أعد أحتمل.

- نعم، هيا.

قمنا وسرنا إلى داليا وهنا الجالستين في ركن آخر من أركان الغرفة. كانتا تتحدثان عن الجو وتتبادلان الآراء حول فصلي الشتاء والصيف.

- أوه!...لكن الشتاء يُضفي جوًّا رومانتيكيًا بغيومه الساحرة وأمطاره الغزيرة وبرودته.

لحقت بهم سارة على الفورلتُدلي برأيها هي الأخرى في الموضوع:

- أراكم تتحدّثون عن الجوّ. أنا شخصيًا...أتمنّى لو تصبح كل فصول العام شتاءً. أوافقك بشدّة يا داليا.

وأنا؟ أنا لا يميّزني عن هذا الشيء السخيف الذي أجلس عليه سوى أن لي قدمين أجوب بهما أركان الغرفة فأبدو، على عكسه، حُرّة. والحقيقة أنه حُرٌّ أكثر منّي. لأن سلوكه يتما شى تماما مع ا سمه وكينونته. أما أنا، فالحرب بين ا سمي و سلوكي لا تنتهي ولا تهدأ أبدًا. الاسم (إنسان) والسلوك...أبعد عن هذا بكثير. أأقول «كرسي»؟ بلى، أقول. ليس فقط لأنه اللقب الذي تناديني به ماما، لكن لأنني في قرارة نفسي أصدّق أن ماما لم تكن تبالغ أبدًا حين خطر ببالها أول ما خطرأن تناديني بهذا الاسم.

أنظر إليهم لا كفرد رابع يشارك مجلسهم، إنما كقطعة أثاث إضافية تحيط بهم: أربع مقاعد، طاولة جانبية، فناجين قهوة، طبق حلوى وملعقة، قنينة مياه، سجّادة مزركشة، هواتف محمولة تحملها كل منهن في يدها أو تضعها بحرص إلى جوارها، فازة فخّارية بيضاء عليها أشكال متداخلة بتشكيل معيّن أزرق، وأنا...ليال.

أتتبع حديثهم من بعيد. أقول «بعيد» رغم أن مقعدي كان ملاصــقًا لمقاعدهن، لأن الخوف يفعل مما يفعل أنه يُلقي بأرواحنا إلى مكان «بعيد» مجهول فنبقى (هناك) إلى أن ينتشلنا أمانٌ مافيعيد الروح إلى منزلها الحسّي من جديد. لكن هذا (الأمان) عادة ما لا يأتي. أين يسكن؟ ولماذا لا يبرح بيته أبدًا ليزورنا ضيفًا عزيزًا يحلّ أهلًا وينزل سهلًا؟

كنت أنصت إليهم جيّدًا بادئ الأمر حتي وددت لو أني أمتلك الشجاعة الكافية لأشارك أنا أيضًــا برأيي فأخبرهم أن فصــول العام كلها شــتاءً قارص عندي. وأن برودته وثلوجه ورجفة اليدين والركبتين والفكّين التي يُحدثها لا تفارقني طول العام. ها هما يداي ترتعشان. تُرى، أيريانهما؟ و ضعتهما بسرعة في جيب الجاكيت كي لا تنتبهن إليهما. وها هو فكّي يرتعش. فلو أن الجسارة حلّت على قلبي وتحدّثتُ إليهن كما تحدّثن إلى بعضهن، لما اكتملت الحروف ولما انطلقت على نحو سليم مفهوم كما ينبغي. ولسُمعتُ كما يُسمَعُ رجل عجوز يقاتل لتضــفير حروف كلماته بســلاســة وثبات دون لجلجة. لكن اللجلجة مرئية ومســموعة، ولا تخفى على أحد. والظبية... ها هي الظبية المذعورة. إنها تبدأ بالانفلات إلى ركض مجنون وسط المدافع والرشّاشات والقنابل التي تنزل حولها من كل اتجاه. وها هي الحرارة الملتهبة تســري في العروق المكبّلة للنفس فتظهرعلى الوجنتين كرتين مُحمرّتين لا تليقان برعشة وبرودة الشتاء المحيط بالظبية. عجيب!

أســمعهم ولا أســمعهم. بدأت أصــواتهم تتلاشــى من بعيد. وأظن أن الصــورة بدأت تختفي من أمامي أكثر فأكثر. أركض إلى الطابق العلوي لرأســي. أطرق باب منزل المحرّر الصحفي و سيادة المحقّق. «أرجوكم! ساعدوني! ساعدوني!». لا أ سمع لهم حسًّا. الآن تتخلّيان عنّي؟ آلآن؟ أضــطرب أكثر. لم أعد أســتطيع الســيطرة على الظبية بداخلي. من أنا؟ وماذا أمتلك لأوقف حرب نشــبت بجســدي الصــغير؟ إن أوقفت الجيوش، قفزت أمامي العصابات. وإن تخلّصت من العصابات، دَوَت أصوات المدافع المرعبة. وإن ابتعدت عن أ صوات المدافع بما يكفي، جاءت الطائرات الحربية من فوقي فأزدادُ ا ستسلامًا و ضعفًا أمام ســطوتها. وإن اختبأت في ملجأ من الملاجئ، ســحبتني الظبية من شــدّة اندفاعها وأعادتني إلى ساحة المعركة عن غير قصد،ظنًا منها أنها تبتعد. لا مفر. وأنا وحدي. وحدي مع هذا كله.

لكن... ماذا أفعل؟ لا أقوى على تحمّل هذا. أريد الفرار...أريد غرفتي الآمنة الآن. الآن! الآن! ألتفت إلى اليمين. أجد عُمَر وســوزان وخالد يضــحكون. أنظر إلى اليســار. فإذ بدنيا اســتبدلت بنا (مِنّة) لتُكمل معها ثرثرتها العقيمة. أنظر هنا وهنا وهنا وهناك...رؤوسٌ رؤوس. ضاحكة ومتسامرة. هؤلاء يتبادلون شكاوى عن العمل.

هؤلاء يناقشــون قانون المرور الجديد. هؤلاء يتحدثون عن صــيحة جديدة لقصّــات الشــعر. تعلو الأصــوات وتتشــابك وتختفي في ذات اللحظة – لا أدري كيف – ولا يعد بإمكاني أن أفرّق بينها أو أفسّر مضمون كل صوت على حدة.

أنظر إلى داليا وهنا و سارة. ماذا أقول؟ إنهن تنظرن إليّ مستعجبات من صمتي. لا. إنهن نســين وجودي أغلب الظن. لكن...أنا...خائفة. جدًا. ولا أريد هذا كله. أقف؟ أرحل في صــمت؟ لا، أحاول الكلام. تكلّمي إذن. تكلمّي يا ليال. لا تتكلّم ليال. حقًا إنك لغبية حمقاء! أنت...أنت لا شيء. تعيشين وحدك وستموتين وحدك. لماذا جئت إلى هنا؟ أظننت أنّ بإمكانك مجاراة هذا النوع من الأحاديث في هذا النوع من المجالس؟ على أيّ أســاس استند عقلك؟ الكراسي لا تأتي إلى هنا. ارحلي. وإياكِ أن تعودي.

تلتفت سارة إليّ وتهمس:

– ما بك يا ليال؟ لِمَ لا تشاركينا الحديث؟

– سارة...أنا خائفة...جدا.

– خائفة من ماذا؟!

- لا أعلم...لا أعلم. أ نا...فقط...أظن أنني... قد أكون...يعني...منزعجة من الضجيج والزحام.

- لســتِ طفلة يا ليال. عليك أن تتخطّي هذا. إرادة. فقط إ-ر-ا-د-ة يا ليال، لا أكثر. ادفعي بنفسك. قولي شيئًا. أي شيء! هيا! هيا!

- حسنًا...سأحاول.

أفكر وأفكر. لا أقدر. لم يرحني كلام سارة بل زادني هلعًا على هلع، لأنه صرخ بوجهي يقول: «أنت وحدك مع هذا الخوف...وحدك». لم أسـتطع أن أخبرها عن الحرب الناشـبة بداخلي ولا عن الظبية المذعورة التي تجعل من روحي في تلك اللحظة تحديدًا، صـرحًا يوشك أن ينهار. لو أخبرها أن بداخلي رصاصات ومدافع وطائرات حربية، تضحك. ولا تصدّق.

كان شـعورًا مرعبًا. آل أخيرًا إلى تفكير عن الموت. كيف يحتمل هذا القلب تلك النبضات العنيفة المتسارعة؟! مستحيل! سأموت حتمًا في أية لحظة. سيتوقّف هذا القلب ويموت مهلوعًا. سـأموت الآن. الآن. ها هو الموت يقترب. إنني أراه. يا الله! سـأموت. سأموت.

ها هي العين تضــطرب نظرتها اضــطرابًا هائلًا. وها هي الأنامل والأطراف تختل حركتها بالكامل. كم من الوقت يفصــلني عن ســكرات الموت إذن؟ دقيقة؟ ثوان؟ الآن؟ حالا؟ أتى...أتى الموت.

- ليال؟

- لا أستطيع...أنا خائفة جدا يا سارة.

امتعضت سارة فبدا على وجهها غضب شديد. ظننت للحظة أنها ستنهال عليّ ضربًا من شــدة غضــبها منّي. بدت أنها تحاول تمالك أعصــابها كي لا تفعل. قامت فجأة في حركة عصــبية عنيفة دون أن تلتفت إليّ. راحت إلى عُمَر وســوزان. جلســت معهما دون إخباري، ودون دعوتي لمصــاحبتها كما العادة وكما فعلت منذ لحظات. كانت قد عزمت منذ تلك اللحظة أن تتجاهلني تمامًا وأن لا تُشــغل بالها بي أبدًا. وأن تعاقبني على صــمتي وخوفي. وقد فعلت. حتى أنها غادرت منزل داليا ليلتها، في آخر الســهرة، دون أن تلقي عليّ التحية. حيّت داليا وشــكرتها على «اليوم الجميل»، ثم حيّت عُمَر وســوزان، وحتى دنيا، والجميع. واحدًا واحدا، اسمًا اسما. إلا أنا.

ورَحَلَت...

18 .. سَأُغَادِرُ نَحوَ الرَبِيْعِ

في مســاء الأحد الســابع والعشــرين من يوليو 1890 اتّجه إلى حقول القمح الذهبيّة، أخرج مسدّسه، صوّبه نحو صدره، وأطلق رصاصة.

لم يمت.

نُقِل إلى غرفته ومن ثمّ أتاه الطبيب المختصّ. وفي عصــر اليوم التالي، حضــر أخوه: ثيو فان جوخ الذي برك إلى جانب أخيه المصاب على السرير لساعات متّصلة. لكن إقامة ثيو في المصحّة بمدينة (أوفير سور أوايز) الفرنسية لم تدم طويلًا، لأن بعد حضوره بساعات، مات فينسينت فان جوخ. مات مُنتحرًا.

La Tristesse durera toujours .

كانت تلك آخر كلمات قالها فينســينت لأخيه على فراش الموت: «إن الحزن يدوم إلى الأبد».

كما وُجِدت مُسودّة لرسالة أخيرة غير مكتملةمع فينسينت، غالبًا كان ينوي إرسالها إلى ثيو قبل موته. لكنه، كبيتهوفن، لم يُرسِلها. يبدو أن مصير الرسائل المكدّسة بالمشاعر المعقّدة العميقة جدا، واحد: تبقى مختبئة في جيوب أصحابها إلى أن يجدها آخرون – صدفةً – بعد وفاتهم. لهذا، وجدوا رسالة بيتهوفن بين أوراقه (صدفة) بعد موته، كما وجدوا رسالة فينسينت فان جوخ لأخيه ثيو (صدفة) بعد موته. ولعلّها كانت الرسالة الوحيدة من بين ما يقرب من ثمان مائة رسالة بين فان جوخ وثيو، التي لم يُرسلها الأول لأخيه. وجدها ثيو في معطف فان جوخ بعد رحيله فزادته أسًا وحزنًا على فراق أقرب الناس إلى قلبه على الإطلاق.

وبالرغم من أن فان جوخ أشار في مسودّته إلى بعض خططه الفنيّة المستقبلية، إلا إن الكثير من مشاعر البؤس واليأس من الحياة ومن المستقبل تغلب على كلماته فيها. وتنم عن شعور فان جوخ بالعار من كونه يشكّل عبءًا ماديًا ومعنويًا على أخيه ثيو.

فعلاوة على استهلاله الرسالة بشكر أخيه على رسالته الأخيرة،وعلى إمداده له بخمسين فرانكًا، وبإشارات سريعة إلى مواضيع عن تجّار اللوحات والرسّامين، يقول:

«حيث إن الأمور الأكثر أهميّة تسير جيّدًا، ما الداعي إذن للخوض في أمور أقل أهميّة؟».

وتنتهي المسودّة بتلك الكلمات القليلة الحزينة التالية:

«حسـنًا، عن عملي، إنني أجاذف بحياتي من أجله. وقد تعثّر عقلي بسـبب ذلك، لكن لا بأس. لكنك لا تنتمي إلى هؤلاء التجّار – على حد علمي – وبإمكانك اختيار الصـف الذي تقف فيه. وأعتقد أنك ستختار التصرّف بإنسانية خالصة. لكن ما الفائدة؟».

تحفّظت كنيسة قرية (أوفير) الفرنسية، حيث قضى أيامه الأخيرة في مصّحتها النفسية، بشأن استقبال جثّته إذ أن سبب الوفاة هو الانتحار. بعد عدّة محاولات، قبلت كنيسة قرية مجاورة اسـتقبال الجثّة بعد أن شُـيّعت مراسـم الجنازة في غرفته حيث رقد على سـريره (المشهور) مُحاطًا بهالة من لوحاته المعلّقة على حوائط الغرفة. لُفّ بقماشة بيضاء بسيطة وُزّعت حولها مجموعة من الزهور التي أحبّها: زهور عبّاد الشمس الصفراء التي هام عشقًا في وريقاتها، وزهور الداليا الصفراء. زهور صفراء في كل مكان إجلالًا للّون الأصفر الذي ترادف مع اسمه حين رأى فيه الشمس التي كان دائم البحث عنها...الأمل. الحياة. الحريّة.

أمام الجثّة المُحاطة بالزهور على السرير، وقف حامل لوحاته، وألوانه، وفراشيه: كلّها وقفت في صمت وحداد وحزن أليم على فراق رفيقها المُخلص. كلها منصوبة وموضوعة تمامًا كما تركها.

أحدّق في لوحة حقول القمح والغربان التي رسمها خلال أيامه الأخيرة. أتساءل: ماذا لو أكمل فان جوخ المسودّة؟ ماذا كان ليكتب؟ ماذا لو كان قادرًا على وصف مشاعره في تلك الساعات الأخيرة من حياته قبل الانتحار وصفًا دقيقًا مستفيضًا كعادته؟

ويبدو أن تساؤلاتي هذه قد أحارت كذلك الكثير من المهتمّين بالفن التشكيلي وبحياة فينسينت فان جوخ وسيرته الذاتية. فها هو (نبيل صالح)، ينشر مقالًا في جريدة سورية منذ ما يقرب من عشرين عامًا تقريبًا، متقمّصًا فيها شخصية فان جوخ في أيامه الأخيرة ليعرض لنا تصوّرًا حيًّا لما كان بإمكاننا قراءته في مسودّة فان جوخ الأخيرة، لو أنه استأنف كتابتها:

«عزيزي ثيو،

إلى أين تمضي الحياة بي؟ ما الذي يصنعه العقل بنا؟ إنه يفقد الأشياء بهجتها ويقودنا نحو الكآبة...

...إنني أتعفّن مللًا لولا ريشتي وألواني هذه، أعيد بها خلق الأشياء من جديد...كل الأشياء تغدو باردة وباهتة بعدما يطؤها الزمن...ماذا أصنع؟ أريد أن أبتكر خطوطًا وألوانًا جديدة، غير تلك التي يتعثّر بصرنا بها كل يوم.

كل الألوان القديمة لها بريق حزين في قلبي. هل هي كذلك في الطبيعة أم أن عيني مريضتان. ها أنا أعيد رسمها كما أقدح النار الكامنة فيها.

في قلب المأســاة ثمّة خطوط من البهجة أريد لألواني أن تُظهرها، في حقول «الغربان» و سنابل القمح بأعناقها الملويّة. وحتى «حذاء الفلّاح» الذي يرشح بؤسًا ثمّة فرح ما أريد أن أقبض عليه بواسطة اللون والحركة...للأشياء القبيحة خصوصية فنية قد لا نجدها في الأشياء الجميلة وعين الفنّان لا تخطئ ذلك.

اليوم رسمت صورتي الشخصية ففي كل صباح، عندما أنظر إلى المرآة أقول لنفسي: أيها الوجه المكرّر، يا وجه فينسينت القبيح، لماذا لا تتجدّد؟

أبصق في المرآة وأخرج...

واليوم قمت بتشــكيل وجهي من جديد، لا كما أرادته الطبيعة بل كما أريده أن يكون: عينان ذئبيّتان بلا قرار. وجه أخضــر ولحية كألســنة النار. كانت الأذن في اللوحة ناشــزة لا حاجة لي إليها. أمسكت الريشة، أقصد موس الحلاقة وأزلتها...يظهر أن الأمر اختلط عليّ، بين رأسي خارج اللوحة وداخلها...حسنًا ماذا سأفعل بتلك الكتلة اللحميّة؟

أرسلتها إلى المرأة التي لم تعرف قيمتي وظننت أني أحبها...لا بأس فلتجتمع الزوائد مع بعضــها...إليكِ أذني أيتها المرأة الثرثارة تحدّثي إليها...الآن أســتطيع أن أســمع وأرى بأصابعي. بل أن إصبعي السادس «الريشة» لتستطيع أكثر من ذلك: إنها ترقص وتداعب بشرة اللوحة.

أجلس متأمّلا:

لقد شــاخ العالم وكثرت تجاعيده وبدأ وجه اللوحة يســترخي أكثر...آه يا إلهي ماذا باســتطاعتي أن أفعل قبل أن يهبط الليل فوق برج الروح؟ الفرشــاة. الألوان. و...بســرعة أتداركه: ضربات مستقيمة وقصيرة. حادة ور شيقة...ألواني واضحة وبدائية. أصفر أزرق أحمر...أريد أن أعيد الأشــياء إلى عفويّتها كما لو أن العالم قد خرج توًا من بيضــته الكونيّة الأولى.

مازلت أذكر:

كان الوقت غسقًا أو ما بعد الغسق وقبل الفجر. اللون الليلكي يبلّل خط الأفق...آه من رعشة الليلكي. عندما كنا نخرج إلى البستان لنسرق التوت البرّي. كنت مستقرًّا في جوف الشــجرة أراقب دودة خضــراء وصــفراء بينما «أورســولا» الأكثر شــقاوة تقفز بابتهاج بين الأغصــان وفجأة اختل توازنها وهوت. ارتعش صــدري قبل أن تتعلق بعنقي مســتنجدة. ضــممتها إلي وهي تتنفس مثل ظبي مذعور...ولما تناءت عنّي كانت حبة توت قد تركت رحيقها الليلكي على بياض قميصــي...منذ ذلك اليوم، عندما كنت في الثانية عشــرة وأنا أحس بأن سعادة ستغمرني لو أن ثقبًا ليلكيًا انفتح في صدري ليتدفق البياض...يا لرعشــة الليلكي...

الفكرة تلح علي كثيرا فهل أستطيع ألا أفعل؟ كامن في زهرة عباد الشمس. أيها اللون الأصفر يا أنا. أمتص من شعاع هذا الكوكب البهيج. أحدق وأحدق في عين الشمس حيث روح الكون حتى تحرقني عيناي.

شيئان يحركان روحي: التحديق بالشمس، وفي الموت. أريد أن أسافر في النجوم وهذا اليائس جسدي يعوقني! متى سنمضي، نحن أبناء الأرض، حاملين مناديلنا المدماة...

ولكن إلى أين؟

إلى الحلم طبعًا.

أمس رسمت زهورًا بلون الطين بعدما زرعت نفسي في التراب، وكانت السنابل خضراء وصفراء تنمو على مساحة رأسي وغربان الذاكرة تطير بلا هواء. سنابل قمح وغربان. غربان وقمح...الغربان تنقر في دماغي غاق...غاق. كل شيء حلم. هباء أحلام، وريشة التراب تخدعنا في كل حين. قريبًا سأعيد أمانة التراب، وأطلق العصفور من صدري نحو بلاد الشمس...آه أيتها السنونو سأفتح لك القفص بهذا المسدس:

القرمزي يسيل. دم أم نار؟

غليوني يشتعل:

الأســـود والأبيض يلونان الحياة بالرمادي. للرمادي احتمالات لا تنتهي: رمادي أحمر، رمادي أزرق، رمادي أخضر. التبغ يحترق والحياة تتسرب. للرمادي طعم مر بالعادة نألفه؛ ثم ندمنه كالحياة تمامًا: كلما تقدم العمر بنا غدونا أكثر تعلّقًا بها. لأجل ذلك أغادرها في أوج اشتعالي...ولكن لماذا؟! إنه الإخفاق مرة أخرى. لن ينتهي البؤس أبدًا...

وداعًا يا ثيو...سأغادر نحو الربيع».

طبيعي أن ينال تصوّر نبيل صالح كل هذه الشهرة، حتى إنّ الكثيرين ما زالوا يظنّون أنها رســـالة فان جوخ الأخيرة فعلًا. فقد تقمّص روح فان جوخ ببراعة وعبّر عنه ببلاغة أدبية فريدة كتلك التي اشتهر بها فان جوخ والتي أطلّت من كل رسائله بوضوح. ولعل أصدق ما في هذا التـ صوّر، هو ا ستعانة نبيل صالح بتعبيرات و صور بعينها ا ستخدمها فان جوخ في ر سائل أخرى لثيو، مثل: فكرة «بدائية الألوان» وو ضوحها، وا ستخدام فان جوخ للألوان الأساسية (الأحمر والأزرق والأصفر) كثيرًا، و«حقول القمح والغربان»، والتوت الليلكي»، وواقعة قطع أذنه، وغيرها.

على أي حال، لا يمكن أن يتصوّر عقل أن شخصًا متيّمًا بلون مشرق كالأصفر، وبزهرة مبهجة كعبّاد الشـمس، وبحقول القمح السـخيّة، والتوت البرّي الليلكي، يحمل بقلبه هذا الكم من الحزن وأن يودي بحياته في عامه السـابع والثلاثين. أو ربما كان بهذا العاقلَ الوحيد بين زمرة من المجانين تدّعي التعقّل والصـحّة لمجرّد أنها لم يُزَج بها كما زُجّ به إلى مصـحّة عقلية. فمن يعي أن طير السـنونو لن ينال حريته في هذه الدنيا القاسـية، بالتأكيد عاقل. ومن ظنّ غير ذلك فذاك هو المجنون.

قلت لبديعة أن فان جوخ كان «فأرًا مذعورًا» ثم انشغلت بالحديث عن اللون الأصفر وعباد الشمس. انشغلت أم أسعدني تعلّقها بتفاصيل الحديث عن الزهور فاستطردت؟

سعادة بديعة بالزهور الجديدة التي للتوّ تعرّفت إليها وأحبتها جعلتني أتساءل في نفسي ما إذا كان يصح أن أروي لها تفاصيل النوبات العنيفة التي طاردت فان جوخ طوال حياته. أيصح؟

لكنها غرست فروع عباد الشمس الواحدة فوق الأخرى في المساحة الجرداء لا لشيء سوى أن يراها هو من بعيد ويأتي. في صوتها وهي تقول: «عم أبو بيت أصفر» شهوة رؤيته.

لكن...ماذا لو سـألته عن الضـماد الملفوف حول رأسـه؟ ماذا لو رأته ممسـكًا بأذنه الغارقة في الدم؟

لكن...ماذا لولم تسأل؟ ماذا لو فَهِمَت؟

إنّ بديعة على صغر سنّها، فطنة وذكية كما وصفتها خالتها سكينة: «مع إنها بنت صغيرة لكنها شيطانة وواعية وعارفة كل حاجة».

وهي أيضا لم تخف أو تضطرب من حدّة نظرات بيتهوفن التي اضطرب لها الكثير ممن هم أكبر منها سنًّا وأكثر علمًا واطلاعًا في زمنه. على العكس، ارتمت بأحضانه وواسته. وأهدته باقات عباد الشمس تعبيرًا عن تقديرها وتعلّقها السريع والصادق به.

شعور ما بداخلي يقودني إلى قصّ حكاية فينسينت الكاملة عليها. صوت ما برأسي يقول أنها لن تخاف من الأذن الغارقة بالدم، ولا من حدّة نظرته وصعوبة طباعه. أظن أنها ستحبه كما أحبّت بيتهوفن وسترى ما هو أبعد من البادي بكثير.

أنا على يقين من أن كل حكاية لفأر مذعور أقّصها عليها ستضيف بشكل ما متناسب ومتناغم مع سنّها وقدرة استيعابها، إلى معارفها، وفي المقابل سيخفّف من ذعرها الكامن في صدرها، وسيُكسبها أصدقاءًا جدُدا. في عشش جديدة متجاورة.

حسنًا، حسمت أمري. سأستضيف فينسينت عندنا في الغرفة.

19..رَعْشَةُ الليلَكيّ

أخذت أفكر في بداية مناسبة أنطلق منها.

كانت بديعة تلعب وتدور حول بنيان عبّادات الشمس التي رصّتها بمعاونة المايسترو منذ قليل. وكان بيتهوفن جالسًا يريح ظهره إلى صخرة صفراء كبيرة يراقب بديعة ويحرّك يديه بحماس تلقائي بين الحين والآخر مدفوعًا بنغمات الـEroica القوية.

تدور بديعة وتغنّي. ثم تقف لحظة وتنظر إلى الأفق البعيد لعلّها ترى «عم أبو بيت أصفر» قادمًا. فلما لا تجده، تعود للّعب من جديد. كأنها تُطمئن نفسها: «ليس الآن. لا بأس. لكنه سيأتي لا محالة. ها هي عبّادات الشمس تتراقص وتميل من أجله. سيأتي! سيأتي!».

سرت نحوها بين الفرع الطويل وبيتهوفن وقرفصت. نظرت إليها:

- بديعة...عم أبو بيت أصفر عايز ييجي. بس خايف منك.

- واحنا راح نخوّفوه ليه؟

- هو...يعني...خايف لاحسن يخوّفك.

- إزاي؟!

- تعالي يا بديعة...

مددت ذراعيّ أشـير إلى بديعة كي تأتي إليّ. تركت اللعب وجاءت. جلسـت على سـاقيّ المتشـابكين وقد بدا على وجهها تعبير جاد. يأكلها فضـولها الطفل لمعرفة السـبب الذي يمكن أن يجعل فان جوخ خائف منها. لففت ذراعي حول ظهرها وصـدرها الذي أخذ يعلو ويهبط، أ سمع وأ شعر بدقات قلبها الـ سريعة من فعل الركض واللعب. قرّبتُ رأ سي من خلف رأسها وأدنيتشفتيّ من أذنها، كلانا تنظر باتجاه ذات الأفق الذهبي الخالي أمامنا.

اسمعي يا بديعة...

بعد أن سكن فينسينت فان جوخ المنزل الأصفر بمدينة آرل بفرنسا، بدأت حياته تأخذ منعطفًا آخر تماما. في البدء كان الأمر مبهجًا عندما قبل الرسّـام الفرنسـي الشـهير (بول جوجان) أن يسـكن معه للبدء في مشـروع السـتوديو الفنّي الذي حلم به فان جوخ. إن فان جوخ كان شديد الإعجاب بأعمال جوجان كما أُعجب الأخير بلوحات فان جوخ أيضا – خا صة تلك التي ر سم فيها زهور عباد الـشمس الـصفراء. رأى فان جوخ في جوجان الأب المُلهم والمُعلّم وطمع في أن يتبنّاه فنيّا. قـضا أيامًا هادئة أول الأمر: ير سمان معًا، يناقـشان موضوعات حول الفن بانتظام، يذهبان في نزهات سويًا في شوارع وحدائق ومقاهي وبارات آرل. كانت علاقة أخوّة حقيقية.

إلا أن المنعطف المبهج لم يلبث أن انحدر بقوة وبسرعة نحو الجهة المقابلة. أصاب (الأخوين) موجة عارمة من الاضطرابات. تفاقمت المناقشات الحادة بين الاثنين والتي كانت كثيرًا ما تنتهي بترك جوجان المنزل غاضبًا مخلّفًا وراءه فان جوخ فأرًا مذعورًا غاضبًا صاخبًا يبلغ من عنفه أنه قد يؤذي نفسه أو يؤذي أحدًا آخر من حوله. يكسر كراسي المنزل، يُلقي بالأطباق وطناجر المطبخ على الأرض بما فيها من أكل فينسكب في كل مكان، يدب بسيف كفيّه على الطاولة حتى تدميا، ويمزّق لوحاته تمزيقًا أحيانًا.

رأى جوجان في فان جوخ طفلًا يحتاج إلى الكثير من التهذيب والترويض، لشخصه كم الرسمه. ورأى فان جوخ في جوجان طاووسًا متعجرفًا يريد أن يكبح حريته ويلجم إسلوبه العفوي الحُر.

وفي ليلة من الليالي، بعد شجار عنيف دبّ بين الأخوين، رحل جوجان وترك المنزل الأصفر. أصيب فان جوخ وقتها بحالة من حالات الجنون الهستيري. كان جوجان قد بدأ يخاف من فان جوخ حتى أنه لم يكن يستبعد – في ذلك اليوم تحديدا – أن يقوم عليه فان جوخ ويقتله. فقرّرأن لا يعود أبدا.

وبينما أخذت أفكار ومشاعر فان جوخ تترنّح وتتخبّط بشراسة، وقد يكون فقد وعيه في لحظة من لحظات الجنون أو الهستيريا، أخذ شفرة حلاقته الحادة، وأمسك بأذنه، وقطع جزءًا منها. نعم، فعل هذا. عاد جوجان ليلتها بعد أن زال غضبه وأشفق على فان جوخ مجدّدا، وإذ بالدماء في كل ركن من أركان المنزل. وفان جوخ غارقٌ في الدم ومستلقيًا فاقدًا لوعيه تمامًا على سريره. أخذه جوجان إلى مستشفى قريب. ثم قرّر أن لا يعود أبدًا بعد أن أدرك خطورة الوضع. وبالفعل سافر جوجان إلى باريس بعد تلك الواقعة ليكون هذا آخر لقاء يجمع بينه وبين صاحب لوحات عباد الشمس إلى الأبد.

العجيب يا بديعة أنه بالرغم من كل هذا الأسى الذي عايشه، والاضطراب الشديد الذي لازمه طوال حياته، نجده يُضفر كلمات عذبة وشديدة الاتّزان والرقّة معًا، فنسمعه يقول: «يمكن للإنسان أن يمتلك قلبًا مُشتعلًا، لكن أحدًا لن يأتي للجلوس بقربه. إن المارّون لا يرون سوى الدخان المنبعث من المدخنة، فيمضون في طريقهم (غير مكترثين)».

واســمعي! إنه يقول: «ينتابني شــعور بالوضــوح المخيف في تلك اللحظات التي أرى فيها الطبيعة بكل هذا الجمال. فيختفي إحساسي بنفسي وتظهر اللوحات أمامي كالحلم».

إن تركيبة نفس فان جوخ يا بديعة تركيبة عجيبة! حاول إلى الآن أكثر من مائة طبيب من جميع أنحاء العالم تحديد ا ضطرابه النفسي. البعض ذهب إلى أنه عانى من (ا ضطراب ثنائي القطب) منتقلًا من نو بات ســعادة مفر طة إلى نو بات اكتئاب مزمنة. مثل عم بيتهوفن. والبعض ذهب إلى أنه لربما عانى من (الشــيزوفرينيا)، أو غيرها من اضــطرابات نفســية شديدة. لكن الأكيد أنه عانى من الصرع. وشكل من أشكال الاكتئاب. وشكل من أشكال القلق المزمن. يسمع أصواتًا، يحاول الانتحار مرّات عدّة، يلتهم ألوانه أحيانًا، ويشرب من زجاجة التربنتين أحيانًا أخرى. حتى أنه شوهد يأكل من قذورات الأرض عدّة مرّات.

والأكيد أنه – بادئ الأمر أو آخره – بغض النظر عن ا سم تشخيصه الطبّي الدقيق، كان فأرًا مذعورًا. يتجنّبه الناس، فزاد عُزلة على عُزلة. تفادوه وتحاشــوا الحديث معه فرأى من الوحدة أشكالًا وألوانًا شتّى.

والأكيد أ نه كان حنونًا خجولًا. يتقرّب من الفقراء، ويُشــفق على العاهرات اللواتي ا ضطرتهن الظروف أن يسلكن هذا المسلك البائس، ويثبّت عينيه دون انقطاع على العمّال والعاملات، والفلّاحين والفلّاحات في المزارع والحقول.

والأكيد أنه أحبّ الكون حبًا بريئًا حتى تمنّى لو أنه كان أكثر جمالًا، ولو أنه رأى فيه خطوطًا وألوانًا جديدة «غير تلك التي يتعثّر بصرنا بها كل يوم».

والأكيد أنه أحبّ اللون الأصــفر حبًا جمًّا. «أيها اللون الأصــفر يا أنا». ولعله أحبه إلى الحد الذي - حين ذاب الخط الفا صل بين الواقع والخيال – ابتلعه في جوفه، ثم ارتـشف من تربنتينه في محاولة طفولية عابثة لاستبدال عالم بعالم: استبدل بعالم بني البشر عالم الريشة والألوان التي تفهم وتحتـضن الظباء الـضالّة. الألوان مأكله، والتربتين مـشربه، واللوحات حقيقته وعيناه التي يرى بهما العالم ويتفاعل معه على طريقته هو.

والأكيد أنه بالرغم من كل ما تعرّض له من هزائم نفســية شــديدة، وبالرغم من كل الأوقات التي فقد فيها عقله تمامًا، إلا أنه لم يفقد قدرته الفذّة على وصف مشاعره بدقّة فائقة ولغة بديعة. (نعم، قلت «لغة بديعة»...(بديعة)... إنه اســمك يا حلوة. هل تعرفين معنى اسمك بالمناسبة؟ اسمك يعني: رائع. مدهش. لا مثيل لروعته! وأنتِ هذا كله).

وُضع فان جوخ في مصحّة نفسيّة لأكثر من مرّة. رسم خلالها أكثر لوحاته شهرةً، أهمّها لوحته «The Starry Night» («الليلة المـضيئة»). وأخذ إ سلوبه المميّز الذي سيُعرف به فيما بعد ويخلّد اسمه إلى الأبد، يزداد وضوحًا ونضوجًا أثناء إقامته في المصحّة.

وفي يوم من الأيام أثناء تواجده هناك، أخذ مسدّسه وصوّبه نحو صدره. مات بعدها بيومين. كان قد تعب تعبًا هائلًا من الحياة وكان قد اكتئب اكتئابًا عنيفًا وبلغ ذعره من المستقبل الغامض كل الغموض أقصاه. فقرّر أن يُنهي حياته. غالبًا كانت في لحظة جنونية من لحظاته الطائشة اليائسة الحزينة التي باغتته طوال عمره دون قدرته على السيطرة فيها على أفكاره ومشاعره المتضاربة.

كانت بديعة تُنصت إليّ بإصغاء خالص، حتى أنني قد أحسست وأنا أقترب من نهاية القصّة، أنها لم تعد تسمعني بأذنيها فحسب، إنما تسمعني بكل ما أوتيت من حواس ومن أعضاء صغيرة مرصوصة في جسدها الصغير.تسمعني بأذنيها، وعينيها، وأنفها، وشفتيها، وشعرها الأسود، وقوامها المنمنم، وقدميها المتشقّقتين، وجلبابها الأبيض، ومنديلها المهترئ. صحيحٌ أنها لم تفهم كل ما أقول من تفاصيل حول اضطراباته، أو تفاصيل أخرى هنا أو هناك في حديثي، لكنها فهمت الغاية من هذا كله. فهمت جوهر الحكاية. فهمت أنه حين تنظر إلى عم أبو بيت أصفر الذي لا تستطيع حتى أن تنطق اسمه على نحو سليم، عليها أن تصوّب بصرها إلى ما هو أبعد من غرابة الضماد الملفوف حول رأسه والأذن المقطوعة الغارقة في الدم.

فهمت أنه لم يكن إلا فأرًا مذعورًا.

مرّت برهة من الصمت المطبق بعد أن خلصتُ من القصّ. كنت أتأمّل بديعة التي كانت منشغلة جدًا بالحكاية. كانت مأخوذة مدهوشة. رأيت سؤالًا سابحًا في رأسها: «كيف لهذا الرسّام الطيّب أن يقتل نفسه؟ كيف له أن يُنهي حياته بهذه البساطة؟ ما معنى أن يقتل إنسان نفسه أصلًا؟!».

يبدو أن المفارقة بين ما فعله الرسّام الطيب وما فعله أهلها بنساء الحواري، شغلتها جدا. هو يُنهي حياته لا يريد ولا يومًا واحدًا إضافيًا فيها، وهم يخنقون النسوة القريبات منهن كي يحيوا هم على جثثهن. آلحياة جميلة تستحق أن نطعن غيرنا كي نحياها نحن؟ أم قبيحة لا تستحق إلا أن نطعن صدورنا كي نبتعد عن هؤلاء الحمقى ممن قرّروا أن يحيوها على رفات غيرهم وعملوا عمل من ظنّ أنه خالد فيها؟

شغلها السؤال. ثم شغلها البحث عن هذا الرجل الطيّب الغريب. أشفقت عليه. أحبّته. أحسّت تجاهه بمشاعر الأمومة الفطرية المزروعة بداخلها. إنها تشتهي رؤيته. تشتهي أن تهديه بعض من عبادات الشمس التي يحبها ليزيّن بها منزله الأصفر. بل أن الأمر لم يعد مجرد «اشتهاء». إنها تسابق الزمن ويرهقها الانتظار.

تقف بديعة فجأة والشوق المضاعف قد أكسبها سرعة إضافية كذلك. تنظر إلى فروع عبّاد الشمس التي غرسناها أنا وبيتهوفن. تنظر إلينا وتبتسم ابتسامة ماكرة صبيانة خجولة. تقول وهي تشير بسبّابتها إلى الفروع المغروسة:

- ممكن ناخدو دول كمان ونُحُطوهم فوق الوَرْدْ بتاعي عشان يِطوَل لفوق أكتر؟

نبتسم أنا وبيتهوفن. نقف. تفهم بديعة أننا لا نمانع فتأخذ تقفز في الهواء فرحًا وهي تصفّق بكفيّها. ينحني بيتهوفن إلى بديعة فترفع ذراعيها وإبطيها إلى أعلى فيحملها عاليًا مجدّدًا. أقطف زهرة من الزهرات المغروسة في الأرض وأناولها لبيتهوفن، فيناولها لبديعة، فتغرسها بديعة في قلب أعلى زهراتها.

ننهمك في العمل لقرابة الساعة حتى نرى «الليلكي يبلّل خط الأفق». نشعر ثلاثتنا برعشة الليلكي. ويهبّ نسيمٌ مشبّع برائحة التوت البرّي. وإذ أناول بيتهوفن آخر الزهرات، أرى على بياض قميصه من تحت بذلته السوداء ثُقبًا ليلكيًّا. أنظر إلى الأفق البعيد وإذ بالأصفر يتخلّل الليلكي بهدوء ساحر. ثم دخان رمادي يطير نحونا وأجزاء من تبغ تتساقط علينا.

تنزعج بديعة من التبغ المتساقط على زهورها التي أمضت معظم العصر تنسّقها بشغف. تزيحها بسيف راحتها اليمنى بتضرّر شديد:

- أيّووه! هو احنا كل مانشيلوكي تيجي تاني؟!!

كانت الفكرة تُلحّ على نفسي وكنت أتجاهلها؟ أما الآن، لم يعد في الأمر شك.

إنه غليونه!

أصرخ فرحةً:

- بديعة! بديعة! عم أبو بيت أصفر جِه أهُه!

افرحي يا بديعة! فخطّتك آتت مُبتغاها.

يا لرعشة اللقاء الليلكي...

20..الثَّلاثُون مِنْ أُكتُوبَر

عُدتُ إلى البيت في الثلاثين من سبتمبر، أي في ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كل من عُمَر و سوزان بي ليخبراني أن في الثلاثين من أكتوبر سيتم تقرير مصيري بالشركة بناءً على تطوّر آدائي إلى حينها، شاحبةَ الوجه، محمرّة العينين من البكاء والنشيج المتواصل من المكتب إلى الشارع الجانبي حيث جلست. أنظر ولا أرى. كأن جسدي مُخدّر تمامًا. الحركة بطيئة وهادئة. والتعاسة والخوف يأكلان جسدي المريض.

نزلت من سيّارة الأجرة التي توقّفت أمام مبنى بيتنا، و صعدت السلّم المؤدّي إلى باب شقّتنا متمنية الموت قبل الوصول. شعرت مع كل درج أصعده بمشقّة فظيعة كأنه عمل أقوم به لأول مرّة لا كل يوم وأحيانًا أكثر من مرّة في اليوم الواحد. كأنني أغرق في محيط عظيم وأنظر إلى السطح من عَلٍ وكلما أضرب بيديّ وقدميّ في المياه لأحاكي حركة الأسماك فأعلو، لا يزيدني العلو إلا بُعدًا عن السطح. وما الأنفاس مع هذا كله إلا حلم صعب المنال.

أتوقّف عند كل عدد معيّن من الدرجات وأنشج نشيجًا يلفظه القلب المرفوض المخذول الذي لا يقوى على مجاراة معطيات يومه البارد القاسي. حتى الجسد يتآمر معهم ضدّي فلا يجود عليّ بالمنيّة قبل الوصول إلى الباب. ها أنا قد وصلت. يا لي من تعيسة! مسحت دموعي وطرقت الباب. فتحت ماما. فورًا علمت مدى اليأس الذي كنت عليه. حاولتُ تفادي النظر إليها أو الحديث معها. لكنني اختلست نظرة سريعة إليها فوجدتها تجعّد عينيها باندهاش وخوف معًا. «ما خطبها؟!».

- ليال! ما بك؟ لِمَ تبكين؟ ماذا حدث؟

- لا شيء.

وضعت يدها على كتفي فأزحتها ومضيت بسرعة إلى غرفتي. أغلقت الباب بالمفتاح وتتبّعتُ جسدي بينما انفلت انفلاتًا لا إراديًا على السرير كأنني سقطت سهوًا من حافة جبل على الأرض. ومتُّ.

انبطحت على صدري وأخذت أنتحب كأنني للتو أطلقت لصدري العنان لا حين انحدرت إلى الشارع الجانبي من الشركة يمينًا وبكيت في معزل. شيء ما في غرفتي زادني همًّا وأ َسا. كم بكيت فيك يا الغرفة! كم ناجيت الله من تلك النافذة ورجوته رجاءً بائ َسا أن يخلّصني من هذا الواقع اللعين! كم جال بخاطري لو أبتلعُ سمًّا أو أقطع شراييني بسكّين مسنون وأخلّص روحي من هذا العذاب – عذاب طير لا يجيد الطيران.

أقبلت ماما تطرق الباب مهلوعة:

- ليال أرجوك افتحي الباب.

- اتركيني يا ماما. أريد أن أبقى ...وحدي.

- أرجوك يا ليال...أرجوك! لا تفعلي هذا.

- هذا ما أريده أنا الآن يا ماما...اتركوني. دعوني وشأني.

ذهبت ماما خائبة الأمل. قمتُ بعدها أسير في الغرفة كالمجنونة. بلا هدف. أنظر إلى الأعلى وأنتحب. أنظر إلى الأسفل وأنتحب. أحيط وجهي بكفيّ وأبكي. أضع يدي على قلبي وأكلّمه: «أرجوك اهدأ! أرجوك اهدأ! كفى...بالله عليك كفى». أرتمي على السرير ثانية. هذه المرّة أغرس رأ سي في و سادتي وأ صرخ صراخًا مكتومًا. «آآآآه...آآآآه...آآآآه». أزيح الو سادة فجأة وأنهض جالسةً. الكتفان ضعيفان منحنيان إلى الأمام. «يا ربّي إن كنت كتبت لي عندك في اللوح المحفوظ حياة بهذه التعاسة والوحدة والغرابة فأرجوك لا أريد المُضي فيها. أشتهي الموت. هأنذا طيرٌ ليس بمقدوره أبدًا أن يطير! أحاول معايشة الفكرة...لكن...لم أعد أتحمّل. من لي يا رب؟ أخاف الناس...أخافهم كلهم. لا أريدهم. ربما...لأنني...لا أدري. غريبة؟ معتوهة؟ أنا الفأر المذعور الباحث عن جُحر ناءٍ. لكن أين الجُحر؟

هكذا أصحو وهكذا أنام...فأرًا مرتعبًا مدفوعا دفعا إلى ساحة الحياة. هيا أيها الفأر الصغير. امضِ وحدك وسط قطعان الثيران والحمير الوحشية. حجمك بالكاد يسابق حجم نعالهم. لكن...لماذا أنت خائف إلى هذا الحد؟ أيخيفك احتمالات أن تدهسك نعالهم؟ ههه...«يللا» يا جبان!

بوجود الذعر لا يوجد مكان – أي مكان – لأي شعور آخر. الذعر يملأ الساحات والأفكار والأعضاء الجسدية ملأى مُحكمًا محسوبًا دقيقًا. فلا يمكن أن تكون مذعورًا وسعيدًا. أو مذعورًا وهادئًا. أو مذعورًا وواثقًا. أو مذعورًا وخلّاقًا. أو مذعورًا ومُتحمّسًا لفكرة ما. أو مذعورًا ومُنهمكًا في عمل بعينه. أو مذعورًا ومُقبلًا على الناس. أو مذعورًا ومهمومًا بتحقيق نجاحات في مشروع ما. إن زارك الذعرُ، فاعلم أنه لن يأتيك إلا فردًا. واعلم عندها أنك ستكون مذعورًا، ومذعورا فقط.

مممم..ماذا؟ قلت أن الذعر لا تصاحبه فكرة أخرى؟ لا، أتراجع. بلى، تصاحبه فكرة جوهرية تلحقه كظلّه.فكرة يتيمة الأب والأم. وحيدة مثلي. تبنّاها الذعر فصار يصحبها معه أينما ذهب. و صارت هي تتبع خطاه وتحفظ جميع الطرق التي يسلكها حتى أنها أ صبحت أحيانًا تسبقه إلى المحطّة التي يقصدها هو. إنها فكرة «الهَرَب». لأن الهرب بالنسبة للذعر هو طوق النجاة.

أتأرجح بين صورة الفأر المذعور والظبية المذعورة باستمرار. أرى نفسي في الصورتين على التوالي. تارةً فأرًا صغيرًا ضعيفًا لا يريد أن يبرح جُحره إلى الكون الكبير المرعب، وتارةً ظبية ترتعش خوفًا تفر لحياتها من أسود أو ضباع تلاحقها للنيل منها. صورتان لا تفارقانني. أبدًا. ولازلت لا أعلم تحديدًا مسبّبات استحضار كلتا الصورتين في أوقات مختلفة. لماذا رأيتني فأرًا منذ قليل؟ ولماذا أراني الآن ظبية؟ لا أعلم. لكنني أكون فأرًا أو ظبيةً كيف تشاء الظروف التي لم ولن أفهمها. أو كرسيًّا.

أما وأنني الآن، في ظرف من الظروف التي لا أفهمها، فإنني أنظر إلى الحائط الأبيض أمامي من موقعي البائس على السرير، و أرى مشهدًا للظبية النحيلة وهي تركض في الاتجاه المعاكس للضباع. إننا أحيانًا ليست بقليلة أبدا،لا نعير مشاهد معيّنة القدر الكافي من الاهتمام. أما إن نحن تريّثنا قليلًا فإننا لنوقف أنفسنا المتعجّلة أمام أسئلة قد تعيد تنظيم أفكارنا وقناعاتنا من جديد. فمثلًا، وأنا أمام ما أنا أمامه من مشهد، فإنني أسأل نفسي: أيمكن أن لا يكون شعور الظبية هذا وهي تفرُّ من الضباع شعورًا فطريًّا لا إراديًّا؟ أم أن للظبية أن تتمهّل وتفكّر وتحلّل الموقف ثم تستعرض الحلول والبدائل قبل الشروع في الركض؟

ولو أنني عرضت ذات التساؤلين هاتين على الناس، لسخروا منّي حتمًا. ولرأوا في تأمّلي هذا سذاجة هائلة. ومع هذا فإنني أؤكّد لعظيم جناباتهم ليلًا ونهارًا أن حالي لا يزيد ولا يقل عن حال كل ظبية فارّة من صـيّاديها، وإنهم لا يزالون يسـألونني التعقّل والتأنّي وتحليل الموقف واستعراض الحلول والبدائل. فأنا، على حد زعم سارة، «لم أعد طفلة». ولأنني لا ينبغي أن أكون «كرسي»، كما تقول ماما باستمرار. وحتى يكون لي «لازمة» كما يتمنّى بابا. وكي تستطيع الدكتورة إيمان السعي لتعييني في الوظيفة الجامعية التي «تخشى أنها تحتاج إلى الكثير من التواصل» (الذي أفتقده بكل تأكيد). وحتى يستطيع عُمَر و سوزان أخذ قرار إيجابي بشأن إمكانية استمراري معهم في وظيفة الشركة، في الثلاثين من أكتوبر المُقبل.

أحدّثهم عن الأدرينالين المشـتعل والحاجة الملحّة للفرار، ويحدّثوني عن التروّي والتفكّر؟! أي بدائل وأي حلول؟ هو الموت أو الحياة!

قمت أسير إلى الحائط. أخذت أدبّ بجبهتي على سطحه الناعم عدّة مرّات بمرارة. لماذا أنا أنا؟ لماذا أنا أنا؟ لماذا أنا أنا؟! آه لو أنني فقط أقطع جزءًا من لساني العاجز هذا وأهديه إلى عُمَر وسـوزان. فتلك كتلة لحميّة لا أظن أنني أحتاج إليها. لتجتمع الزوائد مع بعضـها. وليرى الجميع الجزء الذي أكلته القطّة من لسـاني فلا يعودوا يسـألون عنه. ولتجد دنيا حدثًا جديدًا مثيرًا تتلذّذ بالثرثرة عنه والسخرية منه في الكافتيريا.

لتجتمع الزوائد مع بعضها ولأذهب أنا إلى الجحيم.

عادت أمي تطرق الباب. كانت قد تركتني وحدي كما طلبت منها عندما عدت بحالة مشـــابهة ليلة أن عدت من زيارة داليا. لكن يبدو أنه لم يعد هنالك بُدّ من التدخل رُغمًا عنَي هذه المرّة. تفاقم قلقها ودفعتها أمومتها الفطرية إلى الطرق مجدّدًا على بابي والإصــرار على فتحي له.

– لن أتركك هذه المرّة يا ليال. افتحي! والله لأكسرنّه إن لم تفتحِه أنت!

فتحت الباب. لا أدري كيف ولا متى ارتميت بأحضـــانها. أحاطتني بذراعيها بقوّة وبدأ صوت النشيج يعلو ويعلو بكثير من الارتجاف والشهقات المتتالية اللاإرادية. سحبتني ماما من غرفتي إلى غرفتها وأجلستني على سريرها ثم جلست إلى جواري وعادت تحتضنني بذات القوة.

– لو تقولي لي فقط ما بك! ماذا أصابك يا عزيزتي؟ ماذا أصابك؟!

كنت بدأت الدخول في مرحلة من الهستيريا أو الانهيار الكلّي تقريبًا. لا أذكر أنني كنت أفكّر في شيء ما تحديدًا في تلك اللحظة. ولا كنت أشعر بشيء محدّد. كالمُخدّرة. كنتُ في حالة غريبة خارج نطاق الزمان والمكان. كأن قوّة ما أخذتني إلى مكان بعيد جدًا. وكأن الوقت...عفوًا، ما الوقت؟

أرتعش بقوّة كالممسوسة. أنتحب كأرملة تنوح. أخذ قوامي وضع الجنين المقوّس. كالهلال. أحيط صدري بذراعيّ المشنّجين كأنني أحتضن نفسي. هل كنت فعلًا أحتضن نفسي؟ وذراعا ماما فوق ذراعيّ. لا أذكر إلا أنني فجأة...فجأة، أخذت أتمتم بكلمات و شبه جمل متقطّعة متكرّرة بإلحاح: «لا أريد»...«لا أريد»...«لا أريد»... «أريد العيش مثل الناس»... «حرام»... «كفاية»... «كفاية»... «آآآآه»... «آآآآه»...«أنا خايفة»...«أنا خايفة».

أخذت أمي تقبّلني كأنها استطاعت تجميع الكلمات المُبهمة وأشباه الجمل وتمكّنت من استخلاص معنى واضح كل الوضوح في رأسها (أو هكذا أحسَسْتُ). قالت بلهجة حنونة مطمئنة:

– ستكونين بخير يا ليال. أعدك أنك ستكونين على ما يرام. لا تخافي...ستكونين بخير.

جاء أبي مسرعًا إلى الغرفة عندما وصله صوت بكائي من الغرفة. كان مذعورًا. سأل أول أن دفع الباب وتقدّم نحو السرير:

– ماذا حدث؟!

أسرع إلى السرير وجلس وأحاطني هو أيضًا.

– ما بك يا ليال؟!

- لا أريد العيش...أريد أن أموت!

- لا حول ولا قوّة إلا بالله...لا تقولي هذا. لا زلتِ صغيرة والحياة أمامك يا ابنتي...لما تتمنين أمرًا كهذا؟!

لم أجب. ولم أعلّق على أي مما قالاه بعد ذلك. ظللت أنتحب وأرتجف بقوّة. كنت كالمُغشى عليه. أراهم ولا أراهم، أسمعهم ولا أسمعهم، وأرتجف دون أن يخفّف عنّي احتضانهما لي وقربهما منّي. لم أكن أشعر بهما. بل أن الحرارة الخفيفة التي شعرت بها من تقارب أنفاسهما وذراعيهما منّي، كان بها شيء من العبء الثقيل الذي لم أكن أتحمّله. ومع هذا لم أكن أقدر على إزاحته عنّي. وكأنهما انتبها وقتها أن لا طائل من سؤالي أو الحديث معي، فاكتفيا بالحديث إلى بعضهما.

نظر بابا إلى ماما وهو يسأل:

- ماذا نفعل يا هالة؟ هذا الوضع مُقلق جدًا...

- لا أدري...لندعها تهدأ أولًا ونفكّر.

بعدها، خيّم الصمت على الغرفة وثبت المشهد تقريبًا. وأخذ نشيجي يهدأ شيئًا فشيئا حتى غلبني النعاس فغفوت بين ذراعيهما لأول مرة.

***

أدهشني كثيرًا الانقلاب المفاجئ في سلوك والديّ الذي أعقب تلك الواقعة بالذات. أخذا من بعدها يسألانني بابتسامات حنونة محبّة: «كيف حالك اليوم يا ليال؟». أشعر بالباب ينفتح على غرفتي ليلًا ثم أحس بأنفاس أحديهما تقترب منّي وتتفقّدني. تمسـح أمي بإصـبعها على عيني مسحة خفيفة لتتأكّد أنني لم أنم وأنا أبكي. تسألني وتُصغي إليّ. تشد من أزري وتعاونّي على التعبير عن نفسي بكلمات مقتضبة لكن حنونة: «قولي.. سأفهمك». «إن لم أفهم قصدك تمامًا فتأكدّي أنني سأحاول». تُمسك بيدي إن تلجلج لساني وأنا أحاول التعبير عن فكرة ما.

أما بابا، فيكتفي بالسؤال عنّي وبالابتسام أو تقبيل رأسي من الحين للحين. أو يعود من المشفى بكيس حلوى أو بالشوكولاتة التي أحبّها، ويتركها على سريري. أو أسمعه يتخلّى قليلًا عن معزوفات «جدّه الأكبر»، ويروح يستبدل بها ال Appasionista، السوناتا الثالثة والعشرين لبيتهوفن

والتي نتّفق على حبّها كلانا. فأ شعر وأنا أ سمع دويها من غرفتي، أنه يعزفها لي أنا، وكأنه يخبرني بها: «أحبك يا ابنتي العزيزة». فأشعركأني أسمع السوناتا لأول مرّة.

ماذا حدث؟ تغيّروا عليّ فكأنني لا أعرفهم. لأول مرّة أشــعر بهذا الكَم من الاهتمام والمحبّة من جانبهما. وإنه لشـعور غريب عجيب...مركّب مثل كل الأيام التي خلت. مثل طفولتي. ومثل صــورتي الفأر والظبية المرافقتين لكل أيامي. ومثل مشــاعري تجاه مايا وســارة ومريم. ما معنى هذا الاهتمام؟ وبماذا يجب أن أشـعر؟ شــيء ما يخيفني وينفّرني عنهما على الرغم من كل ما قدمناه لي من عون في تلك الأيام. شــيء ما يُبعدني عنهما أكثر بسبب هذا الاهتمام (حديث العهد).

الحقيقة أن الو ضع أربكني وإن بدا لي أنه يتوجّب عليّ أن أ سعد به. لكن انشغالي بالظباء والفئران، و مبنى الـشركة المرعب، و سارة التي لم تعد سوى بنت غريبة ألقاها لقاء الغرباء في المكتب كل يوم، ومايا ومريم اللتان تبتعدان عنّي يومًا بعد يوم، حظى هذا كله بالمساحة الأكبر من انشغالي.

كلما قالت لي ماما: «أفهمك...». انقطع بكائي بنظرة حائرة إلى عينيها الواســعتين، ووددت سؤالها: «كيف تفهمين؟». لكن...لا أسأل. في الواقع، أنا لم أجبها أبدا على أي مما قالته أصلًا. وإن أجبتها في مرّة من المرّات، لم أزد على «أنا خائفة».

مرّ أســبوعان على هذا الحال. أذهب إلى العمل في الصــباح كجثّة هامدة بُعثت من مرقدها. أو روبوت آلي بلا مشــاعر ولا حياة ولا تعبير باد على وجهه أو جســده. أجيب عن أسئلة من ألقاهم بردود جد قصيرة. أو حتى لا أجيب إن استطعت أن لا أفعل. أتحاشى الحديث مع ســارة وأتحاشــى تواجدي في مكان واحد معها. أتحاشــى عُمَر وســوزان ويتحاشانني. وإن اضطّرا إلى الكلام معي، يتودّدان إليّ تودّدًا مضاعفًا من باب الشفقة على قلب يوشكان أن يكسراه حين يسرّحاه من العمل عن قريب. أكتفي بابتسامة مرسومة مع رد تحيّة لا أريد ردّها. أما دنيا الثرثارة فلم تكف عن إلقاء نكاتها السخيفة في وجهي. أضطر أن أبتســم لها ولو أن نكاتها لا تضــحكني أبدًا. بل أنها لا تضــحك أحدًا بقدر ما تضــحكها هي. لا بأس. فلندع الكائنات الغريبة تستمتع بأوقاتها أيضًا.

– هه...ألا تجيدين فعل شيئ آخر سوى الابتسام يا ليال؟! ماذا عن...الطهي مثلًا؟ أو الكلام مثلنا «يا شيخة»!

لا أجيب.

تســمعني أتحدّث إلى أحد الموظفين حول أمر من أمور العمل. فتعيد ما قلته مغيّرة نبرة صوتها إلى صوت طفل صغير لتحاكي بهذا صوتي الذي يشبه كثيرًا صوت الصغار نبرةً وآداءً.

- « لو ترســـل لي هذا الـملف آخر الأســبوع يا (ماهر)» (بصـــوت طفل صــغير)... هاهاهاهاها! معنا في المكتب طفلة يا جماعة! كم عمرك أنت يا ليال؟ أربع سنوات؟ خمس سنوات؟

يضحك الجميع. حتى عُمَر وسوزان. ثم يُكمل أحمد معلّقًا:

- بل هل رأيت يا دنيا زيّها وحذاءها؟ إن ملابسـها تُشـبه ملابس الأطفال. حتى مقاس الحذاء! إنه صغير جدًا.

- هاهاهاها! بالطبع أرى كل شـيء وأتفحّصـه منذ يومها الأول معنا. لا أدري كيف لشركة كبيرة كشركتنا أن توظّف طفلة لم تتم المرحلة الابتدائية بعد؟ والله حرام! هذا child abuse!

«هاهاهاهاهاها» تعلو وترن في كل المكتب. أعي أن يديّ ترتجفان. أتدارك الموقف بســرعة وأخبؤهما تحت طاولة مكتبي. أنظر إلى ســارة على المكتب يميني فأراها الوحيدة التي لا تبتســم مثل بقية الزملاء، ولا تشــاركهم قهقهاتهم العالية. لم تعجبها تعليقات الآخرين. لكنها رشقتني بنظرة عتاب بالضبط كالتي ترشقها لي ماما دومًا في أي تجمّعات عائلية قبل أن تتبعها بجملتها الشهيرة «أنت كرسي». أظن سارة كانت تريد إرسال نصًّا مشابهًا لي: «انظري! أنت من فعل هذا بنفسه».

تزيدني نظرات سارة بؤسًا وضيقًا. أقف وأذهب إلى دورة المياه. تلمحني دنيا.

- إلى أين؟! تعالي! عمّو ماهر قادم الآن ليعطيكِ (بون بون) و(شوكولا)...هاهاهاها!

أبتسم ابتسامةً آخر ما يمكن أن توصف به هو الصدق. لا أفهم كيف تمكّنت من أن أدفع بها دفعًا في هذه الحالة وأرسمها رُغمًا عن روحي، على شفتيّ. أدخل إلى الحمّام. أغلق الباب بسرعة. وأبكي. أنظر إلى المرآة وأود لو أنني أبصق على هذا الوجه الذي أرى انعكاسه أمامي وأنهال عليه سبًّا ولعنًا لأنه لا يقدر حتى على رد أذى سخافات كائن الدنيا هذا، والكائنات الأخرى المحيطة به. ثم تتحوّل نظرة الغضب إلى نظرة حسرة وشفقة على الذات يتبعها بكاء مكتوم الصوت شديد الوقع.

أما عن معظم الأيام التي تلت أو سبقت تلك الواقعة تحديدًا، فلا تختلف كثيرًا عن هذا المشهد.

مضت الأيام على هذا النحو، حتى جاء الأسبوع الثالث من بعد يوم الاجتماع المشؤوم الذي انعقد في الثلاثين من سبتمبر. أسبوع واحد يفصلني عن الثلاثين من أكتوبر. لكني كنت قد حسمت أمري. لم أُشرك والديّ ولا أحدًا غيرهما فيه إذ كانت الفكرة واضحة كل الوضوح أمامي، وكنت واثقة أنهما لن يناصراني على هذا الأمر ولن يدعماني فيه أبدًا.

لكنني كنت قد قرّرت وعزمت. مهما تكُن العواقب.فلتجتمع الزوائد مع بعضها.

21..أَحْمَرٌ وأَزْرَقٌ وأَصْفَرٌ

قَفَزَت بديعة من يدي بيتهوفن إلى الأرض وركضت بسرعة باتجاه الأفق الليلكي لتستقبل الرسّام. لكن يبدو أنها لسبب غير مفهوم أوجست خيفة فجأة فعادت أدراجها وتقهقرت إلى الخلف لتقف إلى جوارنا – بيتهوفن وأنا. لكن عينيها لم يتخلّيا للحظة عن التحديق في الأفق السارح.

فرع عبادات الشمس الطويل الذي نصبته يتمايل يمنةً ويسرةً مع نسيم الهواء. وثلاثتنا نقف بجدية كأننا ننتظر موكب إمبراطورعظيم أو أمير قادم مع حاشيته. تجتمع فينا أشكال مختلفة من الحماس والرهبة والسعادة والترقب؛مزيج غريب من المشاعر يثير في النفس لذعة جميلة ومشوّقة.

يبدو أن فرع الزهرات على وشك أن يختل توازنه ويسقط على الأرض. تلتفت إليه بديعة فتقفز إلى وجهها ملامح الذعر وتهرول إليه لتعزّز من غرسته في التربة المبلّلة. وقبل أن تصل إليه، كان «الأمير» قد ظهر آتيًا من الليلكي البعيد. يقترب ويقترب. تفاصيل وجهه وملبسه وهيئته باهتة لا يمكن التحقّق منها. وإنها لتتّضح رويدًا رويدًا مع دنوّه منّا.

إن «الأمير» آتينا سائرًا على قدميه، لا يعتلي فر سًا ر شيقًا يتبختر، ولا عربة فخمة تُفسح لنفسها مجالًا في المجال. لا حرّاس، ولا حاشية. فقط سلاح خشبيّ يتشبّث به بقوّة تشبّث طفل بيد أبيه وهو يعبر الطريق المزدحم. إن سلاحه الخشبي له لون بنّي مُصفَرّ فاتح ، وله تجاعيد من خطوط رفيعة جدًا من درجات مختلفة من البنّي متداخلة بعشـوائية: إنه حامل لو حا ته. وفي اليد الأخرى، يحمل كانفس أبيض كبير الحجم، وحقيبة ملطّخة بالألوان مفتوحة، يخرج منها ما يبدو لي أنه ألوانه الزيتية، وفراشي رسمه؛ كل صرّته التي جاء بها من الزمان والمكان البعيدين...بعيدين جدًا.

عندما اقترب اقترابًا كافيًا أتاح لنا التحقيق من ملامح وجهه وهيئته، تأكّدت أن انطباعي الأوّل لم يكن مجرّد انطباع خاطئ أو خدعة بصريّة سبّبها بُعد المسافات. إنها حقيقية...إنه بالفعل «مُبَلّل». فها هو على بُعد أمتار قليلة منّا، ولازالت هيئته توحي بهذا «البَلَل» الثقيل. عجيب! كأنه خرج للتوّ من لوحته «Self-portrait with a Bandaged Ear» (بورتريه ذاتي بأذن مضمود)، التي رسمها بعد واقعة قطع أذنه في العام 1889م.

نراه مرتديًا معطفه الأخضر الواسع ذا الياقة العريضة. وقبّعة رأسه ذات الفرو الأزرق، من تحتها ضماد أبيض ملفوف حول أذنه اليسرى. وجهه أبيض طويل، به صفار ملحوظ؛ شاحب ومتعَب. عظمة الحاجبين بارزة قوية يعلوها حاجبان شديدا الخفّة وبهتان اللون؛ تكادان لا تُريان. العينان فاتحتان وصغيرتان غائرتان في عظمة الحاجبين البارزة أعلاهما. أنفه طويل ومدبّب، أسفله شفتان دقيقتان.

نظرة العينين بها تحديق وحزن وهلع. إن تنظر إليهما فإنك لا ترى شخصًا مبتسمًا. بل إنك لتشعر أنه شخص لا يبتسم كثيرًا، ويصعب عليه فعل الابتسام بشكل عام. تجعيدتان إلى جانبي الشفتين المزمومتين يشيران إلى كثرة تعابير الحزن التي تراكمت على هذا الوجه. فهما مهدولتان إلى الأسفل وغائرتان، لا يمكن أن تخطئهما أبدًا. وأنت مع هذا، لا يمكن أن تشعر بأي خوف أو توجّس من هذا الوجه. فهو، بالرغم من نظرته الفاترة، لا زال يُظهر ودًّا وبراءةً وربما حتى سذاجة طفولية دافئة ومحبّبة إلى القلب.

خلفه، سحاب أصفر (يذوب في الليلكي ثم يتجدّد) كالذي أحاط به من الخلف في لوحته؛ هذا الأصفر الليموني. وإنه إذ اقترب، فقد ظهر شيء آخر كان يحمله مع الحامل الخشبيّ ولوازم الرسم: ذات اللوحة اليابانية التي اعتلت الحائط من ورائه في لوحته المرسومة (البورتريه الذاتي).

ها قد اقترب منا تمامًا. ها هو ذا لا يُبعده عن بديعة سوى ما يُبعد بديعة عن بيتهوفن ويُبعد بيتهوفن عنّي! وإنه مبلّل. مبلّل جدًا. أشعر أنني إن مددت يدي وأمسكت بوجهه أو

معطفه أو حامله أو السحاب الأصفر الليموني من حوله، ستنطبع الألوان على أصابعي. إنه بالفعل قد خرج للتوّ من لوحته...بُعث من مرقده. وما مرقده التراب أبدًا. التراب مرقد الطغاة والأجساد التي عاشت من أجل المادة. أما الأرواح النقيّة فترقد فيما أحبّت وفيما أودعت للكون من خلفها قبل أن ترحل. و(الأمير) مرقده الألوان.

بوغتت بديعة عندما رأته نُصب عينيها. تنظر إليه بتمعّن شديد. تتعرّف عليه: على وجهه، وهيئته، وأغراضه، وملمسه المبلّل الغريب. وإنه لينظر إليها خاصة. كان قد رمقنا سريعًا أنا وبيتهوفن بنظرات خاطفة أول وصوله. أما بديعة، فإنه يمعن النظر إليها. وها هي تحرّك فيه عاطفة ما فيتنازل عن فتور نظرته ويبتسم لها ابتسامة عجيبة في رقّتها تغيّر ملامح وجهه بالكامل. أي كأنه شخص آخر. تبتسم إليه بعد أن كسرت ابتسامته حاجز اللقاء الليلكي المُربِك.

تنظر بديعة إليّ وإلى بيتهوفن من ورائها مُفرجة عن ثناياها. ثم تمضي إلى فرع عبادات الشمس الطويل الذي سقط إلى الأرض بقدوم الرسّام، وتحمله. تأخذ برهة من الوقت تحاول فيها تقسيم الزهور إلى مجموعتين متساويتين في العدد، فما إن ترتاح إلى المجموعتين حتى تتقاسمهما بين بيتهوفن وفان جوخ، وتنسى نصيبي. لا بأس.ثم تقول للثاني وهي تقترب منه:

- احنا عِرِفنا إنكو بتحبوه.

ثم تبادر بإمساك يده وهي تنظر إلى عينيه. أمسَكَ بباقته وهبط جالسًا على ركبتيه يبادلها النظرات. ابتسم وقبّل يدها الصغيرة التي حملت الفروع له وتشبّثت بكفّه. بلّل يدها بوردي شفتيه وأصفر يديه فتناول معطفه يمسح ما انطبع سهوًا على يد بديعة، فإذ بالمعطف يطبع أخضره ويمتزج بالوردي والأصفر. يضطرب. لا يعرف ماذا يفعل. لكن بديعة فورًا تنظر إلى يدها المبلّلة بالألوان وتضحك ضحكة مجلجلة صغيرة كتلك التي يحدثها الأطفال عندما يدغدغهم أحد. تعجبها اللعبة! يهدأ اضطراب فان جوخ ويضحك ضحكة مُحرجة سرعان ما تتحوّل إلى قرار بمواصلة هذه اللعبة التي أعجبت الملاك الصغير الواقف أمامه. يمسح بإصبعه على اللوحة اليابانية التي يحملها ثم يمسح على أنف بديعة فترُسم على عظمة أنفها خطًا عريضًا هو مزيج من أحمر مع أزرق مع أصفر. تصرخ بديعة صرخة مباغتة إذ أدهشتها الفكرة واندمجت في لعبة الألوان تلك.

أراقب المشهد وأنظر مليًّا إلى أنف بديعة بالألوان التي انطبعت الآن عليه. آه! عليّ أن أعود إلى اللوحة في غرفتي. هيا بنا...

نسـير أربعتنا إلى الغرفة. بيتهوفن من خلفي ينظر إلى باقة زهوره ويحرّك رأسـه مع الEroica. من ورائه بديعة تمسـك بيد فان جوخ وتنظر إليه بلا انقطاع. وتعود تقفز في الهواء على حين غرّة وتغنّي كما كانت تفعل قبل اللقاء.

عُدنا إلى الغرفة.

أتركهم: بيتهوفن يعود إلى مقعده إلى جانب اللوح الإلكتروني والبيانو، وبديعة تأخذ فان جوخ ليجلسا على السـرير. وأنا أعود إلى لوحة بديعة مجدّدًا وأهم على هذا العمل المهم الذي تستدعي مستجدّات اللحظة القيام به على الفور.

أُمسك بالفرشاة المبلّلة لا زالت بالأصفر الممسوح على المساحة الخالية وسط وجه بديعة حيث تراكم الأوجاع المدفون. أضـيف شـيئًا من أزرق Cadmium Blueوأحمر Cadmium Redوأمسح بهما خفيفًا وسط المساحة حيث أنف بديعة المحجوب.

كنت أشـعر بمسـئولية ما تجاه تلك المسـاحة الخالية تحديدًا. لهذا السـبب تحمّسـت كثيرًا لفكرة غرس عبّادات الشـمس عصـر اليوم. ومع هذا، فأنا لم أرتَح لمسـحة الأصـفر وحده عليها. لا أدري لماذا. لكنني الآن، بمسحة الأزرق والأحمر الإضافيين عليها،

أستطيع الجزم بأنني إلى حدّ كبير يريحني هذا التناول لأنف بديعة(أو، لما كان ينبغي أن يكون أنف بديعة). فالآن لا يعلو «المساحة» الأملُ فحسب، إنما أيضًا تعلوه البهجة والبراءة على طريقة الأمير الرسّام.

أضع الفرشاة في التربنتين مع بقية الفراشي التي سبق أن استخدمتها منذ أن عكفت على لوحة بديعة هذا الصباح. أنظر إلى رواسب الظل مع النور المستقرّة أتم استقرار في قاع الزجاجة الشفّافة. أتابع ثلاثي الألوان الناصعة البدائية – أحمر وأزرق وأصفر – وهي تهبط باتجاه القاع كذلك. أريح ذقني على ظهر كفيّ الموضوعتان على الطاولة وأنا أبتسم وأدمدم كما لو أنني أُلقي بيتًا من الشعر:

«ألواني واضحة وبدائية. أصفر أزرق أحمر...أريد أن أعيد الأشياء إلى عفويتها كما لو أن العالم قد خرج توًّا من بيضته الكونيّة الأولى....ألواني واضحة وبدائية. أصفر أزرق أحمر...أريد أن أعيد الأشياء إلى عفويتها كما لو أن العالم قد خرج توًّا من بيضته الكونيّة الأولى...».

22..يا طَيْرَ السُنوْنوْ

في صـــباح يوم الاثنين، الثاني والعشــرين من أكتوبر، في طريق عودتي من الشــركة إلى المنزل، كان شعورًا غريبًا قد دعا نفسه إليّ. لا أدري إن كانت زُرقة السماء وصفائها قد لعبا دورًا في السكينة التي حلّت بي فجأة من حيث لا أشعر، أم كان شيئًا آخر. الآن وأنا أسترجع تفاصــيل اللحظة ومجريات اليوم، أُدرك أنها لم تكن في الحقيقة إلا ســكينة قرار كنت قد أخذته قبل أن أعي أنني أخذته أو أفكّر بالأمر. كان القرار قد تشــكّل بداخلي فعلًا، وعَزَمَت نفسي على السير فيه فساقتني إليه...هكذا...دون أن تُعلمني بالأمر.

كنت أتأمّل الســماء من نافذة ســيارة الأجرة وهي تســير؛ تنحدر يمينًا ويســارًا، تســرع وتهدّئ. على غير العادة، لم أكن مهتمّة كثيرًا بالطريق الذي عادة ما أســرح فيه طويلًا. لا المارة، ولا الشــحّاذين الصــغار ذوي الابتســامات الأخّاذة والأيادي الصــغيرة المتّســخة ظُلمًا، ولا الأشــجار، ولا الســيارات، ولا القطط والكلاب والفئران التي تحاول أن تعبر الطريق وســط زحام المارة والسـيارات. كل ما يحدث «بالأســفل» لم يكن يشــغلني. كنت مشــغولة بالســماء. كانت زُرقتها واضــحة وبدائية كالتي نراها في لوحات فان جوخ تمامًا. كأنها ولدت (الآن). السحاب الأبيض الهشّ يتوسّطها ويسير خلالها ببطء شديد. نشوى أم حَذَر؟

طير أو طائران يحلقان بعيدًا، سعيدان مبتهجان بجناحيهما. أو هكذا أحسست. بدا لي من على بعد أنهما نقطة تتو ّسط خطين مائلين. شرد ذهني بعيدًا مع هذا المنظر حتى أنني لم أعد أسمع أبواق السيارات المزعجة ونحن في قلب ازدحام العصر بشارع مشلول الحركة من شــوارع القاهرة الكبيرة. وجدتني أســأل: «عجيب! كلنا يرى نقطة بخطّين تتحرّك في الهواء ومع هذا فكلنا يعلم أن هذا التشــكيل المنمنم الغريب طائر! ولا نحتاج أن نرى وجهه عن قُرب لنتأكّد من حدســنا. هذا لأن الطيور تمتلك – وحدها – حق التحليق في الهواء والرقص بين أبيض السـحاب واختراق أزرق السـماء وقتما شـاءت كيفما شـاءت. وهي بهذا تتقن فن الدعاية لنفسها وإلصاق صفة الحرية باسمها هي دون سواها. ونعم، لها (نَفْسٌ) تسعد وتحزن وتستمتع بالتحليق عاليًا كما يستمتع أحدنا بالر سم أو بكتابة الشعر أو باقتناء الزهور وتنسـيقها على أسـوار النوافذ والحدائق. وهي حين تعلو وتغرّد تُسـمعنا بشدوها: «أيها الحمقى، هذه السماء لي أنا».

يا لحلو حظّك يا سنونو!

تحلقين...ليس لديك دنيا تـ سخر من جناحيك أو من مناقير صغارك، ولا عُمَر يُخبرك أنك لا تصلحين للطيران، ولا أهل يخبروك أن لو كان جناحاك مزخرفين بشيء من الذهب أو الفضّة أو اللآلئ لكان طيرانك أجمل. حقًا، يا لحلو حظّك يا سنونو...

يا سنونو، أنا لا أدري من أنا...أو (ما) أنا...لعلني لست من بني آدم. لكنني بالتأكيد لو أملك خيارًا لاخترت أن أكون أنتِ. لكن... أليس هذا نوعًا من العبث؟ نادوني «يا ابنة آدم» وكان ما كان. لكن لا يمكن أن تُسلب كل الخيارات منّي جُملةً هكذا! إن كان يستحيل عليّ أن أكون أنتِ فما زال ممكنًا أن أختار محاكاتك ما استطعت. لأحاكي حريّتك، إذن.

يا سنونو أنت حرّة وأنا حرّة. لكِ جناحان من ريش ولي جناحان من أمل وحلم.

سأطير دون رجعة. لن أعود.

وصلت إلى البيت. قضيت الليل في سكينة ونمت على سكينة طيور السنونو. وفي صباح اليوم التالي، الثلاثاء، الثالث والعشرين من أكتوبر، لم يكن «شتاء يناير» قارس البرودة كعادته. بالطبع لم يكن حارًا، فكل الفصول تحتاج إلى فصل انتقالي ما بين بين، ينقلها بسلاسة من طقس إلى طقس ومن حال إلى حال، لكنه كان أقل بردًا. وأقل قسوة. كان أخف وطأة على نفسي من كل الأيام التي سبقته إذ علمَ القلبُ أنه على مسافة قصيرة جدًا من اللحاق بطير السنونو.

عندما وصلت إلى مدخل الشركة، كان كل شيء له إحساس مختلف: رجال الأمن، والمصعد، وباب الطابق السابع. حتى دنيا كان لها شكل آخر. ما إن رأيتها حتى أخذتُ أحدّث نفسي سرًا: «أخيرًا لن أرى هذا الوجه الوقح مجدّدًا! ما أقبحك يا دنيا. آه لو فقط تعلمين. تنظرين إلى المرآة مُختالة بنفسك. تومئين بعينيك بكثير من الغرور إذا ما تغزّل أحدهم بعينيك الزرقاوين. حقًا؟! لكن ما أقبحها تلك العيون التي تشتهي الانتقاص من غيرها. تشتهيها كما تشتهي العاهرة نظرات الرجال. ومع هذا، فإن العاهرة أشرف منكِ، لأنها لا تغوي الرجال باغتصاب حُرمة إنسانية وضعف الآخرين. إنما تغويهم بجسدها هي لا أكثر. أما أنت، يا ذات الوجه الذميم، فلذّتك لا تتحقّق إلا بالنهش فيمن حولك، لا سيما الضعفاء والخجلى، ومن يتّسمون بصفات الحياء أو الأدب أو التعفّف. ليست لذّتك لذّة أحادية أبدًا، إنما هي لذّة مبنية على المُضِيّ فوق رقاب الآخرين. فما أحقرها لذّة!

يا كائن الدنيا، هل يستوعب عقلك المريض هذه الفكرة البديهية؟ حتى العاهرة أشرف منكِ! أتتصورّين هذا؟! لا تنخدعي كثيرًا في عينيك. صدّقيني أنت قبيحة. وصدّقيني من يجيد قراءة العيون، يقرأ هذا كله خلال قزحيّتكِ وبؤبؤكِ ويعرف أنك قبيحة فلا تخدعه الزُرقة الساحرة. أما من ينخدع فيهما، فهو بالتأكيد من أمثالك. وأمثالك مع الأسف كُثُر».

ثم انتقل حديثي من دنيا إلى مكتبي الخشبي الكبير في الفضاء الواسع:

«وأنتَ يا قفصي الغليظ القبيح أيضًا. لن أراكَ بعد اليوم. لستَ منّي ولستُ منكَ. وُلدنا أحرارًا وما ولدنا لنركض إلى أقفاصنا كل يوم ونُحكم إقفالها علينا بأيدينا. دعني وشأني».

لا أدري كيف جاءتني كل تلك الجسـارة يومها حتى أن هممت أسـير باتجاه عُمَر وسـوزان أول ما رأيتهما يدخلان المكتب معًا. كانا يحملان كوبين من القهوة، ويتحدّثان في أمر بدا شـديد الأهميّة. فهما يتهامسـان بالكلمات فيما بينهما. كانت خطوات أرجلهما سـريعة وقويّة. لها في العادة أن تُشـعرني بكثير من الرُعب الذي أضـطرب معه. أما في ذلك اليوم، فقد أحسست كأني أحلّق عاليًا فوق رؤوسهم وخطوات أرجلهم. «أنا أعلى منكم. لا أريدها أقفاصكم ولا يعجبني كثيرًا سجنكم (الجميل) ال multinational هذا».

سـرت إلى مكتبيهما المجاورين لمكتبي. وزّعت نظراتي بينهم بالتسـاوي والثقة وأنا أقول:

- أريد أن أتحدّث معكما اليوم. فمتى سنحت الفرصة لذلك أرجوكما أخبراني.

نظرا إليّ بدهشة وفضول:

- طبعًا.

قالها عُمّر وهو ينظر إليّ بعمق يحاول أن يقرأ في عيني ما أردت أن أخبرهم به في تلك اللحظة.

بعدها بساعتين، كنت في الكافتيريا مع داليا وسارة ودنيا. كنا أنا وسارة لا نزال نتحاشى الحديث مع بعضنا البعض. بل ونتحاشى النظرات أو أي نوع من أنواع الاحتكاك في العمل أو غير العمل. في العادة، كنت أرتبك كثيرًا من تواجدي في الكافتيريا معها فأغادر المشــهد فورًا. خاصــة وأنني أبقى في معظم الأحوال (إن لم تكن جميعها) صــامتة لا أبادل أحدًا الحديث، على أي حال. لكن...شـيئًا ما دعاني للبقاء يومها. كانت حالة «التحليق» تتصــدّر قائمة مشاعري بلا شك. وكنت أنظر إلى كل الوجوه من حولي – بمن فيهم سارة – وأطمئن نفسي بالتأكيد على أنني لن أراهم مجدّدًا. حريّتي على بُعد أذرعٍ معدودة.

كانت سارة وداليا تتحدثان. بلغتني رسالة سارة الواضحة بأنها مازالت تنوي الاستمرار في تجاهلي تمامًا. حتى أنها أدارت جذعها نحو داليا ليتصــدّر ظهرها وجهي. وثنت ســاقها من تحتها حتى صــار نعل حذائها كبير الحجم ينظر إلى عينيّ مباشــرة. لكنها مع هذا كانت مرتبكة بعض الارتباك، مما دفعها لفتح مضــوع بعد موضــوع مع داليا متحاشــية فترات صمت بين الموا ضيع قد تدعو داليا لإ شراكي في الحديث معهما، أو ت ضطرها لملاحظة فتورالعلاقة بيني وبين سارة فتسأل.

لكنني مع كل حالة التحليق التي كنت عليها، ما كنت لأبقى في الكافتيريا لو لم تكن دنيا مشغولة على الهاتف. كنتُ أتصفّح مواقع الإنترنت من هاتفي المحمول، وأذناي ما تنفكان تستمعان إلى حديث دنيا المشوّق «كالعادة».

- حقًا؟ هاهاهاها!! غير معقول! هذا الفلّاح لا يخيب ظنّي فيه أبدًا. أتعلمين يا (نرمين)...أحيانًا أشعر أن الله خلقه وأتاح لنا فرصة معرفته كي يُدخل البهجة على قلوبنا...ماذا؟ ماذا؟ وقبّعة مُطرّزة؟! هاهاهاها! من أين تجيئه هذه الأفكار الجهنميّة يا ربّي! أيظنّها (موضة) مثلًا؟... ها ها ها ها! أرجوكِ! هذا يُضحكني أكثر... مسكين...أيوة...أيوة...هاها! بلى! ينبغي أن نعرّفه على (ميرنا)...يا الله! ألا تذكرين ميرنا يا معتوهة أنتِ؟ ميرنا ميرنا...الفتاة التي كنّا ننتظرها كل يوم عند بوّابة الجامعة لنستطلع زيّها. الفتاة صاحبة القبّعات العجيبة والتي كانت تزيّن شعرها الدهني بورود كثيرة وكبيييييرة! هاها! نعم نعم...أتذكّرتِها؟ لنعرفّها إليه...بل هذا ما يسمّونه «التكافؤ» في الزواج يا عزيزتي... ها ها ها ها! كفى! كفى! أرجوكِ يا نرمين.... سأنفجر من الضحك....استغفر الله العظيم يا رب. ستفوتني صلاة الظهر بسببك يا ملعونة. لنكمل حديثنا فيما بعد....هاهاهاها! نعم نعم....مع السلامة.

الحمد لله! ما إن انتهت دنيا من مكالمتها الهاتفية حتى دخل عُمَر فورًا إلى الكافتيريا حيث جلسنا وكأن الأقدار تكاتفت لتخلّصني من كائن الدنيا هذا الذي يوشك أن يلتهمني . أخبرني بنبرة متعجّلة أنه هو وســوزان ينتظرانني في المكتب المخصّــص للاجتماعات. لكن كائن الدنيا ماكرٌ، لا يســتطيع أحد أن يُلهيه عن خططه وألاعيبه. فما إن هممتُ واقفة حتى التفتت دنيا إلى عُمَر الواقف عند الباب ما زال، ووجّهت له ســؤالًا مهمًا. (مهمًّا جدًا)...

- يا عُمَر! بالله عليك...هل بالعادة تسمعون لليال صوتًا؟ أم أنها (ممنوع الكلام) هكذا معكم كما هي معنا؟ أقسم لك بأنني أنسى صوتها!

ابتسم عُمَر ابتاسمة غامضة فيها الكثير من الاستياء المستور إذ عزّزت دنيا بهذا التساؤل مخاوفه الكامنة في صدره بشأن «غرابتي» وعجزي عن التواصل (بالشكل اللائق) في محيط العمل.

أجابها بهدوء:

- نعم، إنها هادئة.

كانت داليا وسـارة قد انتبهتا للحديث الجاري فتوقّفتا عن حديثهما المُسـتقل، تطلّعت سـارة إلى الأرض في تجهّم شـديد رافضـة أن تُبدي أي مشـاعر أو مشـاركة من أي نوع مُستكملةً بهذا مسلسل التجاهل الذي كانت قد بدأته معي منذ أسابيع. أما داليا فرأت غير ذلك. استدارت بجذعها إلينا وقالت بتودّد ولطف شديدين:

- ليال فراشة... تفعل ما يحلو لها!

ابتسـمتُ إلى داليا ابتسـامة مُختنقة بكثيرمن البكاء الذي كنت أخفيه في هذه اللحظة خاصة وأنا أرى وأفهم تمامًا ابتسامة ونظرة عُمَر المستاءة جنبًا إلى جنب مع تجاهل سارة العنيد. في تلك الأوقات التي يأخذك فيها الخوف إلى مكان بعيد كل البُعد وحيد كل الوحدة، تُصبح كل ابتسامة رقيقة أو كلمة ودودة من شخص غريب، مدعى كبيرًا للبكاء – بكاء مركّب هو أيضـا. لا تعلم إن كانت دموعك دموع فرح بتلك الروح الطيبة التي نزلت عليك عند ذروة احتياجك لها، أم دموع أسى لما أتعب قلبك بالأساس، أم دموع اشتياق لتلك البُقعة البعيدة التي تلجأ إليها كلما ضاقت عليك الأرض. تود أن ترتمي في أحضان هذه الروح رقيقة المشاعر وتقبّلها وتشكرها على نقائها وسط هذا الكم من التلوّث المزعج المهيمن على الأجواء.

ظلّت داليا مُشــبّثة بالنظر إليّ بينما ســرتُ إلى الباب لألحق بعمر الذي كان قد اســتدار ومشى في تلك اللحظة. كانت لا تزال تبتسم إليّ بذات الرقّة. حتى أنها لم تستعْنِ بدنيا وهي تجيبها:

- أوافقك الرأي، إنها فرا شة (وكل حاجة)...لكن لو فقط تكون فرا شة متكلّمة! أليس كذلك؟

لم يجبها أحد. أمسكت بمقبض الباب لأدفعه وأخرج، فقالت داليا:

- تعالي بعد أن ينتهي اجتماعكم يا ليال...سننتظرك.

- طيّب.

بادلتها الابتسام وخرجت.

ســرت في الممر الخارجي إلى أن وصــلت إلى باب غرفة الاجتماعات حيث جلس عُمَر وســوزان ينتظرانني با لداخل. لا أخفي ســرًا بأن قلبي كان يخفق بكثير من الارتباك والخوف. لكنني أظن أنها كانت واحدة من الأوقات (القليلة) التي كان مقدار الخوف بداخلي فيها – في تقديري – مقدارًا «طبيعيًا» غير مبالغ فيه وغير مُعرقل.فكان في ا ستطاعتي تحمّله وتحمَل الرجفة الطفيفة في يديّ وقدميّ التي كانت قد ألمَّت بي. كان طيف جناحي السنونو يحاوطني فأقول: «لن أغادر هذا المكان البائس اليوم إلا وأنا مثلي مثل السنونو».

بدخولي إلى الغرفة، تبادلنا جميعًا ابتسامات زائفة، مُشبّعة بخلط مشاعريّ من الزيف مع الفضــول مع اللامبالاة مع الetiquette وذوقيّات العمل الذي عادة ما يفتقر إلى النزعة الإنسانية الحقيقية. إنه هذا المذاق من الابتسامات الذي أكرهه! ففي الواقع، لا يحرّك هذه الابتسامات إلا الحسابات المادية البحتة في نهاية كل الأمور.

- كيف حالك يا ليال؟

سألتني سوزان وهي تضع جهاز اللاب توب الخاص بها على الطاولة الكبيرة المستطيلة التي جلس ثلاثتنا حولها. كانت في الأغلب تعمل على إنجاز تقرير هام أخذت تتحدّث عنه وتشــكو أمره إلى عُمَر وبقية المجموعة منذ الأســبوع الذي سـبق ذلك اليوم. كانت منهكة جدًا وظهرت على وجهها بو ضوح كل علامات الـ سهر والتوتّر. شعرتُ من النظرات التي كانت تختلسها لشاشة اللاب توب بين الثانية والأخرى أثناء حديثنا،

أن تفكيرها كان في الحقيقة مزروعًا في أمر هذا التقرير دون سواه من أمور – بما في ذلك الأمر الذي جئت لأخبرهم به. وأشعرني تسرّعها في توجيه سؤالها الصريح الموجزإليّ بنيّتها أن تُنهي هذا الاجتماع بأسرع وقت ممكن لتعود إلى عملها (الأكثر أهميّة).

مما دفعني أنا أيضًا لأنطلق إلى صلب الموضوع دون مقدّمات فأخلّصها وأخلّصني من هذا العبء الكبير على كلينا. آه! وعلى عُمَر كذلك الذي أخذ يُشعل سيجارته وينفخ دخانها في الهواء وهو يقلّب في صفحات هاتفه المحمول منتظرًا أن تبدأ إحدانا – سوزان أو أنا – في الكلام. لكن سوزان التي أرادت إنهاء الاجتماع بسرعة بدأت:

- أردتِ أن تتحدّثي إلينا في أمر ما. تفضّلي. نحن نسمعك...

- في الواقع، أنا أعلم أننا اتفقنا على أن نجتمع في الثلاثين من أكتوبر. لكني أظن أنني قد حسمت أمري فلا داعي للانتظار. إنني أرى...أنه من الأفضل لو...أترككم من الآن وأترك وظيفتي بالشركة. ربما كنتما على صواب.

- ألا تودّين البقاء إلى الموعد المحدّد حتى؟ أسبوع إضافي واحد لن يضرّك...بل قد...يفيدك.

- لن يضر لكنه بالتأكيد لن يفيد إذ أنني أصبحت أعرف تمامًا ماذا أريد. لا معنى لبقائي أسبوعًا إضافيا.

- إن كان هذا قرارك فنحن نحترمه. ونحن حقًا سعدنا بهذا الوقت القصير الذي قضيته معنا كجزء من فريقنا هنا. أنت إنسانة خلوقة والجميع يحبك. نتمنّى لكِ كل التوفيق.

كان عُمَر يستمع دون تدخّل. أظن أنه لم يعد هناك ما يمكن أن يضيفه في ظل حديثي مع سوزان الواضح المقاصد. لكنه ما إن أوشك الاجتماع أن ينفض على هذا النحو السريع حتى أضاف قائلًا (وكانت سوزان في تلك اللحظة قد استدارت وعادت فورًا إلى استئناف عملها مُرجعةً عينيها إلى شاشة جهاز اللاب توب أمامها، فأخذ صوت ضرباتها على لوح مفاتيحه تشكّل لحنًا سيرياليًا مصاحبًا لكلام عُمَر):

- إن كان الأمر كذلك، فأظن أنه من الجدير أن تُرسلي إلينا رسالة إلكترونية رسميّة بهذا القرار مُعلمة به قسم الموارد البشرية. ثم تذهبي إليهم شخصيًا في الطابق الثالث لتسوية الأمر معهم وإنهاء كل الأوراق والإجراءات اللازمة قبل مغادرتك.

- طيّب، سأفعل حالًا. إلى اللقاء.

- بالتوفيق يا ليال. إلى اللقاء.

انطلقتُ من الغرفة بسعادة عارمة. سمعت سوزان تقول وأنا أغلق الباب من ورائي:

- عُمَر...لو أرفق بالتقرير إحصاءات العام الماضي، أيكون هذا أفضل في رأيك؟

- آه! لِمَ لا؟ فكرة جيّدة...أظن أن......

أخذ صوتهما يختفي من خلفي شيئًا فشيئًا حتى إذا وصلت إلى مكتبي لم يكن قد تبقّى منه أي أثر. لا أدري لماذا ابتسمت ابتسامة عريضة ممتدّة للصوت وهو يتلاشى. ربما كانت لذّة الانتصار. مَن انتصر على مَن؟ لا أدري. ربما...انتصرتُ أنا للسنونو في صدري. «سأترككم مع تقاريركم وإحصاءاتكم الغبيّة وأرحل أنا والسنونو».

أرسلت الرسالة الإلكترونية المعيّنة وسويّت أموري مع قسم الموارد البشرية كما طلب منّي عُمَر. لحسن الحظ أن الإجراءات لم تستغرق وقتًا طويلًا لأنني كنت لا زلت في مرحلة الفحص والتجريب (الشهور الثلاث الأولى في الوظيفة). لم أكن عيّنت بعد رسميًا في الشركة.

وما إن انتهت الإجراءات ولم يبقَ إلا أن أودّع الجميع وأرحل، حتى بدأت الحيرة الأبدية: أودّعهم أم أرحل في صمت؟ هنا، ظهر سيادة المحقّق كعادته في أبهى صوره بمعطفه الأسود الأنيق الطويل، وقبّعته البنيّة الدائرية، وغليونه، ونظّارته الشمسية. تقدّم ببطء حذر نحو مكتبي ثم جلس أعلاه ينظر حوله وينظر إليّ. ثم اقترب منّي وهمس في أذني: «ماذا لو لم يهتمّوا بالأمر؟ ماذا لو سألوا عن السبب؟ ماذا لو كان الجميع على علم بتوتّر الأوضاع بينك وبين مديريك وربما سخروا منك فيما بينهم؟ وماذا لو...كانت سارة تعلم بهذا كله؟ ماذا لو دخلت فعلًا لتوديعهم ولم ينتبهوا لقدومك ولا لصوتك وأنت تناديهم؟».

أظن أن تخوّفات سيادة المحقّق كلها في محلّها. سأرحل في صمت ولن أودّع أحدًا.

في العصر، حملت أغراضي ورحلت. لم أودّع إلا آدم الذي التقيت به صدفةً عند الباب، حاملًا صينيته وفنجان قهوة وثلاث أو أربع (ماجّات) بها كابتشينو أو نسكافيه أو القهوة الأمريكية، يتوسّطهم كلهم كوب ماء طويل شفّاف. كان متّجهًا بالصينية إلى (الداخل) الذي أصبح الآن ورائي.

- مع السلامة يا آدم.

- مع السلام يا أستاذة.

قالها بلكنته السودانية المميّزة.

لم يفهم آدم معنى سلامي وتوابعه هذه المرّة بالذات. ظنّه سلامًا عاديًا كسلامي له كل يوم وأنا أحيّيه أو أودّعه عند نهاية اليوم. لم تفِ تحيّتي المكرّرة المقتضبة هذه بكل ما أكننته له في ضميري،

إذ حقيقةً أردت أن أخبره وأنا أنظر إلى عينيه المتعبين السوداوين: مع السلامة يا صاحب الوجه الطيّب. سأشتاق إليك كثيرًا أنتَ يا الروح النقيّة المغتربة في القاهرة المزدحمة. أحبك يا صاحب الابتسامة الخجلى والبشرة السمراء الأصيلة واليدين الهالكتين صيفًا وشتاءً من جراء الدعك في أكوابنا وأطباق ولائمنا الثمينة. الوداع يا صاحب القميص الأبيض والسروال الأسود البالي والقماشة الصفراء الصغيرة المكسوّة بأتربة مكاتبنا المُمِلّة.

وأنا أودّع آدم، كنت أسمع صوت داليا و سارةفي الكافتيريا القريبة من باب المكتب. لم ألتفت. مضيت بسرعة إلى المصعد حتى نزلت حيث أفراد الأمن عند مدخل المبنى. حيّيتهم وخرجت إلى الشارع. لم ألتفت إلى المبنى بعد أن أصبح يخلفني كحال من يترك وراءه شيئًا عزيزًا سيشتاق إليه فيروح يلقي عليه نظرة بين اللحظة والأخرى ليُشبع روحه من صورته. «آخر نظرة». هذا وأن المكان لم يكن عزيزًا على قلبي فلم يكن لـ«آخر نظرة» معنى. كان قلعةً مخيفة مظلمة لها حرّاس غريبون وكهنة غلاظ. فهل تزيدني «آخر نظرة» إلا بؤسًا؟

حين سـرت بحذاء الشـارع الداخلي يمينًا نظرت إليه بضـيق خانق. تذكّرت ذلك اليوم قبلها بثلاثة أسـابيع تقريبًا حين انحدرت إليه وأخذت أنتحب كالمصـعوقة. نَفَذَتْ من ر صيف الشارع إلى قلبي تأوّهات مُثقلة بمشاعر الوحدة والهلع والحزن، فكان نسيم هواء العصـر الذي سـار من الشـارع تجاهي خناجر وسـكاكين تقذفها أيادي الذاكرة صـوبي. تسارعت دقّات قلبي من جديد.

لكنني حوّلت نظري عنه وأمسـكت دموعي بإحكام. بعدها اسـتقللت سـيارة أجرة لتأخذني إلى البيت. في الطريق أخذت أفكّر فيما قاله والداي في الليلة السـابقة لهذا اليوم حين أبلغتهما بقراري أن أترك الوظيفة:

- يا ليال هذا هروب!

- ليس هروبًا يا بابا. أنا تعيسة في هذا المكان.

- فليكن...انتظري قليلًا. تعلّمي. قاومي. اثبتي لهم أنك لست كما يظنّون.

- لا أريد.

علمت ماما أنه لا طائل من إقناعي فلم تتدخّل. لكنها مع هذا بقيت متجهّمة الوجه لا تُخفي رفضها القاطع لقراري. ظلّت شاردة العينين، عابسة الحاجبين، تدب بإظفر سبّابتها على طاولة غرفة المعيشـة التي مالت عليها بجذعها ورأسـها، وأسـندت خدّها إلى يدها الأخرى.

أما بابا، فحاول وحاول. لكنه لم يفلح.

- تتحمّلين العواقب إذن؟

- أتحمّل.

في طريق عودتي إلى البيت كنت سعيدة جدًا. لكنه ينبغي أن أقول بكل صدق أنها لم تكن إلا سعادة ظبية أفلتت من نمر مفترس بعد ملاحقة طويلة، فبدأت تستعيد التقاط أنفاسها عندما آوت أخيرًا إلى شجرة بعيدة تمسّكت بجذعها القوي مختبئة وراءه.

في سـعادة الظبية المفلتة ترقّب لما قد يصـيبها بعد. في سـعادتها خوف وغرق في احتمالات لا تنتهي. احتمال مفاجأة جديدة غير سـارّة تقلب معادلة المنتصـر والمهزوم، واحتمال الزج في صراع آخر جديد في وقت ما لن تعلمه إلا حين يأتيها بغتةً من دون إنذار، واحتمال اسـتحالة العودة إلى حالتها الطبيعية كما كانت بعد كل ما عانته من هلع وضـيق تنفّس وانتظار الموت الأكيد في أي لحظة.

إنها سعادة المُفلت من الموت لا سعادة مُدرك الحياة. وشتّان.

أنال السنونو حريّته، أم ترك قفصًا ليسكن آخر؟

وليكن! سأبدأ فورًا في البدء في المشروع الذي شغلني كثيرًا لا سيما في معظم أوقات العمل. وليكن هذا الشرود وهذا الخيال هروبًا ينتقص منّي. لكنه بلا شك كان السبب الأوحد الذي جعل بقائي في هذا المكان أمرًا محتملًا ومستطاعًا. إنه الخيال الذي يستبدل الصور بالصور، والواقع بالواقع، فيخفّف من وطأة ما لا تحتمله الأرواح من أمور تُفرَض عليها فرضًا وتملكها.

سأعود إلى المنزل، أنصب حامل اللوحات وكانفس أبيض، والألوان والفراشي، وأبدأ في أول لوحة من سلسلة لوحات أول معرض لي: «وجه الحرب».

ليس بمقدوري الآن استشراف مستقبلي ولا التنبّؤ بما تحمله الأيام القادمة، لا من احتمال الزج في غابات جديدة، أو الاستدراج إلى ملاحقات أخرى مع نمور أو ضباع آخرين، أو التخبّط صدفة في «دنيا» جديدة تُفسد الأوقات ولا تُطيّبها. لكنني سأنعزل تمامًا. وربما هذا الفتور الذي أصاب علاقتي بسارة يصب في مصلحتي الآن فلا يشغلني عن عزلتي والعمل على المعرض شيءٌ.

سأستأنس بالوجوه الضالة المذعورة، والأعين الشاردة الحزينة المنكسرة، والمخيّمات الفقيرة، وصور الملابس والأكل القليلة. سأستأنس بحزنهم وضعفهم ووحدتهم. وأستأنس بخوفهم.

وقفت سيارة الأجرة أمام بوّابة المنزل. دفعت للسائق أجرته المحدّدة ونزلت. دفعت بوابة المبنى الحديدية فاختلط مع صوت الحديد المدفوع صوت رنين رسالة نصيّة وصلتني في نفس اللحظة. وقفت في مدخل العمارة الواسع، أخرجت هاتفي المحمول من الحقيبة، وفتحت الرسالة:

«لم أكن أتصوّر أن يصل بكِ الأمرإلى حد ترك العمل دون إخباري أو توديعي حتى...بكل بساطة. حتى أنني علمت بالأمر (مثل الغرباء) من سوزان وعُمَر الآن. لا أجد ما أقوله. افعلي ما يحلو لكِ يا ليال. أنتِ حرّة. إنما أنا، فلا أكذبك القول...أنا سئمت هذا الوضع كثيرًا».

فانفلتت الدموع التي أخذت ألجمها منذ بداية اليوم.

23..عَلَىْ أَهْلِهَا جَنَتْ بَرَاقِشُ

«أريد أن أعيد الأشــياء إلى عفويّتها كما لو أن العالم قد خرج توًّا من بيضــته الكونية الأولى...أريد أن أعيد الأشـياء إلى عفويّتها كما لو أن العالم قد خرج توًّأ من بيضــته الكونية الأولى....».

أخذتُ أردّد تلك الكلمات وأنا أتأمّل رواســب الأزرق والأحمر والأصــفر تهبط في زجاجة التربنتين. ذقني لا يزال مسـندًا على كفيّ الموضـوعين أعلى طاولة معدّات الرســم، وفكري شاردٌ بعض الشرود.

ثُبتُ إلى وعيي فجأة فرفعت رأســي بســرعة لأطمئن على بديعة وزائرها الجديد الذي انتظرته طويلًا. نظرتُ إلى الســرير يمينًا فإذ ببديعة وفان جوخ جالســان إلى جوار بيتهوفن وأطفال الحارة يستمعون إلى سيمفونيته الثالثة. على وجوههم تعبيرعن الراحة والسعادة. أو هكذا شعرت عندما رأيتهم معًا للوهلة الأولى. سَرَت في جسدي قشعريرة خفيفة من جراء هذا المشهد: بديعة، والرسّام، والمايسترو معًا...وأطفال الحارة. والEroica.

وغرفتي. الآن ينضـــم إلى حواري الإســكندرية وشــاطئها والبذنجان المقلي وأشــجار ألـمانيا وأوبرا بيتهوفن وموزارت وأحلام الثورة، قنواتُ أمســتردام وألوانُ ريمبرا ندت وفرمير وأر يافُ فرنســـا وليدُها وســـهراتُها ونســـاؤُ ها ورسّـــامُو ها من ال Louvre والMontmarteإلى ال Salon de Gazelle والمنزل الأصفر بآرل.

طفلٌ لا يتعدّى الـست سنوات تناديه بديعة (عَبْدُه)، يقف أمام بيتهوفن، ويمـسح بنعله الحافي على حذاء بيتهوفن الأســود اللامع. يتحسّـــســـه. وينظر إلى المايســترو بين الحين والحين ليتأكّد أنه غير مُنزعج من لعبه. لكن المايسترو لم ينزعج أبدًا. بل اتّسعت ابتسامته مع مُضــي الوقت وهو يرى عبده مُعجبًا بحذائه الأنيق. حتى أنه خلع نعليه آخر الأمر، وناولهما لعبده كي يجرّبهما بنفسه. دُهِش الصبي من مثل هذا الكرم البالغ من رجل مهيب كهذا. التمعت عيناه واتّسعتا بشدّة وهو يُسرع ليرتدي الحذاء فورًا قبل أن يغيّر الرجل رأيه.

غارت بديعة. مَنْ عبده هذا الذي جاء لينافس مكانتها عند عَمْ بيتهوفن؟! لا، لا يمكن. هي لن تقبل! تركت السرير ونهضت بسرعة نحو عبده. وقفت واستدارت إلى بيتهوفن تنظر إليه نظرة عتاب. «كده يا عَم بيتهوفن؟». أومأ لها بيتهوفن ضامًا أصابع يده مشيرًا إليها بأن تتروّى قليلًا. فبعد عبده، يأتي دور بديعة.

لكن (خضــرة) و(ســعاد) و(علي) الذين أخذوا من الركن الآخر من الغرفة مكانًا ينتشــرون فيه ليلعبوا «الاســتُغُمّاية»، جذبوا انتباهها بســرعة وشــغلوها عن عبده وحذاء المايسترو. ركضت إليهم وقرّرت الانضمام إلى اللعبة من دون إخبارهم حتى. فورًا أخذت تبحث عن مخبئٍ آمن مع خضرة و سعاد قبل أن ينتهي علي من العدّ للعَشَرَة. فحين و صل علي إلى «7»، كانت بديعة قد اختبأت بالفعل خلف المقعد البنّي. أما ســعاد، فتلحّفت الوسادتين الموضوعتين أعلى المقعد ذاته. وخضرة قفزت خلف فان جوخ وارتمت تحت معطفه الأخضر.

أما عبده، فإنه يذرع الغرفة ممسكًا بطرف جلبابه الرمادي المُتّسخ، وينظر إلى الأسفل مختالًا بخطوته المكسوّة بنعلي هذا الرجل الأنيق الجالس أمامه. يتمنّى لو أنه يحملهما إلى بيته في (المسكوبية) ويريهما لأبيه بعد أن يعود من عمله على عربة الكارو.

يا كليو...ســجّلي عندك في كتابك هذا المشــهد الجلل. وأخبري الأجيال القادمة أن الأرواح التي باعدت الأزمنةُ بينها تلتقي حتمًا في النهاية. وأن الأماكن حين تخترق حاجز الزمان وحواجز الجغرافيا، تضيف صورًا إلى صورها، وأسماءً إلى أسمائها، وتصبح بعد أن كانت حديقة خشخاش حمراء، جنّات من حدائق خشخاش حمراء وصفراء وقرمزي، وداليا، وعبّاد شــمس، وزنبق، وقرنفل، وياســمين، وعصــافير جنّة، وورد بلدي. جنان...امضِ واسبح وتأمّل..

أعود إلى صورة بديعة. واللوحة.

أسافر بعينيّ من عينيها إلى أنفها المستور أسفلهما، حتى أصل إلى فمها أخيرًا، فأرسو.

وكمعظم ملامح بديعة في الصورة، فَمُها أيضا يبدو مُبهمَ التفاصيل. شفتاها ليستا محجوبتين تمامًا كالأنف، لكنهما تخفيان بعض التفاصيل وتُظهران بعضًا. يبدو لي أن لبديعة شفة علوية رقيقة جدا، و شفة سفلية أكثر امتلاءً قليلًا إذا ما قورنت بنظيرتها. أما عن الابتسامة، فهي ابتسامة خفيفة تفرج عن بعض ثناياها الأمامية لكنها مع هذا ليست بتلك الابتسامة العريضة الصريحة التي نراها على وجوه الأطفال في الإعلانات، أو على صفحات المجلّات. وهي (أقصد ابتسامتها) – إذا ما شوهدت في سياق نظرة العينين – تصبح أكثر تعقيدًا من حيث المعنى والانطباع الذي تضفيه.

كنت قد ذكرت وأنا أتأمّل عينيها كيف أن بهما عبوسًا طفيفًا يعطي الابتسامة طابع حزن أو تعب أو اضطرار خَجِل. والآن يتأكّد لديّ هذا الإحساس وأنا أنظر إلى فمها وحركة العضلات المحيطة بالشفتين. فالعضلات حول فم بديعة تبدو مُشنَّجَة بعض الشيء. فلا هي مشدودة ومسحوبة على اتساعها، ولا هي ساكنة في وضع ال «resting face» حيث التعبير الحيادي التام، إنما هي بين بين؛ مشدودة بعض الشد المُقَنّن. في حالة انتباه حائر: «أبتسم أو لا أبتسم؟ أقول أو لا أقول؟».

كنت أتمنى لو أن بإمكاني ر سم تلك الابتسامة العريضة، بل والضحكات المجلجلة التي أصدرتها بديعة من أثر مداعبة فان جوخ لها. شتّان بين تلك الضحكة النافذة من الأفق الليلكي، وهذه الابتســامة التي أراها أمامي الآن في الصــورة العتيقة على جهاز الآي باد. لكنني أمام تلك الصـورة. تلك هي الحالة التي يجدر بي نقلها بصـدق خالص دون تزييف أو تدخّل. حسنًا،حسنًا، لكن...ما الحالة؟! إنني لا أ ستطيع التحقّق من طبيعة الحالة. إنها ابتســامة غاية في التعقيد. ولا يمكن أن أضــرب بفرشــاتي عبثًا هكذا حتى أفهم أولًا. أو بالأحرى، حتى «أشعر»، وحتى يسلك انطباعٌ ما طريقًا مستقيمًا لا منحدرًا إلى نفسي.

أظن أنني لن أشــعر بمعنى الابتســامة هذه وأنا أنظر إلى وجه بديعة فقط. ربما عليّ أن أدرس الســياق الذي جاءت في أثره الابتســامة. أمســك بالآي باد وأقوم بتصــغير حجم الصورة وإعادتها إلى حجمها الطبيعي فأراها كاملة. أرى إلى جانب بديعة عن الجهة اليسرى أمّها ريّا جالسة على مقعد إلى جوار ابنتها الواقفة.

التضاد...إنه التضاد مجدّدًا. با ستحضار السياق الكامل تضوي الأضدادُ التي تُنيرُ لنا الطريق المعتم نحو قلب المعنى.(«تضــاد يضــوي لينير لنا طريقًا نحو قلب المعنى ويوضّحه»...هكذا يجدر بنا دراسة البلاغة والصور الجمالية في المدارس).

بالنظر إلى الصــورة الكاملة لبديعة إلى جانب ريا، لا يزال المعنى مفقودًا، لكن الانطباع أكيد. والانطباع معنى في حد ذاته. وفي أحيان كثيرة، يكون الانطباع أصــدق بكثير لأنك لا تعافر أو تقاتل لتأتي به، إنما يأتيك هو ويحط عليك بيُسرٍ فيه لا فيك.

يا الله على هذا المشهد أمامي الآن! يا الله على هذا الألم المُزَخرف!

بمقارنة ابتسامة بديعة بأطفال المجلّات والإعلانات، تصبح ابتسامتها جامدة، غامضة، حزينة. أما بمقارنة ابتـسامتها بابتـسامة أمّها، تـصبح بديعة طفلةً على غلاف مجلّة! هذا لأن ريّا لا تُظهر في الصــورة أي ابتســامة؛ لا من قريب ولا من بعيد. بل أنها لا تُظهر أي مشــاعر أبدًا. عيناها غائرتان وعظمة حاجبيها بارزة جدا. تفاصــيل العين مُبهمة لكنك مع هذا لا يمكن أن تُخطئ النظرة التي تقفز منهما قفزًا حيًّا. إنها نظرة قمّة في البرود. قمّة في «اللا شيء». نظرة ميّتة تمامًا...ساكنة. نظرة لا تشعر بشيء. ولا تنظر إلى شيء. ولا تتمنّى شيء. ولا تخاف شيء. و شفتان ساكنتان على «اللا شيء» كما النظرة. في الخط الفا صل بينهما مَيْلٌ طفيف يكاد لا يُرى. كأنّها (حاولت) أن تبتســم ولم تتمكّن. العضــلات حول فمها مرخيّة كل الارتخاء، فهي أصلًا في حالة سكون.

وتجعيدتا الابتسام الواضحتان في وجه بديعة والتي سبق أن أشرتُ إليهما بالفرشاة، ليس لهما وجود على الإطلاق في وجه أمّها. وجنتاها بارزتان والخدّان أسفلهما مسحوبان طويلًا إلى الأسفل في شحوب ليس له مثيل في عالم الوجوه الشاحبة. حتى العبس الطفيف في وجه بديعة لم ينتقل إلى وجه ريّا، لا ولم ينتقل (منه) كذلك. فأمّها لا تعبس ولا تبتسم. أمّها ميّتة تمامًا.

إن الفرق بين حركة فم بديعة وحركة فم أمّها في سياق الوجهين المتجانبين، هو الفرق بين الليل والنهار. الظل والنور. الموت والحياة. قمّة الأمل وذروة اليأس. هو الفرق بين جمال الباثيتيك، وقُبح الوجوه التي سخرت من صاحب الباثيتيك؛ وأصفر عبّادات شمس فان جوخ، وأسود الغربان القاتم؛ ووجه دنيا الوقح الذي لا يستحي ولا يشبع، ووجه آدم الطيّب.

الآن ينفذ الانطباع إلى قلبي وأرى ما كان ينبغي أن أراه من البداية. هذا تضادٌ آخر أبرز المعنى وأوضحه.

أُمسك بفرشاة جديدة أشبه بتلك التي لوّنت بها العينين، غير أن هذه ليست منمنمة إلى هذا الحد الكبير كتلك. حجمها أكبر بقليل. شعيراتها «tapered»، أي مُدَبّبة؛ تبدأ كثيفة عند القاعدة الممسكة بالعصا الخشبية

ثم تصـغر تدريجيًا وتَخِفّ إلى طرفٍ دقيق. أضـرب بها ضـربات قصـيرة توحي بانطباع حركة الفم المبتسم مع الحفاظ على ضـبابيّة التفاصـيل. الشـفّة العلوية المُبتسـمة أرفع وأدكن. أشير إليها بخليط لحميّ أضيف إليه لمسة بني وأخضر داكنين. أما الشفّة السفليّة فأعبّر عنها بضـربات من ذات الخليط اللوني اللحمي إنما دون مسـحتي البنّي والأخضـر، فهي أغلظ وأفتح.

تمّ الفم ولم يتم. تمّ لأنني قمت بنقل كل ما أراه. ولم يتم لأن ما أراه قليلٌ. لا يمكن حصر المعنى المُنطوى بين أنسجة الشفتين في تلك الضربات القصيرة القليلة مهما كثرت.

فم بديعة...إنه هذا الفم الذي ساق أهله ببراءة إلى حبال المشنقة. هكذا، ببساطة فائقة. دون أن يدرك أو يعي أنه فعل. إنه هذا الفم الذي باح بكل تفا صيل جرائم أ شهر سفاحتين في م صر! لولاه لما تأكّدت (أم نظلة) أن (نظلة) لن تعود أبدًا . ولا علمت (باتعة) الـ شهيرة ب «أم إبراهيم»، أين اختفت أمها (زنّوبة). ولا أخذت (عديلة الكحكية) بتار صـديقتها الحميمة (أنيسة).

لولا هذا الفم لما نامت طرقات الإسكندرية – أخيرًا – مرتاحة البال بعد أن زال ذُعر الأنباء المتتالية عن النسوة المختفين دون أثر. ولا علم أبناء الأزقّة الضعفاء المستسلمون أن التغلّب على الخوف من البلطجة المستشرية، والتصدّي لاستبداد الفتوّتين عرابي وعبد الرازق، أمرٌ سهل كل هذه السهولة إذا ما هم اتحدّوا وثبتوا وواجهوا الغول العابث في ديارهم.

أما بديعة، ففعلت كل ما لم يجرؤ كبار رجال الحارة على فعله وهي أصغرهم سنًّا، وأقربهم لأعمدة العصابة، وأدراهم بتوحّش قلوبهم، وأشدّهم رُعبًا من التهديدات التي كانت تنصبّ عليها كل يوم(لا أستطيع تصوّر كم التهديدات والوعيد الذي لاقته في اليوم الواحد!). لكنها فعلت هذا ببراءة جعلت الأمر يبدو هيّنًا بسيطًا أمام الأهالي المذعورين المختبئين في جحورهم.

ومع هذا فإن الأمر لم يكن بكل هذه البساطة البادية على الرُغم من براءة المسلك الذي أخذته بديعة وهي تروي وقائع ما حدث. فهي تُفصح تارّة، وتتراجع تارّة. تقول أنها كانت تنوي السفر إلى خالها، ثم تُرجع السبب إلى المنام ذي «الحاجة السودا الكبيرة» التي أتتها في حلمها وأرعبتها.

لكنها في النهاية، بالرغم من خوفها من أهلها وخوفها على أهلها، قالت...و«على أهلها جنت براقش».

لا أظن (وأعتقد أن كليو توافقني الرأي) أن بديعة كانت لتُدلي بكل هذه الاعترافات لولا أن المحقّق كان قد أسبق حديثه معها بكثير من العاطفة. وحين أُغمضُ عينيّ وأتخيّل المشهد وأحاول استحضاره، لا أجده قد فعل هذا اضطرارًا أو رياءً يقصد به الإسراع في فك لغز القضية المعقّدة. إنما أرى رجلًا صادقًا تحرّكت عواطفه أمام تلك الطفلة الصغيرة وشعر بأبوّة ما تجاهها جعلته يُشفق عليها ويشرع في الشد على كفيّها وحمايتها من الوحوش.

أحاول أن أتخيّل حياتها على مدار عام كامل كرسّه أهلها لقتل النسوة ذوات الحُلي واتّخذوا من تشييد مقابرهن وظيفةً حقيقية. كيف كانت تمضي يومها؟ حكت لنا عن لياليها التي كانت تتبوّل فيها على نفسها من شدّة الذُعر في الساعات المُظلمة. ماذا عن النهار؟ أين في هذا القَدّ الدقيق أخبأت كل هذه الأسرار؟ وكيف استطاعت أن تحمل هذا العبء وحدها وتمضي به دون أن تتقاسمه مع أحد؟ يبدو أن للملائكة الصغار جهازًا عصبيًّا ذو بأس شديد! فلا هي دلّت أحد أطفال أو أهالي الحارة عن (الأمور) التي كانت تجري في منزلها، ولا هي شاركت أهلها الجرائم لا بحضور جلساتهم وولائهم، ولا بتقسام الغلّة بعد زهق الأرواح.

بل نأت بعيدًا بعيدًا عنهم...شَـرَدَت. أراها تلعب مع الأطفال. تركض إلى صـندوق الدنيا. تشـاهد هذا الشـيء الغريب ذا الطقوس الغريبة الذي يقولون عنه «الزار». تجالس عائشة مقطورة سكينة على الرصيف المقابل لدكّان أبو أحمد النُص. تمد يُمناها وتتسوّل إلى المارة مرّة أو عدّة مرّات؛ بقدر حاجة اليوم. يعطيها أحدهم قرشًـا. يعطيها آخر «ملّينًا». فتشتري عسليّة حلوة أو بيضتين أو شطيرة بولوبيف «من بتوع الخواجات».

لا بد أن بديعة خلقت لنفسها عالمًا موازيًا يسير إلى جانب عالم أهلها ولا يلتقي معه عند أي من مفارقه أو منحنياته. تمضـي في الصـباح ولا تعود حتى تغيب الشـمس ويجن الليل فيُرجعها ظلام الطرقات إلى بيوت الهلاك؛ انعزالٌ كامل عن الواقع. رفضٌ تام لكل المعطيات التي قد تفتك بها فتكًا إن هي سلّمت روحها لها.

عجيب كيف أن الحالة التي عاشـت في ظلّها بديعة من عُزلة وانفصـال تام عن الواقع المؤلم في الإسكندرية، تُشبه تمامًا حالة شفتيها وابتسامتها في الصورة. فلا تفاصيلها واضحة كل الوضـوح، ولا هي ضـبابية تمامًا. إنها حالة من التردّد الواضـح؛ «أقول أو لا أقول؟»...«أبتسم أو لا أبتسم؟».

حين يمضي الزمان ويأكلُ الدهرُ من تفا صيل الأ شياء، فإنه لا يفعل ذلك عبثًا أو بنمط عشوائي. لكن يفعله على نهج عين المعاني منطلقًا من جوهر الأشياء، فيترك الأوضاعَ الباليةَ باليةٌ على نحوٍ يرشـــدنا إلى حالته الحقيقية التي كان عليها في زمانه ومكانه البعيدين. إن الزمان قد عبث بتفاصيل ابتسامة بديعة ليؤكّد على معنى «التردّد» الكامن في تلك الابتسامة. عجيب!

الآن أقول تمّ الفم إذ تمّ المعنى بنقصان بعض التفاصيل عنه.

تعلو الEroica...ألتفت لها. رفقاء الغرفة الثلاث في رحابها. بيتهوفن غارقًا في ألحانه. وفان جوخ جالسًا على الأرض محتضنًا بديعة التي تجلس بين رجليه بعد أن فارقها أطفال الحارة عائدين إلى بيوتهم وأهلهم، يتحسّـــس شـــعرها ويُحكم ربطة منديلها من الخلف. يتأمل المنديل الأحمر المهترئ، ويســتكشــف كراته الملوّنه المنســدلة منه. يختصُّ من الكراتِ أصـفرَها. تســند بديعة يديها إلى ركبتيه من تحتها وتنظر باتجاه بيتهوفن منفعلة هي الأخرى بالألحان ذات المذاق الخاص الذي لم تســمع شــيئًا يشــبههما من قبل. تدب بقدميها: اليمنى فاليسرى فاليمنى فاليسرى. وحين يعلو اللحن، تصفّق له بحرارة فيبتسم فان جوخ ويجاريها بالتصـفيق. وحين يهدأ اللحن، تُرجع كوعيها إلى ركبتيه ويعود هو يلاعب منديلها الأحمر.

ليس في المشهد أمامي أي شعور بأي عُزلة. أو انفصال. أو انفكاك. بل إني أرى فيه قمّة من التلاحم والتناغم والانسـجام. تضـافر مشـاعر ولّده – ربما – تضـافر الأحزان والمخاوف.

ما هذا؟ إنها تضحك...تضحك بشدّة! وفان جوخ وبيتهوفن يضحكان لضحكها. الآن فقط لاحَظَت بديعة اللون الأزرق الذي انطبع على كفيّها من وضـعهما المتكرّر على ركبتي فان جوخ وسرواله الأزرق. تتوقّف عن الضحك وتحدّق بعينيها فتلمعان. يبدو أن فكرة ما باغتتها. نعم، فها هي تنهض وتركض إلى بيتهوفن وآلاته، ثم تتوقّف عند كل آلة وتمسـح بإحدى كفيّها فينطبع كفّها الأزرق عليها. إنها تبصـم بأصـابعها العشـر على الكمنجات والبيانو...وتمسـح على الfluteوالdrums، والcontrabas، والchello، وأخيرًا، على عصا بيتهوفن، فيحملها ويشكرها على طريقته مُمسكًا بالعصا التي لوّنتها، وينحني تحيّةً لها.

مِنْ أين تأتي إذن الحاجة المُلِحّة للعُزلة، والقلبُ منفطرٌ على هذا التوق للتلاحم والانسجام؟

24 ..أَيَّامُ مَا بَعْدَ الطَّيَرَانِ

لم تكن الأيام التي تلت تركي للوظيفة بالشـركة، وشـروعي للبدء في العمل على معرض الفن التشكيلي إلا شرودًا تامًا أخذ شكل العكوف حينًا، وشكل السجن حينًا آخر. أستمتع بلحظات التجلّي مع الوجوه والألوان في أوقات العكوف. ثم أعي أن الغرفة ليست سوى سجن كبير أزج بنفسي فيه عمدًا، فأكاد أفقد صوابي من شدة الاكتئاب والذعر.

أتأمل وجه طفل زنجي أرسمه. أخلط مزيجًا من البنيّات والأخضر والبرتقالي. أغوص في عينيه. أسأل وأجيب وأتخيّل وأسافر. أخرج تدريجيًا من جسد «ليال» إلى جسد الطفل الزنجي. تأخذ بشرتي الحنطية لونًا أكثر دُكنةً، ويسري ذهول عينيه إلى عينيّ، وفي لحظة غير مسبوقة تبدأ شفتاي في التمدّد حتى تصبحان غليظتين ممتلئتين كشفتيه. أصبحُ هذا الطفل في أجواء سيريالية خيالية روحانية شـديدة؛ هكذا يكون شـرودي «عكوفًا». ثم يرن هاتفي المحمول. أحدهم يتصــل. يعود إدراكي إلى العالم المادي المحيط بي، وتعود روحي من جسد الزنجي الصغير إلى جسدي. أعود «ليال» مجدّدًا. أعود الفتاة التي ترهب التواصل مع الناس. تعود أوجاعها ويعود إيقاع قلبها المجنون، فأنزعج بســرعة. لا أجيب. أحمل صرر الخوف والألم والكرب، وأعود بهم لمواصلة الرسم؛ هكذا يكون شرودي «سجنًا».

مرّت الأيام على هذا النحو المتطابق المُمِل. وأنا أتشبّث بتطابقه المُمِل تشبّثًا عجيبًا غير مفهوم(في التطابق المُمِل راحةٌ ما، أليس كذلك؟).وكانت نظرات والداي في حينها نظرات تجمع بين الحب والشفقة والقلق. و شيء من حزن عميق. والشمس التي لم تكن صديقة ماما بالأمس، أصبحت اليوم صديقة عزيزة على قلبها. فها هي ماما التي لم تكن تشرع نوافذ وستائر البيت كل صباح أبدًا، تشرعهم الآن فيدخل النور إلى بيتنا وتزورنا الشمس في زيارة انتظرتُها لزمن طويل.

لكن...فات الأوان. وشاخت الشمس.

انتظرتها مليًّا فلما طال الأَمَدُ قسا القلبُ، وأَلِفَ الظلام. اليوم أنا من لا يُزعجها الظلام. اليوم أنا من لا تشرع النوافذ والستائر. اليوم أنا من ترهب الشمسَ التي كنت أتوق إليها في طفولتي. اليوم أنا من يزعجها النور. اليوم أنا من تغيب عنها كل أشــكال التصــالح مع الحياة. اليوم أنا كل شيء كرهته في ماما.

ا ستبدلتُ نهاري بليلي، فجعلت من الصباح وقتًا أ سكن فيه وأنام متحا شيةً كل أ شكال الاحتكاك مع (الناس)، ومتحاشيةً أصوات رنين الهواتف، وأصوات السيارات والازدحام في الشوارع، وأصوات الجيران والعصافير. وجعلت من الليلِ وقتَ صحوي ونشاطي بينما كل الكائنات الأخرى نيام؛ يصحو الكون فأنام، وينام الكون فأصحو.

أما عن جودة النوم، فلبث نومي على نمطٍ مضـطرب غالبًا، تشـوبه الكثير من الكوابيس الطويلة التي تأخذ عن الواقع فتختلط به. وازداد تردّد القطط على معظم تلك الكوابيس، لا أدري لماذا. قطط مختلفة الأشـكال والأحجام والألوان تأتيني في أحلامي بشـكل يومي تقريبًا. لا يجمع بينها سـوى كونها قططًا قبيحة، مجربّة، متّسـخة، هزيلة، غالبًا مريضـة، وتخيفني وأُشفقُ عليها في آن واحد:أرى قطّة بيضاء كبيرة يظهر عليها جربٌ منفّر، ونظرتها ذابلةٌ ميّتة تنظر إليّ بازدراء. أنظر إليها بتودّد وشفقة قبل أن أحاول الاقتراب منها لأربت على رأسـها وألاعبها. فما إن أقترب حتى تزوم في وجهي وتُصـدِر صـوتًا عاليًا مرعبًا يدفعني للابتعاد عنها. وأرى قطّة أخرى صغيرة جسدها مكسو بألوان قوس قزح الناصعة، لكنها – كالتي سـبقتها – يبدو عليها الجرب والمرض والنظرة الفاترة. تمضـي ببطء أمامي. ثم تركض نحوي لتنال منّي فأركض بعيدًا بينما أصـيح لأحدهم: «دعها. لا تؤذِها! هي لا تقصد إيذائي. هي لا تعلم الحقيقة».

لا أفهم معنى تردّد القطط عليّ أثناء نومي بهذا الشـكل المزعج المبالغ فيه. لكن المرء يقف أمام الكوابيس كوقوفه أمام الخوف: مُكبّلَ الأيدي، تائهًا، مُهانًا. وعالم الكوابيس يُشبه كثيرًا في الحقيقة عالم الخوف كذلك إذ أنه عالمٌ معقّدٌ غريب!

يغلب عليه أمور خفيّة لا محســوســة، وتضــطرب فيه الرؤية، وتختلط فيه الصــور، ويذوب فيه الخط الفاصل بين الواقع والخيال.

وإذ ترحل عنّي القطط المخيفة باســتيقاظي، أصــحو لأبدأ يومي ليلًا برأس جدّ ثقيل، وجســد مُرهَق من (الركض) و(الصــراخ) في الحلم. ثم أمضــي إلى الألوان والكانفس وأستأنف وجهًا كنت قد بدأت في رسمه. أمزج الألوان، وتذهب روحي من جسد «ليال» إلى أجساد أخرى: فتارةً أُصبح الطفل الزنجي، وتارةً أصبح فتاةً فلسطينية، وتارةً عجوزًا سورية، وتارةً امرأة باكستانية أو أفغانية أو صومالية تربط معدتها العارية من الجوع.

وفي كل مرّة، لا يُعيدني إلى جسد «ليال» الذي خاصمته تمامًا إلا منغّصات حياتية يومية كطرق أحد والديّ باب غرفتي، أو صــوت بوق ســيّارة في شــارع منزلنا يُزعج جهازي العصــبي الحسّــاس، أو صــوت رنين مكالمة أو رســالة نصــيّة واردة إلى جهاز هاتفي المحمول. وبات يجمعني بجهاز هاتفي المحمول في تلك الأيام بالتحديد علاقةُ عداوة كبيرة تفوق عدائي له في أي وقت ســابق.وصــار كلُّ رنين لرســالة أو اتصــال وارد، جرس انتباه يسحبني إلى بُقعةٍ من المشاعر والأفكار المؤلمة التي تتصاعد شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى ذروتها عند قمّة اليأس والخوف، وتأخذ شكلًا من أشكال العَبَث والجنون والهستيريا هناك.

تزورني أطيافٌ لفكرة الانتحار محاكيةً حركة الغيوم: تَهِلُّ وتتوارى. ومن ســخريات القدر أنه غالبًا ما قد تزامن وقت هلال غيم تلك الأفكار مع وقت رنين المحمول. «فلانة تتّصل»...«رسالة من علانة». فأضحك: «يُزعجهم أنني لا أجيب رسالة أو اتصالًا..هَهْ..يا حمقى، رسائل ماذا واتصالات ماذا؟! إنني هنا، أتمنّى الموت ولا أفكّر في سواه».

كم تصبح الحياة سخيفة أحيانًا! وكم تُصبح الأضدادُ مُرَّةً أحيانًا: تؤكّد المعنى وليتها لم تؤكّده.

أكره رنين الهاتف. أكرهه جدًا جدًا. يُرعبني. يؤذيني. إنه...ليس مجرد صــوت يصــدر عن جهاز إلكتروني. إنه أكثر من هذا بكثير. إنه المنزل يحترق. نعم، يحترق! عليّ أن أركض بعيدًا وإلا أكلتني النيران. ما بالكم تريدون للنيران أن تأكلني؟ ما بالكم متواطئون مع اللهب؟

إنها مايا تتّصل. منزلي يحترق. اهربي يا ليال...

وسـارة ربما تتصـل؛ هذا منزل آخر يوشـك أن يحترق. لماذا يا سـارة؟ ماذا فعلت؟ لا أقصـد الرسـالة. أقصـد يوم أن زُرنا داليا. وأنت يا ليال. لماذا؟ لماذا تركتها تغضـب دون سؤالها عن السبب؟ أنت غبيّة يا ليال! غبيّة! لكن..

لكنها...بهذا...بما أظهرته من انفعال شـديد وضـيق منّي، قد جعلت من نفسـها أكثر الضباع شـراسـةً من حولي، فكان على الظبية أن تركض منها ضِـعْفَ ما تركضـه من سـائر الضباع.

الحق معك يا سارة...أنا...تعيسة. مُملّة. لا جدوى من صداقتي. لماذا يصادق الإنسان – أي إنسان – شخصًا أبكم، يصعب التوا صل معه كصعوبة بلوغ قمم الجبال سعيًا على القدمين؟ أفهمك يا سارة. الحق كل الحق معك. لكن...أنا لا أريد أن أكون هذا الشخص الأبكم الصعب. لكنني أيضًا لا أرى سبيلًا لأن أكون شخصًا آخر جديدًا لا أعرفه ولم أكنه يومًا. ربما كنت لأستطيع التغلّب على هذا الوضـع وتخطّيه ولو قليلًا لو أن الوجع بداخلي كان وجعًا ملموسًا له زوايا وأبعاد وملمس معيّن محسوس ولون وا ضح أو رائحة منفردة تُرشدني إلى مخبئه. لكن...هذا الألم لا يمتلك هذه الصفات كلها أو بعضها.

لو أنني لم أجبك سـوى بقولي أنني «خائفة»، فهذا لأن كلمة «خائفة» هي كل ما كان بو سعي أن أ صف به مشاعري و صفًا بسيطًا. لكنني في تلك اللحظات نفسها التي أجبتك فيها بهذا، كنت أ شعر تجاه مشاعري الحقيقية الدقيقة بكثير من الذنب. إنها لمهانة حقًا أن أصـف شـعورًا كهذا الشـعور المؤلم المرعب الغريب المجنون «بكلمة». لكنكم دائمًا تريدون «كلمة». لذا أجيبكم «بكلمة». ومع هذا، فإن «الكلمة» لا تعجبكم. أمركم أعجب من أمري.

يا سـارة، إنك لم تسـتطيعي معايشـة طباعي، هذا وأنتِ أنتِ. فما بالك وأنا أنا؟! كيف أمضـي مع تلك النفس الغبيّة التي تُطبق على أنفاسـي ليلًا نهارًا؟ وهذا المدعو «غدًا»...لا أريده. لا تأتي يا الغد! إلى هنا ينتهي كل شيء. أرجوك...لنضع آخر نقطة في آخر سطر بآخر صـفحة في هذا الكتاب البائس ونُغلقه ونرحل. أي «مسـتقبل» هذا الذي تبشّـرني به هذه الصـفحات الخالية البيضـاء القادمة؟ لا. لنغلق الكتاب ويكفى ما امتلأت به من عبث. أي زوجة وأي أُمّ باسـتطاعتي أن أكون في هذا المسـتقبل الذي تتغنّون به؟ هذا جنون! لسـت «ابنة» كما ينبغي أن يكون الأبناء، ولا «صـديقة» كما ينبغي أن يكون الأصـدقاء. فأي أُمّ وأي زوجة يمكن أن أكون؟ لسـت بشـيء أصـلًا. لا ولم أكن «طالبة» كما الطلاب، ولا «موظّفة» كالموظّفين. الأرض تلفظني لفظًا دائمًا. وسـتظل تلفظني من الآن وحتى مسـتقبلكم الكذّاب. تلفظني كالعفن المتراكم من تحتها. حتى الأرض لا تريدني. وأنا أصـلًا لم ولا أريدها. لا أريد الموت. ولا أريد الحياة.كلاهما فكرتان مرعبتان لا أفهمهما. ما معنى أن أحيا؟ وما معنى أن أموت؟

يا الله! لو فقط...فقط أستبدل – على الأقل – ألمًا آخر بهذا الألم. ألم يراه الناس. لا لأنني أريدهم أن يروه فحسـب. أو أن يشـفقوا عليّ. إنما...ربما...ليدعوني وشـأني. ليكفّوا عن تساؤلاتهم ونظراتهم المتفحّصة. أو ليراني شخصٌ طيّب القلب رقيقُ المشاعر فينتشلني من هذا البئر المُظلم.

أنا...مريضة. لا يمكن أن يكون هذا الهذيان أمرًا عاديا. لا بد أنه جنون. جنون حتمي. جنون مُرعب. نعم، إنني مريضة. وليس ما بي بالمرض العادي. إنه مرضٌ خبيث. ملعون! ومع هذا، لا ولن يراه أحد. حتى أنا لا أراه. فقط أشعر ببرودته المُذلّة المهينة، وشرود الذهن المرهق الذي يولده، ورجفته، وخفقان قلبه المنذر بالهلاك. كفى يا قلبي كفى. تركض وتركض وتركض. تدب وتدب وتدب. تئن وتئن وتنن. وترجو. ألا تسأم؟ ألا يأخذك نَصَبٌ؟ سلّطك شيطان من شياطين الإنس أو الجنّ عليّ؟ أنتَ قلبي أنا! أنا! لي وحدي. فاسمعني: اهدأ! اهدأ...ا–ه–د–أ...

وأنتِ يا عين...ألم تملّي البكاء؟ ابك أو لا تبك لن يسمعك أحد. دموعك ستجف وتتبخّر قبل أن يلحظها أحدهم ويتعقّبها.

إنه مرض...أو جنون...أو شيء آخر لا أفهمه. وهذا كله يضيف إلى الرعب رعبًا إضافيا، ويزيد من جنونه وعبثه. لو فقط أحمل هذا الألم على كفّي وأمضي. أو...أربطه منديلًا على رأسي. أو زينةً حول عنقي. أو أسوارًا لمعصمي. أو سلسالًا يتدلّى على صدري.

أو...

(شيرين). تلك الفتاة الجميلة الرقيقة ابنة صديقة العائلة ذات القامة القصيرة والمعروفة بيننا بشعرها الأملس الأسود الطويل. إنها محبوبة جدًا. و شجاعة. تصارع سرطانًا خبيثا تكاثر في ثديها الصغير. رأيتها منذ حوالي الشهرين. كانت شاحبة الوجه مُتعبة أشد التعب. كانت ترتدي قبّعة رأس تغطّي بها أثر تساقط شعرها بسبب العلاج الكيميائي الذي تخضع له. حاجباها ورموش عينيها كانوا قد تساقطوا أيضًا فبدّدوا ملامحها تماما. وسواد داكن حول عينيها زاد من تعبير الإرهاق في نظرتها. كأنها شخص آخر لا أعرفه. كأنها ليست نفس الفتاة التي كانت تحكيلي في العام الماضي عن حبيبها الذي قابلته صدفة في فرنسا قبلها بأسابيع فبدأت بينهم قصّة حب آسرة.

سمعت جدّتي تقول: «مسكينة...هذا النوع من العلاج مؤلم جدا». وسمعت ماما تقول: «لا بد أن حالتها النفسية قد تأثّرت من تلك التغيرات الظاهرة التي ألمّت بها من جراء المرض الخبيث». وسمعت أمها تقول لماما: «تتأوّه في الليل من شدّة التعب. وأحيانا تكون عصبية وثائرة جدا حتى أن أخوتها الصغار صاروا يخافون منها فيتحاشونها».

وســمعت نفســي تهمس: «مرض خبيث ملعون حقًا. إنما...لا زال في خبثه شــيء من رحمة. ألا وأنه وجع ملموس. مرئي. تراه شــيرين وأمها وأخوتها وجدتي وماما. وأراه أنا. ويراه الجميع. فلا يتعجّب أحدهم من ثورة شيرين مهما زادت عن حدّها، أو من سلوكها مهما اتّســم من غرابة وعشــوائية. ولو أن فقط...فقط...أخفى وجعُها ملامحَه عن العالم وأ شاح بوجهه بعيدًا عمّن حوله وحولها، لأ صبح بالتأكيد سلوك شيرين – ذاته – في عين (ذات) الناس سلوكًا غريبًا. ولأصبحت شيرين (ذاتها) فتاة «غريبة الأطوار». أو «كرسي». ولغضبت صديقتها الحميمة منها لأنها «غريبة»و«صعبة». ولنأت بجانبها عنها. ولأرسلت لها رسالة تقول فيها: «أنت غير مفهومة وأنا سئمت هذا الوضع».

عجيبٌ هذا الخوف المُســتَتِر الملعون! «خوف»؟ألازلت يا ليال تنادينه بال«خوف»؟ إنه الجنون. اللا شــيء. أو الكل شــيء إلى الحد الذي يجعل منه لا شــيء. هو ما هو...لا يعنيني. يكون ما يشاء كيف يشاء. أما أنا، فاتركوني وحدي. دعوني و شأني. لا أريدكم. هذا أنا. فلا تصــادقوني ولا توظّفوني في شــركاتكم. ولا تعيّنوني في جامعاتكم. ولا تعدّونني ابنة لكم. الفظوني. الفظوني أكثر. أكثر.

لن أذهب إلى الموت. لكنني ســأنتظره. حتما ســأنتظره. فلتأت يا موت. لتأت اليوم لا الغد. لتأت الآن لا لاحقًا. لا تدعني أنتظر طويلًا. أنت أنا.ألا ترى هذا؟ ألا تشــعر بهذا؟ انظر إليّ...انظر! انظر! ألا يذكّرك هذا الجسد الهالك المستلقي على السرير، بنعوش تأكل الأجســاد الهاربة فيك؟ خذ وقتك. فكّر مليًّا في الأمر. لا، لا تصــدّق ما أقول. حين أقول «خُذ وقتك» فأنا لا أعني ما أقول. لكنني على يقين بأن الأمر لن يســتغرقك وقتًا طويلًا بطبيعة الحال كي تلاحظ جيدًا أنك أنت وأنا خُلقنا من أجل بعضــنا. أنت تعلم هذا...أنت أكيد من هذا. هأنا أحدّق فيك وأسمّر نظري في عينيك وأرى انعكاسي فيهما.

أنظر عبر النافذة. الجيران يتحدّثون. يضــحكون. يتحدّثون. في الشــارع رجلٌ يمشــي. الشــجر. الشــجر هادئ وتتمايل ورقاته قليلًا. الأفق الأحمر الدموي. والعصــافير مفزوعة تضرب بأجنحتها وتتطير إلى أعشا شها. أين أعشا شها؟ و سيارة تسير. هذا لأنها سيارة. ما معنى سيارة؟ ما معنى هذا كله؟ والعسل. في المطبخ عسل. سأتناول منه ملعقة. أليس فيه شفاء للناس؟ لنرَ. وهذه...غرفة. ما معنى غرفة؟ و صوت بيانو يصلني. ما معنى بيانو؟ ما معنى صوت؟ما معنى هذا كله؟

و مريم تتّصل....ما معنى هذا أيضًا؟

25..مَرْيَمُ

في بلكون بيتها أخذنا نتحدّث. كان حديثًا جادًّا. ولما انتقلت دفّة الكلام إليها سـريعًا ، ا ستر سَلتْ وا ستر سَلَتْ. أذكر أنني سمعت أول كلمة، كلمتين، ثلاث كلمات، ثم لم أعد أسمع شيئًا مما تقول. شعرت بتنميل شديد بدأ في كل أطرافي ثم انتشر في سائر أعضائي بما في ذلك عضـلات وجهي. انتاب النظر تشـويش غريب، ذهب بالصـورة من الوضـوح إلى الضبابية المخيفة. كأنها لحظةٌ عَمَى فيها البصر. وبدأ بعدها الصوت يبعد ويختفي، وبدأت مفاصل ركبتيّ وذراعيّ وفكيّ وعضلات رقبتي تتصلّب تصلّبا شديدًا. ثم...لا أتذكر.

بين هذا المـ شهد الـ سابق والمـ شهد الذي تلاه حين فتحت عينيّ لأجد نفـ سي مـ ستلقية على أريكة منزل مريم، وهي وأهلها يحوطونني، و(أم عبد الله) عاملة منزلهم تناول مريم كوب عصير برتقال وهي تقول: «اعطوها هذا...تحتاج إلى سكّر»، بين هذين المشهدين ثمّ مشهد آخر لا أذكره. لم أعِ تمامًا ماذا جرى إلا حين سمعت أم عبد الله تسأل مريم الجالسة على الأرض إلى جواري وتنظر إليّ باهتمام بالغ: « هل سـبق لها أن غابت عن الوعي قبل اليوم؟». «لا أدري».

حين ثبت إلى وعيي جلست مستقيمة على الأريكة مبتسمة. أخبرتهم أنني بخير وأنه على الأغلب انخفض ضغطي قليلًا فسقطت. ولما تأكّد الجمع: أم عبد الله ومريم و(شهيرة) أخت مريم الصغيرة وطنط (عايدة) أم مريم، لما تأكّدوا أني بخير، ذهب كل واحد منهم من حيث أتى. أما مريم فبقيت إلى جواري تبتسم ابتسامة خجلى بدا خلالها أنها كانت تحسّ بذنب شديد. وأنا بدوري ابتسمت لها وقلت أطمئنها: «أنا بخير يا مريم». أردت بذلك أن أخفّف عنها هذا الشعور المؤلم بالندم، لكنني في الواقع كنت في تلك اللحظة مهمومة ومختنقة بالمشاعر والأفكار إلى أقصى الحدود. كنت متوتّرة جدا، لا أفكر إلا في سبيل ما للخروج من مركبّات هذا المشهد المرعب.

إن مريم بالرغم من كل ما شعرت به من ذنب واضح، ويقين بأنها كانت السبب الحقيقي وراء ما جرى لي، إلا أنها لم تتطرّق صراحة للأمر أو تناقش ما حدث. ولم تُشِرْ إليه حتى مجرّد إشارة. خبأت خجلها بين ابتسامات مضطربة وأحاديث جانبية لا علاقة لها بالموضوع.

حاولت التعتيم على الحادثة بأحاديث فرعية من نوع: «اهتمّي بأكلك قليلًا يا ليال...جسمك ضعيف جدا». «لا عليكِ...سأطلب من أم عبد الله أن تعد لك معجّنات الجبن التي تحبينها». وذهبت فعلا تطلب من أم عبد الله أن تجهّز الفطائر. انطلقت من جواري كلمح البصر. كأن الفطائر لم تكن سوى حجّة أرادت بها مريم الابتعاد قليلا لالتقاط أنفاسها واستيعاب ما جرى. وبقيتُ مسمّرة على الأريكة كما كنت وأفكّر: «ماذا جرى؟».

حين ذهبنا لنتحدّث سويّا في البلكون قبلها ببضعة دقائق، كانت مريم تسوق إليّ قائمة عتابات لا متناهية. انهالت عليّ بسيل من العتاب شديد اللهجة بسبب تصرّفاتي «الغريبة» واختفائي المفاجئ والمتكرّر. أنهت سيل العتاب قائلة بحدّةمقصودة ومُلحَقَة بإيماءات يدين حاسمة ومؤكّدة لمعنى كلامها:

- لا يعنيني أبدا قولك بأنك «خائفة». خائفة أو لا خائفة هذا أمر يخصّك أنت لا أنا. وإنني أُلفتُ انتباهك يا ليال– لا أعلم للمرّة الكم – أنني لن أحتمل هذا طويلا. سأتركك وأترك صداقتنا هذه مهما كانت الأسباب ومهما اعتراها من عِشرة.

كان هذا آخر ما سمعت من حديث مريم لي. بعدها أخذت دقّات قلبي السريعة تزداد سُرعة وأصبحت الأفكار والمشاعر المتضخّمة بداخلي أكثر ضخامة وتعقيدا. ثم جاءت لحظة من لحظات «اللا شيء» وهذيان الأفكار الذي عادة ما يأتيني في مثل هذه الأثناء؛ حيث لا وجود لزمان أو مكان؛ معلّقة في وسط «اللا شيء» ولا أفهم أي شيء. بعدها، حدث ما لا أذكره...

مريم تكبرني بسنة واحدة. وهي متوسطة القامة، لها ذراعان وردفان ممتلئان. وجهها نحيل وطويل. شعرها مموّج وشديد السواد. لحاجبيها تقويس حاد ومدبّب. عيناها بنيّيان ضيّقان ومسحوبان إلى الأعلى قليلا. أما عن نظرتها، فإن لها نظرة متقلّبة؛ شديدة الطيبة في لحظات الصفو وشديدة الحدّة عند الغضب. وهي حين تغضب، يُخيّل إلى المرء أنها لن تهدأ أبدًا من شدّة ما تكون عليه من انفعال. أما حين تحنو، فلا يمكن أن تتصوّر أن لهذه الفتاة الرقيقة عذبة الابتسام أن روحها تعرف طريقًا إلى الغضب. فَمُها صغير، وشفتاها ممتلئتان وبهما حُمرة طبيعية تزيّنهما. وجنتاها بارزتان يعلوهما نَمَشٌ بنّي خفيف. أسنانها صغيرة نسبيًّا ومنتظمة ما عدا السنّتين الأماميتين العلويّتين: فهما متداخلتان الواحدة فوق الأخرى. ومع هذا، تزدنها جاذبية خاصة.

أما عن طبعها، فهي تركيبة غريبة. أوّل انطباع يأتيك عنها هو أنها حادّة. وإن تعاشــرها يتأكّد لديك أنه لم يكن مجرد انطباع. فهي بالفعل حادّة. جدًا. ومع هذا، فإن حدّتها تلك مضفورة دائمًا بشيء من قلّة الثقة بالنفس والحساسيّة المفرطة. وهي تظل تسبح بين هذين الأمرين: الانكسار والشراسة. كان يبدو لي دائما أنها تكسو قلّة حيلتها وهشاشتها بالتظاهر بعدم الا ستعناء – اللا منطقي غالبًا – بآراء الآخرين. «فلا شيء يهمّها أبدا» كما تؤكد هي دائما. ومع هذا، فقد كان يظهر دائمًا بطرق شتّى كيف أن (كل) شــيء يهمّها (جدا). حبّها شديد وكُرهها أ شد. تكسو ضعفها وقلّة حيلتها وحسا سيّتها بقشرة تُلبسها قوةً مزعومة تأخذ شكل الحدّة في الكلام وتباين المواقف.

كلماتها رصــاصــات وقنابل عند الغضــب. وهي ســاخرة إلى أبعد حد. يخافها الناس. ويبتعد عنها الكثيرون. وشــيء ما بداخلي يخبرني دائما أنها تتأذّى ســرًّا كثيرًا من بُعد الناس عنها ومن انكســارها. وهي بالرغم من هذا، مخلصــة، خفيفة الظل، واضــحة، صــريحة، وانطوائية ومنفتحة في آن واحد. عدائية إلى حد كبير وتعابير وجهها دائما تفضــح ما يجول بخاطرها. أم أنها لا تحاول إخفاء ما يجول بخاطرها أصــلا؟ أم أن إظهار بعض الغضــب يمنحها قوّةً تحتاجها لتُخفي انكسارها وضعفها أكثر؟

جمعني بها في المرحلة الابتدائية بالمدرسة كوننا انطوائيتين. تألف الواحدة منّا صُحبة الأخرى. ونتقاسم معا الساعات المدرسية الطويلة. ثم مضت بنا الأيام والسنون، وازددت أنا انطوائًا وضيقًا من حدّتها، وازدادت هي حدّة وضيقًا من انطوائي.

لا يضرّها أن تسخر منّي أو تُلقي إليّ توبيخات تُشكّل لي حرجًا أمام جمع من الناس. أبدي برأي ما لي حول موضوع معيّن، فترد بتوجيه الكلام إلى صديقتنا (نهى) ساخرة: «ونحن طبعًا يا نهى نعلم أن ليال دائما على حق وأنها على عِلم بكل شيئ في هذا العالم وتعلم جميع الخبايا والأسرار التي لا يعلمها أمثالنا (المساكين)».

لا تحب مايا أبدًا. تصل مشاعرها إلى حد الكُره المبالغ فيه لسبب لا أفهمه. تضيق منها ومن تواجدها كثيرا. تهمس أحيانا: «أنتِ دُمية في يد مايا». وتطلب منّي صراحة: «لا أريد أن أرى تلك الملعونة. أينما وُجدت لا أريد أن أكون». وإن حدث وشاءت الأقدار أن تجمعهما، ترشق مريمُ مايا بوابل من النظرات القوية الشرسة. تسخر منها خفيةً وتنأى بوجهها عنها كأنها لا تراها ولا تكترث بوجودها أو بحديثها. تجيبها بردود مقتضبة إذا ما وجّهت لها مايا سؤالًا. ثم تعود فورًا إلى الجفاف والحدّة الغير مفهومة بعد الردّ.

إيقاع علاقتنا يتأرجح بين فترات من الأُلفة وفترات من الاضــطراب. إلا إن أثناء تلك الأيام التي سبقت واقعة البلكون كنتُ قد ازددتُ ضيقًا من سهامها وقسوتها مع عِلمي بأنها مجرّد قشرة، مما جعل الإيقاع يأخذ شكلًا أكثر ا ستقرارا نحو جهة الا ضطراب. كنت قد بدأت أتحا شى الحديث معها أو الالتقاء بها كليًّا. لا أجيب مكالماتها ور سائلها. حتى قبل الواقعة تلك بيوم واحد حين أرسلت إليّ مُعلمة: «علينا أن نتحدّث. لم يعد الوضع مفهوما». فأجبت رســالتها القصــيرة برســالة مماثلة في القصــر: «آتيك غدًا العصــر. يناســبك؟». «يناسبني».

حدث هذا أثناء الأيام التي تلت تركي للوظيفة، في فترة من فترات الانتقال بين حالتَي «العكوف» وال«سـجن». ولا أدري كيف حملتني قدماي إلى منزلها في اليوم التالي حتى أنني كنت قد لعنت نفسي ألف مرّة على ردّي لر سالتها ووعدي لها بتلك الزيارة عندما و صلت إلى باب منزلها. لكنني فعلت في لحظة من لحظات التهوّر. أو قد يكون قمّة الضيق إلى الحد الذي لم يعد بعده شيئ يهم. أو لحاجة لي أن أتخلّص من شيئ من هذا العبء الدفين. أو قد تكون لحظة من تلك اللحظات الكثيرة التي ذَهَبَتْ فيها روحي من جسـد «ليال» إلى جسـد شخص آخر أرسمه فلم تكن «ليال» هي من تجيب رسالتها، إنما أجابها الطفل الفلسطيني الشجاع الذي وقف أمام الدبّابة الصهيونية ملثّم الوجه ممسكًا بحجارة يتوعّد العدو.

كنت على وشـــك أن أبكي حين عادت مريم تطمئني بأن أم عبد الله قد بدأت فعلًا في تحـضير الفطائر.فلما أحـسست بخطوها يقترب، تجمّدت دموعي. وقبل أن تجلس مريم على الأريكة إلى جواري كانت قد باغتتها فكرة أخرى مفاجئة:

- آه! لأريكِ صور فستان الزفاف الذي اخترت.

ثم قامت ثانيةً واتجّهت إلى غرفتها لتحضـــر جهازها المحمول، وجاءت تريني صـــورة لفستان زفافها المسجّلة عليه.

- ما رأيك؟ إنه بسيط...لم أشأ أن أختر شيئا مبالغًا فيه من حيث التصميم والتفاصيل.

- إنه جميل جدا فعلًا.

لكنني لم أنتظر أم عبد الله حتى تنتهي من خبز الفطائر. اتّكئت على حجّتي بأنني متعبة وحييت مريم وحيّتني كأن شيئًا لم يكن، وعُدت إلى البيت.

كانت تلك آخر مرّة أرى فيها مريم أو أكلّمها إلى اليوم.وثلاثة أسابيع كانت تفصلنا عن يوم عُرسها المحدّد.

إنه ليصعب عليّ وصف الحالة التي عدتُ بها للبيت ليلتها. لم أعد للبيت باكيةً متألّمةً كحالي يوم أن عدت من اجتماعي الأول مع سوزان وعمر، ومن ليلة زيارة داليا. عدت من منزل مريم في حالة ذهول تام أقرب إلى الصدمة العصبيّة. لم يبلغ ذعري أبدًا هذا المبلغ الذي أصابني أثناء حديثنا في البلكون إلى الحد الذي يُغشي عليّ فأسقط على الأرض فاقدةً للوعي لا أذكر ماذا حدث. إنّ الخوف ليظهر قبالتي في ثوب جديد كل يوم. لكن ثوبه هذه المرّة أكثر رُعبًا وسخافةً حقا. وإنه ليصعب عليّ الآن –أكثرمن أي وقت سابق– أن أمضي في الحياة بين الناس بهذا الثوب الجديد الذي يؤول للسقوط من على جسدي في أية لحظة فيعرّيني ويُشعرني بالعار الشديد.

عدتُ بغضب جمّ، لا من مريم فحسب، إنما من الإنسانية كلها؛ الإنسانية كفكرة. بَدَتْ الوجوه من حولي لا شيء سوى مصادر للرُعب والألم العميق. ازددت حنقًا على هذا العالم الخارجي الذي نبذته منذ فترة قصيرة قبل العكوف في غرفتي، وازددت تشبّثًا بالوجوه التي أرسمها ألا أنها تؤنس وحدتي، ولا تخيفني، ولا تُلقي على صدري وابلًا من السهام الحادّة المميتة التي أسقط على أثرها مُغشًا عليّ منبطحة على أرض شُرفةٍ باردةٍ عاريةً في أهون وأضعف حالاتي.

وهذا (العُرس) الأحمق، مثله مثل الاتصـالات والرسـائل الحمقاء كلها! ما وزنها أو قيمتها أمام البراكين القاطنة بصـدري؟ ما أهمّيّة حضـوري عُرس مريم، وخوفي – الذي هو جزء لا يتجزّأ من كياني – «لا يعنيها أبدًا»؟ ما أهمّيّة أن أتحامل على قدميّ المرتعشـتين وأن أربط على قلبي المهلوع لأسـير نحو «كوشـة» مريم يوم زفافها، ومريم لم تتحامل على كبريائها وغرورها لتعتذر منّي وممّا تسبّبت لي فيه من أذى حقيقي، أو تحاول فهم ما حدث وتناوله من منظور جديد لم تكن تناولته منه من قبل، أو تسـاعدني على تخطّي هذا الوضـع الذي أنا فيه، أو تمد إليّ يدَ العون والحب الذي أنا في أمسّ الحاجة لهما بدلًا من الإشـاحة في وجهي وإرهابي بالابتعاد عنّي «مهما اعترى صـداقتنا من عِشـرة»؟ ما معنى البهجة والفرح اللذين يخيّمان على أجواء الأعراس، والقلب لن يذهب إليهما إلا مضـطربًا أشـد اضـطراب حزينًا أشـد الحزن، ولن يقصـد صـالتهما إلا خائفًا كل الخوف من كل الوجوه وكل الأصوات، ومن احتمالات بلوغ ذروة الخوف في أية لحظة بحيث يُلقى به على أرض العُرس جسدًا ساكنًا مغشيًّا عليه أمام الغرباء والمقرّبين على حد سواء؟ وأمام «العروس» التي «لا يعنيها هذا الخوف» إطلاقًا...

مرّت الأيام...وهأنا لا يفرقني عن التاريخ المحدّد سوى يوم واحد تكاثفت فيه الأفكار والمشاعر المتضاربة والخوف، كأنها حصيلة سنين كثيرة لا يوم واحد. وأنا لا أعلم...لا أعلم إلا أنه لم يعد بوسعي تحمّل هذا الألم أومجاراته. والحاجة للابتعاد عن الأذى بكل أنواعه أصبحت أكثر إلحاحًا،

حتى أن السعادة التي قد أجنيها بالحفاظ على صداقاتي أصبحت أمرًا من أمور الرفاهية أمام هذا الاحتياج المُهيمن بداخلي إلى الهروب والعزلة.

لا أريد الهرب كما يريد الإنسان كعكًا حلوًا بالتوت الأحمر، أو بسكوتًا بالعسل والسكّر. بل أحتاج الهرب كاحتياج الإنسان للأكل – أيّ أكل...حتى لو كان كسر رغيف لخبز حاف بلا غموس.

لا أريد العُزلة. أحتاج العُزلة.

26..قَبْلَ صِيَاحِ الدِيكِ

آلات بيتهوفن تلتمع عاكسةً اللون الأزرق الصريح الذي مسحته بديعة على كل منها: البيانو، والكمنجات، والدرامز، والفلوت، وغيرها. وبديعة تنظر إليها بفخر مَنْ أَنْهَى لوحة عظيمة على وشك أن تزيّن حائط من حوائط متحف اللوفر الفرنسي الأشهر.

لكنه – وإن بدا أمر «اللوفر» مضحكًا أو سخيفا – كان في المشهد جانب فنّي حقيقي يدعو للتأمل والتغزّل ويكأنه لوحة فنيّة فعلًا! فما الفن حقيقية سوى إمكانية تولد من رحم المستحيل وسط عوائل وقوافل تصيح: «لا يمكن...لا يمكن». فأي أمر يستوفي هذا الشرط، يصبح قطعةً فنيّةً بلا مبالغة. وها هو المشهد أمامنا يستوفي كل الشروط ويضيف إليها من جعبته الملوّنة.

إنها بديعة الطفلة الفقيرة مُعدمة الحال التي لا تعرف إلا البحث عن قوت يومها كل صباح، ها هي تجمع بين اللعب بالألوان الهولندية والفرنسية، والرقص بين آلات الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية من ألمانيا إلى فيينا. في المشهد (استحالة) أحالتها بديعة ببراءة منسابة إلى قطعة فنيّة خلّابة لو علم بها اللوفر لدفع من أجلها الغالي والنفيس.

أين يُطوى المستحيلُ طيًّا هكذا إلا هنا؟ في هذه الغرفة...

بينما أخذت السماء تُظلم ظلامًا يأخذ ليلكي المغرب إلى أ سود العشاء القاتم المُشبّع بشــيء من أزرق، بدأت بديعة تتثائب. كان نهارًا طويلا حافلًا بالكثير من القصــص والمشاهد والذكريات والأصوات والروائح. أراها مُتعبة تحاول مغالبة النعاس بالضحك. كأنها تحاول ابتكار لعبة جديدة تنشــغل بها. إنها منهكة من الركض واللعب لكنها لا تريد الا ستسلام إلى النوم. وإنها لفي غاية السعادة والا ستئناس بصحبة صديقيها الجديدين: لودفج فان بيتهوفن، وفينسنت فان جوخ.

تلحق ببيتهوفن ويجلســان إلى جانب فان جوخ على الأرض مســتمتعين بما تبقّى من الEroica في هدوء. بيتهوفن ينظر إلى الآلات الملتمعة بالأكف والأطراف الزرقاء الصغيرة ويبتســم ابتســامة رقيقة تحاكي رقة الأكف وبراءة الأزرق. وفان جوخ يلف ذراعه الأيمن حول عنق بديعة ويسحبها برفق إلى صدره ليدغدغها باليسرى. بديعة تضحك ضحكات مدويّة مقطوعة بمحاولات متتالية لالتقاط أنفاســهامن شــدّة الضــحك. يُنهي فان جوخ دغدغته لبديعة بقبلة حنونة مصــحوبة بابتســامة يضــعها على جبينها المحمرّ من حرارة الركض والضــحك. ســخونة جبينها تذيب وردي شــفتيه فيختلطان ببعضــهما البعض بتجانس ألوان اللوحات المرسومة بطريقة ال « wet on wet».

يا الله! لو كان اللوفر شخصًا لجاء مهرولًا محاولًا بيديه وجسده الإحاطة بهذا المشهد الجلل حيث اللوحة داخل اللوحة داخل اللوحة. لوحة مركبّة وفن متعدّد الأبعاد.

السكون يخيّم على المشهد الآن.

بديعة تنام واضعة رأسها بين رجلي بيتهوفن وممدّة رجليها على اتساعهما فوق ساقي فان جوخ المتربّعين. بيتهوفن يُجري أصابعه بين شعرات بديعة وهو يتأمّلها مقسّمًا نظراته بين شعرها ووجهها. وفان جوخ يضع كفّيه على ركبتَي بديعة بينما يريح رأسه إلى الخلف مسندًا إياه على لوح خزانة ملابسي البيضاء ويُغمض عينيه مريحًا بدنه ورأسه من مشقّة رحلته الطويلة التي قطعها حتى وصل إلينا.

أما بديعة، فتنظر إليهما: بيتهوفن وفان جوخ على التوالي، حتى تغفل عيناها وتذهب بهدوء في نوم عميق. يلحق فان جوخ ببديعة أولًا، ثم يتبعهما بيتهوفن الذي أخذ رأسه يترنّح من النعاس فأسنده أخيرًا على راحة كفّه الأيسر المسند على ركبته اليسرى. ذهب أطفال الحارة الباقون، والعازفون، وبقيت الآلات تنفلت منها نوتات موسيقية من تلقاء نفسها لا بمساعدة إصبع لعازف هنا أو يد لعازف هناك.

الليل هادئ ومريح. إنه رقيق. وبه سلام يسري إلى القلب والنفس دفئًا وسكينة مضاعفة. ويحتفظ بشيء من نسيم حتى في أشد فصول السنة حرارةً. إنه نسيم السلام ولُطف الهواء حين يجول فلا يزعجه زئير أسد أو وجه ضبع أو لذغة أفعى غادرة.

حين ينام الكون، يصحو الفؤاد وتنتظم دقّات القلب. فقط الآن – في أسود الليل – يكون القلبُ قلبَ ظبية مستكينة. ظبية تصيح إلى فؤادها: «انظر يا غبيّ! إنها الأسود في عرائنها يا قلبي. فاهدأ». فيهدأ... حتى ينام.

وأنا أيضا أشعر بنعاس طفيف. لكنني لا أريد له أن يغلبني. إنها من الأوقات القليلة – القليلة جدا – التي يمكنني فيها الاستمتاع بالكون بدقّات قلب منتظمة. أريد الاحتفاظ بهذا المشهد إلى أكبر وقت ممكن. أريد أن أنظر إلى تلك الوجوه قبل أن تشرق الشمس موقظةً معها الأسود في العرائن ومُعليةً بصباحها أصوات زئيرها، وأصوات نعال قوافل الحمير الوحشيّة، ونعيق الغربان، وزمجرة الضباع، وفحيح الأفاعي، وخوار الثيران، وحفيف أشجار الغابات العالية الغليظة المتلاطمة.

الآن والآن فقط.

ربما، ليس هناك وقت أفضل من الآن لكي أريح صورة بديعة وأريح ملامح وجهها من التحديق بي ومن الثبوت حين أحدّق أنا بها. أريحها لأنني سأبدأ بالانشغال قليلا بخلفيّة اللوحة التي لا تزال بيضاء.

خلفية اللوحة عنصــر من العناصــر التي يغفل عنها الكثيرون. والحق أن الخلفية من أعمدة اللوحة الأ سا سية وأحد أهم أدعمها التي ي ستقيم بها بناء العمل. إن تُركت الخلفية بيضــاء إلى أن تتم باقي العناصــر بتفاصــيلها، لانْتَقَصَ هذا من عنصــر آخر لا يقل أهمية: «الانـ سجام» في اللّوحة ككل. هذا وأن الخلفية عنـ صر في حد ذاته، وارتباطه ببقية العنا صر ارتباطٌ وثيق لا يمكن الفصل بينهم.

كيف أعبّر عن هذا المعنى؟ كيف أصفه؟ سأحاول.

إن العناصــر كلها تنبعث من محيطها. لذا، فلا يمكن فصــل (المحيط) عنها، أو تأجيل العمل عليه إلى النهاية، أو إغفال دوره الملاصق للعناصر المرسومة. وكلّما تقدّمت مرحلة الشروع في العمل على الخلفية، تأكّد شعور (الانسجام) أو الharmonyهذا الذي يضيف إلى اللوحة بإضافة «الحياة» إلى عناصرها.

أ ستعين بالفر شاة المو ضوعة مُسبَقًا في زجاجة التربنتين، والتي كنت قد ا ستخدمتها في مـ سح ألوان «المـ ساحة الجرداء» الو سطى (حيث أنف بديعة). ثم أقوم بـ ضربات عر ضية وأفقية حول حدود شعر بديعة. أضرب بمساحات من الأبيض المدموج بشيء من الأزرق الناصـع مع مسـحة من ألوان لحميّة وصـفراء. أُشـبك حدود الشـعر والرقبة بالمسـاحات الخلفية لأوثّق العلاقة بينهم.

عجيب ما تفعله تلك الضربات البسيطة في الخلفية من إحياء للعناصر. هذا «الإحياء» هو إحياء التناغم والانسجام. وإنه بفقدان هذا الانسجام إنما تموت العناصر ويندثر نبضها الحيّ.

لا، يا ليال، ليس في الأمر «عجب». إنه المنطق يتكلّم. بانعزال بديعة عن محيطها بحواري الإسكندرية أصبح لها وجه شاحب حزين خائف مضطرب. أما الآن، بانسجامها مع محيطها الجديد بالغرفة وبصحبة أصدقائها الجُدد، إنما يحيا وجهها حياة حقيقية. حياة كما تشاء الحياة أن تكون، دون مواربة أو حزن أو قلق أو رُعب أو «حاجة سودا كبيرة» تعكّر صفو وسلام النفس.

إن الانسجام حوار متبادل بين العنصر وما حول العنصر. إنه تفاعل وتواصل بين أجواء من الأُلفة الهادئة. يحكي العنصر فينصت المحيط. ثم يحكي المحيط فينصت العنصر. يرد العنصر فتنصت العناصر الأخرى. وتحكي العناصر الأخرى فينصت المحيط والعنصر الأول. وبهذا التفاعل، ينطبع شيء (أو عدّة أشياء) من كل منهم على الآخر. يأخذ كل منهم عن الآخر ويضيف أو لا يضيف إليه.

والحياة – الحياة حقًا – هي هذا الانسـجام. هذا الحوار بيننا وبين ما حولنا. نفقده فنصبح عنا صر وحيدة مُعلّقة و سط اللا شيء، وتظل مُعلّقة كالمُسمّرةِ أطرافُه على زوايا صليب خشبيّ كبير لساعات وساعات حتى يفارق الحياة. وَحْدَهُ...كما بدأ.

أوه! أسمع صوت باب المنزل ينفتح ثم ينغلق. عادت أمي.

صـوت نعلَيها يقترب. أركض إلى سـريري وأُسـرع بغلق أنوار الغرفة ثم أتظاهر بنوم عميق. تفتح أمي الباب وتنتظر بضع ثوان، لا أستطيع أن أرى بعينيّ المُغمضتين ماذا تفعل خلالها. لكنني أشـعر بقدميها تتقدّمان إلى داخل الغرفة. تُرى لماذا؟ تبحث عن الرسـالة؟ أوه! لا...ربما لاحظت لوحة بديعة فاقتربت لتدقّق بها عن قُرب. على الأرجح أنها وقفت أمام اللوحة لدقيقة أو أقل تقريبًا ثم عادت أدراجها إلى خارج الغرفة. سمعتُ تنهيدة عميقة صادرة من صدرها في تأوّه مهموم. لا أدري إن كانت تنهيدة مهمومة فعلا أم هو الصمت المطبق يضخّم الأصوات الخافتة فيبدّل المعاني؟ أم هو الخوف والترقّب المستلقيان إلى جواري يخيّل إليهما حدوث ما لم يحدث؟

خرجت ماما وأغلقت الباب من خلفها. أصبح من الصعب عليّ الآن أن أقوم مجدّدًا وأتابع الرسم. أنا الآن مُضطّرة إلى استكمال الكذبة التي بدأتها دون تفكير منذ لحظات. ربما يستوجب عليّ الآن أن أنام فعلًا. غدًا أواصل. لكن...أخاف غدًا كثيرًا. لا أريد غدًا.غدًا أواجه الأمر الذي تجنّبت التفكير فيه طوال الأسبوعين الماضيين. غدًا عُرس مريم. يا الله من غد! يا الله من أمر ومن كل أمر يصعب على المرء شرحه أو الإفصاح عنه. يا الله من أمر ومن كل أمر يرونه هيّنًا ويراه فؤاد الفأر المذعور عظيمًا.

بديعة! بيتهوفن! فان جوخ! استيقظوا...أرجوكم استيقظوا. لا تتركوني وحدي هنا. غدًا تُذيب الشمس الألوان التي بركتُ أزيّن بها قبائح يومي. غدًا تعود رسالة ماما من الصندوق وتمحي مفعول الحلم الذي مكثتُ منذ الصباح أنقشُه.

أقفز من على السرير وآتي بلوحة بديعة وبالحامل من تحتها وأضعهما أمام السرير. أحكم وضعهما ثم أعود إلى السرير. أستلقي باتجاه اللوحة وأنا أنظر إلى وجه بديعة. أنتحب. أنظر إلى العينين وأنتحب. أنظر إلى المساحة الخالية أسفل العينين وأنتحب. أنظر إلى الشفتين وأنتحب. أنظر إلى شعرها وأنتحب. الله وحده يعلم لماذا.

وها هي نوبة جديدة من الهذيان؛ على قماشـــة الكانفس دوائرٌ بارزة منمنمة تُعطي الكانفس خشــونة ملمســه. أتأمل الفراغات الدقيقة بين الواحدة منها والأخرى، وأعود فأنتحب: «أيتها الدوائر الســحرية ابتلعيني أرجوكِ! ابتلعيني قبل أن يأتي هذا الغد الذي لا أريد له أبدًا أن يأتي. لكنه سيأتي رُغمًا عنّي. فماذا عساي أن أفعل؟ ابتلعيني وارفقي بحالي».

يا بديعة...أنتِ بريئة. أنت الآن فراشــة في الجنان. أراكِ ملاكًا أبيض طيّبًا يحوم حول عدن. من تحتك أنهار ومن فوقك أنهار وعن يمينك أنهار وعن شمالك أنهار. وحولك أنهار من لبن وعسل مُصفّى. أعجبك العسل؟ أعجبك اللبن؟ أعجبك كل ما اشتهيتِ فوجدتِ؟ وما وجدتِ قبل أن تشتهيه؟

يا الله...خُذني إلى بديعة قبل صـياح الديك المُنذِر بقدوم الصُـبح البارد. يا الله...(وقبل أن أُكمِل الدعاء لحقتُ ببديعة وفان جوخ وبيتهوفن وغفوت).

27..بَعْدَ صِيَاحِ الدِيكِ

خلال نومي ليلتها (ليلة عُرس مريم)، اســتيقظت مرتين أو أكثر. كان نومي مضــطربًا اضــطرابًا شــديدًا اعترضــه كابوس بعد كابوس. أولهم وقع في مكان غريب ومخيف. كأنه قصر ضخم رأيت فيه كلبًا كبيرا أ سود شر سا أطلقه شخصٌ لم أرَ وجهه، لكنني سمعته يهمس للكلب: «الحق بها». أخذت أركض من غرفة إلى غرفة وأصــطدم بباب بعد باب والكلب من ورائي يركض ويقترب.ونباحه وحده يكاد يُســقطني مغشًــا عليّ من قوّته. يملؤني الذُعر حتى أصــطدم بباب أخيرينغلق فورًا بعد دخولي أنا والكلب فيه. لا مفر. إنه يركض نحوي وهأنا من اليأس والرعب أتسمّر في مكاني وأنتظر الموت. لكنه قبل أن ينهش صدري بمخالبه الحادة، فتحت عينيّ لأوقن أخيرًا أنه لم يكن إلا كابوسًا. عُدت إلى النوم.

في المرّة التي تلتها، كنت في قاعة عُرس مريم. رأيتها بفستانها الأبيض من بعيد تضحك وترقص. لم يكن ذات الفستان الذي أرتني صورته، إنما فستان آخر أكثر فخامةً. كأنه فستان لملكة أو أميرة. باعد بيني وبينها أناس كُثُر؛ وجوه كلها لا أعرفها. أحاول الاقتراب من مريم، وكلما اقتربت، دهسني حشد من الناس من حولي.

فباعدوا بيننا أكثر. كدت أختنق من شـدة الازدحام، والناس من حولي أطول وأضـخم وأحدهم لا يلاحظ وجودي. أحاول التغلّب على الازدحام والمُضيّ. أرى بقعة خالية فأسعى باتجاهها. يدهسني الحشد ثانيةً فأبتعد أكثر وأكثر. أختنق وأسقط. لا يلحظني أحد. أرى أقدامًا من علٍ في طريقها في الهواء لدهسي. أحاول أن أنهض فلا أتمكّن من النهوض. أحاول الصراخ فإذ بفمي مُشَنّج لا يتحرّك. ثم تنفتح عينيّ فجأة فأعي بعد وهلة أنه كابوس أعود بعده للنوم.

بعدها، رأيتني أنا ومريم في بلكون منزلها. كانت توبّخني توبيخًا حادًا، وتتطاير حول وجهي مجموعات كبيرة من البعوض الذي لم أتمكّن من مباعدته عنّي. بينما ساقت إليّ توبيخًا بعد توبيخ، حاولت إزاحة البعوض من حولي حتى أتمكّن من الرد عليها. لكنني لم أستطع أن أباعده. ويبدو أنها لم تكن تلاحظ البعوض، لا ولا ضيقي الشديد وأنا أحاول إبعاده من على وجهي، فواصلت التوبيخ. أخيرًا قرّرت أن أرد غير مكترثة بالبعوض خاصة أنني كنت قد ازددت ضيقًا من حدّة كلامها، فلما بدأتُ في الكلام طار البعوض بسرعة بالغة نحو فمي و سقطت على الأرض. وقبل أن يرتطم رأسي بأرض البلكون، ا ستيقظت. إلا أنني هذه المرّة لم أعِ بذات السرعة أنه كان كابوسًا كالمرّات السابقة فأخذت أحرّك يديّ بقوّة وفي حركة عصبيّة لأُبعد البعوض عنّي ظنًا منّي أنه حقيقة. وعلى ما أتذكّر، أصدرت صوتًا مُختنقًا من الخوف والضيق. بعدها بلحظات أدركت أنه كان كابوسًا كالذي سبقه، ثم أخذت أبكي حتى غفوت مجدّدًا.

أخيرًا، استيقظت استيقاظًا تامًا في الصباح على زقزقات العصافير وأصوات المارة والعربات في الطريق، و صوت حركة في المنزل تشير إلى أن ماما أو بابا أو كلاهما قد صحا. ا ستيقظت مُتعبة مُختنقة حزينة، وبسرعة عاد إيقاع الحروب في قلبي يستأنف مهامه كعادته كل صباح.

إن جسدي مُتعب كأنني للتو انتهيت من رحلة ركض طويلة. النظر مُشوّش والرأس ثقيل. ومجرّد التفكير في النهوض يُزيد الرأس ثقلًا والجسد إنهاكًا.

أول ما تقع عليه عيناي هو لوحة بديعة المنصوبة أمامي. أنظر إليها ولا أبكي هذه المرّة بالرغم من أنني أشتهي البكاء. ومع هذا، فإن الدمعات لا تنزل مع كل ما أفسحه لها من مجال. إنها حالة أقرب إلى التخدير. القلب مُخدّرٌ، والعين مُخدّرةٌ، والفم مُخدّرٌ، والروح لا تعرف الحركة.

أتحامل على قدميّ الثقيلتين كما الروح، وأنهض. أمضي ببطء نحو باب الغرفة، أُمسك بمقبضه، أحرّكه إلى أسفل، أفتحه وأخرج.أسير إلى المطبخ لأجد ماما قبالتي.

- صباح الخير.

- صباح النور.

أي خير وأي نور؟ وأي صـــباح هذا الذي نتبادل من أجله التمنّى بالخير مع النور؟ إنّ كل تلك التمنيّات الصباحيّة والمسائيّة ليست إلا عادة جديدة؛ (مو ضة). لم نعتدها أبدًا – أقصد أفراد عائلتي التي لا تتكوّن سوى منّي أنا ووالديّ. لا أتذكَر متى بدأنا نحيّي بعضنا البعض كل صـــباح أو قبل الخلود إلى النوم. لكنه لم يكن منذ زمن طويل. أظن أخذت ماما المبادرة منذ عدّة أشـــهر فتبعها بابا. وأنا أفعل أحيانًا ولا أفعل أحيانًا. لكنني حتى حين أفعل، يكون الشـــعور غريبًا. وأظل أتســـاءل والكلمات في طريقها منّي أو إليّ: «ما معنى هذا؟».

متى بدأ أفراد هذا البيت الغريب في إلقاء التحيّة على بعضهم البعض؟ متى سمعت لأول مرّة: «صباح الخير؟». غريب.

أُمسك بعلبة الحليب وأسكب مقدار نصف كوب منه في (ماج) عريض أبيض يتوسّطه ثلاث وردات بلدي كبيرة من اللون البامبي الفاتح. أضـــع الكوب في ال microwave (مايكروويف).

– دخلتُ عليكِ البارحة ليلًا ووجدتك نائمة. ووجدت لوحة لفتاة ما...من تكون؟

– أرسم بديعة.

- ومن تكون بديعة؟

- بديعة...ابنة ريا وسكينة. أقصد ابنة ريا.

- أوه! وماذا خطر ببالك لترسميها.

- لا أدري...

تصمت ماما برهةً. يبدو أنها تفكّر في الأمر، ويبدو أن توقيت رسم اللوحة استوقفها. في صباح اليوم السابق أعطتني ر سالة تنا شدني فيها حضور عُرس صديقة لي و ضرورة إيجاد حلّ «لغرابتي» بشــكل عام حتى «لا يبتعد عنّي كل مَنْ يحبّني». ثم تعود في ليل ذات اليوم لتجدني أرسم بورتريه لابنة أشهر عصابة قتل في تاريخ مصر! ما العلاقة؟ وماذا حدث؟

وهي مع هذا، أقصــد ماما، مســكينة. لا تقدر على ســؤالي مباشــرة.فعلاقتنا في الأغلب مضــطربة. مثلها مثل معظم علاقاتي الموصــومة بالاضــطراب وبإيقاع القُرب فبُعد فقُرب فبُعد. إلا أن علاقتي بماما (وبابا بطبيعة الحال) تحديدًا تشكّل أكثر علاقاتي اضطرابًا إذ أننا نســكن منزلًا واحدًا مما يُصــعّب عليّ مهمّة التباعد حين يشــاء الفؤاد أن يبتعد. اللهم إلا الاعتكاف في غرفتي. فإن طرقت ماما الباب، أو ألحّت بسؤال أو طلب ما، أصبحتُ شديدة الحدّة.

لا لأن الحدّة تُناســبني أو تُعجبني، لكن لأن الظبّية التي تحاول الفرار من زمجرة الضباع، لا تستطيع. محاصَرَة. فيتحوّل ذُعرها المُقيّد بسرعة إلى غضب عارم كالذي كنت أرى ماما عليه في طفولتي.

هل أتحوّل تدريجيًّا إلى ماما؟

أكثر ما أخشاه هو أن أصبح أشبه ماما نهاية المطاف. مجرّد التفكير في هذا يزيدني رُعبًا وضيقًا. وغضبًا عارمًا.

ما هذا النمط الإنساني العجيب؟! يخشى الإنسان فعل «شيء» فيفعله. يخشى أن يكون على « شيء» فيكون عليه. يخشى أن يصبح « شيئًا» معيّنًا بين ليلة و ضحاها فيُصبح هذا الشيء قبل أن يجن الليل.

لكن...ماما أصبحت في السنوات الأخيرة، خاصة هذه السنة الأخيرة بالذات، أهدأ مما كانت عليه منذ أن كان هذا البيت.

تسألني أمي بشيء من تردّد، تحاول بسؤالها الاستفسار الغير مباشر عن لوحة بديعة:

- كأنك...لم تقومي برسم أنف لها؟ أم...أم أن اللوحة...لا زالت في مرحلة متقدمّة؟

- لا، بل انتهيت من أنفها. أقصد، المساحة التي يتوسّطها أنفها.

- طيّب...لِمَ؟

- لأن الصورة التي أنقل منها رديئة الجودة ولا تُظهر تفاصيل أنفها.

كانت ماما قد أشــارت، وهي تترك الرســالة في غرفتي، إلى رغبتها أن أســتبدل ورود ومناظر طبيعية جميلة بوجوه الناس التي أرسمها. قالتها تحديدًا وهي تنظر إلى عيني اللاجئ العجوز الواقف على الحدود اللبنانية في اللوحة التي عكفت عليها قبل «بديعة». لكنها عادت في ذات الليلة لتجدني أرســم وجهًا آخرا أكثر غرابة من ســابقه.إنني أضــاعف من حيرتها. وإني لأتلذّذ بهذا الشعور أحيانًا كثيرة.

مسكينة يا ماما.

- ممم...وكيف كان يومك البارحة؟

تسألني ماما وهي تقلّب ملعقة سكّر بنّي في كأس شايها الأحمر. أجيبها وأنا أُخرج كوب الحليب من المايكروويف وأضيف إليه ملعقة (نسكافيه) وملعقة سكّر أبيض وأقلّبهم ثم أضيف مياهًا مغليّة حتى يمتلئ ال(ماج) عن آخره.

- قضيته أرسم بديعة.

- وهل...قرأتِ الر-س-ا-ل-ة؟

لا أجيب. أحمل كوب القهوة وأخرج من باب المطبخ إلى غرفة المعيشـــة، فأجد بابا جالسًا على مقعد البيانو يقلّب بين نوتات (شوبين) وهو يدمدم بصوت عال: «بارا – با – با – باااااا». يبدو أنه متحمّس اليوم. متحمّس إلى درجة أنه لم يشـــعر بقدومي (العجيب أنه دائمًا لا يشعر بقدومي)، ولما لاحظ، صرف وجهه عنّي كأنه لم يرَني وبدأ مباشرةً في العزف (العجيب أيضًـــا أنه دائمًا يصـــرف وجهه عنّي حين يلاحظ قدومي). إنه يعزف مقطوعة ما لشـــوبين. لا أعلم أيها. لكن...أظنّها ال «Nocturnes». إنها مقطوعة رائقة وجميلة جدًا. نعم...نعم، نعم...إ نها هي. على الرغم من كل شـــيء إلا أن با با حقًا يجيد اختيار المقطوعات التي يعزفها. ما أجملها!

لكنني...لست في حال يمكّنني من الإتاحة لهذه الموسيقى العذبة لتسري كل السريان إلى نفســي. لســت في وضــع يخوّلني الاســتمتاع الكامل بها. ثَمّ حاجزٌ ما بيني وبين البيانو الآن. إنه حاجز القلق والخوف والانشغال بعُرس مريم. أأذهب؟

تدخل ماما بكأس الشــاي وطبق فطور صــغير به شــطيرة جبن. تجلس إلى جواري على المنضدة قبل أن تسألني وهي تضع الطبق على الطاولة المستطيلة أمامنا:

- هل...ستذهبين إلى العُرس؟

- لا أظن.

- لكن يا ليال...إنها صديقة طفولة. إن أغضبها تغيّبك عنها وقاطعتك إلى الأبد ستكون على حق. لا تفعلي هذا...أرجوكِ...اذهبي يا ليال.

الصــواريخ والمدافع تنطلق وتدوي في كل حوائط القلب. أحمل كوب القهوة وأنهض لأرحل دون إجابة ماما. لا ولا حتى الالتفات أو النظر إليها.

- ليال!

لا أجيب.

أمضي إلى جحري الدافئ: الغرفة. أغلق الباب. أجلس على سريري. أضع القهوة على الكومودينو. أرفع قدميّ على الســرير وأُســند كوعيّ على ركبتيّ ، وأُســند خديّ على كفيّ. كفيّ يعلوان ويهبطان على وجهي: من فروة رأسي إلى أسفل ذقني ومن أسفل ذقني إلى فروة رأسي في حركة غاضبة مضطربة. يستقران أخيرًا خلال فروة رأسي ممسكان بجمجمتي بقوّة كأنهما يحاولان السيطرة على الأفكار الغزيرة المتراكمة داخله. أشعر بتشتّت، وضياع، وصداع، ودوار فظيع.

وفي حلقي بكاء مكتوم. لا هو بخارج منه، ولا هو بذائب فيه. مختنق في قلبه ويزيدني معه اختناقًا. ثم أ سمع أقدام ماما ت سير نحو الغرفة وال «Nocturnes» لا زالت في الخلفيّة من بعيد.

يا ربّي...أين المفر؟

تطرق أمي الباب و تدخل فورًا. لم يكن طرقها للباب طلبًا بإذن للدخول، إنما إنذار بدخول محتّم. لا مفر. تدخل وحين تدخل تقول من موقعها عند الباب واقفةً:

- يا ليال، أرجوكِ. اذهبي وأعدك أن أفعل لكِ ما تريدين.

لا أجيب. ولا أرفع رأسي المزروعة بين كفيّ. أحاول الإشارة ببغيتي أن أبقى وحدي، لكن ماما تظل مُصرّة على مواصلة الحديث. تقترب منّي وتجلس إلى يميني.

- ما خطبك يا ليال؟ أخبريني....

جاء سؤال ماما الأخير هذا وأنا أرفع عينيّ قليلًا لتقع على لوحة بديعة. لا أدري لماذا صورتها مع سؤال ماما زادانني اختناقًا ودفعا بالبكاء المحبوس في الحلق إلى الخارج مُفرجين عنه.

اقتربت أمي منّي أكثر واحتضنتني بقوّة.

- حبيبتي...لستِ بخير. ربما لا أفهم تمامًا ما بك، لكنني أؤكّد لك أني أشعر بك شعورًا صادقًا من القلب أكثر مما تتصوّرين.

أبكي وأبكي. في صدري هموم مصفوفة فوق هموم، أود لو أزيحها - كلها أو بعضها - وأُخبر ماما عنها – كلها أو بعضها.لكن لا أ ستطيع. أنا عاجزة عن و صف مشاعري. إنني ألخّص كل ما يجول في نفسي – وما يجول في نفسي كثير ومعقّد – في كلمة واحدة. أقولها وأرددّدها مرّة بعد مرّة بعد مرّة:

- ماما أنا خائفة...خائفة...خائفة!

تندفع الكلمة في كل مرّة بثأثأة وارتجاف مضفورين بالنشيج.

تقبّلني ماما ثم تعزّز احتضانها لي.

- حبيبتي...هذا شعور فظيع. لكن لا مريم ولا غيرها سيفهم هذا. ولا نستطيع إلا أن نُسلّم بأنهم معذورون. واجهي الموقف يا ليال واذهبي.

- ماما هذا مستحيل! أموت ولا أذهب إلى هناك. أرجوكِ يا ماما، أرجوك! الموت أهون...والله الموت أهون من هذا!

أ سمع تنهيدة ماما. التنهيدة عالية هذه المرّة فعلًا لم يضخّمها صمتٌ. أما نشيجي، فهو شديد ويزداد شدّة مع كل ثانية تمر.

- ربما نحتاج إلى مســاعدة طبيّة من أجل هذا. ما رأيك يا ليال؟ آخذك الآن إلى طبيب مختص؟

لا أريد يا ماما...لا أريد. سأموت هنا. في هذه الغرفة.

- طيّب طيّب، اهدأي. ارتاحي قليلًا.

تدفعني ماما دفعة لطيفة إلى الخلف مشيرةً لي بأن أنام. أُسقط رأسي على الوسادة، تقبّلني قُبلة أخيرة، وترحل.تنظر إليّ من وراء الباب ثم تغلقه وتذهب.

إنّ التحوّل الملحوظ في سلوك ماما والذي لاحظته أول ما لاحظته ليلة أن عُدت من زيارة داليا، كان ليســتوقفني أكثر من ذلك لو أن الظروف كانت مختلفة. كنت حتمًا لأفكّر فيما يمكن أن يكون قد طرأ على أمي وأحالها بين ليلة و ضحاها من امرأة غضوب لا تنفك تغضب أو تكف عن البكاء، ولا تهتم كثيرًا بأموري، إلى أم حنون تقبّلني وتحتضــنني، وتُرســل إليّ برسالة، وتطلب منّي الذهاب إلى طبيب مُختص!

ماذا حدث؟

لكن الحالة التي لم تسنح لل «Noctures»أن تتخللّني، لم تسنح كذلك لنفسي أن تفكّر في أمر التحوّل وتأمّل سلوك ماما الذي لا زلت لا أعلم إن كان سلوكًا عارضًا أم سيصاحبها إلى الأبد.

حين أغمضـــت عينيّ، تذكّرت ثاني الكوابيس التي زارتني فجر هذا اليوم وأيقظتني هلوعةً. رأيت قاعة العُرس. ورأيت الازدحام. كان شـعورًا باردًا جدا. حتى أنني سـحبت غطاء السرير الذي أتلحّفه وشددته حتى لامس طرف أنفي. يا لشتاء يناير الذي لا يرحمني!

نعم...هي على حق. لن يفهم أحد ما أمر به. وسـلالم الجامعة النائية التي خلّصـتني من ضباع الحرم الجامعي، ليس لها أذرع تخلّصني الآن. يا لسلالم الجامعة التي لا تصحبني أينما رُحت.

أفكّر في مريم. الأرجح أنها الآن منهمكة ومشـغولة كل الانشـغال بتفاصـيل الزفاف. تصـفّف شـعرها، وتتزيّن، وتتأكّد من باقة الورد الذي سـتحمله إلى الزفّة، وتعلّق فسـتانها الأبيض الذي أرتني هو اسـتعدادًا لارتدائه خلال السـاعات القليلة القادمة. حولها أمها وأختها ومجموعة من صـديقاتها. هذه ترد على الاتصـالات الواردة على هاتف مريم المحمول بدلًا عنها،

وتقول: «مريم مشغولة الآن. كيف أساعدك؟». وهذه تساعد مريم في اختيار تسريحة مناسبة، تقول: «رفعة الشعر تناسب وجهك جدا!». وهذه تعتني بالوردات وتضعهم في مكان بعيد آمن إلى أن يحين موعد الحفل حتى لا يشوبها سوء.

وأنا...هنا. يخيفني هذا كله. أتشبّث بغطاء السرير وأنتحب وأتمنّى الموت لمجرّد التفكير في العُرس بكل تفاصيله تلك.

«إنه (مجرّد) عُرس».

ترنّ الجملة في رأسي ولسبب ما، أسمعها ترنّ بصوت الدكتورة إيمان. «إنه (مجرّد) عُرس».

«مجرّد» عُرس؟

أبتسم ابتسامة مرارة لا تطول. يعترضها فورًا النحيب الذي سبقها.

كيف يمكن للخوف أن يبدّد المعاني هكذا؟ كيف يمكن أن يجعل من أمور «عاديّة» بالنسبة إلى البعض، أمورًا فظيعة كل الفظاعة بالنسبة إلى البعض الآخر؟ كيف يمكن أن يجعل من «مجرّد عُرس» زلازل وبراكين تُرعب القلب ولا تزيده إلا هروبًا ووهنًا وتمنّيًا حقيقيًا للموت.

«مجرّد عُرس».

اسمحي لي يا دكتورة إيمان، اسمحي لي يا مريم. ليس «مجرّد» عُرس.

كل وجوهكم وجوه ضباع، وكل أصواتكم زمجرات، ولن تسكن الظبية حتى تفرّ.

أفتح عينيّ وأتطلّع إلى اللوحة ثم أحيل النظر إلى خزانة ملابسي البيضاء المستطيلة. أرى بديعة وبيتهوفن وفان جوخ نائمين كما تركتهم البارحة وحتى صباح اليوم. الهدوء والسكينة الذي هم عليه يجذبني إلى خلفية اللوحة التي قُمت بالعمل عليها البارحة ليلًا وهم نيام.

الانسجام...التجانس مع المحيط. التناغم بين عناصر كُتَل الواقع بتفاصيله. الحوار بين العناصر والمحيط. الأخذ من والإضافة إلى.

أنا في مشهد العُرس، عنصرٌ وحيدٌ معلّقٌ في اللا شيء، مصلوبٌ ومنبوذ.لا تناغم بيني وبين المحيط هناك. حدودي لا تتشابك مع حدود العناصر الأخرى. حدودي حادة وقويّة، تفصلني عنهم بشدّة وتعزلني عن المحيط هنالك تمامًا. أغلب الظن أنها باتت على هذا النحو الصلب لتقيني حرارة الشمس ومخالب الضباع في الغابات...لا أدري.

هدوءٌ ما يباغتني. أ سير إلى الثلاثي النائم على الأرض أمامي. أقرفص إلى يسار بيتهوفن ثم أريح رأسي على كتفه. تُصدر بديعة أصوات نوم خفيفة أسمعها أعلى من ال «Nocturnes» في الخارج. أجعل آخر ما تراه عيني قبل أن أغمضها هو ذقن فان جوخ الأحمر، وحذاء بيتهوفن الأسود اللامع، ومنديل بديعة ذا الكرات الملوّنة. أستأنس بهذه الصور القليلة

وأحتفظ بها بينما أفكّر في التضاد الواقع بين حالتي الهادئة الآن، وحالتي إن أنا ذهبت إلى العُرس الليلة. إنّ هذا التضاد البيّن قد أوضح المعنى وأكّده لديّ فما من رجعة: لن أستبدل ذُعرَ التنافر هناك بسكينة هذا التآلف.

لن أذهب.

.. الْجُزْءُ الثَّانِي

28..وُجُوهٌ بَيضَاءُ وخَمرِيّةٌ

ما أجمل فصل الربيع حين يتجلّى بألوانه ونسائمه مختالًا برشاقته بين الفصول!

إنّ هذا الهواء البارد الذي يضرب وجهي الآن، كان أوّل ما استقبلني فور وصولي. وهأنا أسير بصحبته وبصحبة الدفء اللطيف الوارد من شمس العصر التي تطلّ علينا على ا ستحياء بين الحين والآخر لتقطع إيقاع البرد وتجعل منه بردًا طيّبًا. إنه ليس بالبرد القارس الموجع، إنما برد ربيعيّ لطيف مُحَبّب إلى النفس.

إني، لا أقول «أ ستنشق» الهواء، بل أقول «أر شفه» وأ ستمتع با ستنشاقه وزفيره مثلما أستمتع برشفات قهوتي الصباحية. هذا لأن الهواء الآن هواء نقيّ نقاءً غريبًا! أظن أنني للتوّ عرفت معنى كلمة «هواء» وكيف يكون استنشاقه.

كنت أنوي مُسبقًا أن أستقل سيارة أجرة عند وصولي مباشرةً لتأخذني إلى المكان المحدّد . إلا أن الشعور الذي راودني عندما رأيت المدينة كان ساحرًا... فَرَضَ سحره عليّ فسرتُ بلا هدف في شوارعها كالمُسيّرة جبرًا، أو مُنوّمة مغناطيسيًا. إنها طبيعة مغناطيسية حقًا تجذبني جذبًا ليس في وسعي ردّه. ولا أظن أنني أود ردّه أصلًا. أيّ عاقل هذا الذي يفكّر في الانسحاب من هذا المشهد البديع؟ من ذا الذي يغضّ البَصَرَ عن جنّات الزهور؟

الشـــوارع متداخلة حول ميادين مزدحمة. أرى العالم في تنوّع الوجوه من حولي. وجوه آســيوية، وجوه أوروبية، ووجوه أحتار إذا كانت عربية أو تركية أو من إحدى مناطق البحر الأبيض المتوســط. ووجوه عربية أصــيلة؛ تلك لا أُخطئها أبدًا. إن أحتار لتشــابه بعض ملامحها مع ملامح شــعوب أخرى، أتأكّد من مظهرها المتحفّظ في الأغلب، أو من عباءة ســوداء ترتديها امرأة بينهم، أو حجاب رأس ترتديه امرأة أخرى، أو كلمة أســمعها في حديثهم: «شــكرًا»، «نعم»، «والله...»، «إن شـــاء الله». أو من نظراتها المنبهرة الناظرة حولهاإلى المدينة في شيء من إعجاب أو ذهول أو شعور بالغُربة (لعلّها تُشبه نظرتي الآن). أرى أناسًـا في أزياء لم أرها من قبل. وأرى أغلبية من أناس في أزياء متشـابهة تُشـبه أزياءنا في بلاد العرب: jeans(جينز)، و t-shirt (تي-شيرت)، وحذاء رياضيّ، ومعطف طويل.

وبالرغم من كل هذا الازدحام من حولي، إلا أن المارّة والسيارات يسيران بانتظام دقيق. تنتظر حشود من المارّة على جانب من رصيف واحد يفصلُ بين شارعين أو يقطع ميدانًا، منتظرين أن تخضـرّ إشـارة مرورهم. تخضـرُّ الإشـارة فتتوقّف كل السـيارات إلى أن يقطع الحشد الطريق نحو الجهة المقابلة في سلام.

وأنا بين المارّة ، أقطع أحد الطُرُق الآن. أقف وإلى يميني رجل مُســنّ مُمسِــكًا بعُكّاز أســود طويل يتّكّئ عليه. وإلى يســاري فتاة ورجل آســيويان. يبدو لي أنهما من اليابان أو الصين. وقد يكونان من غير بلد آسيوي. لا أدري. أمامي رجال ونساء كُثُر. منهم الأشقر ومنهم الأســمر والخمريّ. أرى امرأة طويلة القامة ترتدي ثوبًا أخضــر قصــيرًا مُزركَشًــا بدرجات من الأخضر الأفتح والأصفر والأبيض وألوان أخرى تُلوّن الأشكال والمساحات الأصغر حجمًا على الفستان. تعلّق على كتفها حقيبة بنيّة صغيرة، وفي يدها اليمنى تُمسك بهاتفها المحمول. شعرها أسود قصير مجعّد وكثيف جدا. هو أوّل ما يلاحظه المرء عندما ينظر إليها. كأنها من المكسيك أو البرازيل أو البرتغال. إلى يمينها امرأة أخرى أقصر قليلًا. شقراء، شعرها ذهبيّ متوسّط الطول وأملس. ترتدي jeans أزرق فوقه معطف أسود طويل وحقيبة من الجلد الأسود. في قدميها حذاءان كلاسيكيان بنيّان. يقف حولها أناس آخرون محتشدين على الرصيف معنا. لكن الرجل والامرأتين هم كل ما تمكّنت من رؤيته بوضوح من موقعي وخلال الثواني القليلة التي انتظرنا الإشارة فيها.

تخضّر الإشارة وينفتح الطريق أمامنا. يسير الحشد – وأسير بينهم – إلى الجهة المقابلة ثم يفترق كل واحد أو كل مجموعة منّا إلى اتجاه آخر. أســير في خطّ مســتقيم وأنظر حولي. عن يميني ســيارات ومارّة ومتاجر وأعداد كبيرة من الدرّاجات. إنّ عدد الدرّجات هنا يساوي عدد السيارات وقد يفوقه. لم أر في حياتي هذا الكم من الدرّاجات السائرة في الطُرُق!

أرى متاجر لا أتمكّن من قراءة أسـمائها المطبوعة على الُيفَط أعلاها. بعد عدّة محاولات، أفهم بعضـها بالشـبه أوبالقياس. أطفال بمعاطف أكبر حجمًا من أجسـادهم الصغيرة. وأغطية رؤوسهم الصوفيّة تكسو الجزء الأكبر من جباههم ووجوههم فبالكاد أرى أعينهم المُلتمعة المستترة بمكر طفولي من تحتها تنظر إلى أعلى.

أما عن يسـاري فأرى قناةً أو نهرًا تنعكس عليه صـورة الأشـجار الكثيفة التي تسـيّجه، فيبدو أخضر زيتيًّا مُصفَرًّا يفتح أو يدكن لونه حسب سطوع الشمس وقوّة النور المنبعث منها. أسير على الجسر المحاذي للقناة وأتأمّله والأشجار التي تحيط به. أرى لافتة مطبوع عليها كلمة ما إلى جانب علامة ما على شـكل ما، لا أفهم معناها تمامًا لكنني أُرجّح انّها قد تكون إشـارة إلى المراكب السـياحية التي تمرّ بالقناة. وقد يكون المعنى غير ذلك، فهذا مجرّد استنتاج على أي حال.

أما على مرمى البصر فأرى طاحونة مروحيّة كبيرة يبدو أنها قديمة. جسمها بنّي سميك، ومراوحها مسـتطيلة وطويلة على شـكل زهرة مفتوحة يحرّكها الهواء ببطء فتدور بلونيها الأحمر والأبيض. إلى جانب الطاحونة حقول واسعة جدا. يا الله! كأنها جنان! أشجار متباينة الطول والكثافة والخضـرة. وأزهار حمراء وصـفراء وبنفسـجية. أرى مجموعات من بعيد لأناس يفترشون الحشائش وسط الأزهار أمام الطاحونة

ويستمتعون بنسائم الربيع اللطيف، مُوجّهين رؤوسهم نحو الشمس ليصيبهم قليل من الدفء الذي يتوقون إليه من العام إلى العام.

ما يزال لديّ بعض الوقت. لأذهب إلى هناك وأستمتع كما يستمتعون. نصف ساعة، لا أكثر. بعدها، أستقل سيارة الأجرة أو المترو وأذهب.

في طريقي إلى الحقول البعيدة، أسير بمحاذاة متاجر كثيرة متجاورةٌ أبوابها. أرى متجرًا يبيع أنواعًا شتّى من الجُبن. ومتجرًا يبيع البوظة وحلوى «الوافلز»(waffles)، يتكدّس الزبائن في طوابير طويلة أمام بابه، ومتجرًا للبطاطس المقليّة التي تشتهر بها المدينة،وعدّة متاجر متفرّقة تبيع تذكارات سياحية يتوافد عليها السائحون. وأرى مقاهي ضيّقة مكتوب عليها «Coffee Shops». أبتسم. لو لم أكن سمعت عنهم قبل أن آتي لظننتها مقاهي عادية، غير أن أ حدهم أخبرني – لا أذكر من – أن أي مقهى يُرفَع على لافتته كلمة « Coffee Shop»هنا في العاصمة الهولندية، أمستردام، هو مكان رسمي ومُرَخّص لبيع الحشيش والMarijuana . يفوح منه رائحة نفّاذة لا تَسُر. قيل لي أنها رائحة حلوة، لكنني حقيقةً، وهأنا أشمّها الآن في هذه اللحظة، لا أشعر بأي حلاوة فيها! رائحتها تذكّرني بالسبانخ أو الملوخية الغير طازجة. أو حتى الفاسدة! ههههه...تُضحكني الفكرة فأضحك وأنا أقطع طريقي بين زحام الرؤوس.

أمر بـ سوق أزهار يـ ستوقفني مدخله. عرض فائق الجمال لأزهار فائقة الجاذبية. باقات من الأزهار المختلفة مو ضوعة في صناديق من القَشّ. في كل صندوق لافتة صغيرة مربّعة خشـبية مكتوب عليها بخطّ اليد بطبشـور أبيض اسـم الزهرة وسـعرها باليورو.أرى أزهار «Tulips»(الخزامى) حمراء و صفراء وبيـضاء وزرقاء ووردي نا صع. إنه ذروة مو سم تفتّح أزهار الـTulipsفي هولندا: شهر إبريل؛ في السابع عشر من إبريل تحديدًا.

يتوسّـط صـناديق ال Tulipsالملوّ نة أز هارٌ أخرى مثل ال «Daisy»(البابونج)، وال «Buttercups»(شـقائق النعمان)، والورد البلدي، وعبّاد الشـمس، وغيرها من الزهور: ألوان وألوان منها.

تخرج من المحل بائعة جميلة تبتسـم ابتسـامة تحيّة. أحيّيها بإيمائة رأس وأمضـي أُكمِل السير في طريقي إلى الطاحونة.

برؤية زهور ال Tulipsوغيرها عن قُرب، يبدو أنني تشـبّعت قليلًا إذ أعي فجأة أنها لم تكن فكرة منطقيّة أن أنتظر لنـصف ساعة إ ضافية أقـضيها في الحقول، خوفًا من أن يفوتني الميعاد المحدّد. أضـطرب قليلًا وأقف فجأة بعد خطوتين من متجر الزهور وأركب أوّل سيَارة أجرة.

29..مُوسِمُ الخُزَامَىْ

أعطيت سائق الأجرة العنوان كما دوّنته من على الإنترنت على ورقة بيضاء صغيرة احتفظت بها في محفظتي السوداء طوال رحلتي إلى أمستردام.

أُحدّثه بالإنجيليزية آملةً أن يفهمني. ويبدو أنه مُعتاد اللغة ويألفها بسبب كثرة السيّاح الأجانب المتوافدين على العاصمة الصغيرة. يسير بنا السائق الأربعيني أصفر الشعر، أبيض الوجه، بنيّ العينين، إلى الشارع حيث العنوان المقصود.

عند المبنى رقم 9، يتوقّف.

- 10 Euros, please.(عشرة يوروهات من فضلِك).

- Here you go.(تفضّل).

أُنزِل حقيبة السفر الصغيرة التي كنت أجرّها معي منذ أن نزلت من مطار أمستردام وأخذت أتجوّل بشوارعها. أجد امرأة تقف أمامي. إنها امرأة في أواخر الأربيعينات أو أوّل الخمسين على ما أظن. شعرها أصفر فاتح جدا أميل إلى البياض يسمّونه « platinium white»(أبيض بلاتيني). قصير وهشّ، فلا هو بالمجعّد ولا هو بالأملس. به خشونة خصلات الشعر عندما يتقدّم بصاحبته العُمر وينخرط أصفره في أبيض فضّي دخيل عليه.

الســيدة ممتلئة قليلًا. ترتدي معطفًا ضخمًا بامبي و jeans أزرق له قصّة الCharlestoneحيث يتّسع الساقان من أسفل نسبة إلى أعلى البنطال، وتنتعل حذاءً رياضيا أبيض. تقف واضعة يديها في جيبي المعطف البامبي. ما إن أراها حتى أتعرّف عليها فورًا. إنها هي. إنها تُشبه تمامًا صورتها على الموقع الإلكتروني. أبتسم وأنا أجر حقيبة السفر بيدي اليمنى، وباليسرى أُمسك بهذا القريب إلى قلبي الذي ظللت أحمله طوال الرحلة من مطار القاهرة إلى مطار أمستردام وشوارعها من شدّة خوفي أن يصيبه مكروه...لوحة بديعة.

أسير نحو السيّدة. عندما ابتسمتُ لها عَلِمَتْ (آنا بارت) أنني المستأجرة، فابتسمت واقتربت منّي وهي تُخرج يدها من جيب المعطف لتحيّيني.

جَرَت العادة أن أستأجر شققًا أثناء رحلاتي لأي من البلدان التي أزور. هذا لأنني أكره أجواء الفنادق المنعزلة التي تُضفي على النزلاء إحساس السياحة وشيئًا من الغُربة. أما استئجار الشقق من مناطق وسط البلد فتُشعرني وكأنني من سكّان البلد لا الضيوف عليها، فلا أنعزل عن الأجواء الحيّة للبلد في الشوارع والمتاجر الحيويّة التي يذهب إليها سكّان المدينة الأصليّون.

تبِعتُ السيدة آنا إلى داخل المبنى. صعدنا سلّمه الواسع الأبيض إلى الطابق الأول. مشينا إلى يسار السلّم في ممر طويل ينتهي بباب المنزل. أخرجت آنا مفتاحًا من جيبها وفتحت الباب فدخلنا.

تُشعل آنا أنوار المنزل وهي تسألني عن الرحلة والجو وكيف وجدت أمستردام حين وصلت. أخبرها أن الرحلة كانت لطيفة وأنني أُعجبت كثيرًا بالمناظر الطبيعية التي تزيّن المدينة كلها. تبتسم آنا ثم تعرّفني بتفاصيل الغُرَف والخدمات الذي يوفّرها المنزل:

إنه منزلٌ صغير. عند دخوله، نجد إلى اليسار شمّاعة للمعاطف وصندوق خشبي صغيرمُعلق أمامه في الجهة المقابلة إلى جانب مرآة مستطيلة متوسّطة الحجم ذات إطار بسيط جدا أسود خال من أي زخارف أو تعاريج أو ما شابه. نسير إلى الأمام قليلًا فنجد عن يسارنا غرفة النوم الوحيدة في المنزل. في الغرفة سريران واحد معلّق فوق الآخر، أمامهما تسريحة صغيرة تعلوها علبة kleenex. بمحاذاة التسريحة نافذةٌ متوسطة الحجم تطِلّ على أشجار كثيرة تحجب رؤية الشارع.

بعد الغرفة مباشرةً، حمّامٌ صغير أيضًا. جدرانه من طوب حجري من اللون البنّي الفاتح جدا الأميل إلى ال Yellow Ochre المُنَغبَش بدرجات مختلفة من البنيّ و شيء من برتقالي مكتوم.

أمام غرفة النوم والحمّام، غرفة معيشة تُشرح الصدر. فهي تطلّ على بلكون وا سع، قد يكون أوســع غرف المنزل،يطل على شــوارع وســط المدينة وجزء من القناة والمناظر الطبيعية الأخّاذة. أما في غرفة المعيشــة، فأريكة مستطيلة من اللون الرمادي الفاتح، أمامها طاولة عليها كتب ومجلّات هولندية. أمام الأريكة والطاولة، شا شة تليفزيون LCDمعلّق على الحائط. وتزيّن جدران الغرفة وفوق التلفاز لوحاتٌ صــغيرة ومتوسّــطة الحجم من الألوان المائية والزيتية لمناظر طبيعية وفلاحّين في الحقول وزهور Tulips.

تنفتح غرفة المعيشــة على مطبخ مفتوح على طراز المطابخ الأمريكية. في المطبخ طاولةٌ مســتطيلة تعلو ها بعض مســتلز مات المطبخ وكنكة كهر بائية بيضـــاء و ماكينة قهوة الإسبريسو/الكابتشينو سوداء. وطبق به شوكولاتة وبون بون وبسكوت. ثم ثلّاجة صغيرة وحوض وmicrowave.

تُمســك آنا بأوراق كانت قد وضــعتها على طاولة المطبخ مُســبقًا وتُطلعني على قوانين ولوازم الا ستئجار ثم تطّلع على جواز السفر الخاص بي وتسجّل البيانات في نسختين من الأوراق. نمضي كلانا على الأوراق، ثم تعطيني نسخة وتحتفظ بالأخرى.

- If you need anything, just give me a call.(إن احتجت إلى أي شيء فاتّصلي بي)

- Okay.

- I wish you a pleasant stay, Layal. (أتمنّى لكِ إقامة سعيدة يا ليال)

- Thank you, Anna.(شكرًا، آنا)

صاحبت آنا إلى باب المنزل حتى غادرت.

أتاح لي جوُّ الشـقّة المُدفَأ أن أخلع معطفي دون أن أشـعر بالبرد. وهأنا أتجوّل في غرف المنزل لا أدري ماذا أفعل. أذهب إلى غرفة المعيشـة وأُمسـك بلوحة بديعة التي كنت وضـعتها على منضـدة عند دخولنا. أنظر إلى وجهها: «جينا أهو بلد عَمْ أبو بيت أصـفر يا بديعة».

جلستُ على الأريكة أنظر إلى اللوحة. ماذا أفعل الآن؟ أو شكت الشمس على الغروب والليل يقترب وأغلقت كل المتاحف والمزارات السياحية أبوابها. لكنني لازلت لا أشعر بالنعاس على الرغم من كل ما أشعر به من تعب. أميل بجذعي إلى الوراء وأُسند رأسي على ظهر الأريكة. أغلق عينيّ محاولةً أن أفكّر فيما يمكن أن أمضي الساعات القادمة من اليوم فيه.

وإذ بالأفكار تتحوّل سـريعًا عن مسـارها المحدّد. يا للأفكار المشـاغبة العنيدة التي لا تَمضي كيف نسيّرها، إنما كيف يحلو لها – وما يحلو لها لا يحلو لنا عادةً.

بعد عُرس مريم المُقام في الأول من مارس السـابق (والذي لم أحضـره)، بدأت تزداد حالتي سوءًا. مضت الشهر ونصف الشهر الماضية في أوجاع بعد أوجاع واضطرابات لا أرى لها أولًا من آخر.

كانت اتصـالات مريم قد انقطعت نهائيًا. وأظن– بل أنا متأكدة–أنه بتغيّبي عن العُرس، قد اتخّذت فعلًا القرار الذي لوّحت به لي يوم واقعة البلكون حين قالت أنها لن تتحمّل أفعالي كثيرًا مهما كانت الأسباب.

وكانت سارة قد سبقتها في أخذ القرار نفسه منذ الرسالة التي أرسلتها لي يوم استقالتي والذي يقول علنًا ما قالته مريم بصمتها ضمنًا.

أما مايا فلا زالت تحاول. تغضـب أحيانًا فتُرسـل رسـائل من نوع: «أأنت مجنونة أم ماذا؟». ثم تهدأ فتتحوّل رسائلها إلى: «ليال، أرجوكِ أجيبيني. لنتحدّث فيما يضيرك ونجد حلًّا سـويًا. أحبكِ كثيرًا». أجيبها أحيانًا ولا أجيبها أحيانًا، لكنني لم ألتَقِ بها منذ أن التقيت بها في المقهى وتحدّثنا عن لوحة فرمير.

لا يمكن أن أنكر أن مايا هي أذكى صديقاتي في التعامل معي. لا أظنها تفهم تمامًا طبيعة الأفكار والحالات التي تنتابني، لكنها – إلى حد كبير –تستطيع قراءة احتياجاتي ولو بشكل مُبهَم بعض الشـــيء، يجعلها تخلط في تصـــرفاتها صـــالحًا بطالح. ومع هذا، فإنني لم أعد أ ستطيع التوا صل معها. في قلبي غضب شديد من سارة ومن مريم. وليس في قلبي غضب من مايا. ولا زلت لا أريد رؤيتها أو التحدّث إليها. لا لشيء يخصّها، لكن...لأنني صرت حانقة على العالم كله. كارهة لكل الناس ولكل شـــيء. حتى الجهود اليومية البســـيطة التي نُخوّل القيام بها، ومجرّد فعل الضـــغط على أزرّة الهاتف المحمول لصـــوغ رســـالة نصـــيّة قصيرة، أصبحت أمورًا سخيفة لا أستطيع القيام بها. وأصبح كل الكلام، من تكراره، فارغ المعنى معدوم التأثير.

بدأتُ أســـير في البيت أبكي كمعتوهة تائهة فقدت عقلها. لم يعد يعنيني أن تراني أمي أو أن يسمعني بابا. ولم أعد أحاول أن أتحامل على نفسي وأُلزمها غرفتها عند أوقات الغضب أو الانهيار. أصبح كل النشيج علنًا وكل الصراخ مسموعًا. تأتيني النوبات فجأة عقب نوبة من الأفكار المهتاجة المتخبّطة. يأتياني راكضـــين مهلوعين؛ ماما تحتضـــن وتُقبّل وبابا يعبّر عن قلقه في صورة أ سئلة: «الو ضع مقلق يا هالة. ما العمل؟». أبكي بين أحـضانهما حتى أغفو أو أهدأ.

تأتيني النوبات على شكل ضربات قوية لا أستطيع صدّها. وأفكار الموت تأتي مصاحبة لتلك الضربات كلها. أتكوّرُ كالجنين على السرير أو المنضدة أو الأرض وأنتظر الموت. ومن شدّة هلعي أذيع تلك المخاوف علنًا: «سأموت الآن. سأموت الآن».

استمرّت إلحاحات ماما على أخذي إلى طبيب طوال فترة الشهر والنصف. لكنني كنت يائسة إلى الحد الذي جعلني أرفض إلحاحها جُملةً وتفصيلا.

أصبَحَت كل الأعمال مُرهقة جدا بالنسبة لي: الأكل والشرب والنهوض من السرير والابتسام في وجه ماما أو بابا ودخول الحمّام. حتى لوحة بديعة لم أعد أقوى على استئنافها. دفعت بنفسي فعلًا عدّة مرّات وأجلست نفسي أمامها كرهًا، إلا أنني في كل مرّة أجلس فيها قبالتها، كنت أتسمّر وأشعر بأسى شديد ينتهي ببكاء هادئ أو مسموع ثم أدعها وأرحل. أو أستلقي أمامها على الأرض كالمُغشى عليه.

اعذريني يا بديعة...

كنت كمريض عاجز، لا يترك البيت إلا نادرًا ولا ينفك ينهض من سريره إلا لحاجة مُلِحّة. أنظر إلى نفسي في المرآة ولا أرى إلا عينين ذابلتين وهالة رمادية تلوّن محيط الجفنين فتسحبهما إلى أسفل. أصرخ في انعاكسي المطبوع على المرآة: «أكرهك». ثم ألين وأبكي مشفِقةً عليّ: «أحّبك».

وفي صــباح من الصــباحات المُشــرقة القليلة أثناء تلك الفترة، وقعت يدي على مقالة إلكترونية بعنوان: «موسم الخُزامى في أمستردام». تناولت المقالة تاريخ زهرة ال Tulipفي هولندا وتدخلّها المباشـر في اقتصــاد هولندا وأمســتردام خاصــة بما أنها العاصــمة ومدينة ســياحية وحيويّة جدا. وتناولت أيضًــا الاحتفالات والمراســم المُقامة في هولندا احتفالًا بموسم الربيع؛ الTulipsوغيرها من الزهور.

ثم جالت في بالي خاطرة بدأت ب «آه لو» حتى تحوّلت تدريجيًا إلى: «ولِمَ لا؟». وفي لحظة حماســيّة قرّرت فجأة أن أســافر إلى أمســتردام: إنه موســم الربيع...موســم تفتّح الزهور...لأذهب وحدي إلى بلد الزهور، مســقط رأس فان جوخ. ولآخذ بديعة وألواني معي...وبيتهوفن وفان جوخ! حتمًا ســيأتون كذلك. ولأُكمل لوحة بديعة بين حقول ال Tulips وعبادات الشــمس والطواحين والأنهار والقنوات. لآتي ببديعة من مصــر إلى بلد لم تره أو تســمع عنه أبدا في حياتها، ولينتهي هذا الآن.... فالهواء النقيّ والزهور والطبيعة الآسرة حقٌ إنساني. لا يكن المحرومُ محرومًا إلى الأبد! إن لم ترَ هذا من قبل، فلتره الآن.

وهأنا الآن – بعد هذا اليوم المعيّن بأسبوع –أجلس على أريكةفي قلب مدينة أمستردام. معي ألواني وفراشــيّ ولوحة بديعة و بديعة وبيتهوفن و فان جوخ. تركنا الغرفة وجئنا للزهور.

الروح تتوق إلى السفر. تحتاج أن ترى وجوهًا غير الوجوه، وهواءً غير الهواء، وألوانًا غير الألوان، ولغةً غير اللغة. تحتاج أن تُسيّر المياه الراكدة بداخلها وتذهب من السكون الكئيب القاتل إلى حالة حركة فيها احتمالات الأمل والبدايات الجديدة. لا سيما إن كان سفرًا إلى بلد مثل هولندا فيه ما فيه من طبيعة ترمي الرائي في شباك السِحْر، ومتاحف فنيّة قديمة و حديثة، ومراكب تقطع القنوات الطويلة الضيّقة البرّاقة، ومزارع وأرياف على الحدود بها دواب غير الدواب وشمس غير الشمس.

بدأ النُعاس يغلبني. إنّ رأسي يتمايل بتمايل ما قبل النعاس. وفي هذه اللحظة وأنا ما بين الصحو والنوم – لا أدري كيف – أتذكّر تلك الأبيات وأردّدها حتى أغفل تمامًا....

سافر تجد عوضاً عمن — وانصب فإن لذيذ العيش في
إني رأيت وقوف الماء — إن ساح طاب وإن لم يجر
والأسد لولا فراق الأرض ما — والسهم لولا فراق القوس لم
والشمس لو وقفت في الفلك — لملها الناس من عجم ومن
والتبر كالترب ملقي في أماكنه — والعود في أرضه نوع من
فإن تغرب هذا عز مطلبه — وإن تغرب ذاك عز

30..إِكْرَامُ الْمَيّتِ دَفْنُهُ

أستيقظ في صباح اليوم التالي على صوت العصافير المُغرّدة في الخارج لأجد نفسي م ستلقية على الأريكة. كنت قد نمت بثيابي إلى جانب لوحة بديعة. تنفتح عينيّ شيئًا ف شيئًا متحاشية ضوء الصباح القوي النافذ من البلكون أمامي. يا له من منظر!

عجيبٌ هو شأن الإنسان. أصحو أحيانًا فأجدني أردّد أغنية من أغاني أم كلثوم أو الشيخ إمام، أو مقولة أحبّها، أو شعارًا معيّنًا، أو هتافًا ثوريًّا، أو بيت شعر جميل. الآن أجدني أدمدم تلك الأبيات التي غفوت وأنا أردّدها. يبدو أنها نامت واستيقظت معي:

سافر تجد عوضًا عمّن وانصب فإن لذيذ العيش في

إني رأيت ركود الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يسر لم

أخذت أكرّر هذه الأبيات للإمام الشافعي، وأكرّرها طوال رحلتي من الأريكة إلى الحمّام. أقول «رحلتي» لأن المهمّة بدت شاقة وأقدمت آخذ كل خطوة فيها ببطء شديد من وقع الإرهاق الذي أشعر به.

أما الآن وقد بدّلت ثيابي واستعددت للخروج، آخذ حقيبة ظهر backpackسوداء أضع فيها الألوان والفراشي والبالتة وبقية المستلزمات، ثم أعلّق الحقيبة على كتفي الأيسر. وعلى الأيمن، أعلّق الحامل الطويل الموضوع في حقيبتة الطويلة المُخصّصة للتنقّل، وأُمسِك باللوحة في يدي.

أرتدي المعطف المعلّق إلى جانب الباب، أتأكّد من أنني وضعت المفتاح والآي باد والهاتف المحمول في الحقيبة أيضًا، وأخرج في صحبة رفاقي الثلاث.

أتجوّل بين الطرقات والأشجار والزهور. أنظر في وجوه الناس. إنّ الساعة الآن التاسعة صباحًا، والشوارع في حركة شديدة. ازدحام دافئ. يتجدّد بداخلي شعور الاستمتاع بالهواء والزهور الذي لازمني منذ البارحة أول ما وصلت إلى هنا.

أمضي براحة وسلام كنت قد نسيتهما منذ زمن طويل. وهأنذا أقف أمام حديقة كبيرة أرى فيها مجموعات صغيرة مختلفة الوجوه. ينشرح صدري انشراحًا مبهجًا، ثم أختار أكثر البقاع الخالية فيها وأسير إليها. أنصب الحامل واللوحة وأضع الفرشات في تجويفات صغيرة في الحامل مخصّصة لهذا الغرض. أفرغ الألوان على البالتة، أضع سمّاعات الأذن الموصلة بهاتفي المحمول وأشغل الـEroicaثم أنقر على الآي باد فأُعيد الإتيان بصورة بديعة.

ما هذا؟ يا لحظي! يا لغبائي! يبدو أنني لم أزِنْ الأمور على نحو سـليم إذ لم أعِ معنى أن أنصب لوحة وأرسم في بلد مثل هولندا – مولع بالفنون التشكيلية. فها هم الناس من حولي يُقبِلون ويقفون لينظروا إلى بديعة فيتضخّم ارتباكي.

شـاب ثلاثيني طويل، عريض المنكبين، أبيض البشـرة، رمادي العينين، ملامحه حادّة ومدبّبة. نظرته عميقة ومتفحّصـة تُشـعر من ينظر إليه بارتباك وعدم ارتياح. فيها جمود وفضول في آن واحد. يرتدي سروالًا أزرق قما شيًّا ضيّقًا(slim)، وقميصًا أبيض مُطعّمًا بخطوط زرقاء طولية، فوقه جاكيت خفيف (sweat-shirt) أبيض. يقف ويتفحّص اللوحة ثم يسأل:

- Who is she?(من تكون؟)

- Oh! That’s a long story…she’s…Hmmmm…the daughter of a famous Egyptian serial killer.(أوه! إنها قصـة طويلة...همممم...إنها ابنة واحدة من أشهر السفّاحات المصريات)

طبعا كنت أود أن أقص عليه المزيد من تفاصيل قصة ريّا وسكينة. وبديعة. إلا أنّ المحرّر الصحفي و سيادة المحقّق قد أتآ معي من القاهرة إلى أمستردام. وها هما يجلسان قبالتي يتربّعان حشيش الأرض، وينظران إليّ بتحدٍ بينما يقومان بأول مهامهما التي لم أكلها أبدا إليهما. هما يكلّفان نفسهما بنفسهما. والحقيقة أنني لا يمكن أن ألومهما. فأنا أنساق كل الانسياق وراء أوامرهما دون أدنى مقاومة من ناحيتي. في كل مرّة.

انطبعت على وجه الشاب علامات دهشة قويّة. إنّ عينيه قد اتّسعتا اتّساعًا ملحوظًا. وحاجباه قد ارتفعا حتى كادا يستقيمان مع خط منبت الشعر. إنني أشعر بالشفقة عليه حقا. حتمًا كان ينتظر، وهو يستدير نحو لوحتي المنصوبة، أن يرى منظرًا طبيعيًا، أو بورتريه لفتاة جميلة، أو طفلة شقراء تبتسم ابتسامة حيّة عريضة وتزيّن شعرها القصير الأملس بشريط حريري أزرق أو وردي. وإذ به يرى وجهًا لشعر غير منمّق، وتفاصيل مشوّهة بعض الشيء...مسكين.

ثم أومأ بيده وهو يقول:

- Why would you do that?! (لِمَ تفعلين هذا؟!)

أبتســم... لا أدري ماذا أقول. إنه لا يزال ينظر وينتظر إجابة. يا الله...بماذا أجيبك أيها الغريب؟!

- Hmmm…I don’t know. (هممم...لا أدري)

يبتسم ابتسامة لا تخلو من السخرية والتعالي، ويرمق بديعة بنظرة أخيرة قبل أن يستدير ويمضي في طريقه.

لا عليكِ يا بديعة...

نعود إليكِ.

العُنُق...إنه العنق المُختنق بما يختنق به: البكاء. ذاك العنق القصــير النحيل المُختبئ داخل الجلباب الأبيض. وإنه هذا البكاء المختنق العالق في حلق العنق، المختبئ في الجلباب، الأكثرُ إيلامًا على الإطلاق.

في البكاء فرجٌ للهمّ وإيذان بهدوء وشـيك. لكن كيف البكاء، والخوف يقف متربّص يدفع به في الجهة المعاكسـة لمسـاره الطبيعي نحو قنوات الدمع؟ كلما حاولت دمعةٌ الانفلات والنفاذ من الحلق عاليًا نحو العينين، زجّها الخوف إلى أسـفل فأسـفل. يقف كحارس غشيم؛ لا يهدأ ولا ينام ولا يدع للبكاء منفذًا.

أوزّع لون لحمّي قريب من لون بشرة وجه بديعة، على ما هو ظاهر ولم يختبئ من رقبتها. أدمدم بينما الفرشاة الكبيرة العريضة ترسو على سطح الكانفس مرّات بعد مرّات:

إنّ البكاء نتاج لحالة حُزن.وفي الحُزن منطق. يبكي الإنسان حين يعلم أنه فقد شخصًا عزيزًا لن يراه ثانيةً، أو حين يؤذيه أحدٌ بكلمة جارحة، أو حين يفقد شـيئًا يحتاجه ويقدّره. أما الخوف، فإنه ملعون. أذكّركم بأنه ملعون! لا يعرف المنطق. ومع هذا، فإنّ حالة الحُزن وحالة الخوف متلازمتان كتوأم ملتصق: ليسا بشيء واحد، لكنهما صديقان حميمان يلحق الواحد منهما بالآخر. يسيران سير الراعي والغنم. هذا يقود وهذا يلحق به من خلفه.

الخوف كالتسـمّر وسـط النيران. لا يمكن أن يكون المُحترق «حزينًا» وهو يحترق. بل «هلوعًا»، لا يعي ماذا يجري ولا إلى أين سـتؤول به الأمور. ولَكَم سـمعنا عن أناس أودوا بحياتهم بأيديهم من شدّة الخوف: شخص تسمّر أمام شاحنة مُسرعة

بدلًا من أن يفلت بحياته ويركض نحو الرصيف، فمات. أو شخص نشب في بيته حريق فقفز من نافذته في الطابق الخامس، فمات. تمامًا كالظبية النافرة. إنّ لدى كل هؤلاء ذات القلب الهلوع الذي لا يعرف أي منطق إلا منطق الفرار.

بعد الحريق، بعد النجاة، بعد زوال الخطر، يعود المنطق. ويعود الإدراك. وتعود الأفكار. الآن الحزن. الآن البكاء.

وهذه الطفلة الصغيرة التي وقفت أمام المحقّق تقول أنها خائفة، من كل أهلها، كم عساها تسمّرت بين النيران، وكم مرّة بكت حُزنًا بعد جلائها؟ أم أنها كانت بين نيران مستمرّة لا تنطفئ؟

لست متأكدة. لكنني بالتأكيد سوف أُضيف إلى حدود الرقبة الخارجية بعض الدُكنة اللحميّة الإضافية ليتم قوامها وشكلها. إنّ الرقبة مخروطة، لذا، بإعطاء الحدود الجانبية لونًا أعمق يتشابك مع الخلفيّة المحيطة به، أكون قد أشرت إلى عُمق امتداد الحدود إلى ماهو بعد الخطوط. إنها إشارة إلى ما لا نرى من الخلف؛ ربما هناك – في هذه المنطقة السريّة الغامضة المُعتمة – احتبس البكاء؟

وبين كل الأصوات اللطيفة التي تحوطنا من موسيقى، وأجراس الكنائس، والعصافير، وحفيف أوراق الشجر الخضراء، وأطفال يلعبون، ينفذ صوت شاذ غليظ أعرفه. وأكرهه: أتتني رسالة. تُرى ممّن؟

أمسك بالهاتف وأنظر إلى الشاشة. هذا ما كنت أخشاه...إنها مريم تخرج عن صمتها وتُرسل سهامَها النفّاذة عبر المحيطات:

«بالرغم من كل ما حدث، ومن اضطراب علاقتنا، لم أتصوّر أبدًا أنه يمكنك أن لا تأتين إلى أهم يوم في حياتي. كان الجميع إلى جانبي ما عدا أنتِ. حقًا لا أعلم ماذا أقول. ولا أعلم ماذاتعني كلمة «صداقة» بالنسبة لكِ. أنتِ أغرب إنسانة أعرفها. وكفى تعليقًا لطباعك السخيفة على شمّاعات الأقدار والخوف. بالنسبة لي، أنا لا أعلم إلا أنّك تخلّيتِ عنّي. و صدّقيني لا تعنيني الأسباب، وأعرف أنّك (كالعادة) لن تجيبيني، لكن إن حدثت معجزة ما وفكّرتِ في الرد أو الاتصال فأرجوكِ لا تحاولي حتى. لأنني أنا من لن تجيبك هذه المرّة. انتهى كل شيء. طابَ يومك!».

شعورٌ غريب. ارتياح لمجرّد فكرة أنني لن أتلّقى أي رسائل أو مكالمات من مريم مجدّدًا. وخوف...من كل شيء.

«سـيبتعد عنك كل من يحبّك». ها هم يتباعدون يا ماما ويتسـاقطون كمسـتطيلات الدومينو. أهي مستطيلات الدومينو تتساقط حقًا، أم أنني أسير باتجاه الموت ولا أعلم أن هذا النور الأبيض الذي أمضي إليه من بعيد ليس إلا أجنحة ملائكة الموت؟

أحاول مواصلة الرسم. لا أستطيع. في الحلق بكاء مختنق. اخرج! ما بك؟ لا يخرج.

بين كل ما رمته مريم في صـدري، لا كلمات ترن أعلى وأكثر من «شـمّاعات الأقدار والخوف». إنني أسـمعها بصـوت دكتورة إيمان. لماذا أسـمع كل الكلام الذي يؤلمني بصوتها دومًا؟ غريب! لا أعرف. لكنني أسمعها تردّدها. أسمع «شمّاعة الخوف». وأسمع «مجرّد عُرس». بصـوت دكتورة إيمان ومريم على التوالي. أو بصـوت ثالث ناتج عن مزج صوتيهما معا.

فان جوخ وبيتهوفن وبديعة ينظرون إليّ بترقّب جم. أعيد قراءة الرسـالة عليهم هذه المرّة. تقول مريم أن الخوف «شـمّاعة». لكن الشـمّاعة وُجِدت لتُريح. تنام قطع الملابس عليها بليونة فتروحُ من حالة الحركة إلى السـكون. وتهدأ. وتطمئن. وتنام في ظُلمة الخزانة. أين الخوف من هذا؟ أين السكون؟ وأين النوم الهادئ؟ وأين الراحة؟ ما الراحة في التسمّر بين النيران يا مريم؟ ما الراحة في الفرار الدائم من الضـباع يا مريم؟ ما الراحة في إيقاع الحروب في الصدر يا مريم؟ ما الراحة في شتاء قارس البرودة طوال العام يا مريم؟

أتدرون ما الشمّاعة الحقيقية؟ إنها أنتم! إنها تلك الساعات التي أرسم فيها وأستمتع بعبث لا شيء فيه حقيقي. إنني أشعر معكم بسلام مزيّف. إنكم...عبث! يا لي من غبية! لا أريد هذا الكانفس...ولا تلك الألوان. لا أريد تلك الساعات الضائعة في أمور سخيفة كل السخافة! إن كنت مسمّرة بين النيران دومًا، فأنت يا بديعة أكلتك النيران فعلا ومتِ فيها. أنت مت! ألا أنك ميّتة...كيف أحدّثك وأقبّلك وأحتضنك؟ وأعرّفك إلى هذا وذاك؟ ربما أراك فعلا إنما في عالم آخر. يا الله! ما بالي لا أزال أكلّمك؟! أُخبركِ أنه عبثٌ أن أُخبركِ! اسكتي يا ليال...اسكتي «بقى».

أنظر إلى الألوان:

إنكم...أنتم سبب تعاستي ومأساتي. تشعرونني أن كل شيء ممكن و سيكون على ما يرام بوجودكم. وأنا أحببتكم وألفت صحبتكم لهذا السبب. لكن حقًا...إنها أنانية فظيعة منكم! كان من الأفضل لو أنكم تركتموني ودفعتم بي دفعًا إلى الخارج حيث الضباع فأستأنسهم هم لا أنتم.

يا أستاذ محمد! أتخبرني أن في رسمي شيئًا يميّزه؟ هأنا أخبرك أنني لا أريد هذا الشيء السخيف. خذه واعطني قدرتك على التواصل مع أحبابك. اعطني تلك «صباح الخير» التي تخرج منك بأريحية، و«صباح النور» التي يُرد عليك بها بذات الأريحيّة. هذا ما أريده.

أما أنتم، فلا أريدكم. دعوني وشأني. فان جوخ! خُذ بيتهوفن و بديعة من هنا. تنزّهوا...أو أرهم متحفك أو الحقول التي نشأت فيها أو أُطلعهم على النهر. اشتر لبديعة حلوى الوافيلز، وعرّفها على زهرة ال Tulip. أتعرفين الTulip يا صغيرتي؟ إنها زهرة جميلة يتميّز بها هذا البلد الذي نحن فيه الآن. وعم أبو بيت أصفر سيشتري لكِ منها كل الألوان. وأنتَ يا صديقي العزيز، بيتهوفن. احك لهما عن الEroica. أصلًا كنت أنوي أن أحكي لبديعة حكايتها وكنت على وشك أن أفعل حين نعود إلى المنزل. احكها أنت. احك لهما كيف بدأت بثورة عارمة وكيف انتهت بأشد الخُذلان. أستودعكم الله. مع السلامة.

أنا؟ لا تسألوا. أنا لديّ عملٌ عليّ القيام به....

اسمعي أيتها الألوان والفراشي الغبية واسمع أيها الكانفس السخيف...سأطرح عليكم الآن ســؤالًا. مَنْ يجيبني منكم، كان بها، آخذه معي. أما مَنْ يبقى صــامتًا فهو إذن ميّتٌ وسأعامله على هذا الأساس: أبوسع أحدكم تخليصي من هذا السجن الذي يحاصرني أينما ذهبت؟ أو التصدّي للضباع التي تلاحقني؟ أبوسعكم فعل هذا؟

....مممممم....حسنًا....إنني أنتظر.....

كنت أعلم هذا. لن تجيبوني. حسنًا. فلأعاملكم بالذي أنتم أهل له. هيا بنا. سنذهب إلى هناك. لا تصدروا أصواتًا مُزعجة مثلكم! فليدخل كل واحد منكم إلى المكان المُخصّص له في الحقيبة في صــمت. أنتم موتى. فاصــمتوا. وأنتِ أيتها المرأة المُســتمتعة ببوظتها، اســتمتعي بعيدًا عنّي. لا تنظري إليّ هكذا وأنا أســير. وأنتَ أيها الطفل اللاعب بالكرة...حاول أن لا تكبر.

- Taxi! To the graveyards, please!(تاكسي! إلى المقابر من فضلك).

31..فِي الْمَقَابِرِ

للموت رهبة.

على الرغم من الأشــجار والزهور والزرع الأخضــر في كل المكان، إلا أن مجرّد فكرة الموت المُتجسّدة هنا، مخيفة.

أرضٌ واسعة خضراء، تتوسّطها ألواحٌ ضخمة أسمنتية أو رخامية من ألوان مختلفة: أبيض، أو أسود، أو رمادي، أو رمادي مُزركش، أو كريمي، أو غيرها، منصوبة في الأرض. على كل منها نُقِش اسم المتوفّى وتاريخا ميلاده ووفاته.

عندما دخلت،كنت مهتاجة أشـد اهتياج. أفكّر في كلمة دقيقة تصـف شـعوري. تختلط المشاعر أحيانًا إلى الحد الذي يصعب علينا فهمها ووصفها. إنّ بي غضبًا وحزنًا ويأسًا، وإنني أشـعر في هذه اللحظة تحديدًا وكأني على مشــارف تخطّي الحد الفاصــل بين الواقع والخيال بغير رجعة...الجنون. لماذا؟

ربما لأن للخيال قوى فذّة يفتقدها الواقع. نحن في خيالنا فقط نسـتطيع فعل أي شيء...أي شيء! بما في ذلك الأشياء التي لا نستطيع فعلها في الواقع طبعًا. والحقيقة أن واقع الفئران المذعورة مؤلم جدا، فلهذا تجدهم كثيرًا ما يتخطّون هذا الحاجز الذي يفصل واقعهم عن خيالهم، قاصدين أرض الخيال طبعًا، وإلا ماتوا كمدًا وحسرة.

هأنا أهذي مجدّدًا. مجدّدًا؟ متى توّقفت عن الهذيان؟ أنا دائمًا أهذي. أنا؟ من أنا؟

جيّد جدا...لا يو جد أحد غير نا هنا. أدفنكم جميعًا تحت الثرى ثم أرد مه فوقكم في صـــمت. عمومًا، لا زال لديكم بعض الوقت أمهلكم إيّاه في حال أراد أحدكم الإجابة عن سـؤالي، وتخليص نفسـه من هذا المصـير الذي أصـبح محتومًا. تَفَكّروا مليًّا في الأمر بينما أتفقّد أنا المكان الآن لأختار لكم مكانًا مناسـبًا يليق بكم وبالسـنوات التي مكثت فيها بقربكم في انعزال عن العالم.

همـمـمـم...«إيـمـا جـان»....«ديـمـي دان»....«مـاكـس رويـن».... «تـومـاس سـتيفان»....«روبرتفيكي»....«أنيتا دومينيك»....ما هذا؟ إنها طفلة. مسـكينة! ماتت في عمر ال(آخذ أفكّر وأحصـي عمرها حسـب تاريخي الميلاد والوفاة المطبوعين على اللوح الرخامي لقبرها)... سبعة...نعم، سبع سنين. هنا إذن، في تلك البقعة الـصغيرة إلى جانب أنيتا (المسكينة).

أضع أغراضي على الأرض وأُقرفص. أمد يدي للبدء في الحفر. نظرة أولى للتأكّد من أن أحدًا ليس إلى يميني. ونظرة إلى اليسار للتأكّد من الشيء نفسه في الجهة الأخرى. ثم بهدوء عجيب أغرس يدي في الأرض، وأقتلع بعض الحشـائش التي تعوق طريقي نحو الرفات. أناملي تسيح في التربة الرطبة،

فتلتصــق بعض الحبيبات الرمليّة الخشــنة على كفّي. أتوقّف عن الحفر لتأمّل كفّي والتراب يكسوه، وإذ بي أسمع صوتًا. إنه صوت لأقدام تقترب. لا بد أن قد جاء إلى المقابر زائرغيري. ألتفت لأرى من أين يأتي صــوت الأقدام. أخيرًا أجده.أنظر باتجاه الصــوت وأتحقّق من القادِم.

إنها فتاة. يبدو أنها كانت قد أبحرت إلى الداخل عند قلب المقابر في وقت سابق لقدومنا، وها هي تنسحب وتسير نحو المدخل الصغير لتخرج من حيث أتت.

فتاة قصيرة القامة، نحيفة، ولها شعر أسود متوسط الطول به تجعيدات خفيفة تنسّقه في كعكة بسيطة أعلى رأسها الصغير. عيناها عسليّتان وا سعتان وعلى خدّيها حُمرة خفيفة؛ لا أدري إن كانت ســمة دائمة في ملامحها، أم حُمرة مؤقتة أحدثها البكاء. لكن المؤكّد أن شفتيها رقيقتان، وأنفها دائري قصير وصغير تزيّن إحدى جناحيه بحلق ماسي دقيق. ترتدي معطفًا أبيض واسعا. وjeans أسود يعلوه حذاء طويل(boots) أسود يصل إلى تحت الرُكبة بقليل.

إنها تبكي بحُرقة إنما دون أن تُحدث أي صـوت. فقط ترتجف. أو ربما أحدثت صــوتًا ما إنما خافت جدا بحيث لم أســمعه من موقعي.وإنها شــاردة هذا النوع من الشــرود الذي يعزل المرء عن العالم المحيط به وعن كل أمر يدور فيه. لهذا، فلا أظن أبدا أنها قد لاحظت وجودي ولا نظرتي المُمسكة بها إلى الآن. لا

ولا أظنّها تلاحظ الحمام الطائر والسائر حولنا، أو تشعربقطرات المطر الخفيفة التي أخذت تسقط علينا. أراها تقف عند لوح لقبر يبتعد عنّي ببضعة أمتار تبكي وتخرج من معطفها باقة من الورد البلدي الأبيض. لكنّها لا تضعه كله على القبر، إنما تأخذ عودًا واحدًا من بينه فتضعه عليه..

لكنها...تتصرّف تصرّفات غريبة. إنها تقترب من لوح آخر وتقف عنده – كالذي سبقه – وتبكي. ثم تضع وردة بيضاء أخرى على هذا القبر الثاني. ربما القبران لاثنين من أقاربها أو أصدقائها. لكن...إنها تمضي إلى لوح آخر وتفعل الشيء نفسه. ثم تسير إلى لوح آخر، وآخر، وآخر. وعند كل لوح تقف، تبكي، وتضع وردة. لا يمكن أن تكون المقابر كلها لعائلتها وحدها! ولا يمكن أن يكون المكان كله لأناس تعرفهم! مستحيل! إذن ماذا؟ أهي مجنونة؟ ثَمِلة؟ أم أن هناك لغزًا آخر لا أفهمه؟

أوه! بدأتُ أرتبكُ قليلًا الآن. فأخيرًا لاحَظَتْ وجودي ورمقتني بنظرة خاطفة تنم عن ارتباكها هي كذلك لرؤيتي في المكان. إنني أتوقّف عن التحديق فيها وأحوّل نظري عنها. أنتبه فجأة أنني لا زلت أقرفصُ على الأرض وأنظر إلى كفّي المتّسخ فأثوب إلى وعيي وأخجل وأنهض. وأمسح كفيّ في ظهر بنطالي الjeans . لكنني أسمع صوت أقدامها تقترب من جهة اليمين. أتطلّع إليها بنظرة مرتبكة خجلى لأجدها تبتسم والدموع تُغرق وجنتيها حتى أنّ آثار الدمعات التي جفّت لا زالت واضحة عليهما وتلتمع من تحت بَلَلِ الدمعات المنهمرة التي لم تجف بعد.

يصعب عليّ تحديد جنسيّتها لكن من المؤكّد أنها ليست من سكّان أمستردام. قد تكون من أصول عربيّة، أو تركيّة، أو جنوب أوروبا (أسبانيا، إيطاليا، البرتغال، إلخ). ولدهشتي أجدها تتجاوز حالتها ودموعها فتسألني:

- Are you Arab?(هل أنتِ عربيّة؟)

- Yes(نعم)

- أنا أيضًا.

يشوب الحديث صمتٌ قبل أن تستكمل الفتاة حديثها بلكنتها الشاميّة (لست متأكّدة ما إذا كانت لبنانية أو سورية أو فلسطينية أو أردنية. لكنها من بلاد الشام بكل تأكيد):

- إنه المكان الحقيقي الوحيد في هذا العالم...كل ما هو سـواه كذب. كلهم...انظري إليهم (تُديرُ جذعي نحو الشـارع حيث السـيّارات والمارّة) كلهم ينكرونه. حتى وهم يصرخون أنه «حقيقة» وأنه المصير المحتوم، لا زالوا ينكرونه. حتى أنتِ تنكرينه. حتى أنا أنكره. لهذا جئت. لأتذكّر. «أتذكر»؟ ههههه...بل إنني أذكره كل يوم...كل ثانية...ومع هذا، أظن أنه لا يكفي. لعلّه يتوجّب عليّ أن أذكره أكثر من هذا.

لكن...هؤلاء (تشير مجدّدًا إلى المارّة في الخارج) هؤلاء...كيف يعيشون هكذا؟ كيف ينسون؟ كيف يقبلون به؟ كيف لا يحاولون التصدّي له؟ ما هذا الشيء العجيب الذي لا يقدر عليه أحد؟ لماذا؟؟

«بالتأكيد تظنّين أنني مجنونة. أليس كذلك؟ أجول في المقابر كأنني أتنزّه وأقف هنا وهناك بورد أبيض. لكن...أقصـد....لا، لا! دعك من هذه السـخافات كلها. أريدك فقط أن...»

هنا بدأت تختنق ويختنق صوتها وأخذت تنتحب كطفل صغير.

ثم تحاملت على البكاء واستأنفت تقول:

-...أن تعودي إلى بيتك وتحمدين الله أنّك «طبيعية» وأن ليس ثمّت أفكار غبيّة تطاردك باستمرار وتجعل منك...شيئًا غريبًا في هذا العالم. أنتِ محظوظة.

ثم استدارت ومشت بخطوات مُسرعة كأنها تتحاشى استئناف الحديث أو أن أوجّه إليها أي سؤال.

بقيتُ مُسـمّرة في مكاني لا أدري ماذا أفعل. أردت أن أبادلها الحديث، أن أواسـيها، أن أخبرها عن سبب مجيئي أنا إلى هنا. لكن...انعقد لساني. وبقيت صامتة وأخذت أنظر إليها وهي تمضي باتجاه المدخل ثم تخرج منه إلى الشارع وتستأنف السير حتى اختفي خيالها تمامًا.

لِمَ لَمْ أُبقِها؟ لِمَ لَمْ أركض وراءها؟ لماذا تركتها ترحل قبل أن أحاول قول شــيء؟ لَمْ أفهم تمامًا ماذا قالت. كانت مضــطربة واضــطرابها جعل الكلمات تنفذ منها متلجلجة متقطّعة كأنها حاولت أن تقول شـيئًا آخر لكنها لم تهتد إلى الوصـف الدقيق، فظلّت تسـتبدل الكلمات بالكلمات من شدّة الاضطراب. لكنني، أشعر أنني فهمت شيئًا ما وإن لم تقله. يا ليتني أوقفتها! يا ليتني سألتها عن اسمها وعنوانها أو رقم هاتفها المحمول حتى أعود إليها وأتمكّن من رؤيتها ثانية.

لعلّه لا زال ممكنًا! أركضُ نحو المدخل وأقف على قمّة الطريق وأنظر بالاتجاه الذي سارت منه. لا أرى شيئًا...لا، ليس ممكنًا....خسارة.

أعود أدراجي إلى داخل المقابر حيث وضـعت حقيبة الألوان والفراشـي ولوحة بديعة. أوّل ما إن وصــلت إلى حيث كنت أقرفص، كان هياجي قد زال. لا أدري كيف ذاب كل الغضــب الذي كان مشــتعلًا بداخلي حتى تحوّلت نظرتي الغضــوب للحقيبة، إلى نظرة أم لأطفالها. جلســت إلى جانبهم ثانيةً وفتحت الحقيبة أتأمّل ما فيها كأنني للتوّ انتبهت إلى سخافة وقسوة العمل الذي كنت على وشك القيام به.

اعذروني...أنا آسفة.

لا أعرف ماذا فعلت بي رسالة مريم وماذا أحدثته بي من هياج هستيري. ولا أعرف ماذا فعلت بي الفتاة الجميلة الباكية وماذا حرّكته في قلبي من مشاعر وعذوبة أذابت كل الغضب. كأنها – دون أن تقصد – أعادت إليّ صوابي وشعوري بالمحيط من حولي. إنه فِعْلُ الكَلِمَة...

يا الله! كيف أحوّل بكل وقاحة غضبي من مريم إلى غضب لاذع منكم؟ ألأنني لم أستطع مواجهتها هي بغضب كغضبها، أغضب منكم وأؤذيكم أنتم؟! أنتم؟! سامحوني...كانت حقًا لحظة تخبّط شديد. أنا أنانية وغبية ووقحة!

أُمسك بالأغراض داخل الحقيبة وأتحسّسها ببطء وهدوء. تتسرّب دمعة من إحدى العينين وتسقط على فرشة من بين الفراشي. أرى بديعة وفان جوخ وبيتهوفن قادمين باتجّاهنا. بديعة تتصدّرهم وتأتيني مُسرعةً مادّة يدها التي تحمل بها باقة من ال Tulipsالبيضاء:

– عم أبو بيت أصفر عَطاهُملي زي ما قُلتيلُه. دول شويّة جبناهُملك. ماتزعليش يا ليال.

32..الْصُنْدُوقُ الأَسْوَدُ

عُدنا إلى المنزل الذي نقيم فيه بأمستردام لا أفكّر سوى في أمر الفتاة. ترى ما اسمها؟ ما حكايتها؟ هل أراها ولو لمرّة واحدة أخرى؟ لا بد أن أراها! لا بد أن أتحدّث إليها!

لثلاثة أيام على التوالي، أخذت أذهب إلى المقابر في نفس الموعد الذي كنت وجدتها فيه صباحًا، وأنتظر. تمر نصف ساعة، ساعة، ساعتان، ولا تأتي الفتاة. ثم أخذت أذهب في أوقات مختلفة متفرّقة من ذات اليوم وأنتظر لأطول فترة ممكنة. ولا تأتي. أسير في الشوارع والحدائق العامّة والمحلّات، وأنظر بتمعّن إلى الوجوه لعلّي أجد وجهها بينهم. ولا أجد وجهها بينهم.

أحكي عنها لبديعة وبيتهوفن وفان جوخ بينما أستكمل اللوحة في الحديقة، أو على رصيف محطّة القطار، أو الرصيف الموازي للقناة، أو في بلكون الشقّة.

فقدتُ الأمل.

في اليوم الرابع، جلستُ في البلكون أمام اللوحة.

لا يمكن أن أترك الرقبة المُختنقة بالبكاء المكتوم قبل أن أحاكي هذه المساحة شديدة الدُكنة في النصف الأيسر من رقبة بديعة.

إنّ مصدر النور الموجّه إلى يمين وجه بديعة قد أسقط ظلًّا داكنًا يسار رقبتها في المساحة الغائرة تحت ذقنها البارز. نصفٌ مضيء ونصفٌ مظلمٌ...اليأس مع الأمل.

تمتد الفرشاة إلى كتف بديعة الأيسر قبل أن أفكّر في الأمر. إنه المسار الطبيعي. تمتد الرقبة من أسفل الأذنين إلى أسفل ثم تنحدر إلى الأعلى يمينًا (أو يسارًا) حتى مفصل الكتف فاسحةً مجالًا في المساحة الوسطى بين الكتف والكتف، للصدر أن يَستقِرّ: الأضلع وقصبة الهواء والقلب.

سيمفونيةٌ جديدة تبدأ في الانخراط مع سيمفونية الـEroica. يُضاف الآن إلى ما نسمعه من بيانو وكمنجات وdrums، نبضُ قلبَينا أنا وبديعة. يعلو نبضها فيتبعه نبضي، كالصوت وصداه. ويظلّان في سباق حتى يصيرا صوتًا واحدًا مدويًّا مجلجلًا لا ندري لا أنا ولا بديعة إن كان هذا الصوت الذي نسمعه يخصّ قلبي أو يخصّ قلبها، ولا لمن النصيب الأكبر فيه.

ثم يُضاف تدريجيًا إلى هذه السيمفونية الجديدة، صوتُ حوافر الظبية النافرة مصاحبًا لصرير أسنان الفئران من وراء جحورها الضيّقة، ورفرفة جناحي عصفور خائف يختبئ خلف الأغصان.

إنّ هذه المنطقة من الرقبة إلى الصــدر والكتفين هي الصــندوق الأســود للخوف. فيه تكمن وتلتهب الأسرار، وتصطلي الروح بنيران الذُعر الملعون. هنا مخرجه ومرقده ومأمنه ومسكنه.

تسيح الفرشاة على صدر بديعة فأشعر بصدري يعلو ويهبط سريعًا؛ حتى أن الحركة من شــدّة ســرعتها تجعلني لا أكاد أميّز متى تكون علوًّا ومتى تهبط. الحالتان قريبتان جدا من بعضــهما البعض فلا أشــعر في نهايتهما إلا بتلك الرجّة التي تحدثاها مجتمعتين كصــدمة كهربائية.

تضرب الفرشاة على الكتفين فأشعر بها تنزل على كتفيّ أنا، معيدةً إدراكي إلى عضلات كتفيّ التي أعي الآن أنها في حالة تشــنّج بيّن. إن كتفيّ مقوســتان ومنحنيتان إلى الأمام، والعضلات حولهما وبينهما متأهّبة ومستنفرة. إنه انكماش الخوف. إنني أعرفه.

يعود هذا «الصندوق الأسود»، برمّته، بذاكرتي إلى حادثة بعينها: في صباح الأحد التالي للخميس الذي زُرنا داليا فيه بمنزلها، وجرى ما جرى بيني وبين ســارة، وأنا في طريقي إلى العمل، كان «صندوقي الأسود» ملتهبًا يعلو ويهبط بجنون!

ثم صاحبه تقلّص مؤلم في العضلات المحيطة بقصبتي الهوائية. كان الألم شديدًا لا يُحتمل. حتى أنني أخطأته بعرض لفيروس إنفلوانزا شديد يسري بداخلي. لكنني لم أعِ أنها لم تكن إنفلوانزا، إلا آخر اليوم وتاليه عندما زال التقلّص. عندها، علمت أنه لم يكن سوى جسدي متربّصًا لنيران اللقاء مع سارة. جسدي مثلي (لا يريد).

ملعون هذا الخوف. ملعون!

أشعر بدوار لمجرّد التفكير في الأمر. رأسي ثقيل، وجسدي - يبدو لي الآن – أثقل وأعند.

ما بك يا ليال؟ هذه تتجاهلك فتتقلّص رقبتك، وتلك توبّخك فتسقطين مغشيًا عليك؟! ما بالك ضعيفة وهشّة إلى هذا الحد؟!

بديعة تنظر إليّ وتحدّق. إنها من المرّات القليلة التي أرسم جزءًا من لوحتها فيها دون أن ألتفت إليها وأبتسم، أو أحكي لها حكاية.

- تعالي يا بديعة...

تأتي فأحتضنها.

- كنت زعلانة شويّة فانشغلت عنّك. حقّك عليّا.

تبتسم بديعة. أقبّلها ثم أستأنف:

- ايه الجلابيّة الحلوة دِه؟رقيقة وملائكية أوي زيّك. كام مقاسها؟ مقاس النملة؟

تضحك بديعة وتُفزِعُ ضحكتُها عصفورة كانت قد حطّت على سور البلكون فتطير ونسمع ضربات جناحيها القويّة.

- لا ، مش مقاس النملة. ده مقاس جناحات ملاك صُغَيّر بيرَفرَف ويِضرَب في الهوا ويِعْلَا ويِعْلَا.

- زي ايدين عم بيتهوفن؟

- زي ايدين عم بيتهوفن.

تحوّل نظرها بسرعة إلى بيتهوفن كأنها تريد تأكيدًا قاطعًا منه على هذا الكلام. فيؤكّده برفع يده وعصاه إلى أعلى ويحرّكهما كما يحرّكهما كثيرًا ثم يستبدل بالحركة محاكاة رفرفة أجنحة الطيور؛ تعلو وتهبط. فتضحك بديعة وأضحك. ثم ألتفت أبحث عن فان جوخ...لا أجده.

أدخل من البلكون إلى غرفة المعيشة. أنظر يسارًا ويمينًا. أبتعد بنظري إلى الممر الصغير. ثم إلى المطبخ. أسمع صوتًا هناك. على الأغلب هو.

نعم، إنه هو. كان ينصب حامله وألوانه.

أوه! ولِمَ لا تأتي وترسم معنا في البلكون يا عزيزي؟ أُفسح لك مكانًا ونتشارك الألوان والفرشات.

يبتسم فان جوخ خجلًا. يبدو أن الفكرة قد سبق أن راودته لكنه استحى أن يعرض الطلب عليّ.

لا، لا...تعال إلى البلكون معنا. لا معنى لمجلسنا بدونك. ثم أن بديعة وبيتهوفن قد أحالا المكان هناك إلى مسرح كبير تحوّل بيتهوفن عليه إلى ملاك أبيض يطير. لا يفوتك هذا!

33 ..عَبَّادُ الْشَّمْسِ يَا أَنَاْ

«عزيزي ثيو،

(....) أنتَ تعلم أن زهرة الفاونيا (peony) خاصّـــة بجينين (جورد جينين)، بينما الخطمى (hollyhock)يمتلكها كو ست (إرنست كو ست)، لكن – بشكل أو بآخر –عبّاد الشمس لي أنا (....)».

أترك كل التحليلات التي سـبق لي قراءتها وراء ظهري الآن. فتحليلٌ آخر وليد اللحظة يندفع ويفرض وجوده؛ لأن «اللي شاف مش زي اللي سمع».

أقف أمامها كأنه لا يوجد ســواها وكأن هذا المبنى العملاق المكتظّ بغيرها، حقيقةً، لا يمتلك إلا هي. والأجواء هاهنا تحديدًا بها دفء حصــريّ دونًا عن باقي أركان وحوائط المكان نظرًا لتزاحم الناس عليها – هي بالذات – فالجميع أتى من أجلها.

»Still Life: Vase with Fifteen Sunflowers

Oil on canvas
95.0 x 73.0 cm
Arles, January 1889

«طبيعة صامتة: فازة بها خمس عشرة زهرة عبّاد الشمس»

زيت على كانفس

95.0 x 73.0سم

آرل، يناير1889

إنها واحدة ضمن سلسلة كبيرة من لوحات فان جوخ التي رسمها لزهرة عبّاد الشمس. أقف صامتة مربّعةً ذراعيّ الواحد فوق الآخر، أتأمّلها مع جيوش من المتأمّلين من مختلفي الوجوه واللكنات. إلى يميني يقف رجل آسيويّ قصير، قليل الحجم، وجهه مربّعٌ وتسقط خصلات قصيرة من شعره الأسود الأملس على جبينه يزيحها باستمرار في حركة سريعة من على نظّارته. يقف مع زوجته التي تُشبهه في الوجه والهيئة غير أن شعرها طويل وتُزيّنه ب sur-teteأبيض رفيع، وترتدي فستانًا أزرق سماويا يمتد إلى ركبتيها. لا أرى تفاصيل حذائها إذ يحجبه ابنهما الصغير ذو الأربع أو خمس سنوات الذي يُمسك بيد أمه بينما يساعده أبوه في وضع سمّاعات الأُذن الموصولة بجهاز لا سلكي يوفّره المتحف للزوّار، لشرح تفاصيل اللوحات داخل المكان.

أســرح مع المشــهد وأبتســم وأتأمّل المعنى المتجلّي منه: طفل لم يتجاوز الخمس سنوات، جاء به والداه إلى متحف م شهور لر ّسام من القرن التا سع ع شر. يُ شبك له أبوه جهازًا فيه شرح مُفصّل للّوحات قبل أن يتركه يستمع ويتأمّل معهما في صمت.

ما أجمل ألّا يتجاهل الكبارُ صغارَهم...

لا يقطع تأمّلي هذا إلا لكزة مباغتة أشعر بها في ظهري فألتفت لها بسرعة.

- Oh! Sorry.(أوه! عفوًا.)

- No worries.(لا عليكِ.)

كانت لكزة من امرأة عجوز أفهم من لكنتها أنّها إنجليزية. ترتدي قميصًــا أبيض فوقه جاكيت خفيف أزراره مفتوحة من الأمام، بنفسجي ومُطعّم بورود زهرية وبيضاء صغيرة. تحته jupeرماديّ يصــل آخره إلى نصــف ســمّانتيها تقريبًا. شــعرها أبيض فضّــي قصــير وخصلاته ملفوفة تُشبِه حلوى «غزل البنات» في هشاشتها. تتكّئ بظهرها المقوّس المحني إلى الأمام على عكّاز أســود توقِفه لتنظر إلى اللوحة المُعلّقة على الحائط من تحت نظّارتها ذات الإطار الأسود السميك. شفتاها الرقيقتان مزمتتان وعيناها الصغيرتان تنظران حولها بحثًا عن شخص ما. أسمعها تقول بصوت خافت منعًا لازعاج الناس (على ما يبدو):

- The sunflowers, Wayne!(عبّادات الشمس يا وين!)

فيأتي وين: عجوزٌ يقاوم بُطءَ خطواته بين الزحام بعكّاز يُشبه عكّاز زوجته غير أنه أطولُ وبنّي اللون. يدنو منها مرتديًا قميصًـــا (كاروهات) من درجات الطوبي والبنّي، ومعطفا وســروالا بنيّان. يغطّي رأســه بقبّعة ســوداء فرنســية كالتي نرى المحقّقين – لســبب ما – يرتدونها في الأفلام الكلاسيكية القديمة. أسمعه يقول وهو ينظر إلى اللوحة:

- M-a-r-ve-l-o-u-s!(ر-ا-ئ-ع!)

يقفان خلف العائلة الآســيوية فيشــعر باقترابهما الطفل الصــغير ويلتفت ناظرًا إليهما. إنهما قد بدآ الانهماك في حديث متبادل حول اللوحة فلا يريان العينين التي تتطلّع إليهما أسفل ركبتيهما. أما الولد، فيبدو أن انتباهه قد شُتِّت بعيدًا عن اللوحة والشرح الذي يسمعه في الجهاز، إلى هذين الزوجين الكبيرين في الســنّ. إنه لا ينظر إلى زيّهما أو عكّازهما. فقط، يحدّق في عينيهما على التوالي: عيني وين ثم عيني زوجته. لا أدري تمامًا ما ســبب انشــداده لهما هكذا. أهو العَجَز يســتوقفه ويحاول أن يتفحّصـــه عن قُرب ليفهمه؟ أم الملامح والألوان المختلفة التي لا يراها في بلده؟ أم هذه اللغة الغريبة التي يســمعها ولا يفهمها؟ أم التجاعيد التي تكســو وجهيهما فتحجب الكثير من التعابير التي يألفها ويســتعين بها في التواصل مع محيطه؟

أبتسم وأتركه يتأمّل وأتركهما منهمكين في نقاشهما، وأعود إلى اللوحة.

لونان يطغيان بوضـوح على اللوحة: الأصـفر الناصـع والبنّي الدافئ. ويُضـاف إليهما بنسبة أقل الأخضرُ «الزرعي». ليست الألوان وحدها العنصر الواضح والجريء في اللوحة هنا، إنما أيضًـا حدودُ العناصـر التي لم يتوارَ (فان جوخ) عن رسـمها بالأسـود الحاد والفاصل،بكل ثقة.

خمس عشـرة زهرة عبّاد شـمس موضـوعة في فازة نصـفها العلوي من البنّي الدافئ به مسحة برتقالي خفيفة، ونصفها السفلي أصفراللون. ذات الأصفر نجده ممسوحًا على خلفية اللوحة، ثم ذات البنّي مُلَوّنةٌ به الطاولة التي تعلوها الفازة؛ فتقف اللوحة أمامنا كرقصـة حارّة حماسية بين البنّي والأصفر.

كل العنا صر غير مُجسّمة؛ كان فان جوخ قد نبذ نظريات «الظل والنور» الكلا سيكسة القديمة منذ زمن طويل. تحديدًا، منذ أن اطّلع على الفنون التشـكيلية اليابانية وأُعجب إعجابًا شديدًا بألوانها الصريحة المُسَطّحة. فلوحة عبّادات الشمس تلك بها من التسطيح أيضًا ما يحجب عنها أي تفاعل أو انعكاس لتفاعل مع الضوء. وهذا تحديدًا، هو ما يُعطي لرسم فان جوخ هذا الطابع الطفولي العفوي البدائي المميّز.

ومع هذا، ورُغم غياب الظل والنور عن أجســام الزهرات هنا، وتســطيح فان جوخ المُتعَمّد لها ولتفاصيلها، إلا أنك – ألا يا من تنظر إلى اللوحة الآن – لا يمكن أن تُخطئ ملمس الزهور. إنّ الورقات الصـفراء الهادلة قد رُسـمَت بضـربات قصـيرة بالفرشـاة برقّة فائقة تعكس حالة الهزال الشديد الذي أصابها، والموت الذي ينتظر كل واحدة منهن عمّا قريب.

خمس زهرات تتوسط الباقة كانت قد أسقطت أوراقها الصفراء تمامًا فلا نجد إلا تلك القلوب البنيّة السـميكة تملأ فراغ الورقات. والغريب أن هذه القلوب الخشـنة هي أول ما جذب انتباهي عند مثولي أمام اللوحة. ومع النظر المطوّل إليها، فإنّك لتشعر بأنه إن مددت يمناك تتحسّسها، قد يُزعج ملمسُها الخشن أناملَك فتنفر منها وتبتعد. ثم تتساءل وأنت تنظر إلى أصــابعك المُدماة ما إذا كنت قد نفرت من الملمس المُزعج أم من فكرة الموت وتقبّله والتواصـل مع «أجسـام ميّتة» ومتهالكة تُمثّله، بشـكل عام. وغالبًا سـترحل قبل أن تجد لتساؤلك إجابة.

بعد صــراع طويل مع نفســي، أُســلّم أخيرًا بأنه لا يجوز أن أبقى أمام لوحة عبّادات الشمس إلى الأبد،فأستدير لأستأنف رحلتي داخل المتحف. أمر بمجموعة من اللوحات اليابانية التي أثّرت في فان جوخ

واستوحى منها علاقته مع الألوان التي أخذت تنمو وتنضج مع الوقت إلى أن مات. وأمر بمجموعة لوحات لجوجان...آه يا جوجان. أتفادى النظر طويلًا إلى لوحات جوجان. يؤلم فان جوخ ذكراها، فتؤلمني لما يؤلمه. إن كان هناك سبب أ سا سي لرفض عَم أبو بيت أصفر مصاحبتنا إلى المتحف اليوم، فهو عدم رغبته في تذكّر صديقه الذي يفتقده كثيرًا ويفتقد مناقشاتهما لأعمال ريمبراندت وكلود مونيت وإدوارد مانيت والانطباعية وما بعد الانطباعية، إلخ. في المتحف كل ذكرياته التي ينفر منها منذ أن أطلق للسنونو في صدره العنان وأعطاه حريّته المسلوبة.

أما الآن، فهو يجلس في شرفة المنزل المُستأجَر. لم ينم منذ البارحة. شرع في رسم لوحة جديدة وهو عاكف عليها الآن.

وبيتهوفن كان سيأتي فعلًا قبل أن يعدل عن قراره حين علم بنيّة فان جوخ البقاء بالمنزل. أراد أن يبقى ليؤنس وحشته.

لم يأت معي سوى بديعة التي تحمّست للفكرة جدًا وودّعتهما كليهما: «مش حنتأخّروا عليكوا».

أدرت ظهري إلى لوحات جوجان بينما أخذت أبحث بعيني عن بديعة في القاعة. أنظر خلال الزحام. أين ذهبت؟... أوه! ها هي. إنها تقف عند لوحة من لوحات البورتريه الذاتي لفان جوخ. لم تكن تتأمّل اللوحة، إنما الطفلَ الآسيوي الذي أخذ يتأمّل شيخًا خمسينيًا آخر يقف وحده عند اللوحة، يضع السمّاعات على أذنه، أسمر البشرة، بنّي العينين، له شعر طويل مجعّد أسود يتخلّله خصلات بيضاء، ويبدو أنه مكسيكسي أو إسباني.

- بديعة!

لا تنتبه لندائي من أوّل مرّة. أكرّر:

- بديعة!

تنتبه فتلتفت إليّ وتحوّل عينيها عن الولد. تركض نحوي.

- يللا؟

- يللا.

أُمسِــك بيدها ونســير إلى الطابق الأخير من المتحف حيث لوحات أخرى ومجموعة كبيرة جدا من مُقتنيات فان جوخ الـشخـصية، من بينها عدد هائل من ر سائله من وإلى أخيه ثيو المطبوعة على حوائط الطابق. ومجموعة صــور فوتوغرافية قديمة لفان جوخ وأفراد عائلته ومنزله حيث وُلِدَ وتربّى والمنزل الأصفر بفرنسا وبعض الأماكن التي تردّد عليها في حياته.

بعدها، نمر بصندوق زجاجي يتوسّط القاعة فيه الأدوات التي كان يستخدمها فان جوخ في الرسم: طباشير، وأقلام حبر، وأقلام فحم، وألوان زيت، وغيرها. أمامها اللوح الخشبي الذي كان يُســند عليه الرســائل التي يكتبها لثيو، إلى جانبها محبرة وقلم. ثم صــندوق أحمر صــغير فيه كرات صــوف من الألوان الأســاســية: الأحمر، الأزرق، والأصــفر. والألوان الثانوية: الأخـضر، البنفـسجي، والبرتقالي. وربما ألوان أخرى.كان يـ ستعين بها على اختبار تأثير الألوان وتفاعلها مع بعضها البعض.

الآن نســير في ممر صــغير يأخذنا إلى خزانة كبيرة من الخشــب البنّي العتيق الذي تظهر عليه علامات القِدَم. يبدو أن الأشــياء كالبشــر: يمر بهاالعُمر فينطبع تقدّم العُمر عليها على شــكل حالة من الضــعف والوهن، واختلافات بســيطة أو عظيمة في الألوان والتفاصــيل، و«تجاعيد» كأنها خطوط محفورة على «بشرة» الخشب الأملس.

في البداية لا أفهم ماذا تكون هذه الخزانة ولِمَ وُجدت هنا. ثم أقترب من الشــرح المُصاحب لها فأعلم أنّها تعود لثيو فان جوخ والتي كان يحتفظ فيها بكل رسائل فان جوخ له. هنا! في هذه الأدراج...في هذه الدواليب...كانت ترقد رسـائل واحد من أعظم رسّـامي العالم – وواحد من أكثر الفئران ذُعرًا...هنا...تقطعني بديعة عن التأمّل. أشــعر بها تلكزني أعلى خصري لأجيبها عن السؤال الذي – كما هو واضح من نظرتها– لم يعد في صدرها أي مقدار من ذرّة من صبر لانتظار إجابة له.

تسألني وعيناها مدهو شتان كل الدهشة وثغرها را سم حرف O، تنظر حولها مأخوذة بوجوه الناس لا اللوحات التي لا تطالها ساقاها القصيرتان على كل حال:

– ليال! هُمَّا الخواجات الإنجليز جُمْ هِنا بر ضه؟ وبيتعاركوا مع العيال المتظاهرواتية؟ (تتلعثم في نُطق الكلمة).

أبتسم. أشد على يدها اليسرى وأسحبها ببطء ونحن نستكمل السير في قاعات المتحف الكبير.

– لا يا بديعة. دول شَبَهُّم بس، مش إنجليز. لكن خواجات برضه.

– وجايين هنا عشان المتظاهرواتية؟(هذه المرّة تتلعثم في الكلمة وتلثغ في حرف الراء) أصل احنا ماشوفناش متظاهرواتية. بس شُفنا خواجات كتير بس.

- لا دِه بلدهم. دِه بلد عَم أبو بيت أصفر. مش قُلتِلِك واحنا جايّين؟ مش فاكرة؟

- عم أبو بيت أ صفر صحيح خواجة بس مش عامل زي الجماعة العساكر الخواجات الغِتِتَة اللي بنشــوفوهم في الحارة وفي قهوة مريم الشــامية وكرياكو اللي بتروحهم خالتي سكينة.

- ما هو لما الخواجات العـ ساكر الغِتِتَة دول كانوا في إ سكندرية بيـ سرقوها وبيـ ضربوا المتظاهرواتية، كان عم أبو بيت أ صفر هنا...بير سم كل اللي إنت شايفاه هنا دَه (أ شيرُ إلى اللوحات حولنا).

تجول بديعة بعينيها سـريعًا حول حوائط المكان كأنها للتوّ انتبهت إلى سـبب مجيئنا إلى هنا والذي أخذت أوضّـحه لها طيلة طريقنا إلى المتحف قبل أن ينسـيها الطفل الآسـيوي والوجوه الكثيرة الغريبة الأخرى هنا، ما جئنا من أجله.

– ماهو عشـــان كدة أني بنحبّوه. وعايزين ناخدوه الحارة معانا. عايزين نورّوه البحر ونأكّلوه عسليّه...يا ريته كان جِهْ معاهم منغير ما يضرب المتظاهرواتية ولا يغَتّت ع العيال زيّهم ولا حاجة. كان يقعد بس عند كرياكو وأني نروحوله كل يوم. ونبيّتوه معانا كمان. أو...أو...ننام على رصيف دكّان أبو أحمد النُص سوا وأوّل ما الشمس تطلع، نروحو البحر.

– طب أديكي مش بس قابلتيه، كمان لوّنلك ايدك وجلابيتك وسافرتي معاه.

– أيوة...بس نفســي نروح بَحَري ســوا. ممكن يرســم هناك برضــه. زمانه بيرســم دلوقتي...يااااه! وحشني أوي هو وعَم بيتهوفن. يللا نروّحو بقى يا ليال...كفاية كدة.

– طب ثانية! نكمّل بس الدور دَه...فيه كام حاجة لسّة....

– لا لا، بعدين...عشان مانتأخّروش عليهم.

تسحبني بديعة وتقودني بخطواتها القصيرة المُسرعة نحو سلالم الطابق الأخير فنهبطه بين الزحام إلى الطابق الثالث، ثم الثاني، فالأول...ثم نخرج من باب المتحف إلى الشـــارع عائدين إلى المنزل.

34 ..هَذَا إِيقَاعٌ أَعْرِفُهُ

في طريق عودتنا أنا وبديعة من المتحف، كنت أنوي البدء في رسم جلبابها المحيط «بصندوقها الأسود». المُتعارف عليه في كل الدنيا أن الصناديق من هذا النوع تكون (سوداء). لكنني، كلما أطلت النظر إلى وجه بديعة، شعرت أنه، حتى إن كانت صناديق العالم الحامله للأسرار كلها سوداء، فإنّ صندوق هذا الملاك الأبيض الصغير لا بد أن يكون له لون مختلف. أصفر مثلًا، مثل عبّاد الشمس. حتى وإن كانت الأسرار المصفوفة بداخله أبنية من أسود فوق أسود.

أو، لنحاول على الأقل تغيير لونه لها. نحاول. نمسح بأصفر على أسوده. فإن قاوم الأسودُ الصفارَ الممسوح أعلاه، نتحايل عليه بكسائه بباقات من الأزهارالملوّنة كتلك التي يتحايل بها الناس على مقابر أحبابهم.

عندما عُدنا إلى المنزل، تبدّد قراري باستئناف (الجلباب) بعد أن وقعت عيناي على اللوحة التي كان فان جوخ قد بدأ في رسمها قبل مغادرتنا.

أخذتني اللوحة بسحر ليس كالسحر. أُقرفص خلف فان جوخ على أرض الشُرفة وأتمعّن في تفاصيلها.

إنها لوحة لفازة بها خمسة عشر زهرة عبّاد شمس. نعم، نفس الاسم لنفس اللوحة التي رأيناها منذ ساعات اليوم. لكنها، لا تبدو لي تمامًا كتلك. هذه المرّة، الألوان أكثر نصوعًا وملمس القلوب الخَشِن محجوب خلف ملمس الورقات الصفراء الكثيفة الناضرة الناعمة التي تحيط بها، حتى أننا بالكاد نرى بنّيه.

الزهور هذه المرّة تُغازل الحياة لا تستسلم للموت. ومساحات الأخضر الطيّب أكثر وأوضح، نراه في الورقات الخضراء وفي الفروع حول وبين وخلال الزهرات في الفازة.

نستعين بهم إذن لتزيين صندوق بديعة الكامن في صدرها في حال استعصى علينا ترويض أسوده. أو...نتركهم لمهمّة ترويض سكون الكانفس ونأتي بغيرهم لصندوق بديعة غدًا.

في صباح اليوم التالي، أخذنا نستعد ثلاثتنا للرحلة التي كنا قد خططّنا لها منذ مجيئنا إلى أمستردام قبل أسبوع. إنه «مهرجان الربيع» السنوي في الKeukenhof.

استغرقت رحلتنا من أمستردام إلى الKeukenhofقرابة الساعة. قضاها بيتهوفن نائمًا في المقعد الأمامي إلى جانب السائق وبديعة كانت قد «أكلت ودن» فان جوخ بكثرة الحكايات التي أخذت ترويها له عن أصدقائها في الحارة، والإسكندرية،

و هذا الصــندوق الغر يب ا لذي يُصــدر أصــوا ًتا لأ ناس مثلنا يتكلّمون من مكان «بعيييييييييييد» قد يصل إلى كفر الزيات نفسها! «تخيّل يا عَمْ؟ أصل كفر الزيّات دِه لازْمَنْ نروحولها بالوابور». وا سمه «راديون» (هكذا نطقت «راديو»). شاهدت واحد منه في قهوة على قمّة الحارة مرّة فوقفت هي و(ستيتة) و(باتعة) و(هانم) مشدوهين يستمعون بإنصات.

وبينما واصلت بديعة حكاياتها التي لا تنتهي، كانت عينيّ مزروعتين في صفحات كتاب أمسكت به أقرؤه في الطريق. إنه كتاب (ضحك مجروح) لبلال فضل. أ ضحك لما تقوله بديعة تارة، وأضحك لما يقوله بلال بسخريته الموجِعة تارة أخرى.

وكلها «ضحكات مجروحة» آخر الأمر.

«(.....) فقالت لها إن سيادة الوزير قال إنه : (بيتفائل باللون الأسود). وبما أنني أعرف المعلومة للمرّة الأولى، فليسـمح لي سـيادة الوزير أن أشـاركه تفاؤله دون أن أسـأله عن مبرّرات، لأقول له «يجعلها سنة سودا على سيادتك يا فندم».

توقفني ضـحكاتي المتتالية وأنا أُنهي بتلك السـطور فصـل «الأصـفر مع الجرين» من الكتاب. أنتهز فرصـة أن بديعة منشـغلةببعض المناظر الخارجية وبمتابعة الماشـية في الحقول، وأنظر إلى فان جوخ الجالس إلى يميني: «وزير ثقافتنا الأسـبق يقول لنا على طريقتك: (اللون الأسود يا أنا).

لكن هيهات يا عزيزي هيهات! أسوده وأصفره وأزرقه، بل وصُرّة ألوانه كلها ليست إلا زَبَدًا يذهب هباءً فوق نهرك الجاري السـخيّ الماكث. فأين «الجيبة الكُحلي اللي اندلقت عليها كوباية سـحلب قبل أن ينقعوها في حلّة قلقاس» من زهورك وحقولك ووجوه فلّاحينك الطيّبين؟ أسوده ليس كأسودك.

وأخيرًا وصلنا إلى بوّابة الKeukenhof. بعد طول انتظار في الطابور الطويل المؤدّي إلى شبّاك التذاكر، أخيرًا حصلنا على تذكرة الدخول.

- How many tickets?(كم تذكرة؟)

- Four…No! I mean, just…one.(أربع تذاكر...لا! أقصد..واحدة فقط.)

- Okay(حسنًا.)

- Thanks(شكرًا.)

وها نحن نسير إلى الداخل..

فصل الربيع بألوانه وزهوره ودفء شمسه وحلو هوائه وابتهاج طيوره، يتلخّص هنا! في هذا المكان. عن يميننا ويسـارنا وأمامنا وخلفنا وفوقنا وتحتنا...يحاصـرنا الربيع ويُحكم تطويقنا بروعته فيبدو لنا الأمر مريبًا للشـك: أهي الجنّة؟ أم أنّ الله جعل لنا على الأرض صورة مُصغّرة منها ليُضاعف توقنا إليها، متمثّلةً في هذا المكان؟

وأنا مع هذا لست منشغلة بإجابة. أو بمعنى أدق، ليس هناك وقت للانشغال بالتفكير في إجابة. فأينما أولّي وجهي، ثَمّ جمالٌ آخر، أو لونٌ أعذب، أو أشـجار أسـخى، أو طيور أكثر وأرق. جنان تلحق بجنان. وممرّات خضـراء تؤدّي إلى ممرّات صـفراء وحمراء وبيضـاء وزرقاء لوّنتها الزهور، تؤدّي إلى ميادين تتوسّـطها سـيمفونيات من الزهور ذات إيقاعات مختلفة: منها السـريع ذو الأنواع والأطوال والألوان الكثيرة المختلفة، ومنها الهادئ ذو النوع واللون الواحد السائح المُمتد.

تُرى..هذه البُقعة تُشبه أيًّا من سيمفونياتك يا بيتهوفن؟...طيّب وتلك؟ أيّهما أقرب إلى إيقاع الباثيتيك؟ أظنّها تلك: زهور بيضاء متبوعة بالبنفسجية...خوفٌ فأمل فخوفٌ فأمل.

أما هذا الاستعراض الأصفر فهو لك أنت، عزيزي فان جوخ! أيعجبك؟

أحسـست أنّ بديعة خائفة وتائهة من وسـع المكان وازدحامه. لا أدري لماذا فجأة أصـابها هذا القلق. أُمسـك بيدها وأسـير بها إلى قاعة مُغلقة بأبواب زجاجية مُطلّة على الممرّات أمام إحدى ميادين الزهور الكثيرة. في القاعة الـ صغيرة نـ سبيًّا، تُباع زهور ونباتات وألعاب وميداليات وقطع تذ كار ية مختلفة منقوش عليها Tulipsوغير ها من الزهور والمناظر الكثيرة هنا. تركنا فان جوخ وبيتهوفن يتنزّهان بين الزهور والأشّجار، ودخلنا.

انظري يا بديعة! قلمٌ على شكل زهرة ال Tulip! أتعجبك؟... وانظري! لا، لا من هذه الجهة حيث القسم المُخصّص لفان جوخ. وسادات صغيرة وكبيرة ومتوسّطة الحجم، وأكواب، وأقلام، ودفاتر، والكثير من الأشياء التي نُقش عليها بورتريهات فان جوخ ولوحته: «The Starry Night»، ولوحات عبّاد الشمس.نشتري وسادة مطبوعة عليها لوحة فازة الخمس عشرة عبّادة شمس ونفاجئ عم أبو بيت أصفر بها عند مغادرتنا من هنا...ما رأيك؟

بدأت بديعة تطمئن للمكان وتتحمّس للهديّة التي ستشتريها لعم فان جوخ وعم بيتهوفن. سحبت يدها من يدي وأخذت تدور في القاعة تنظر حولها إلى الأشياء الكثيرة المرصوصة للبيع أمام الزوّار. تُمسك بما يعجبها وتقلّبه بين يديها ثم تضعه في مكانه لتُمسك بأخرى.

وأنا أقف عند وسادات عبّاد الشمس الصفراء لفان جوخ. أي وسادة أختار؟ البيضاء المستطيلة متوّسطة الحجم؟ أم نظيرتها المربّعة الأكبر من تلك قليلًا؟ أم...

أنتبه فجأة إلى قامة تقرفص إلى يساري وتُمسك بلوحة خشبية صغيرة مطبوع عليها لوحة من لوحات عبّاد الشمس وتتفحّصها.

آه يا عبّاد الشمس الرائف بحالي، شكرًا.

تجعّد عينيها وتنظر إليّ من موضعها على الأرض ثم تنتبه:

- أوه! كيف حالك؟ أنا حقًا خجلى منك كثيرًا منذ ذلك اليوم عند المقابر. كنت في حالة...ليست بالجيّدة أبدًا. اعذريني.

- لا، لا، إطلاقًا! أنا أخذت أبحث عنك منذ ذلك اليوم. كنت...أرغب في أن...أعتذر منك لأنني بقيت صامتة...يعني...كان يتوجّب أن...

تكسو كلماتها بضحكات حيّية مرتبكة:

- لا عليك، لا عليك...ماذا كان يمكنك أن تقولي لفتاة مجنونة تتنزّه في المقابر تبكي عند كل قبر هناك كأنه لعزيز تعرفه وتضع وردة؟ لا عليك...أشعر من لكنتك أنّك مصريّة، أليس كذلك؟

- بلى...وأنت؟

- أنا (راما)..من فلسطين.

- وأنا ليال.

- اسمكِ جميل!

- شكرًا...وأنت أيضًا.

- شكرًا...جميلة هذه الوسادة. تحبّين عبّاد الشمس؟

- لا، بل أحب فان جوخ. أو دعيني أقول، أحب عبّاد الشمس لأن فان جوخ يحبّها. وأنتِ؟

- أنا «يا ستّي» أحب فان جوخ لأنه يحب عبّاد الشمس. فأنا بائعة زهور بالأساس.

- أوه! أنا أعشق الزهور!

- حقًا؟ غدًا أستضيفك إذن في متجري الصغير بوسط البلد، ما رأيك؟

- يُسعدني هذا جدًا.

بعد برهة من الوقت غلب عليها صمت الشعور بارتباك العلاقات حديثة العهد، نفذ نيزق سريع أضاء في الأجواء دفء الألفة والمودّة البعيدة.

- إن لم تكن لديك خطط مسائية، فلنتناول العشاء معًا اليوم. ما رأيك؟

- يُسعدني هذا أيضًا جدا.

إنها فتاة شـديدة الرقّة. في عينيها حزن وخوف وطفولة مشـتعلة مبهجة. تشـرد بذهنها إلى ملكوت بعيد فتنطفئ عيناها ويشـحب وجهها. ثم يحضـر ذهنها بكل ما أوتيت من مشـاعر وحماس فيصـير مجرّد النظر إلى عينيها فعلًا جميلًا يُبهج النفس ويصـبّ ما لا ينتهي مجراه من كؤوس الأمل.

تزيّن شـعرها ب«فيونكة» بامبية على كلتا الجانبين. وتكحّل عينيها بكحل أسـود يبرز سحر لمعانهما العسليّ المتأرجح باستمرار بين الشرود الحزين والحضور المبهج.

هذا إيقاعٌ أعرفه.

35..رَامَا

– في منزلنا سلّم كبير مُرعب يمتد إلى ثلاثة طوابق. في الطابق الثالث حيث غرف النوم، يبدأ الـسلّم بمنحنى تتو ّسطه أعمدة عالية بينها فراغات وا سعة بين كل عمود وآخر، تكفي لتسع قدّ طفل صغير حتى عمر الأربع أو الخمس سنوات، من أوّل رأسه حتى آخر قدميه.

تنهّدت راما وهي تقطع حديثها بالنظر إلى الأسـفل حيث طبق المعكرونة الإسـباجتي بينما أخذت تقلّب فيه ببطء يائس كأنها لا تراه. ثم واصـلت وقد ترغرغت عيناها بالدموع فزاد من التماع بؤبؤيها وقزحيتيها:

– تأتيني كوابيس كل يوم أرى فيها أناسًـاأعرفهم أو لا أعرفهم تنزلق أقدامهم من هذا الفراغ فيسقطون موتى. أصحو مفزوعة وأركض باتجاه السلالم لأتأكّد أن الجميع في البيت سالمين وأنّ السلالم لا زالت بيضاء ولا تكسوها بقع دماء حمراء...و...(عَمّار)...

تجهش في البكاء وهي تذكر ا سمه. تُسقط وجهها بين راحتيها وقد بدأ خدّاها وأنفها في الاحمرار كأن أحمر الدماء الذي تخشى رؤيته تسلّل من كابوسها إلى وجهها.

انظري إلى هذا يا بديعة! كم هي رقيقة. تبكي كالأطفال. و صدرها يهتز من فعل النشيج كأنها ترى صـورًا معينة تزيد من همّها وترجّها رجًّا من الألم أو الخوف أو اليأس. أو من هذا كله.

تترك بديعة كوب عصـير البرتقال الذي طلبته منّي وتترك مقعدها سـائرة نحوي. تنظر إليّ. وتضـع يديها على ركبتيّ ثم تحوّل نظر ها إلى را ما وهي تتطلّع إليها بعينين حزينتين مليئتين بالشـفقة والتسـاؤل. أرى أنها تريد أن تركض إليها وتحتضـنها لتخفّف عنها كما فعلت مع عَم المايسـترو وعَم الرسّـام. لكنها...تسـتحي هذه المرّة. وأنا مثلك أسـتحي يا بديعة.

- لي ثلاثة أخوة: (رنيم) و(عَبِد) و(ديالا). ديالا أصـغرهم، وتكبرني بعامين: 28 عامًا. وهي أقرب أخوتي إليّ.تزوّجت منذ حوالي سنة أو سنة ونصف وأنجبت عمّار. منذ أن جاء عمّار ملأ البيت فرحة لم يعرفها بيتنا أبدًا. وغمر قلوب عامريه بالأمل والسـعادة. إلا أنا، ملأني رُعبًا وكوابيسًا لا تفارقني.

«رأيته يهوي من يد مربّيته على درجات السلّم و...يموت. ورأيته ينصب ألعابه خلال الفراغات بين أعمدة السلّم ويجلس فيها، فأفزع وأركض نحوه بسرعة، فيسقط قبل أن أنجده. لكن كل هذه الكوابيس بقيت مُحتملة إلى حد ما إذ أنها – في النهاية – مجرّد كوابيس. أصحو منها في كل مرّة وأحمد الله أن شيئًا منها لم يكن حقيقة. وأنّ عمّار لا زال رضيعًا لا يستطيع المشي أصلًا. أقصى ما يمكنني فعله هو أن أحمله أو أن أوصي مُربيّته أو ديالا بأن تحملاه بعيدًا عن السلالم: «انتبهوا بالله عليكم».

«أما ذاك اليوم، حين رأيتك في المقابر، لم يكن ما رأيته قبلها (مجرّد) كابوس. ما رأيته كان حقيقة أصابتني بهيستيريا مُرعبة.

«استيقظت يومها من النوم على أصوات تضحك فرحًا. ماما تقول: «اسم الله اسم الله عليك..تِقْبُر قلبي لَكْ حبيبي». وديالا تقول: «أيوه أيوه فَرجينا الخطوة الحلوة يا رِجّال».

«مشى عمّار. انتفضت من سريري مهلوعة باتجاه غرفة المعيشة. وجدت «ماما» وديالا وأهلي«كُلْهُمْ» مقرفصين على الأرض، وعمّار يمشي وحده على قدميه نحو الطاولة القائمة وسط الغرفة ثم يعود. ثم تأخذه الحماسة من فرحة أهلي وتصفيقهم الحار له فيُسرع من خطوه ويركض ركضًا مرتبكًا مهتزًّا.

«رسمت ابتسامة مزيّفة على شفتيّ وقلت: «ما شاالله ماشاالله حبيبي». وتركتهم وعدت منهارة إلى الغرفة. أبكي كأنما جاءني خبر موت أحدهم، لا أنّ ابن أقرب أخوتي لي قد كبر بالقدر الذي أ سعف قدميه أن تخطوا فيم شي ويركض مثلنا. لا أدري لماذا قرّرت لحظتها أن أبدّل ثيابي وأذهب إلى المقابر دون أن أخبر أحدًا».

انتقلت راما من نبرة الأســى في حديثها إلى ضــحك مرتبك ونظرت إليّ وهي تقول بخجل:

- أعرف أنّ ما أقوله يبدو غريبًا أو مبالغة لا معنى لها. لكن...أحيانًا نخاف أشــياءً لا يفهمها أحد سوانا. ولا نفهمها نحن أنفسنا أحيانًا أيضًا. أو نخاف أشياءً يخافها غيرنا مثلنا، إنما بمقدار ليس كالمقدار. نخافها أطنانًا تُطبق على الأنفاس وتجعل من كل الأيام كوابيس لا نصحو منها، ومن كل لحظات الفرح لحظات يأس وتعاسة حقيقية لا نبالغ حين نصفها على هذا النحو.

- صدّقيني أنا أفهمك جيّدًا...منذ متى بدأت علاقتك المرعبة هذه بالسلّم؟ منذ أن وُلد عمّار؟

ضحكت ذات الضحكة اليائسة الساخرة التي تقطتع بها حديثها بين الحين والآخر. لا أدري إن كانت تضحك من سذاجتي أم من نفسها أم من خوفها أم من الأقدار التي أتت بها إلى هنا.

– بل إنه تاريخ طويل، لا علاقة له بالسلّم وفراغاته، ولا بعمّار ومشيه. أنا أخاف الموت يا ليال. أخافه جدًا. أعرف أن كلنا يخاف الموت فهو مجهول لا نعرفه وقدر محتوم لا مفر منه. لكن...خوفي مضاعف. خوفي ليس كالخوف. يُشعرني ويُشعر من حولي دائمًا أنني «غريبة». أو، بالأحرى...

تنظر إلى الناس على الطاولات من حولنا و تدور بوجهها وعينيها نحوهم جميعًا وهي تستأنف:

– أنظر إلى كل من حولي وأشعر برغبة عارمة للصراخ فيهم: «ما بكم؟ كيف تضحكون وتشربون وتتسامرون وترقصون؟ إنكم موتى. ألا تدركون هذا؟! لماذا تسكتون عن هذا؟ ألا يجب أن نتّحد ونجد طريقة ما نقهر بها هذا الموت؟» وأحيانًا (كثيرة طبعًا)، أنظر إلى السماء وأسأل الله باكية: لماذا يا الله؟ لماذا كتبت علينا هذه المصائر التي لا نستطيع لا تجنّبها ولا احتمالها؟ لماذا تأخذ منّا من نحب واحدًا واحدا؟ ثم تسوقنا نحن أنفسنا إلى هذا المصير المجهول؟ هذا مؤلم جدا».

«إنه مصيرنا المعلوم. وكل يوم يمر يُقرّبنا منه أكثر.فما فائدة كل هذه الأيام التي نعيشها وكل تلك اللحظات الفائتة؟ ما فائدة أي وقت جميل أو قبيح يمر بنا؟ ما فائدة أي شخص جديد نقابله فنحبه أو نكرهه؟ ما فائدة أي عمل نقوم به راغبين أو كارهين؟ وما فائدة هذا العشاء؟ وطبق الإسباجتي هذا؟ ما فائدة الحياة جُملةً وتفصيلًا؟

«لم أعد أحتمل هذا يا ليال. إنني...اعذريني...أنظر إليكِ الآن وأفكّر «ستموتين». ثم أتخيّلك جثّة هامدةً أفقية تسير بها مجموعات من الأحياء ويضعونها في قبر ضيّق مظلم وحدها..».

تضحك ضحكة مباغتة عالية مُشبّعة بالدموع:

ثم تتآكل الجثّة وتصبح عظامًا فترابًا. مجرّد تراب.

أشدّ على يد بديعة التي بدأت تخاف وأربت على رأسها وأنا أنصت لراما بعينين مفزوعتين:

- اعذريني...حقًا لا أقصد أن أُخيفك. لكن...لم أعد أحتمل! إنني أتخيّل ذات المشاهد الفظيعة مع كل شخص أقابله. كل يوم. من أعرف ومن لا أعرف. من أحب ومن أكره. من يعنيني ومن لا يعنيني. وفي كل الحالات، تؤلمني الأفكار وتؤلمني المشاهد التي أراهم فيها كثيرًا. ويصعب مع هذا أن أمضي في حياتي هكذا...«عادي».

«أتغيّب عن العمل كثيرًا. وأنفرد في غرفتي وأعتزل أهلي معظم الوقت (إن لم يكن كله). أشعر بقلبي وهو ينبض بسرعة وبقوّة مؤلمة. ومع هذا، فأنا يائسة، ضعيفة، لا أقدر على شيء. أليست تلك الحياة برمّتها حياة تعيسة لا معنى لها؟».

- لا أعرف كيف ينبغي أن أجيبك...ثَمَّ أشياء كثيرة عن الحياة لا نفهمها.

- لا نفهمها...نعم...أتدرين؟ البارحة لم أنم طوال الليل. ظللت أتقلّب يُمنةً ويُسرة إلى أن أشرقت الشمس وزقزقت عصافير الصباح.

«لم تكن الصور تفارقني. كنت أتخيّل جثّة (سما) ابنة خالتي التي توّفت منذ شهرين. أراها مختنقة بين أكوام التراب، متعفّنة تأكلها الديدان، ملامحها مشوّهة، ورائحتها كريهة. ولا تغيب الصور والروائح والأفكار عن بالي. ترى أين هي الآن؟ بماذا تشعر؟ أتتألّم؟ هل تحلّلت عظامها كلها حتى صارت كوم تراب بين أكوام التراب الأخرى؟ أم لا زالت في مرحلة متقدمة من عملية التحلّل؟ إنّ الأفكار كابوس يا ليال....كابوس!».

- أعرف يا راما، أعرف.

تبتلع شربة ماء من الكأس الطويل الشفّاف أمامها، فأسمع صوته، وهو يمر من حلقها إلى معدتها،عاليًا من شدّة توتّرها وضيقها مما تحكيه.

– في الليل أبقى مســتيقظة، متأهّبة، في حالة انتباه واســتعداد دائم بينما الجميع نيام. أتسلّل بين الحين والآخر وأ سير على أطراف أ صابعي إلى غرف نومهم: ماما وبابا وأخوتي فردًا فردًا، وديالا وعمّار إن كانا عندنا ليلتها لأن زوج ديالا كثير السـفر. أقترب من أنوفهم لأتأكّد أنها لا زالت تؤدّي وظائفها التنفسيّة من شهيق وزفير.وإن ارتبت في الأمر – وكثيرًا ما أرتاب فيه – أتحسّـس صــدورهم لأتأكّد أنها لا زالت تعلو وتهبط وأن قلوبهم لا زالت تنبض بالحياة. ثم أعود إلى الغرفة. وغالبًا لا يغلبني النعاس إلا في الصــباح حين أســمع صــوت خطوات أقدامهم أو ســعال أحدهم وهو ماضٍ إلى الحمّام ليغتســل ويبدأ يومه المشرق بعد نوم عميق».

تنهال حكايات راما عليّ فأختنق بالخيال. هذا الخيال القوي الذي نســتعين به على ا ستبدال واقع بواقع وتهوين أمور صعبة على أنفسنا، أحيانًا يكون قا سيًا إن ا ستعنا به على تصـوّر واقع فئران مذعورة أخرى. وهذا الخط الفاصـل بين تآلف القصـص مع بعضـها، أحيانًا يختفي فلا نعرف إن كانت القصص تستقر جنبًا إلى جنب لتدعم الواحدة قرينتها، أم تسـقط وتنهال الواحدة فوق الأخرى فتنهار الأبنية وتسـقط التفاصـيل أشـلاءً بين حطام حكاية كبيرة لم يعد لها عنوان.

من كثرة ما أريد أن أقوله لراما، لم أقل شـيئًا لراما. أود أن أخبرها أنها ليسـت وحدها. لكن هل يهون الحريق إن نظر المُحتَرِق فوجد محترقًا آخرًا إلى جانبه؟

راما تبكي. أنظر إليها بيأس كيأسـها؛ صـامتة، عاجزة عن القول والفعل معًا،أنتبه ليدي بديعة المتشبثتين بأعلى فخذيّ. إنها تنظر إلى راما أيضًا، وإنها مثلي صامتة وعاجزة عن القول والفعل. أضـمّها إلى قلبي فتحيطني بصـدرها وذراعيها لكنها لا زالت لا تحول عينيها عن راما. تنظر بطرف عينها اليسرى إذ تخرج أعلى رأسها من بين ضمّة ذراعيّ وتصوّب بصرها نحو الفتاة الرقيقة الباكية.

- مالِك يا بديعة؟

- مالها يا ليال؟

- خايفة.

- خايفة من أهلها وجوز أمها؟

أضمّها أكثر وأشعر بدموع تسري من عيني. أبكي راما أم أبكي بديعة أم أبكي عصائب الضباع؟

لكن، يا ليال... منذ أن جاء بيتهوفن وفان جوخ إلى غرفتنا وتعلّقت بهما بديعة، لم تعد كما كانت. إنها الآن أكثر بشاشة وحياة وطمأنينة. يداعبها فان جوخ وتداعبه. ينشغل عنها بيتهوفن بقيادة فرقته، فتشاكسه وتُسقط عليه حِيَلها. تنام بجوارهما أو بين احضانهما أو تُسند رأسها على حجر أحدهما وتمد قدميها على حجر الآخر. لم تعد مسجونة خلف موانئ الإسكندرية. إنها الآن بأمستردام. أدركت أنّ العالم كبير يسع الإسكندية وغير الإسكندرية . وأن للعالم «خواجات» ليسوا كالخواجات المتآمرين المحتلّين الغليظين في بَحَري؛ أناس عاديّون مثلنا. حملت باقات عبّاد شمس، وTulips، ورأت جنان الزهور والأشجار في الkeukenhof فعلمت أن الورد البلدي مجرّد قوقع صغير مستقر في قاع بحر واسع.

للنيران ماءٌ تُطفِئها.

- راما، أعرف كيف الخوف شرس وملعون، ولا تُخمِده أقوال من فصيلة: «لا شيء يستحق الخوف»، أو «اهدأي»، أو «دعك من هذا»، أو «تحلّي بأفكار إيجابية»، أو أي من هذه النصائح الساذجة التي لا تعرف هوية الخوف صدقًا. لكن...منذ أن رأيتك في المقابر، أردت أن أخبرك..لا أعرف لماذا. يُخيّل إليّ أنني أريد أن...أريد أن أؤكّد لك أنّك لست وحدك في هذا الصراع...

لأن شعور الوِحْدَة المصاحب لهذا الخوف السخيف يقهرنا قهرًا ويغتالنا اغتيالًا قبل الموت الواحد الأكيد. وصوتٌ آخر بداخلي يرجّح فكرة أنني رأيت فيكِ خلاصًا ما أثار في نفسي رغبة أن أُلقي من صدري أكوام الهموم الساكنة فيه، أمامكِ. أيًا كان الدافع الحقيقي من وراء تلك الرغبة المندفعة لنقل هذا كله إليك، سأخبرك، وأدعو الله أنه إن تمّ أحدُ الأمرين، أن يتم أوّلهما.

بعد شرود عينيها، يتحوّل نظرها الآن إلى تحديق فيّ. تنظر إليّ وتنصت بإمعان. ونشيجها تحوّل إلى هدوء ينتظر نفاذ أول الحكاية المقتربة.

وبديعة؟ إنها تنتظر خروج الحكاية أيضًا.

- عندما كنتِ في المقابر تبكين عمّار الذي مشى، كنتُ على مشارف أن أقوم بفعل جد تافه وغريب، وأن أدفن ألواني وفرشاتي ولوحة أرسمها. كنت في حالة غضب هستيري أسقطّه كله على تلك الألوان والعصى الخشبية الطويلة ووجه مليح أرسمه – لا ذنب له. بل لا ذنب لهم كلهم. والقصّة تبدأ منذ... لا أعلم منذ متى تحديدًا، لكنه بالتأكيد منذ زمن طويل. منذ أن خِفتُ أهلي واعتزلتهما فتحوّلت إلى «كرسي» لا يتكلّم ولا يجيب متكلّمًا ولا يتواصل مع من حوله. أخاف أمورًا يألفها الناس. أخاف «صباح الخير» وتقلقني «كيف حالك؟» وأرتعب من تبادل النظرات إلا قليلًا.

مع مغيب الشـــمس، جاءنا الجارســـون بكوبين من القهوة طال معهما الحديثُ. راما تنصـــت دون مقاطعة. لكن إن كانت إيماءات التعاطف والانفعال بما أقول تُعد في كتب التواصل مقاطعةً، إذن، فهي تقاطعني كثيرًا. جدًا.

حكيت لها عن طفولتي المُزّج بها في الغرفة. عن ماما. عن «الكرسي». عن فرح التي لا تعرف ماهيّتي. عن نانســـي وفتايات أخريات كثيرات قورنت بهن دائمًا لأجد نفســـي الخاســـرةدومًا في ســـباق تدشـــنه ماما. عن بابا. وعن وجودي الذي «مالوش لازمة» على الإطلاق. عن «تخلّفي العقلي الرســـمي». عن عُزلة المدرســـة. عن ســـلالم الجامعة. عن الدكتورة إيمان والتعيين الذي لم أكن كفئًا له. عن الشـــركة وضـــباعها. عن عُمَر وســـوزان والوظيفة التي لم أحظَ بها. عن دُنيا القبيحة. عن كوني دُمية «بتقول بابا وماما». عن خجل الأطفال. عن ليلة زيارة داليا. عن مايا. عن مريم وعُرســـها، وواقعة البلكون. عن ســـارة ورسائلها. ورسائل أخرى كثيرة.

حكيت لها عن إيقاع الحروب في قلبي ودقّاته المجنونة التي تكاد تشـــقّ الصـــدر من قوّتها. عن العرق المنصَـــبّ واحمرار الخدّين وارتجاف اليدين والركبتين والفكّين.عن ذُعر الفئران ونفور الظباء. عن الليالي المُظلمة و شتاء يناير الذي يفرض سطوته على كل شهور العام. عن تشنّج الكتفين

وتقلّص القصبة الهوائية. عن الفاصل الرفيع بين أبحر الواقع و سماوات الخيال. عن المحرّر الصحفي و سيادة المحقّق الكامنين في الطابق العلوي لرأسي. وعن حالة الموت القريب المصاحبة لهذا كله...«سأموت...سأموت».

كانت راما تُنصت إليّ إنصاتًا لم أصادفه في أحد من قبل. وبدأت علامات الدهشة ترتسم على وجهها، فعيناها العسليّتان قد زادتا اتّساعًا ولمعانًا، ورأيتها تومئ عدّة مرّات بوضع كفّها على فمها من وقع المفاجأة لِمَا انحرف حديثي تجاهه. ظننت أولًا أنه مسلك التعاطف تسلكه. لكنه...كان شيئًا آخر: كان دهشة فأر وجد فأرًا آخر يفترش سريرًا ملاصقًا له في الجُحر.

متى أتى الفأر الصغير إلى هنا؟ وكيف لم أنتبه لوجوده في الجُحر إلا الآن؟

- مهلًا، مهلًا يا ليال! انظري إلى هذا...لقد اقشعرّ بدني.

أشارت إلى ذراعيها، ثم تنهّدت تنهيدة طويلة استأنفت بعدها الحديث.

- بالرغم من أنني أحببتكِ منذ أول يوم التقيت بكِ فيه ، ورأيت فيك روحًا جميلة طيّبة جعلتني أشعر كأنني أعرفك منذ زمن طويل، ودفعتني لأن أفتح لكِ قلبي، هكذا، ببساطة...إلا أنني لم أخبركِ بالحقيقة كاملةً. لا لشيء سوى أنني اعتدت أن لا يسمعني أو يفهمني أحد.

«حاولت أن أشــرح كل ما أمر به لديالا، ولإحدى صــديقاتي، فلم تفهمنني أبدًا. ديالا دائمًا ما كانت (وظلّت على هذا النحو حتى بعد أن أخبرتها بسـرّ قلبي الهلوع) تصــفني ب«كسـولة» و«سـلبية». و(صـوفي)، صـديقتي منذ الطفولة، تصـفني إلى الآن ب«غريبة» و«محبّة للكآبة».

«صـوفي من القليلات من بين أصـدقائي التي اسـتطعتُ– إلى حد كبير – الحفاظ على صــداقتي بها إلى اليوم لأنها فتاة طيّبة، والأهم من هذا أنها مَرِنة. لا تفهم سـبب اختفائي المفاجئ، أو انقطاعي عن الأعمال والأنشــطة التي نقوم بها سـويًا، أو عدم ردّي على اتصـالاتها ورسـائلها في أوقات كثيرة، لكنها نوعًا ما تجد سـبيلًا إلى التعايش معي على هذا النمط الذي تسـبّبت أنا فيه. لكني منذ أن تزوَّجَت ديالا وأنجبت عمّار صــرتُ أكثر ميلًا للعزلة والاكتئاب، فضوعف معه سلوكي المضطرب المُزعِج لصوفي وغيرها.

«وفي يوم من الأيام، أحسستُ أني أحتاج إلى وجود صوفي جدا لكني ا ستحيتُ من أن أظهر فجأة بعد عدد كبير من الرسـائل والاتصـالات التي لم أكن أجبتها. فشـعرت بحاجة كبيرة لأن أخبرها بالهَمّ الذي أحمله على صــدري. طلبت منها أن نتحدّث ولبّت النداء فورًا.أخبرتها بكل ما أمر به كما فعلتُ مع ديالا وأكثر. كنت أظن أن صــوفي سـتفهم أو تتفهّم،

لكنها أظهرت بعض التعاطف الذي شـعرتُ فيه بشـيء من ادّعاءٍ أذاني. بعدها، علّقت على كلامي عن الموت بأنه «أمر عادي» وأن كلنا نخاف ما نجهله، ونخاف الموت بالأخص، وأنني أبالغ لما أظنه خوفًا زائدًا عندي. بل وأضـافت على تحليلها، أنها قد تكون محاولة من عقلي الباطن لتبرير سـلوكي أمام نفسـي حتى لا أشـعر بالذنب. ثم بدَأَتْ في حديث مطوّل عن الفرق بين الشخصيّات الإيجابية والشخصيات السلبية، والشخصيات التي تميل إلى «الحزن والكآبة». أخبرتني أن السعادة تبدأ بقرار نتّخذه بداخلنا، وأن أوّل ما عليّ فعله – من وجهة نظرها – هو أن أثق في قوّة الخير في الكون (صوفي لا تؤمن بوجود إله، لذا تُكثر من ذِكر «الكون» كقوّة عُليا) الذي يأتي إن نحن دعيناه، حسـب نظرية قانون الجاذبية (Law of Attraction).

«أدهشني رد صوفي فتحوّلتُ بعده إلى حالة صمت تام. حتى إيماءات الرفض أو التأييد لم أتمكّن من إظهارهما. لأوّل مرّة أشـعر أننا أنا وصـوفي بعيدين إلى هذا الحد! كيف ظننت أن أرواحنا كانت قريبة ومتآلفة في يوم من الأيام؟! فجأة ظهرت أمامي كل الاختلافات التي لم أكن أراها بيننا أبدًا. لقرابة السـاعة، أخذت أحكي لها عن خوفي الزائد واضـطرابي، لتجيبني أخيرًا بأنه «أمر عادي»، وأنني «أبالغ»، وتحدّثني عن «السـعادة»، وكيفيّات التخلّص من «الكآبة».

«لم يعد بعدحديث صوفي ما أقوله. لا معنى للتوضيح أو التعليق أو الخوض في تفاصيل أكثر.

«انتهى. صوفي لن تفهم.»

تناولت راما كأس الماء وأخذت منه شربةً أخرى، كأنه يضيق بها أن تتذكّر ما تحكيه لي عن صوفي. لكنها رسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها وتابعت:

- كنت على و شك أن آخذ حديثي مع صوفي إلى مستوى أعلى وأعمق لولا ما أبدته من قلّة فهم ووعي بشكل المشكلة الحقيقية وحجمها. أحجمت عن استئناف حديثي مع صوفي كما أحجمت عن استئناف حديثي مع ديالا من قبلها. ما الفائدة من الخوض في أبعاد أخرى وزوايا أعمق للموضوع، إن كانتا لا تؤمنان بأنه توجد مشكلة سوى «إصراري أنا» على أنه تجود مشكلة؟!

«ولا أكذبك القول، لم أكن أنوي استئناف الحديث معك كذلك لولا ما حكيته أنتِ منذ قليل.

«لم أشأ أن أُخبرك لأنني لم أكن واثقة إن كنت ستفهمي ما أقول أم لا. وخفت أن تسخري منّي ولو خِفيةً. لكن، الآن وقد اتّضح لي أن ما تواجهينه يُشبه كثيرًا ما أواجهه، أظن أن عليّ الآن أن أتحدث معك بصراحة وبأريحية أكبر.

«ما عايشـتيه ليلة زيارة داليا زميلتك، وفي شـرفة منزل... مريم... اسـمها مريم، أليس كذلك؟ ...نعم، ما عايشتيه يومها أيضًا وفي وقائع أخرى خضتِ في تفاصيلها ووصفتِها ب«أدرينالين مُشـتعل»، و«حالة من حالات الجنون»، و«الظبية المذعورة»، و «إيقاع الحروب في القلب»، كل هذا، في الحقيقة ليس (خوفًا). أقصـد، يعني، هو بالتأكيد خوف، لكن الوصف الدقيق للحالة هو ال «Panic Attack» (نوبة هَلَع). »

شـدّتني تفاصـيل ما حكته راما عن ديالا وصـوفي فلما انتقلَتْ فجأة من الحديث عن نفسـها إلى الحديث عنّي، فوجئت. لم أكن أتوقّع. فهمت ولم أفهم كلام راما. رنّ مصـطلح «نوبة هلع» في أذني عدّة مرّات. أرتبك وأتشبّث بمقعدي

وبكوب القهوة النصف ممتلئ. أعرف «الهلع» – وهل لي أن لا أعرفه؟ لكن، ما معنى أن يكون للهلع «نوبة»؟ ماذا تقصد راما بإضافة كلمة «نوبة» إلى حديثها بالضبط؟ أأنا مصروعة؟ لا أستبعد هذا أبدًا. لا بد أنني كذلك. لطالما شعرت أن ما أمرّ به غريب...حالة أقرب إلى الجنون والهذيان وخوف ليس كالخوف. ألم أؤكّد على هذا مرارًا؟

شَعَرَت بديعة بجدية الموقف وبارتباكي البادي، فأخذت تنظر إليّ بترقّب ثم تنظر إلى راما في انتظار أن تقطع إحدانا الصمت الذي ساد مجلسنا، ولو بر شفة قهوة من الفنجانين الموضوعين أمامها على الطاولة، والتي صاحبت رائحتهما كل القصص والإيماءات والنظرات طوال حديثنا الطويل.

36 ..غَدًا نُرَوِّضُ أَسْوَدَ الْصَّنَادِيقِ

راما هي من قطعت الصمت أخيرًا.

- حاولت أن أصف لكِ ما أمر به بأدق طريقة ممكنة دون أن أُقحم في حديثي مصطلحات وألفاظ طبّية. إنني يا ليال أعاني من اضطراب قلق شديد يصل إلى كونه فوبيا. في العام الماضي، شُخّصت ب«Dealth Phobia/Dealth Anxiety Disorder». وتأتيني نوبات هلع كالتي تأتيك. وكان آخرها، يوم رأيتك في المقابر. يوم أن مشى عمّار.

- شُ-خّ-صْ-تِ؟

- نعم. فجر يوم من العام الماضي، كنت يقظة في البيت كعادتي. أتفادى النوم، وأطيل التفكير في موت أهلي وموتي. أفكّر في المقابر والتراب والروائح وظُلمة الحُفَر والعظام والأنسجة واللحوم والديدان المجتمعة عليها تأكلها. أسعى وأهرول في غرفتي من أقصاها إلى أقصاها كالمجذوبة. لا أدري أين أذهب ولا ماذا أفعل. بدأ قلبي ينبض بسرعة شديدة جدًا، وبدأت أشعر بصعوبة فائقة في التنفّس ووجع ملحوظ في صدري. ثم أخذ رأسي يدور ويدور، وشعرت بإعياء ورغبة في التقيّء، وكنت متأكدة أنها لحظة موت.

«ركضت إلى سريري والتحفته ثم نطقت الشهادة. وظللت أنتظر ملك الموت الموّكلة إليه روحي. مضت خمسة دقائق، عشرة، ثلث ساعة، نصف ساعة، ثم بدأت أهدأ. ونمت.

«في اليوم التالي، كنت يائسة يأسًا جمًّا. واندفعت إليّ – لا أدري كيف ولا متى – رغبة عارمة في الإطاحة بهذا الوضع السخيف المرهق الذي لا أفهمه ولا يفهمه أحد، وأستأنف حياتي بشكل عادي كبقية مَنْ حولي. وجدت قدميّ تنحرفان عن طريقي اليومي المعتاد إلى محطّة الترام ثم إلى المحل، وعدتُ لآخذ الدرّاجة من حديقة البيت ثم مضيت باتّجاه أقرب مستشفى منّا. وهناك، انتظرت الدكتور (فينسينت)، الطبيب النفسي بالمستشفى، في قاعة الانتظار إلى أن خرجت الممرّضة ونادت اسمي إيذانًا لي بالدخول.

«امتدّت زياراتي لدكتور فينسينت لشهر كامل. أزور فيه عيادته مرّتين في الإسبوع. أخبرته خلالها عن أفكار الموت التي تصاحبني ليلًا نهارًا. وأخبرني عن تقديره للحالة على أنها اضطراب هلع/ قلق (فوبيا) من الموت.

«لكن زياراتي له – لسبب ما – توقّفت فجأة نهائيًا. أو بالأصح، بعد موت «ستّي (أمينة)». بموت « ستّي» من أمي، صار للدنيا لون واحد لا غير – الأسود القاتم الرافض للضوء بكل صوره رفضًا تامًا. بموتها، زاد شعوري بأن لا شيء في هذه الدنيا له معنى. لا شيء.

حتى ذهابي إلى جلسات دكتور فينسينت لم أعد أرى طائلًا يُرتجى من ورائها. ما فائدة معرفتي بأنني أعاني من هذا الاضطراب أو ذاك ثم أحاول معالجته، إن كنت في النهاية سأموت حتمًا؟وكل من حولي سيموتون أيضًا. لم يعد يهم.»

انطفأت عينا راما مجدّدًا بينما عادت إلى شحوب الوجه، وابتسامات اليأس، وتسمّر نظرتها إلى الأسفل، والإقلاع عن الكلام والسرد.

لم يكن المحرّر الصحفي أو سيادة المحقّق هما من يمنعاني عن الكلام هذه المرّة. إنما، ساحرٌ عجيب! يفاجئني بحيل بعد حيل، لا أستطيع الإلمام بكل حيَله زمرةً واحدة. إنه فقط يتمهّل قليلًا في إلقاء مفاجآته بوجهي لأتمكّن من تدبّر تفاصيل ما تقوله راما.

تأتيني ماما وأنا أنظر إلى راما التي تحتسي قهوتها بتمهّلِ مَنْ لا يشغله الوقت. أستحضر صورتها في غرفتي وهي تقول: «آخذك إلى طبيب». هل كانت ماما تعلم؟ أكان من الأفضل أن أستشير طبيبًا كما استشارت راما دكتور فينسنت؟

لكنني كنت في حالة يأس تمامًا كتلك التي تحدّثت عنها راما . إن كان الناس يتواصلون مع أطبّائهم من أجل التحرّر من الموجعات، فماذا عن تلك الصبيّة الهشّة التي يوجعها أكثر ما يوجعها أنها لا تستطيع التواصل لطلب المساعدة على التواصل؟! ماذا إن كان (التواصل) هو الوجع؟ إنه أوّل الأبواب ينغلق في وجهي. الصراع والألم من ورائي، والباب منغلق أمامي ولا طائل من المحاولة وليس أمامي سوى الانتظار الرتيب.

أذهب من فكرة إلى فكرة ومن خيال إلى خيال ومن تساؤل إلى تساؤل...لكنني وسط تزاحم الأفكار والأخيلة والتساؤلات في بالي، لا تغيب «نوبة هلع» عنّي. ترن في أذني. تسطع ويسري سطوعها فوق جُملة الأفكار الأخرى.

- لا تؤاخذيني يا ليال. لم أقصد البتّة أن أنتقل من الحديث عنكِ إلى الحديث عن نفسي مرّة أخرى. لست متأكّدة من تشخيص ما تمرّين به بدقّة طبعًا، فأنا لست طبيبة، لكنني واثقة من أن الأعراض التي عرضتِها عليّ في مواضع شتّى من حديثك هي أعراض لنوبة هلع صرف. أعرف هذا لأنها استنساخ لما أمر به تمامًا وما أخبرني دكتور فينسنت عن كونه «نوبات هلع».

- لا، على العكس. كلما استرسلتِ وأضفتِ إلى حديثك أخبارًا، فتحتِ عوالم جديدة أمامي.

- «عوالم»...حقًا إنها «عوالم»...النفس البشرية بحر لا قاع له. مليء بالأسرار والتعقيدات. ألا ترين معي يا ليال، أنها كانت فكرة جيّدة أن أنأى بجانبي عن كل هذه التعقيدات وأذهب بعيدًا إلى عالم الزهور العفويّة البريئة المُبهجة؟

تبتسم وأبتسم. وابتسامتانا لا تخلوان من شعور ثنائي يجمع بين الضيق من التعقيدات وبين عفوية الزهور. كلاهما انطبعا على شفاهنا وأسفرا عن ابتسامة واحدة مهمومة.

- بلى، فكرة جيّدة جدًا يا راما. أن تحيطي الأوجاع بالزهور، حتمًا فكرة جيّدة جدًا.

تمتد ابتســـامتها فتُفرِج عن ثناياها وهي تومئ برأســـها إلى الخلف قليلًا وتتنهّد تنهيدة صادرة عن ضحك خفيف.

- غدًا تأتين وتحيطين أوجاعك بالزهور إذن! لا تنسِ، هه؟ سأكون في انتظارك.

اطمئنّي يا بديعة. غدًا نأخذ صـندوقك وصـندوقي الأسـودين ونحيطهما بالزهور كما وعدتك بالأمس. غدًا نتحايل على الأوجاع ونروّض أسود صناديق الصدر حتى تستعذب أصفر عبّاد الشمس، وأبيض الداليا، وبنفسجي الزنابق، ووردي ال Tulips.

37 ..جَلاَبِيْبٌ

عُدنا إلى المنزل المُستأجر أنا وبديعة لنجد بيتهوفن نائمًا على امتداد الأريكة واضعًا عصاه وفنجان قهوة صغير إلى جانبه على الأرض. وفان جوخ في الشرفة قد استعاد عكوفه على لوحته الجديدة.

يا له من أصفر!

أسمع صوت احتكاك عصيّ الخشب ببعضها كلما أنزل الرسّام واحدة ليأتي بأخرى. والصوت الأقرب من صوت العصا المصطدمة وأنفاس بيتهوفن العالية، هو صوت بديعة التي لم تكف عن سؤالي منذ أن غادرنا المطعم وافترقنا عن راما عائدين إلى الشقّة.

- البنت كانت بتقول ايه يا ليال؟

- كانت...حقولّك بس مش دلوقتي.

- ليه؟

- حرسم شوية الأوّل. عارفة حرسم ايه دلوقتي؟

- ايه؟

– الجلابيّة بتاعتك الرقيقة والناعمة زيّك.

تبتسم بديعة على استحياء وتسعد بالإطراء على جلبابها المتّسخ الهالك سعادة فتاة بقصيدة غزل يُلقيها حبيبها على مسامعها لأوّل مرّة.

– دِه أمي جابتهالي م السوق. يوم ما قابلنا عديلة وأنيسة.

لكنّ الإطراء بالجلباب لم يكن كافيًا وحده لعرقلة الذكريات المؤلمة. تروح بديعة وتتذكّر السوق والجلباب فتبتسم. ثم تتذكّر عديلة وأنيسة فتسترجع ما باتت أشلاؤه تحت الصندرة.

لا عليكِ يا بديعة.

أربت على رأسها وأقربها منّي بينما نتربّع الجهة المقابلة لفان جوخ في البلكون. تُمسك بديعة بالبالتة وتحرّكها يمينًا ويسارًا وأمامًا وخلفًا وهي تتأمّل انعكاس ضوء أعمدة الإنارة في الشارع على الألوان الزيتية الغليظة الرطبة. وسريعًا ما يتحوّل انتباهها إلى اللوحة مع أوّل ضربة فرشاة أقوم بها على الكانفس.

إنه جلباب أبيض واسع. تكحّل رقبته وصدره خطوطٌ سوداء رفيعة ترسم دائرة عند حزّ الرقبة، وصليبًا عريضًا على الصدر.

من أين جئتُ إذن بأنه هالكٌ ومتّسخ؟ّ!

إنّ الجلباب الذي أراه أمامي في الصورة يظهر ناصع البياض. وعلى بساطته، إلا أنه يبدو مهندمًا ومرتّبًا. لكن نصاع أبيضه مبالغ فيه. لذا، أغلب الظن أن قِدَم الصورة ورداءة جودتها قد أبهمت ملامح وتفاصيل كثيرة طامسة لمعالم اتّساخ وهلاك الجلباب. وإنّني لأعوّل على هذا، بحال جلباب بديعة التي تجلس إلى يساري الآن: فلونه غير موحّد: أبيضه مضفور بأصفر وزيتوني ورمادي بدرجاتهم، وبه ثقبان أو ثلاث. وإني أشعر أنني لو أمسكت به، لتفتّت وانسابت أنسجته من بين يديّ من كثرة ما ارتدته بديعة لأيام متواصلة. وإن به من الرثاثة ما يجعله شفّافًا، ت ستطيع أن ترى من خلال أن سجته المتآكلة ج سمَ بديعة؛ أ صفرُ ووردِيُّ جلدها يندفعان من بين النسيج بقوّة فيضيفان إلى أبيض الجلباب هذا الانطباع اللوني المكتوم.

حركة الفرشاة متشابكة وغير منتظمة. تتراوح بين ضربات بطيئة، قصيرة أو طويلة وممتدّة، وأخرى سريعة. وضربات أفقية ورأسية ومائلة بلا نمط معيّن. أحاكي النسيج بتلك الضربات محاولة بعشوائية اتجاهاتها التأكيد على حالة الجلباب بما فيه من تآكل واهتراء...وعشوائية.

على عكس ما أكون عليه عادة من تروّ أثناء الرسم، أجد نفسي فجأة أحرّك الفرشاة بسرعة قد تكون خالية من التفكير تمامًا. ضربات غاضبة ثائرة. حتى أن بديعة لاحظت هذا فقطعت الصمت ضاحكةً: «بتعملي زي عم بيتهوفن لما بيمسك عصايته ويلعب بيها في الهوا».

ألاحظ في نفسي انفعالًا شديدًا يهاجمني. لا أدري ما سببه. أكاد لا أسيطر على حركات الفرشاة. تسبقني الفرشاة إلى الكانفس. أحاول اللحاق بها. ولما أفعل، أجدها قد حسمت أمرها مُسبقًا ورسمت الخطوط والألوان كما يحلو لها. لم تستشرني هذه المرّة كعادتها.

تتشابك الأنسجة. خيوط دقيقة تنزل الواحدة منها فوق الأخرى. فلما يتم المغزل، لا يمكن لشاغل القطعة المغزولة نفسه أن يتذكّر من أي خيط بدأ، ولا كم خيطًا غزل. حتى أن الخيوط ذاتها لا توحي أبدًا بكونها خيوطًا، إذ ما يُرى آخر الأمر هو قطعة قماش متجانسة موحّدة ملساء. فقط حين تتآكل الأنسجة يمكننا أن نرى بعضًا من الخيوط الواضحة هنا أو هناك.

وإنّ ما نرتديه من شـبكات الخيوط تلك ليُشـبه كثيرًا في الواقع شـبكات المشـاعر والأفكار التي تُلبس عقولنا وأرواحنا وقلوبنا. ولكل منّا «جلبابه» الخاص المهترئ (أو الصحيح).

تنزل الأفكار والمشـاعر الدقيقة الواحدة فوق الأخرى. تصـطف اصـطفاف العسـاكر الطائعين. أو تنام الواحدة إلى جانب الأخرى مثل ما تخلّفه الحروب من أكوام الجُثث، أو ما يُهديه الصباح من حبّات الندى على ورقات الزهور الباكرة.

تُرى...كيف تبدو شـبكة مشـاعركِ وأفكاركِ يا بديعة؟ وأنتَ يا بيتهوفن؟ و فان جوخ؟ و...راما. كيف يبدو جلبابك يا راما؟

تقفز الفكرة إلى رأسـي فتُبطّئ من إيقاع الفرشـاة. أترك اللوحة وأمسـك بلوح الآي باد على عجل. حين صدمني إيقاع ال (خوف فأمل فخوف فأمل) في باثيتيك بيتهوفن، أمسكت بالآي باد ذاته وبحثت عن (جلبابه)، فإذ بإيقاع ال(خوف فأمل فخوف فأمل) إيقاعٌ عالمي ذو اسـم: «اضـطراب ثنائي القطب». وصـدمني أصـفر فان جوخ ورسـاؤله لأخيه وأذنه المقطوعة ووهبه للسنونو في صدره حريّته، فأمسكت بالآي باد وبحثت عن (جلبابه) وإذ به جلبابٌ معقّد شـغل أطبّاء النفس ما بين «اضـطراب ثنائي القطب»، و«شـيزوفرنيا»، وغيرهما، بالإضافة إلى ما عاناه من صرع.

واليوم شغلني إيقاع لمعان عيني راما المتأرجح بين الشرود الحزين والحضور المُبهج. وإذ به إيقاع منظّم له اسم هو الآخر: «Anxiety Disorder/Phobia»(اضطراب قلق/فوبيا).

تشغلني راما منذ أول يوم التقيت بها فيه. لا أدري لماذا أشعر بمسئولية تجاه تلك الفتاة التي لم أرها سوى مرتين في حياتي. إنّ بها من العذوبة ما يُعطيها نكهة الطفولة، ويؤكّدها قوامها الصغير، ووجهها البريء، وعيناها العفويّتان الصادقتان كل الصدق. وإن كل ما أشعر به تجاهها يختلف كثيرًا عن مشاعري تجاه مايا وسارة ومريم. بل وتجاه كل من أعرفهم من الناس. إنني أشعر معهم بالحاجة الملحّة للفرار. وإنني لأشعر معها بالحاجة الملحّة لأن أمسك يدها - هي الطفلة الضائعة - وأعيدها إلى بيتها ووالديها سالمةً. وسأفعل.

طيّب...ماذا عن (جلبابي) أنا؟ أأبحث عنه أيضًا؟ لا، لا...راما أولًا. أعيدها إلى بيتها وأهلها وبعدها أعود أنا.

الوقوف أمام المرآة أمر صعب. أن تنظر مبا شرةً إلى عينك أنتَ، وفمك أنتَ، و شعرك أنتَ، وكل تفاصيلك أنتَ...أمر جد صعب. أن تتأمّل أعين الناس من حولك، وتغوص في أعماقهم وذكرياتهم، أهون بكثير من الوقوف أمام المرآة لفعل الشيء نفسه مع نفسك.

أهم واقفةً وأترك لوحة بديعة لأسير من الشرفة إلى غرفة المعيشة المطلّة عليها، ممسكة بجهاز الآي باد.أجلس على مقعد واسع عميق إلى يمين الأريكة حيث ينام بيتهوفن. تستدير بديعة وتركض باتجاهي. لا تجد فُسحةً من مكان يسعها أن تجلس إلى جواري، فتصعد ركبتيّ وتجلس أعلى فخذيّ في ترقّب. أحيطها بذراعي: «أهلًا وسهلًا يا بديعة».

قالت راما أن تشخيص دكتور فينسنت لها كان dealth anxiety disorder/dealth phobia. لنرى إذن...

تمر ساعتان أو ثلاث ساعات، أو ربما أكثر. لم أعد أشعر بالوقت بتاتًا وأنا أسبح في أبحر النفس البشرية الواسعة التي لا أرى لها قرارًا ولا نهاية لامتداد عُمقها نحو الأفق البعيد. لا أترك قصّة يرويها أحد إلا لأبدأ في قصّة أخرى يرويها شخص آخر عن نفسه أو عن شخص يعرفه. ومع كل قصّة أمرّ بتفاصيلها مرور السائح لبلد يزوره لأول مرّة، تفاجؤني التشابهات والتباينات في «الجلابيب»

. أقرأ وأستفيض وأغوص في القراءة عن اضطرابات القلق والفوبيا؛ هذا الاضطراب غريب الأطوار الملعون. تسحبني روايات الdealth phobiaإلى «جلابيب» أخرى من الفوبيا فلا أستطيع مقاومة تيارات الأمواج التي تسحبني معها. ففي كل قصّة، ملمح جديد وزاوية جديدة وموجبات دهشة وانجذاب وأسئلة لن تمكث تهدأ حتى تجد لها أجوبة شافية.

بدأتُ براما. لكنني انتهيت بزيارة بيوت لا حصر لها لأناس آخرين، حتى أن الأسماء لم يعد لها أي وزن حقيقي.

«- أظن أنني أخاف المرض.

- ماذا؟ لا أحد يحب أن يمرض! لا تكوني سخيفة!

-أوه! حسنًا.

آه! هل لي أن أصرخ لبضع ساعات؟ لا، سأتنفّس.

ليس من العدل أن أجلس هنا وأنتقد الناس لعدم فهمهم. فأنا لا أتوقّع أن يفعلوا معي الشيء نفسه إذ أنني لا أفهم مثلًا، كيف لأحد أن يخاف الكلاب.

على كل حال، إنني أعتقد أن فكرة أن تعاني من الEmetophobia (فوبيا المرض)، وأن تعايش خوفًا لا منطقيًا تصـعّب من إمكانية أن تحكي عن مخاوفك لأحد أصـدقائك أو أقاربك دون أن ينتهي بك الأمر «مجنونًا» تمامًا. أعني، ما الذي قد يخيفك كل هذا القدر من الخوف من أن تمرض؟

أشـعر أنني منافقة بعض الشـيء لأني أكتب هذا. فأنا أجلس هنا أحفّز كل من يعاني من الفوبيا ذاتها على الإفصـاح عن اضـطراباته بينما أخفيته أنا عن الجميع. فقط، احتجت أن أخبر عددًا محدودًا من الناس لأسـباب فيزيائية بحتة. وعددٌ آخر لاحظ اضـطرابي بسـبب سـلوكي الغريب... يا له من إحراج! لكنني أعلنها الآن. أنا أعاني من Emetophobia. آه! كم هذا أفضل! الآن دورك.

في العام الما ضي، كنت أكثر و ضوحًا بشأن ا ضطرابي مما ساعد على تحسين حالتي. لسـت فقط أسـاعد أناسًـا آخرين يعانون من ال Emetophobia، إنما أيضًـا، لم يعد أهلي وأصدقائي يتساءلون كثيرًا عن معاناتي في مواقف معيّنة.

لكل هؤلاء الذين حاولوا الإفصاح عمّا يسوؤهم ولم يفلحوا بسبب انعدام الدعم ممن حولهم، عليكم أن تفهموا أنه لمن الصعب على الناس أن يقبلوا أمرًا كهذا. لكن، أخبروهم أنكم لن تتمكّنوا من مواصلة التغيير والتحسّن دون دعمهم لكم. فإن لم تجدوا منهم بعدها الدعمَ الذي تحتاجونه، فابحثوا عن أشخاص آخرين مستعدين لإمدادكم بدعمهم.

شكرًا لكل من يتفهّم احتياجي الشديد لشق قطعة دجاج قبل أكلها، أو أخذ زجاجة مياه ونعناع معي أينما ذهبت. أحبكم».

كتبت (جو) في مدوّنتها.

«منذ طفولتي وأنا أواجه مشاكل مع صحّتي الذهنية. إلا أنني لم أستطع أن أناقشها مع المقرّبين منّي إلا منذ وقت قريب.

في الماضي، وصفني من حولي بإنسانة مقبلة على الحياة. لكن اعتقاداتي الخاطئة عن مسألة اضطرابي الذهني جعلتني أشعر بعدم ارتياح لفكرة مشاركة هذا (الأمر) معهم بصراحة.

ما بين سن الخامسة والعاشرة، بعد سلسلة أحداث قاسية بدأت أعاني من القلق والاكتئاب. وكنت كثيرًا ما أمضي ساعات في قراءة تاريخ الحالة الصحيّة للعائلة يقينًا منّي أنني أعاني من مرض مزمن.

بدأ خوفٌ من التقيّء يتملّك منّي وازداد إلى أن سيطر على حياتي كلها. وكنت حين يجن الليل ويخيم ظلامه، يتضاعف خوفي إذ أكون وحدي بصحبة تلك الأفكار.

لم أتمكّن من وصف ما كنت أمر به كطفلة لأهلي. و شعرت بعجز شديد للسيطرة على قلقي مما أدّى إلى نوبات غضب عارمة تسبّبت في مشاحنات دائمة مع أهلي. استنتجت منها أنه لربما يكون من الأفضل أن أُخفي أي مشاعر سلبيّة بداخلي لأتمكّن من الحفاظ على علاقات جيّدة مع من حولي ولأكون إنسانة «طبيعية» ومحبوبة.

كان زملائي في المدرسة دائمًا ما يسخرون منّي أثناء سنين مراهقتي مما أدّى إلى رغبة شديدة بداخلي لأن أكون محبوبة. أخفيت مشاكل صحّتي الذهنية عن أصدقائي وخلقت لنفسي شخصية مرحة: ما من شيء أقوله إلا أُعطيه طابع المزاح.

حين أتممت التسعة عشر عامًا، ساءت حالتي. بدأت أذهب إلى الجامعة قلقة من عدم مقدرتي على التعايش. بعد نوبات متتالية من الاكتئاب آنذاك، تحسّنت حالتي بمعاونة الأدوية المضادة للاكتئاب. إلا أن مزاجي العام ساء بشكل كبير في أواخر العشرينات من عمري. لكني ظللت محتفظة بروحي المرحة المُقبلة الاجتماعية حتى أن زملائي في العمل كانوا دائمًا ما يلقون عليّ تعليقات مثل: «تبدين سعيدة جدًا، ما السرّ؟»، و«لم أركِ قط بلا ابتسامة على وجهك».

وعلى الرغم من أن تعليقات كهذه مقصـــود بها الاطراء، إلا أنها كانت تمنعني أكثر من مشاركة أحد فيما أشعر به. لكن رئيسي في العمل لاحظ أن بي خطبًا ما، فسألني إن كنت مكتئبة. كذبت لأني خفت أن يؤثّر هذا على وظيفتي. وبعد فترة من الأداء المُخجل، شعرت بالعار وقرّرت أن أترك الوظيفة وأذهب لمكان آخر، تركته بعد فترة أيضًـــا، بعد تهديدات بسبب أدائي وانزعاج رئيسي الجديد. بعدها، قرّرت الذهاب إلى طبيب لطلب المساعدة».

كتبت (ألين).

«في عام 2008، تم تشخيصي بمرضَي الاكتئاب والقلق. وإذ فجأة، كل المشاعر التي كانت تؤثّر تدريجيًا على حياتي ســلبيًا أخذت (اســمًا). الآن، أمتلك شــيئًا ملموسًــا أقوله لأصدقائي ومدرسيّ يبرّر الاختلاف الذي صرت عليه مؤخّرًا.

معظم أصدقائي لم يتفهّموا. شعرت بضيق شديد من فكرة أن إفصاحي لأحد عمّا بي عادة ما يؤدّي إلى ردود من نوع: «نعم، أنا أيضًا». أو أن يبدأ (أحدهم) في الحديث المطوّل عن نفسه. كل ما كنت أحتاجه كان الشعور بالراحة، لا أن أقارن بأحد.

مع الوقت أدركت أن الناس يفتقدون مفردات أمراض الصـــحّة الذهنية. لم ندرس في المدرسة أبدًا كيف نرد حين يخبرنا أحد أنه «يعاني». علاوة على ما لم نتعلّمه أيضًا عن كيفية التعامل مع معاناتنا مع أنفسنا إن كنا نحن المقصودين».

كتبت (فيبي).

«لأن الفوبيا تولد من مخاوف وقلق مبني على تجارب شــخصــية فردية بحتة، فإنه من الصــعب على الأشــخاص المحيطين أن يتعاطفوا مع من يعاني من فوبيا ما. وقد يؤدّي هذا إلى شعور بالعار يمنع مَنْ يعاني من المصارحة أو اللجوء لطلب المساعدة».

أقرأ عن فتاة تعاني من فوبيا الطيران حتى كادت أن تفقد ترقيّتها بســبب كثرة الســفرات التي يقتضيها منصبها الجديد.

أقرأ عن عجوز في ثمانينه، أصــيب باكتئاب حاد قرّر في ســياقه أن ينعزل عن محيطه انعزالًا كاملًا. لا يجيب هاتفه، ويتجنّب أصــدقائه المقرّبين، ولا يقوم بنشــطاته التي تعوّد عليها وأحبّها مثل الجولف والتنزّه وزيارة الأهل والأحفاد. نبذها كلها ولزم البيت ينتظر الموت.

رأس بديعة من الخلف يتقدّم صــدري. أراه يتحرّك يمينًا ويســارًا فيتحرّك معه منديلها. تنظر إلى الحروف والكلمات والر سوم والـصور على شا شة الآي باد. يُدهـشها أني بلمـسة خفيفة من سبّابتي على الشاشة تتبدّل الصور وتُصدِر أصواتًا غريبة أحيانًا. تنظر وتبتسم. ثم تنظر وتسرح.

- أنهي أحلي يا بديعة، الجهاز ده ولا صندوق الدنيا؟

- لا، صــندوق الدنيا . ده منوّر وحلو وعليه صــور ياما. بس صــندوق الدنيا أكبر وفيه قصص والجدع صاحبه بيحكي عليه حكايات. شُفت قصّة السندباد والشاطر حسن.

- ده كمان عليه قصص. حَفَرَّجِك عليها لما أخلّص قراية.

- أني مابِنْفُكُّوش الخط ومابنعرفوش نقرو زيّك. احكيلي اللي إنتِ بتقريه.

- حاضر.

يا بديعة، إنّ صــندوقي الأســود يوشــك أن ينفتح وتدخله زواجل الحمام وأســراب الفراشات والعصافير. لا تقلقي، لا يمكن أن أنساكِ. سأُرشدُ الأسراب إلى صندوقك.

«لم أخبر أحدًا شيئًا البتة لأنني لم أكن على علم كاف بخبايا الصحّة الذهنية حتى أستطيع تمييز مشاكلي، وخفت أن يصدر الناسُ حُكمًا عليّ بأنني «ضعيفة». تظاهرت بالقوّة والقدرة على مغالبة أي مشــكلة تصــدر أمامي، لكن أقوى ما كنت عليه حقّا كان في اللحظة التي أيقنت فيها أنه لن يضيرني أن أطلب المساعدة».

«تظاهرت بأن كل شيء على ما يرام بينما كنت أشعر أن العالم ينهار من حولي. لا أستطيع أن أذكر وقتًا كنت فيه خالية الذهن وســعيدة. حتى في طفولتي كنت أعلم أنني لســت «طبيعية». كوني مختلفة لم يكن ما يسوؤني حقًا، إلا عندما تطوّر الأمر لاحقًا إلى ما اكتشفت فيما بعد أنه اضطراب (رهاب اجتماعي) مصحوب باضطراب في نمط الأكل.

كنت في الثالثة عشر عندما كنت أنتقل من مجموعة إلى أخرى في المدرسة غير منتسبة إلى مجموعة من الأصدقاء بعينهم، لأنني كنت واثقة دائمًا أنه، على الرغم من لطفهم وابتساماتهم، إلا أنهم حقيقةً لم يرغبوا في تواجدي معهم.

لم يكن أحد يعلم بما أمر به تمامًا وأنا أنتقل من زمرة أصدقاء إلى أخرى. الابتسامة المطبوعة على وجهي باستمرار لم تشر إلى وجود أية مشكلة. لم يعلم أحد أنني أبكي كل ليلة حتى النوم. لم يعلم أحد أنني أجوّع نفسي لأنني ظننت أن الوزن الزائد كان عائقًا بيني وبين إقامة صداقات وعلاقات طبيعية.

مضى سلوكي المضطرب حتى سن السادسة عشرة حين كنت أتحدّث لصديق حميم وأخذت أنتحب لا أدري كيف. محت الدموع ابتسامتي المُصطنعة وبكيت كما لم أبكِ من قبل. وحين هدأت، رجوته أن يتركني إن كنت أخيفه وأخبرته أنها لم تكن إلا سخافات وأنني بالتأكيد سأعود إلى حالتي الطبيعية في اليوم اللاحق. لكنه أخبرني أنه لم يكن ينبغي أن أنغلق وأعايش هذا وحدي، ونصحني بزيارة طبيب نفسي . وكان هذا أروع ما حدث لي في حياتي».

كتبت (سارة).

انتقلت من قصّة سارة إلى فيلم وثائقي تحت عنوان «Afraid of people»(خائفٌ من الناس). عَرَضَ الفيلم نماذج لأناس يعانون من الرهاب الاجتماعي بأشكال ودرجات شتّى.

ثم انتقلت من فيلم «خائف من الناس» إلى فيلم وثائقي آخر بعنوان: «Sad Ricky Williams» (ريكي ويليامز الحزين) الذي يعرض قصّة ريكي – لاعب كرة القدم الأمريكية الأمريكي المعروف.

«كان لديه كل ما يحلم به أي شاب من شهرة ومال وسفر حول العالم لكنه كان دائم الخوف من أن يترك بيته».

«رهب ريكي أمورًا (عادية) مثل الذهاب إلى المطار أو السوق. ومع قلّة الوعي بشأن ما يبطنه سلوك ريكي من اضطراب، فسّر الإعلام محاشاته النظر والتواصل مع جمهوره والظهور في اللقاءات مرتديًا قبّعته، على أنه (غريب) و(متعجرف)».

وكون ريكي لم يعِ هو نفسه (حقيقة) اضطرابه، شعر بالتأزّم ورغب في الانعزال عن أهله وأصدقائه لأنه لم يقدر أن يفسّر لهم أيًا مما شعر به.

شُخّص ريكي باضطراب «الرهاب الاجتماعي» وخضع بعدها للعلاج السلوكي المعرفي (Cognitive Behavioral Therapy: CBT).

يقول ريكي:

«لم أكن أبدًا شخصًا اجتماعيًا، لكنني لم أخشَ الخروج من البيت لتقضية بعض الوقت خارجه. لكن عندما انتقلت إلى New Orleans، بلغت من الخوف أنني لم أكن أريد أن أترك البيت. لم أرغب في الذهاب إلى أي مكان. خرجت للعشاء من حين لآخر، لكن، كان هذا أقصى ما يمكنني فعله...بلغت ذروة السعادة حين علمت أن لما أعانيه اسمًا».

لم أشعر بالدموع التي اندفعت من عينيّ إلا حين جاءتني بديعة بمنديل وشعرت بها تمسح على خديّ لتجفّفهما.

- لو اللي بتقريه بيزعّلك، بلاش تقري وتعالي نقعد مع عم أبو بيت أصفر في الفَسَحة (تقصد الشُرفة).

- لا يا بديعة بالعكس. أنا بعيّط عشان مبسوطة.

- ودِه تيجي ازاي؟ احنا رايحين نقوّموكي بالعافية معانا...تعالي.

أمسكت بديعة بالآي باد ووضعته على حافة الطاولة الخشبية أمامنا. ثم أمسكت بيدي وسحبتني بكل ما أوتيت من قوّة لتأخذني إلى الشرفة.

38 ..لِنُفُوْرِ الْظِّبَاءِ اسْمٌ

– استنّي يا بديعة! استني...عشان أكمّل القصّة واحكيهالك.

وكأنها تذكّرت فجأة! تحمّست للفكرة. ألانت من قبضتها على يدي وعادت تجلس على حجري على ذات المقعد الضخم.

قصصت عليها ما قرأت بداية من جو التي ترهب المرض إلى ريكي الذي يرهب الناس. أشهدتها الفيلمين الوثائقيين و شرحت لها ما تيسّر لي تبسيطه وما تيسّر لها استيعابه. كانت تُنصت إليّ بنفس الانتباه والجدية والهدوء الذي كانت تنصت بهما إلى ما قصصته عليها سابقًا من حكاية بيتهوفن وفان جوخ.

– أَنِي كمان كُنّا بنخافو ونترعبو من الضلمة والأوضة اللي فيها النسوان. وكنا بنشخّو على روحي كتير. بس ماقُلناش لحد الكلام ده غير للجدع الظابط اللي شدّني ع القسم (تقصد سليمان بك عزّت).

– طب وبتخافي كمان من عم أبو بيت أصفر وعم بيتهوفن؟

– لا، أبدًا. أني بنحبّوهم أوي...صـــحيح! بقالنا يا ما ســـايبينه (تنظر إلى فان جوخ). حنروحو نقعدو معاه شوية.

تقفز بديعة من مجلســها وتبرك إلى جانب فان جوخ في البلكون حتى أرى ظهريهما أمامي. تحاول بديعة أن تلفت انتباهه إلى قدومها فتقترب من لوحته وتأخذ تنظر إلى تفاصيلها عن قُرب شــديد فيســتحيل مع هذا ألّا يراها. يراها. ويربت على رأســها ويقبّله. ثم يحيط ذراعه برقبتها ويأخذ يحدّثها في أمر ما بصوت خافت. أظن أنه يحكي لها أمورًا عن لوحته إذ يشير بفرشاته الطويلة من وقت إلى آخر إلى موضع ما على اللوحة فتتبعه عيناها. أبتسم ابتسامة لا زالت مُشبّعة بالدموع. وأواصل الطيران بين سُحُب الأنفس العالية الهشّة. ما من سحاب مطابق أبدًا للآخر. فها ذا سحاب يأخذ شكل الحصان، وسحاب على هيئة باقة من الزهور، وآخر يبدو كأنه جرو صغير. وكله في النهاية مُحمّل بالهموم التي تنهال مع أوّل غيم أسود ثقيل. مع تلاقي السحاب المُثقَل بعضه ببعض.

«من أعراض نوبة الهلع: خفقان القلب، التعرّق، الصعوبة في التنفّس، الشعور بالدوار، الشعور بفقدان السيطرة على المشاعر أو الانفصال عن الجسد، الارتجاف، ارتباك المعدة والحاجة إلى التقيّؤ، شعور بالاختناق، برودة أو حرارة شديدة».

«معظم أعراض نوبات الهلع، أعراض جسـدية، لذا، قد يخلط الشـخص الهلوع تلك الأعراض – خاصة إن كانت شديدة – بأعراض نوبات القلب».

أشعر بالدموع تنهمر مجدّدًا. وأشعر معها هذه المرّة بحاجبيّ يجعدّان مشيرين إلى...لا أقول ألم عميق لأنه ليس بالألم، لكنه شعور ما عميق. ربما شيء من تذكّر الألم واسترجاعه، لكنه ليس بالألم تمامًا. أما الشـعور الذي لا يمكن أن أخطئه الآن، فهو السـعادة. سـعادة بنكهة الظفر. إنها تلك السـعادة التي تتحقّق مع الانتهاء من قراءة آخر فصـل في كتاب ما حيث تو ضع كل العنا صر المُبعثرة، والأفكار والأحداث المتناثرة، جنبًا إلى جنب فتكتمل الصورة ويتحقّق المعنى من الكتاب بعد ليالٍ طويلة من القراءة المتواصلة.

فجأة تكتسـب الأشـاء معانيها. ويأخذ كل طير اسـمًا يُنادَى به دون سـواه. وتعود الحمامات إلى أعشاشها بعد أن كانت قد ضلّت طريقها إليها منذ زمن طويل. ويأخذ العبث حجمه المضبوط. ويعلم الخوف أي منقلب ينقلب.

لست مجنونة ولا مصروعة إذن. لم يكن جنونًا. لم يكن هزلًا. كان «شيئًا» ذا كيان واسم ومواصـفات وتفاصـيل محدّدة بقدر معلوم. لسـت جبانة. لسـت غريبة الأطوار. لسـت عاجزة أو معتو هة أو من جنس مختلف عن سـائر البشـر، إنما...ربما...الأرجح أنني...أعاني من اضطراب في صحّتي الذهنية.

أترك الآي باد وأذهب إلى المطبخ. الدموع لا تتوقّف. أتركها تجري حتى تضرب الأرض أو طاولة المطبخ، أو كوب القهوة الذي أعدّه، أو أمسحها بإحدى ذراعيّ حين تتكاثف بين الحين والحين.

مجرّد فكرة أن لكل ما أعانيه اسمًا، تسرّني وتُدفئ قلبي بشيء من سكينة و ضّاءة. إن كانت المعاناة «شيئًا» له اسم، فمن المؤكّد أن له «شيئًا» يداويه. مجرّد الفكرة مشبّعة بالأمل.

أقلّب القهوة مع الحليب والسكّر والمياه المغلية. أطيل التقليب وتأخذني الدوائر البنيّة المُحدَثة معها بعيدًا. إلى أين؟ لا أعلم.

أنا التي قرأت كثيرًا عن اضطرابات بيتهوفن وفان جوخ النفسية، وأخذت أتحسّس قشور وتعاريج صخور الاضطراب ثنائي القطب والصرع والشيزوفرينيا، لم أنتبه لحظة أن صخرةً صغيرة تقف على أعتاب غرفتي أنا.

الإجابات أسفل قدميّ وأنتظر قدومها من الأفق الليلكي البعيد.

وبمجرّد التفاتي نحو باب الغرفة الآن لأجد (الصــخرة) وأتحسّــس قشــرتها، أُدرك أنّ نفور الظبى (شــيء). وأنّ إيقاع الحروب في القلب (شــيء). وشـتاء يناير الطويل (شــيء). و شعور الموت والجنون المقتربان (شيء). و سلالم الجامعة (شيء). وعصائب الضباع (شـــيء). وما حدث عند داليا (شـــيء). وما حدث في بلكون مريم (شـــيء). والرســائل المنبوذة (شــيء). والرأس الثقيل (شــيء). وارتجاف اليدين والركبتين والفكين (شــيء). وتشنّج الكتفين (شيء). وإنها أشياء صغيرة في شيء كبير – اضطراب في الصحّة الذهنية. رُهاب...قلق اضطرابي...خوفٌ ليس كالخوف...فوبيا.

و ورود راما (شيء).

39..وُرُودُ رَامَا

أهمس في أذنها وطيور الصباح ترفرف من فوقنا:

- تيجي معايا ولا تفضلي هنا معاهم؟

- لأ، نيجو معاكي.

تقاوم بديعة لذّة الاستغراق في النوم وتنتصب على أرض الشرفة، تفرك عينيها بظهر قبضتها استعدادًا للنهوض. وبينما أخذت تتثائب وتهم واقفةً على قدميها ببطء، كنتُ قد انتهيت من كتابة ر سالة صغيرة تركتها لفان جوخ وبيتهوفن على الطاولة إلى جانب الآي باد وعصا المايسترو النائم وكوب القهوة الفارغ من الليلة البارحة: «سنعود في المساء».

بعد القهوة الصباحبة وشطيرتين من الجبن: واحدة لي والأخرى أعددتها لبديعة، غادرنا المنزل واتّجهنا إلى محل راما م ستعينين بالو صفة التي أعطتها لي بالأمس أمام المطعم قبل أن نفترق.

الجو بارد بعض الشيء، والشمس تحنّنا بظهور يتلوه حجاب يُذهِب دفء الظهور الذي سبقه. لكن المدينة نَشِطة والحركة سريعة وجادة ومُنجِزة. والدرّاجات في كل مكان على ألوانها وأشكالها وأحجامها المختلفة. والأشجار والزهور تتمايل مع الهواء.

والعصافير والغربان وطيور أخرى لم أرها من قبل لها أصوات غريبة كل الغرابة تحلّق فوق رؤوسنا. وما إن رأيت المحل من نافذة سيّارة الأجرة حتى طلبت من السائق الوقوف. نزلنا أنا وبديعة متّجهين إلى مدخل المحل.

إنه محل صغير في وسط المدينة، يتوسّط محل صنوف كثيرة من الجبن الهولندي، ومحل يبيع حلوى الوافيلز. أرى راما من الخلف تقرفص في الساحة الخارجية حيث تعرض مجموعات من الزهور في صناديق خشبية مر صو صة على عتبة باب متجرها حيث يسير المارّة بمحاذاته على الرصيف الطويل.

راما ترتدي فستانًا رماديًّا من الصوف يصل إلى ركبتيها، له ياقة عالية تحيط بعنقها. من تحت الفستان جورب أسود سميك فوقه بوت أسود من الجلد يمتد إلى تحت ركبتيها بقليل. يعلو شعرها قبعّة دائرية بيضاء ذات الطابع الفرنسي الأنيق: تسقط بميل على رأسها، وعلى الجانب المائل منها تزيّنها زهرة من ذات اللون والخامة.

حين وصلت كانت تقرفص أمام إحدى الصناديق تعدّل من وضع الورود البيضاء فيها. وها هي تستقيم ثم تميل بجذعها أمامًا على صندوق آخر، وآخر، فتعدّل شيئًا هنا و شيئًا أو شيئين هناك.

إنها لـ سعادة جامحة التي أ شعر بها حين أراها. شيء ما في تلك الفتاة يُ سري في نف سي شعورًا بالغبطة والأمل.

- صباح الخير يا راما.

- أوه! صــباح النور يا ليال. لم أتوقّع مجيئك مبكرًا! ســررت جدًا بمجيئك يا عزيزتي....تعالي، تعالي.

سـبقتني إلى داخل المحل فتبعناها أنا وبديعة. أشـارت إلى كرسـي مكتبها وسـألتني أن أضع حقيبتي ومعطفي عليه.

- اتركيها، اتركيها، لا تشـغلي بالك. المحل محلّك. «خذي راحتك»...انتظري قليلًا هنا. دقيقة واحدة. ســأذهب لأشـتري قهوة من مقهى قريب جدًا...هنا، آخر الشــارع، وأحضر فورًا. دقيقة واحدة لن أتأخّر.

انصــرفت بســرعة ثم تذكّرت فجأة فاســتدارت بذات الســرعة وســألتني بينما نظرتُ إليها؛كانت راما في تلك اللحظة silhouette(سيلويتّ) أسود عند الباب النور يخلفه.

- نسيت أن أسألك! كيف تحبّين قهوتك؟ إسبريسو؟ كابتشينو؟ قهوة بلبن؟

- أفضل اللاتيه.

- «يللا، يللا! راجعة ع طول».

أشـــاحت بيدها تحيّيني على عجل دون أن تنظر إليّ، ثم هرولت في الاتجاه المعاكس قاصدةً المقهى.

أقف وســط المحل وأتأمّل المكان من حولي. إنه لمكان جميل حقًا. تحاصــرني الزهور من كل مكان. وحين ينزاح الغمام وتســطع الشــمس ليمتد نورها إلى الداخل حيث أقف، يزداد المكان جمالًا وتزداد ألوان الزهور إشــراقًا؛ فأرى أصــفرجديدًا، وأحمر ليس كالأحمر، وأبيض ببياض مختلف، وأزرق وبنفسجي ووردي، كأن الشمس تبدّد لونهم وتعيد تعريف الألوان كلها من جديد.

حين فرغت من تأمّل الداخل ســرت إلى الباب. لحقت بي بديعة ووقفنا نتأمّل المارّة والمنظر قبالتنا. مضى بجانبنا ثلاثة كلاب على التوالي بصحبة أربابهم. أولهم كان كلبًا أسود كبيرا ومتجهّما. أخاف بديعة فارتدّت إلى الوراء بضــعة خطوات. الثاني كان كبيرًا كذلك لكن وجهه أكثر بشاشةً وودًّا فبدا لنا كأنه يبتسم. اطمأنّت له بديعة واقتربت منّي ومنه ثانيةً. أما آخر الكلاب، فأعجبها كثيرًا حتى أنها راحت تقهقه وتشير إليه وهي تشدّ قميصي كي لا تفوتني أنا أيضًا رؤيته.

- بصّي يا ليال!

إنه جرو صغير الحجم نحيف جدا كأنه عظام لا يكسوها لحم. أرجله قصيرة وصغيرة، في آخر كل منها كرة سـميكة من الشـعر تُشـبه تلك التي ينتهي إليها ذيله. خطواته سـريعة ورأسه ينظر بسرعة في كل اتجاه خشية أن يفوته شيء؛ مُشتّت الانتباه.كلما رأى شخصًا أو كلبا آخر، أو ع صفورا، أو ح شرة على الأرض، سعى إليها فورًا لولا أن صاحبته الشقراء الطويلة تشدّه إليها فتُلجم خطواته الطائشة. إن به من خفّة الظل أن كل من ينظر إليه يبتسم ويودّ الاقتراب منه ومشاكسته.

- شكل الكلاب هنا يضحّك أوي يا ليال!

أبتسم. أرى فراشة فأحاول أن أنبّه بديعة إليها:

- بديعة، بصّي! فراشة...

- يعني ايه فراشة؟

ثم أسمع صوتًا يخاطبني من الخلف:

- لم أدعك تنتظرين طويلًا، أليس كذلك؟ تفضّلي اللاتيه.

- شكرًا جزيلًا.

- «بالعافية حبيبتي»...ما رأيك؟ أعجبك المحل؟

- إنه جميل جدا. أنتِ محظوظة لصحبة هذا الكَم من الزهور يوميًا.

تعلّق بهدوء وفي شرود عينيها إشارة إلى أن أمرًا ما يجول بخاطرها:

- نعم...

صمتت لوهلة ونظرت إليّ بتردّد مَن لا يدري أيقول أم يصمت. لكنها قالت.

- «بتعرفي يا ليال؟ مرّات بِشرُد بالمو ضوع وبصير ا ضحك وابكي...بخاف م الموت كتير ومع هيك، شِغلي ويومي كله بقضيه مع أسرع اشي بيموت...الوَرِد».

يمكّنني انشغال راما بتحلية الإسبريسو الذي جاءت به لنفسها، من تأمّل ما قالته وهضم الفكرة. تبدأ فكرة في رأسي ثم تسلّم فكرة فتسلّم فكرة حتى أنتهي إلى فكرة تُدهشني. فأُسرع قائلة وفي عيني نظرة تفكّر متروّ:

- غريب...وأنا أكثر ما أخافه هو الناس ومع ذلك فأنا أُمضي معظم أوقاتي في رسم وجوههم. كيف لم أنتبه إلى هذه الفكرة العجيبة من قبل؟!

تتحوّل علامات الاندهاش والتأمّل على وجوهنا إلى ابتســـام ثم يتحوّل الابتســـام إلى ضـــحك، فضـــحك، فضـــحك أعلى وأعلى. لا ندري كلينا ما المُضـــحك في الأمر. لكننا نضحك. ودون توقّف.

ثم شـــردت كل واحدة منّا في عالمها الخاص. الأغلب أن كلينا تســـترجع أمرًا أو أمورًا وتعيد تقييمها لكن دون قصد التقييم.

راما هي من عادت أولًا من عالمها لتسألني فجأة:

- صحيح! متى تنوين إقامة معرضك؟

- لا أدري...حين أنتهي من اللوحات التي أرســـمها. أتوقّع أن يحدث هذا مع بداية العام الجديد. آخر شهر ديسمبر أو أوّل يناير. هذا ما أقدّره لنفسي من وقت. لكن طبعًا، لا شيء أكيد.

- إذن، متى تستقرّين على ميعاد، أخبريني فورًا. سأفعل ما في وسعي لآتي إلى القاهرة في الميعاد المحدّد.

- حقًا؟! أتفعلين؟!

- طبعًا يا ليال...أودّ أن أفعل كثيرًا.

- إن هذا للطف بالغ منك. لا أظن أن أحدًا تحمّس للفكرة بقدر تحمّســك هذا.طبعًا سأُخبرك.

تمرّ امرأة عجوز وتتوقّف عند الTulips. تحيّي راما وتســألها عن شــيء بالهولندية، فتجيبها راما . تبتسم العجوز وتدفع بمشّايتها إلى الأمام وتتكّئ عليها ثم تمضي. تعود راما لتســتأنف حديثنا. كنت قد تذكرت الليلة الســابقة بينما انشــغلت راما مع العجوز، فما إن عادت حتى وجدتني أخبرها:

- صــحيح...مضــيت الليلة البارحة في القراءة عن نوبات الهلع واضــطرابات القلق والفوبيا...

قاطعتني:

- أخشــى أن أكون أثقلتك بأفكار ومتاعب أنت في غنى عنها. إن كان هذا صــحيحًا، فأرجوك انسِ ما قلته كله.

- لا،لا! إطلاقًا! بل...الحقيقة أنني...شعرت بارتياح شديد. قرأت كثيرًا عن اضطرابات بيتهوفن وفان جوخ النفسية. لطالما شغلتني حكايتهما على المستوى الإنساني. لكنني ظننت أن هذا النوع من المعاناةهو أقصى ما يمكن التوصّل إليه في عالم الطب النفسي...أقصد، الشيزوفرينيا، الاضطراب ثنائي القطب، الصرع، الانفصام، إلخ. تلك بدت لي متاعب نفسية «حقيقية». ولم أكن أعرف عن الفوبيا سوى تلك التي يرهب المرء منها الأماكن العالية أو المُغلقة أو الحشرات. لم يخطر ببالي أن أستفيض في الأمر لأجد فوبيا من المرض، ومن التقيّء، وفوبيا اجتماعية، وغيرها من أمور كنت أتصوّرها أصغر بكثير من أن تمسّها علوم النفس البشرية... صدّقيني حين أقول لك أن مجرد معرفتي بأنه ثمّ اسم لما أعاني منه ويؤرّقني، وأنني لست وحدي في هذا، تهوّن عليّ أمورًا كثيرة جدا يا راما.

- الحمد لله إذن...يُسعدني هذا.

- هل تنوين استئناف جلساتك مع دكتور فينسينت؟

- لا أدري...لا أظن...لا أعرف، لا أعرف!

أظهر سؤالي على راما ارتباكًا شديدًا فإذ بها تشرد بعينيها بعيدًا وتصمت. حين عاودت النظر إليّ كنت لا زلت مُثبّتة عينيّ عليها، أتأمّل حركاتها وارتباكها وأفكّر فيما عساه أن يبعث في نفسها الأمل. ابتَسَمَتْ حين لاحظت اهتمامي فشَعَرَتْ بحاجة لاستئناف الحديث موضّحةً:

- بداخلي «رامتان» تتقاتلان: (راما) ترى أن المساعدة ممكنة والحل قريب ومستطاع، و(راما) ترى أن كل ما يجول بخاطري من أفكار لا منطقية هو الحقيقة المنطقية الوحيدة، ولا شيء يستطيع أبدًا أن يُبدّد تلك الأفكار؛ (راما) تريد الركض إلى كرسي دكتور فينسينت و(راما) تريد المكوث في البيت تنتظر الموت.

ثم تسير ناحية الزهور وتنظر إليها وهي تعلّل:

- انظري إليهم...كم هنّ جميلات. لكنهن ستمتن حتمًا في موعد محدّد وقريب. مهما تنافسن على البقاء، ستمتن جميعًا وتأتي شُحنة جديدة أستبدلها بتلك الصناديق...كلها، كلها...ماذا بوسع دكتور فينسينت أن يفعل؟ كيف له أن يُقنعني أنه لا بأس من رؤية باقات الزهور تُستَبدَل الواحدة بعد الأخرى هكذا؟ أي حُجّة عبقرية يمكنه أن يفاجئني بها ذات جلسة فأرضى وأتقبّل أخيرًا فكرة أنني سأموت وأذهب إلى مصير أجهله...

أو أنني سأخسر عاجلًا أم عاجلًا عزيزًا أودّعه بنفسي إلى مثواه الأخير. أو أن عمّار...آه يا عمّار! حبيبي...هل يمكن أن أكون من بين الحا ضرين لتغ سيله ودفنه؟ هل أتركه وحده في تلك الحفرة المظلمة وأعود إلى المنزل؟ وهل تفيده باقات الزهور المو ضوعة أعلى قبره حينها؟ هل تخفّف عنه هول هذا القبر؟ هل سيخبرني إلى أين هو ذا هب؟ أو بماذا يشعر؟...مستحيل...مستحيل!

تتلألأ عيناها وتدمع في صمت.أشعر بدوار، وغثيان، وألم في المعدة، وإيقاع الحروب في القلب...يعود.أحاول إخفاء إعيائي لما قالته راما فأ صير أعضّ على شفتيّ من التوتّر. لا أدري ماذا أقول. إنّ في كلامها شيء من منطق على كل حال.

تؤكّد راما في كل لحظة أنّ انطباعي الأول عنها برهافة حسّها وحساسيّتها، لم يكن اعتباطًا أو تسرّعًا منّي. فها هي تلاحظ كل ما أخذت أخفيه. تنتبه لانفعالي المفاجئ فتحاول السيطرة على مجرى الحديث من جديد بعد أن انجَرَفَتْ (وانجَرَفْتُ معها) إلى تلك البُقعة المظلمة من المشاعر والأفكار.

- لا عليكِ يا ليال. دعكِ منّي أنا. المهم أنّكِ ستعودين إلى القاهرة قريبًا بمعارف جديدة عن نفسك. مهما اعترضتك الآن نوبات هلع أو حاجة ملحّة للانعزال، بالتأكيد لن تكون بذات القوّة إذ أنّك الآن تُدركين أن «لما تعانيه اسمًا»

كما قلتِ. أليس كذلك؟ أما أنا...فعلى يقين من أنني ســأنتهي على كرســي دكتور فينسينت آخر الأمر. لا تقلقي. ستذهب الشياطين بغير رجعة «إنشالله» (كما تنطقها بلكنتها الشامية).

ابتسمنا ابتسامة كان واضحًا أننا نرتجي بها تخفيف الحديث وإدخال بعض من بهجة – ولو مُقحمة – على أنفسنا.

عندما جئت إلى أمستردام كنت في ذروة اليأس. كان القلب قد أنهكه كل ما أخذ لسنوات وســنوات يخفق به ويُخفيه من خوف وضــيق وحاجة دائمة للوحدة وتفادي كل أشــكال التواصــل مع الناس. لكن راما، بكل ما ينتابها من لحظات أســى عميق، وبكل أحاديثها واسترسالها عن الموت والهلاك، إلا أنها أشعلت بداخلي شمعة، وأمامي شمعة، فكانت قد أشعلت شمعتين: شمعة أنارت روحي اليائسة، و شمعة أنارت طريق ظننت أنّ آخره سيكون كأوّله: أسود. بل أنها لم تستثن حتى هذا الوراء الأسود. فإني إذ أستدير إلى الخلف، أرى شمعة أخرى أُمسك بها وأسير بين زوايا الماضي. أتفحّصه وأُنعم النظر في تفاصيله؛ أراه لأول مرّة. أراه (كأنني) أراه لأول مرّة.

إن ابتسامة راما الودودة، وروحها المرحة الآسرة، وبراءة الطفولة التي تكسو حديثها وأفعالها، تسبق كل الحزن الذي تكون عليه أحيانًا، بل وتغلبه. فإنّك إن صافحتها ورحلت، تأكّد أنّك لن تعود إلا بتلك الطاقة الإيجابية وباقة الأمل الذي تحمله وتهديه لكل زائر يمر بزهورها.

بالنظر إلى راما، أرى الأمل. أرى الخلاص. ومع هذا فشعوري بالمسئولية تجاهها يدفعني إلى أن أكون لها هذا الأمل والخلاص الذي لا تراه هي في نفسها الواسعة المعطاءة.

هل يمكن لروح ساحرة كل هذا السحر ألّا تُدرك قوّة ونفاذ سحرها؟!

لا زلتُ متّكئة على باب المتجر، أرتشف اللاتيه وأنظر إلى راما الواقفة أمام زهورها. خطرت ببالي فكرة على حين غرّة فسرت إلى راما وشددتها برفق إلى الصندوق المكتظ بزهورعبّاد الشمس. تفاجأت راما وبادرتني بنظرات استفهام وابتسامة مَنْ يَنتظرتفسيرًا. لم أدعها تنتظر مليًّا:

- إنّك حين تنظرين إلى الزهور – بالأخص إلى عبّاد الشمس هذا – تأخذين موضع مَن يقف أمام مرآته. أريدك أن تعي هذا جيّدًا...عبّاد الشمس هي أكثر الزهور تجسيدًّا لروحك. هذا لأن كل من ينظر إليكِ يشعر بأمل جارف حقيقي يا راما. أنتِ نقيّة النفس ومدعاة للتفاؤل.

نظرت إليّ مندهشـــة وترقرقت عيناها بالدموع. تأثّرت جدًا بالفكرة ووثّقت تجعيد عينيها الذي قرأته أنا على هذا النحو الصامت: «حقًا؟ أنا؟».

- أنا... عاجزة عن الكلام... هذا لطف بالغ منك. لا أدري كيف أكون مبعثًا للأمل وأنا...بي ما بي من التعاسة والهَم...أتمنّى أن يكون هذا الوصف وصفًا حقيقيًا.

- بل إنه كل الحقيقة! أنتِ بدّدت يأســي إلى أمل لم أعرفه قط. حتى لو لم تقصـــدي أو تلاحظي أنتِ ذلك. لا أقول أن خوفي واضــطرابي قد زال، أو أنني على اســتعداد أن أرى مريم أو ســارة، أو أن أجيب مكالمات مايا...ولا أقول أنني لا أخشــى العودة إلى القاهرة ومواجهة (الضباع) مجدّدًا (نعم لا زلت أراهم ضباعًا)...لكنني...أرى خلاصًا ما...أرى إمكانية ما...تفهمينني، أليس كذلك؟

- نعم، أفهمك...وأظن أن هذا أهم ما في الأمر. أن يرى الإنسان «إمكانية الخلاص».

لم أكن أتوقّع أن يُحدث ما قلته لراما (بل عبّادات الشـــمس هي من فعلت يا ليال، لا تكوني ســخيفة! إنها زهرة فان جوخ تفعل أفاعيلها في النفس، ما شــأنك أنت؟!) كل هذا القدْر من التغيير المفاجئ والواضح في حالتها.

فبعد برهة من الوقتلم تدم طويلًا، أرى عيني راما تلتمعان. لا بالدموع هذه المرّة، إنما بالحماس، فتقفز عاليًا في الهواء وتباغتنا أنا وبديعة. ثم تُفرج عن ثناياها بابتسامة عريضة وتضرب بقبضة يدها اليمنى راحة كفّها الأيسر تريد التعبير عن حماسها الشديد لفكرة ما توشك أن تُطلعني عليها.

ولشدّ ما تسّرني رؤيتها مبتهجة هكذا، حتى إن كنت لا أعي الأسباب.

تنظر إليّ بعينين جديدتين، وصوتها يأخذ نبرة أعلى وأوضح وأكثر حيوية، ثم تردف تقول:

- لا تنزعجي، لا تنزعجي! أرجوكِ! فهذه أنا...مجنونة! أقفز من حال إلى حال! هاهاهاها! لكنني فجأة – بعد ما قلتيه – لاحظت أنني أمام هدية بعثها الله بين يديّ. كيف لم أقدّر معنى أن أراكِ في المقابر ومعنى أن تقطعي طريقي بدل المرّة مرّتين؟! كيف لا يوجد سبيل إلى الأمل؟ لا! طبعًا يوجد! سنقطع هذا الطريق معًا يا ليال. سنبحث في هذا الأمر. سنتخلّص من الخوف نهائيًا...وحدنا...سأكون لكِ دكتور فينسينت وتكونين لي دكتور فينسينت. ما رأيك؟

40..أَوْرَاقُ رَامَا

- رأيي أنه...يعني...طبعًا، لكن كيف؟ بصراحة لا أفهم مقصود كلامك بالضبط.

- سأُفهمك...لكن لا وقت الآن، علينا أن نذهب من هنا.

تنطلق راما في أركان المكان بين صــناديق الزهور، ثم داخل وخارج أعتاب المحل فلا أستطيع تتبّع خطواتها من شدّة سرعتها.

- يللا، يللا يا ليال! ساعديني...سنُدخل هذه الصناديق إلى الداخل.

- لكن....إنّ اليوم قد بدأ للتوّ!

- لا يهم! يوم واحد لن يضر.

- طيّب، إلى أين؟

- يمرّ شاب طويل القامة:

- Hello!(أهلًا.)

- Tot morgen! Tot morgen!(غدًا، غدًا!)

يرمق الشاب راما بنظرة استحقار غاضبة ويجعّد حاجبيه ثم يمضي بطريقه.

- ما شأنه هذا الغبيّ! ألم يرَ شخصًا متعجّلًا في حياته؟! يللا يا ليال، استعجلي.

كانت بديعة قد أُعجبت بقفزات راما في الهواء، والحماس الذي أبدته بادئ الأمر. لكن ما إن بدأت راما تتحرّك في المكان ذهابًا وإيابًا تتخبّط في الحوائط والصناديق دون أن تلتفت لهذا أو يستعنيها أو يدفعها أن تُبطئ من خطوها، حتى بدأ الملاك الصغير يرتبك؛ لا تفهم هذا الوضع الجديد.

- حنروحو فين يا ليال؟

- مش عارفة يا بديعة...بس راما بنت طيّبة أوي...مش حنخاف منها، صح؟ ماشي؟

- ماشي.

- تعالي ساعدينا...الصناديق تقيلة عليكِ...هاتي اللي تقدري عليه من الورد لوحده.

مضت بديعة تلملم ما سقط من صناديق الزهور التي حملناها أنا وراما إلى الداخل، وأعادته كلًّاإلى مكانه: الTulipsمع الTulips، وعبّاد الشمس مع عبّاد الشمس. تنسّقهم وتتحسّس أوراقها برفق كأنها رؤوس رضّع دغدغت بذرة مشاعر الأمومة المزروعة في أحشائها.

بعد إتمام عمليّة إدخال صــناديق الزهور واتخّاذ راما إجراءات حفظها لليوم التالي، غلّقت الأنوار وأســدلت ســتائر قصــيرة من قماشــة رقيقة من اللبني الفاتح على النوافذ، وشــدّت حقيبتي وحقيبتها والمعاطف من على المكتب، وعلّقت لافتة مكتوب عليها: «gesloten» (مغلق). ثم أعطتني حقيبتي ومعطفي الرمادي، وحملت حقيبتها وخرجنا.

إنّ حقيبتها مميّزة جدًا. صغيرة الحجم، من البلا ستيك الـ شفّاف، لونها وردي نا صع، وعلى جهتها الأمامية نقشــت ورود صــغيرة بيضــاء. نســيت ما آلت إليه الأوضــاع وبقيت مسمّرة أمام هذه الحقيبة أتفرّسها. ابتسمتُ لسحر الطفولة الآسر المنبعث منها (من حقيبة راما. أو من راما نفسها، من يدري؟). لو كانت دنيا هنا لانهالت على راما بسمّها القاتل إربًا إربًا. هه...الحمد لله أنها ليســت هنا. على الأغلب أنها الآن تجلس على مكتبها المُقبِض تختلس نظراتها الحادة لكل مارّ أمامها. أو في الكافيتيريا تحتســي قهوتها التركية الخاصــة وتشكي هذه أو تلك رائحة قميص آدم «الكريهة»، أو حقيبة سوزان التي «راحت موضتها» أو معطف أحمد الذي لا يرتدي غيره: «مش قادر يجيب واحد جديد؟!».«لا يا ســتّي مش قادر».

– حقيبة غريبة، أليس كذلك؟ الجميع يسخر من حقائبي وملابسي دائمًا. لكن هذه أنا. ماذا أفعل؟...أحب الفراشات والورود والألوان الناصعة وكل ما يُشبه ألعاب الأطفال.

تسأل راما بشيء من حرج وشعور بحاجة لتوضيح الأمر.

– لا، أبدًا! أنا مُعجبة جدا بها. أنت شخصية مميّزة جدا يا راما. صدّقيني أنا أقدّر انفرادك و«غرابتك» تلك، ولو أني لا أرى فيها غرابة. أنتِ لا تشبهين أحدهم. لهذا يسخرون منك. لكن...ألا نسخر نحن منهم لأنهم يشبهون بعضهم البعض إلى هذا الحد المُمِل الكئيب؟

تبتسم راما ثم تطلب منّي أن أُسرع الخطو. صار المحل خلفنا بعدّة أمتار وعلى يميننا محلّات أخرى، والسيارات والدرّاجات والقناة إلى يسارنا.

– جئت بالدرّاجة، لكن لا بأس. نعود سيرًا على أقدامنا معًا إن لم يضايقك. أصلًا، المنزل قريب جدا من هنا.

سرنا ما بين الهرولة والتباطؤ. قطعنا طريقًا بعد طريق، وانتظرنا إشارة أو إشارتي مرور، وانحدرنا يمينًا ويسارًا بين شوارع ضيّقة جانبية وأخرى أوسع. ورأيت الطاحونة...تلك التي رأيتها من بين ما رأيت عند وصولي.

وأخيرًا وصلنا إلى منزل راما.

إنه منزلٌ فخم جميل، من ثلاث طوابق. يقع في شارع واسع وهادئ بالنسبة لبقية شوارع المدينة العامرة. تحيطه فيلل كثيرة من ذات الطراز تقريبًا. وإنه يتوسّط حديقة خاصّة واسعة خضراء بها أشجار كبيرة و صغيرة، وأزهار مختلفة،وأرجوحة مستطيلة لها مظلّة وقماشةُ منضدتها بيضاء. حول الأرجوحة، ألعابُ أطفال منثورة هنا وهناك: مكعّبات ملوّنة من أحمر وأصفر وأزرق، وحصان خشبي مثبّت على الأرض له مقبضان على جانبي وجهه، وخيمة خضراء صغيرة منصوبة على الحشيش أمامها قطع خشب مكتظّة فوق بعضها البعض. وأرى على الجهة المقابلة، عُدّة الشوي: طاولة حديدية معيّنة، وأكياس فحم وأسياخ طويلة.

تسير راما باتجاه الباب. أتبعها. تفتح لنا الباب فتاة طويلة، شعرها أملس وأسود مقصوص على شكل (كاريه). ترتدي سروالًا قطنيا أسود وبلوزة رمادية قطنية بسيطة ذات أزرار بيضاء، وترتدي في قدميها جوارب بيضاء سميكة صوفية مخصّصة للمشي داخل المنزل.

تُلقي عليها راما التحيّة بسرعة ثم تعرّفني بها على عجل وهي تشدّني من يدي لتفادي أي حوار محتمل قد يطيل الخطة التي رسمتها راما لنا.

- ديالا، هذه ليال...صديقتي المصرية الجديدة.

أحاول أن أسيطر على الوضع وأمد يدي لمصافحة ديالا لكن لا أستطيع. أنظر إليها وقد تسمَّرَتْ عند الباب من خلفنا، وأبتسمُ لها ابتسامة تحيّة خاطفة بينما أحاول اللحاق بخطوات راما السريعة.

- ما بك يا راما؟ لماذا جئتِ مبكّرًا اليوم؟!

- لدينا عمل علينا القيام به أنا وليال...سأخبرك لاحقًا...لا تُزعجينا...ومن الأفضل أن لا تخبري أحدًا بعودتي. نريد قسطًا من الهدوء.

أخذت راما تُلقي أوامرها على ديالا التي بدت أنها معتادة حالات راما الحماسية تلك وتقلّباتها. صعدنا السلّم إلى الطابق الثالث. نظَرَت إليّ وأومأت بيدها تطلب منّي الإسراع.

- أسرعي، أسرعي، لا يشعر بوجودنا عمّارٌ أو بقية أخوتي، أو من عساه أن يكون بالمنزل.

كنت على وشــك التروّي وتأمّل أعمدة الســلّم التي حكت عنها راما، لكن إســراعها أربكني فلم تتسنّ لي الفرصة.

ســرنا إلى غرفة نومها في حركة أشــبه بالتسـلّل. دخلنا وأغلقت الباب، ودون أن تقول كلمة، سارت إلى خزانة ملابس منقوش على بيا ضها عصافيرٌ صغيرة، فتحت بابها وأخذت تبحث عن شيء ما.

أما أنا، فأنتظرها في صــمت بينما أنظر إلى الغرفة من حولي. لا أدري ما الدافع للابتســام لكنني ما إن وقعت عيناي على تفاصـيل الغرفة حتى أخذت أبتسـم. وها أنا لا زلت أبتســم وأنا أتفحّص زوايا الغرفة الفريدة.

إنّ الغرفة تُشبه راما كثيرًا. الأبيض والوردي بدرجاته تكحّلان المكان. سريرها أبيض يعلوه لحافٌ وردي وو سادات وردية وبيضاء. تنتصف الغرفة سجّادة بيضاوية وردية هي الأخرى محفور عليها اســم راما بالرقعة الإنجليزية: *Rama*. وســتائر الشــبابيك أبيض مكسور منقوش عليها أزهار peoniesمن اللون الأرجواني مختلفة الأحجام. ومنتشر على رخام الأرض في كل مكان «دباديب» وعرائس وتماثيل كارتونية. أرى تمثالًا كارتونيًا كبيرا لامرأة عجوز صــينية. إلى جوارها، تماثيل أصــغر لرجال الSamurai(ســاموراي): المحاربون اليابانيون.

ثم أرى عرائسًا كثيرة مُصطفّة لمجموعة أميرات ديزني. أنظر أعلى خزانة ملابسها فأراها مكتظّة «بدباديب» لا حصر لها: كلاب، وعرائس، وأرانب، وفيلة، وغيرها.

في الغرفة طفولة وبراءة وانفراد تمامًا كشخصيّة راما. في الغرفة إحساس مختلف ونقاء خالص لن تفهمه دنيا ومن هم على شاكلتها.

- تعالي يا ليال.

تربّعنا السجّادة الوردية في قلب الغرفة. جاءت راما بمجموعة أوراق وقلمين و ضعتهم أمامنا. ثم تذكّرت شيئًا ما فقامت فجأة: «أوه! نسيت. لحظة!». وجاءت بشمعتين وضعت واحدة إلى جانبها والأخرى إلى جانبي. أشعلتهما وهي تقول بابتسامة خجلى:

- أعرف أنّ الشموع لن تغيّر شيئًا. لكن...أريد أن أُضفي جوًّا روحانيًا على المكان. من يدري؟ لعلّه يفيد...

ثم عادت حيث تربّعت وجلبت لنفسها ورقة وقلمًا وراحت ترسم خطوطًا وتكتب شيئًا لم أتمكّن من التحقّق منه من موقعي. وجاءت بورقة أخرى فعلت فيها الشيء نفسه.

قصدت النظر إليها في صمت تام لا أريد مقاطعة حبال أفكارها المشدودة المتأهّبة.

ولما فرغت من الكتابة، ألقت نظرة سريعة على الورقة تهمهم وهي تقرأ ما كتبته بصوت خافت. ثم قرّبت الورقة منّي وبدأت في الشرح.

- « شوفي» يا ليال...هذا مما تعلّمت من دكتور فينسينت. هذا جدول تسجيل الأفكار والمشاعر. في الخانة الأولى، نكتب موقفًا من المواقف التي شعرنا فيها بهذا الإحساس البالغ من الهلع أو غيره من مشاعر قويّة. نذكر هنا المكان، والزمان، والأفراد المشتركون في المشهد، وسطرًا يلخّص ما حدث.

«في الخانة الثانية، نكتب الmood، أي الحالة التي يمكن أن نصف بها شعورنا مرفوقًا بنسبة مائوية تدل على حجم هذه الحالة، كما ندوّن الأفكار الأوتوماتيكية التي تخطر ببالنا فورًا.

«وفي الخانة التالية لتلك، نكتب أفكارًا تؤكّد صحّة المنطق من وراء مشاعرنا والأفكار الأوتوماتيكية السابقة.

«أما الخانة الرابعة، فنسجّل فيها أفكارًا تنفي صحة المنطق من وراء تلك الأفكار والمشاعر.

«وأخيرًا، نكتب في الخانة الخامسة والأخيرة المشاعر التي كنّا عليها حين بدأنا وسجّلناها في ثاني خانة، لكن هذه المرّة نعيد تقييم وتدوين النسبة المئويةلقوّتها.

سأعطيك مثالًا...»

وجاءت بورقة ثالثة من بين الأوراق كانت قد ملأت خاناتها مُسبقًا.

- هذا جدول كنت قد ملأته مع دكتور فينسينت أثناء إحدى الجلسات...

الخانة الأولى: الحدث:

المكان: غرفة المعيشة في منزلنا

الزمان: الساعة السابعة مساءً

مَن: أنا وماما وديالا

ماما تحكي لديالا عن صديقتها (ليلى) التي ماتت في العام الماضي.

الخانة الثانية: الأفكار الأوتوماتيكية والمشاعر:

خوف – قلق: 100٪

حزن: 70٪

غضب: 30٪

أريد أن أترك الغرفة وأرحل.

يومًا ما سأكون أنا من تحكي لأحد آخر عن موت ماما.

ربما غدًا تموت ماما، أو أقرب من هذا.

لماذا يفعل الله هذا بنا ؟

لعلّ عمّار هو من سيموت أولًا.

الخانة الثالثة: الأفكار التي تؤيّد منطق مشاعرنا:

كلنا سنموت.

ماما كبرت في السن.

أعرف أناسًا كثيرين ماتوا على حين غفلة من دون سابق إنذار.

لا يُعقل أن لا أمر بهذا أنا أيضًا.

الخانة الرابعة: الأفكار التي تنفي المنطق من وراء مشاعرنا:

أعرف أناسًا كثيرين مرّوا بهذا وتجاوزوا الأزمة

(هَلَا) صديقتي فقدت أمها العام الماضي وها هي الآن تجهّز لحفلة الـtangoو سعيدة ومتحمّسة جدًا.

ربما أموت أنا قبل ماما وعمّار.

الخانة الخامسة: المشاعر مُعاد تقييمها:

*خوف – قلق: 60٪

حزن: 50٪

غضب: 10٪

– يا الله! وهل يفيد هذا؟ أعني، ما المنطق من وراء الجدول؟

– إنه أحد التطبيقات العملية للعلاج السلوكي المعرفي المستخدم لا ضطرابات الهلع والاكتئاب. إنّ أفكارنا يا ليال مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمشاعرنا وحالتنا الجسدية. ألست حين تقرئين عن جريمة قتل مثلًا، تشعرين تدريجيًا بقلبك يخفق من الخوف

بينما أنّك جالسة في مقهى تمسكين بالجريدة وتقرئين عن الجريمة من مسافة وزمان بعيدين عنها؟ هذا لأن الأفكار تولّد عندنا م شاعر معيّنة ومن ثمّ رد فعل ج سدي وع صبي يلائم تلك المشاعر وتلك الأفكار.

«وظيفة هذا النوع من العلاج المعرفي أنه يجعل مشاعرنا وأفكارنا مبسوطةً أمامنا على الطاولة؛ واضحة جليّة. يجعلنا نُفتّش بداخلنا في أعماق قلبنا وعقلنا. فنكتسب مع الوقت وعيًا أكبر بالأفكار الكثيرة التي تجول في خاطرنا وتؤثّر علينا تأثيرًا جمًا دون أن نشعر وقبل أن نشعر.

«طبعًا هذا الجدول أو غيره لن يستطيع تحقيق هذا الهدف وحدُه. لكنه، إلى جانب أمور أخرى ومحاولات صادقة وجادة لفهم أفكارنا ومشاعرنا فهمًا بيّنًا، يُضعِف من سلطان الخوف علينا تدريجيًا. وطبعا الأمر يحتاج إلى صبر ودأب وإيمان».

أضحك. أتردّد لهنيهة بشأن الإفصاح لراما عن الأمر الذي يضحكني. لا، لن أقول.

تظن راما بضحكي أنني أسخر من حديثها جُملةً فتبتسم ابتسامة حَرَج وهي تحوّل عينيها إلى الأرض وقد تبدّدت حالتها كليًا من الحماس إلى اليأس، لا أدري متى ولا كيف بهذه السرعة.

- آه...أعلم. لم تكن فكرة جيدة. يا له من جدول سخيف فعلًا! يا لسخافتك يا دكتور فينسينت...انسِ الأمر أرجوك يا ليال...

- لا، لا، أبدًا! لا أضحك مما قلتِ صدّقيني! لكنني تذكّرت أمرًا وأستحي أن أنقله إليك...لكن...سأخبرك. إنني أرسم حاليًا بورتريه لفتاه اسمها بديعة. أنقل وجهها من صورة أبيض في أسود قديمة جدا يرجع تاريخها إلى سنة 1920. كنت البارحة أرسم جلبابها الأبيض وبينما أخذت أتأمّل أنسجته وتفاصياله، خطرت ببالي فكرة...أنّ البشر كالجلابيب. لهم شبكة معقّدة من «أنسجة» الأفكار والمشاعر التي لا نرى موضع خيوطها الدقيقة، إلا إذا نحن نظرنا إلى قماش الجلباب عن كثب بواسطة عدسة مكبّرة تمكّننا من هذا.

- أوه! فعلًا، فعلًا! هذا صحيح كل الـ صحّة. ولِمَ أ سخر منك؟ بل أنني أ ضيف إلى ما قلتِ أن هذا الجدول يمثّل العدسة المكبّرة تلك التي ستمكّننا من تأمّل خيوط النسيج الدقيقة فنستطيع من ثمّ أن نفكّ تعقيدات الشبكات المعقّدة التي تؤثّر علينا وتتحكّم فينا.

في غمضة عين، تعود راما إلى حماسها من جديد.

أرى بديعة في ركن من الغرفة. كانت تلعب بإحدى عرائس راما حين سـمعت اسـمها وحديثنا عن الجلباب، فانتبهت.

- أيوة يا بديعة..بنتكلّم عن جلابيتك اللي كُنت برسمها امبارح.

تبتسم وتسعد لإدراجنا لاسمها وصورتها وجلبابها في حديثنا.

وتعود للّعب.

41..عَهْدُ الهُايلِجِنشْتَادْ

حيث قِمَم اليأس، تنكسر قيودُ الخيال وتُطلِق لأيادي الجمال العنان.

أ ستلقي على منضدة المنزل بعد عودتنا من زيارة راما. ها هي ذي بديعة تركض بشغف إلى الشرفة حيث مجلس من ا شتاقت إليهم: المايسترو والر سّام. وغروب الشمس يُسقط على وجوههم ولبا سهم لونًا بنفسجيًا أحمره يغلب أزرقه فيبدو ملتهبًا مشتعلًا. والEroica تعلو وتعلو. ليس في المشهد تضادٌ متناحر، إنما انسجام غريب! ما للEroica سوى بنفسجي المغرب الحارق...والثائر.

أتردّد في قصّ حكاية الEroicaعلى بديعة. لا لسبب معيّن سوى لأني أظنها ذابت في القصص التي رويتها لها حتى صارت جزءًا ملتحمًا بها. كأنها هي نفسها - بديعة - أصبحت شخصيةًأساسية في حكايتَي بيتهوفن وفان جوخ، فصار من المُضحِك أن أحكي لها حكاية تعيش الآن فيها وباتت تعرف تفاصيلها أكثر منّي!

سأكتفي بتأمّل تفاعلها مع بيئتها الجديدة.

لكني لسبب ما، أتحمّس لفكرة قطع السيمفونية، وأطلب من بيتهوفن أن يعيد تشغيلها من جديد. من البداية. ولأن المايسترو كريم الأخلاق طيّب المُحيّا، يقبل.

لم تكن صــدفة أن يتزامن تدهور حالة الســمع لدى بيتهوفن مع الانقلاب الجامح الذي شــهده إســلوبه وروح موســيقاه. كانت ســيمفونية الـEroica هي نقطة التغيير المحوريّة لموسيقى بيتهوفن التي أعقبت كل المحاولات البائسة لاسترداد سمعه. تعالت الأصوات والذبذبات في أذنه وبدأ في الانعزال التام عن الناس خشــية أن يظهر أمامهم بمظهر العاجز، أو أن يقولوا الموسيقار المعروف أصبح لا يسمع فيُصبح محلًّا للسخرية أو للشفقة.

الـ«Eroica» تعني «البطولة». وهي ثورة بكل المقاييس. أولًا، لأنها تلت كل ما بذله بيتهوفن وأطبّاؤه من أجل معالجة أذنيه. ألّفها وهو على يقين خالص أن مسألة صممه التام مســألة وقت لا أكثر. فجاءت الأبواق والكمنجات فيها ردًّا على معطيات الأقدار القاســية. فصفحاتها خالية كل الخلوّ من أي انكسار أو انهزام أو يأس. كلها عزم وتحدّ وخروج عن المألوف في سماء الموسيقى الكلاسيكية التي اعتادتها أوروبا في موسيقى موزارت وهايدن وغيرهما ممن سبقوا بيتهوفن.

ثانيًا، لأنها تلت انشراع أبواب الثورة الفرنسية أمام بيتهوفن والتي انبهر بمبادئها النبيلة من الدفاع عن الحقوق، والمناداة بالمساواة والعدل، والتصدّي إلى الطبقات الأرستقراطية الحاكمة المتجبّرة الآكلة للحوم الفقراء ومعدومي الحال.

وهي ثورة لأنها ثارت على نفسـها! أهداها بيتهوفن لنابليون بونابارت حين كان قنصـلًا فرنسيًا نبيلًا أُعجب به وبمبادئه وروحه الثائرة أ شد إعجاب، حتى أنّ ا سمها الأ صلي كان «بونابارت». وحين جاء المايسـترو أنباء أن نابليون قد خان مبادئه وعيّن نفسـه إمبراطورًا، ذهب بيتهوفن في ثورة عارمة، وراح يمزّق نوتاته تمزيقًا. ثم أعاد نقلها، إلا أنه غيّر اسـم سيمفونيته هذه المرّة من «بونابارت» إلى «إريويكا»...أي «البطولة».

هي ثورة وُلدت من ثورة وانبطحت على ثورة و قامت لتثور على الثورة التي انطلقت منها أوّل ما انطلقت.ثورة على الصـعيد الشـخصـي والإنسـاني والاجتماعي والسـياسـي والفنّي. وهي حالة ملائمة ومنطقية جدا للهياج العظيم الناتج عن اضـطراب بيتهوفن النفسي ونوع الابداع الفذ الملاصق لأغلب من يعانون من هذا النوع من الاضطرابات.

تبدأ الEroica حين تبدأ بنوتتين قويّتين وسـريعتين. كأنهما يدٌ قابضـة تضـرب بعزمها على سطح متين. نعم، إنها أبواق الإنذار التي سبق وأن افتتح بها باثيتيك-ه، وإنه ينشد بهما ذات الانتباه. ولعلّه ينشد انتباهًا أ صدق وأقوى هنا، فضربتا الإنذار الافتتاحيتان هنا أقوى بكثير إذا ما قُورنّ بالباثيتيك....لعل الأمر أهم.فالEroicaهي أطول وأهم وأجرأ ما ألّف بيتهوفن في حياته. هي ثورته التي بدأها وخاضها وحده.

«طاخ! طاخ!»...أسمعها فأنتبه كأنني الآن فقط أتعرّف عليها.

تتلو الضربتين العفيّتين، أربع مقاطع أو «حركات» (كما يسمّيها الموسيقيون الغربيون) هن فصول رحلة (البطولة) التي انتزعها بيتهوفن من بونابارت انتزاعًا واستبدل المبادئ المُطلقة التي لا تُنسب لكائن كان بشخصَ بونابارت. وأول جولات الرحلة هذه: هياج؛ حالة من التخبّط والاندفاع والتزاحم. أبواق وطبول خالية من رومانسية الكمنجات والبيانو المتعارف عليها في أغلب المقاطع الأولى من السيمفونيات الكلاسيكية آنذاك. قد تكون حالة التخبّط هذه إشارةً إلى الأفكار المتخبّطة في ذهن المايسترو في تلك المرحلة من حياته تحديدًا. وقد تكون الصراعات النفسية والعصبية التي عاشها قُبيل وأثناء خلق سيمفونيته الثالثة هذه بسبب اضطرابه وسمعه المتلاشي. وقد تكون الصراعات النفسية والعصبية الإنسانية بشكل عام؛ التناقضات والمفارقات والمحن البشرية. وقد تكون الأوضاع المتردية المخيّمة على أوروبا كلها في تلك الأثناء. وقد تكون هذا كله.

ثم تنتهي التخبّطات لتبدأ «مارشات الجنازة» («Funeral March»). من مات؟ مات بونابارت؟ مات البطل؟ ماتت الروح؟ ماتت الإنسانية؟ مات الأمل؟

تظهر راما فجأة أمامي. أراها تنتصف المقابر حاملة ورودها البيضاء. وبيتهوفن من خلفها يهدهد موسيقاه بضربات منتظمة ورتيبة كأنها خطوات الأقدام تتقدّم بنعوش بنيّة كبيرة (أو صغيرة). هدوء. وقار. رهبة. هيبة: هيبة السكون، وهيبة رثائه.

قلت أن الEroica حماسٌ وثورة. نعم. ولن تدفعني المارشـــات الحاملة للنعوش أن أتراجع. فليمت من يموت. ليمت بونابارت، أو البطل، أو الســمع، أو الإنســانية. ليس الموت بنهاية أبدا. فها هو ذا بيتهوفن يتبع الجنازة برقصـــة فرح يزفّها عاليًا مُعلنًا عن بعث جديد في (الحركة)الثالثة. يرج الأرض من تحت النعوش والألواح فيشـقّها لتقوم الأرواح من مرقدها. تنسل كأنها جان تشقّ طريقها من أفواه المصابيح. تتلاقى في الأجواء. ترقص وتلعب وتعيد أمجادًا مضت.

تبتســم راما. وتطير بفســتان أبيض شـفّاف في الهواء بين الأرواح وتبســط كفّيها فتطير ورودها البيضاء في كل مكان: بعضها يسقط على الأرض أو على النعوش الخالية، والبعض الآخر يستقر في أيادي الأرواح الحريرية. وبعضها ينزل ليستقرّ في يد بيتهوفن وعلى سطح البيانو والكمنجات.

ثم تقترب النهاية في الحركة الموســيقية الرابعة والأخيرة. لكنها ليســت نهاية على غرار باقي النهايات. ما هي بالنهاية السـعيدة الرومانتيكية. لا ولا بالحزينة كذلك. إنها نهاية ثائرة تنطلق من ذات الباب الذي خرجت منه الســيمفونية في بدايتها. لا زالت الثورة ممتدّة ومتشعّبة تُرسي قواربها في موانئ الغد. ففي كل غد، قوارب ثورة تنتظر.

بيتهوفن يضــرب بيديه قويًا مع «finale» (نهاية) الEroica الذي يملأ الأجواء. تقلّده بديعة من مجلســها بالقرب من فان جوخ. وتضــحك. لكن بيتهوفن لا ينتبه لا لمحاكاتها لحركاته ولا لضــحكها المجلجل، فهو مأخوذ بثورته وتمرّده على كل صــعب وكل قبيح. يسترجع النقد اللاذع الذي تعرّضت له الEroica فور عرضها، ولا يزيده هذا إلا حماسًا وتمرّدًا فيضرب بيديه في الهواء أقوى وأعلى.

وحال الرسّــام لا يختلف كثيرًا عن حال الموســيقار. فها هو ذا فان جوخ مأخوذ أيضًــا بذات الاندفاع في لوحته. ينهال عليها بضربات قويّة كضربات بيتهوفن. ضربة بعد ضربة بعد ضربة؛ تحيي أزهاره الخمسة عشر الميّتة في الفازة على مسمع ألحان أنشودة الثورة والبعث.

أما بديعة فمبتهجةٌ وحائرةُ السعي بين الرسّام والمايسترو، والرقص على الEroica.

تلك هي البطولة الحقيقية التي لا تُروّض ولا تؤلّف، إنما التي تكمن بالأســاس في ترويض الأوضاع القبيحة التي تعكّر صفو الأنفس وتشوّش بوصلتها، وفي الثورات العارمة التي تستبدل الطيّب بالمقيت.

- ليال، ماقُلتليش...يعني ايه «فراشة»؟

42 ..الْعَوْدَةُ

الارتباط بالأماكن شعور عجيب! لم تدم إقامتنا في هذا المنزل بأمستردام سوى أسبوع، ومع هذا، فهأنا أشعر بقلبي ينكمش وأنا أعيد مفتاح الشقّة إلى السيدة آنا وأودّعها وأودّع الشقّة. أودّع الشرفة والمنضدة والكرسي وكل ركن من أركان المنزل الذي استقبلنا استقبالًا طيّبًا خلال هذه المدّة القصيرة.

هبطنا الأدراج أنا و بديعة وبيتهوفن و فان جوخ والسيدة آنا. أحمل في يد حقيبة السفرالسوداء الجرّارة التي أتيت بها، وفي الأخرى أحمل لوحة بديعة التي أَخَذَتْ آنا تختلس النظر إليها وهي تحدّثني من حين لآخر متحاشيةً أن تسأل عنها، لا أدري لماذا. ربما مراعاةً لخصوصيّتي.

ودّعتني آنا أخيرًا حين خرجنا إلى الشارع وافترقنا عند باب سيارة راما التي كانت تنتظرنا أمام المنزل. حين علمت راما منّي في اليوم السابق أثناء حديثنا المطوّل في غرفتها أنني سأغادر أمستردام صباح اليوم، أصرّت أن تصحبني إلى المطار

إن كان الارتباط بالأماكن أمرٌ عجيب في قوّته وسرعته، فالارتباط بالبشر أعجب وأكثر سحرًا. كيف لي أن أرتبط بفتاة لم أرها سوى مرّتين اليوم ثالثهما، كل هذا الارتباط؟ يؤلمني أن نفترق بعد كل ما أبدته بوادر هذه الصداقة من سكينة وألفة وتفاهم.

دخلنا إلى السيّارة وسارت بنا راما إلى المطار. وكالسيدة آنا، انتبهت راما إلى لوحة بديعة لكنها لم تختلس النظر إليها دون سؤال كالأولى، إنما أمعنت ودقّقت وأطالت النظر. ثم سألت وهي تحوّل عينيها بين اللوحة والطريق أمامها:

- أهذه إذن لوحة بديعة؟

- بلى، هي.

- إنها جميلة وغريبة...صحيح! لم تخبريني من تكون بديعة؟

- إنها قصّة طويلة....

قصصت عليها حكاية ريّا وسكينة ورجالهما بينما مررنا على الطاحونة، ومتاجر وسط البلد، والحدائق الصغيرة والكبيرة، والقناة، وتقاطعات الشوارع حيث السيارات والدرّاجات الكثيرة والمارة المحتشدين عند إشارات المرور، والأشجار وحقول الTulipsوالPoppiesوالDaisiesوالDhalias.

أوردت في حديثي – باختصار – قصص نبوية بنت جُمعة، وزنّوبة الفرارجية، ونظلة أبو الليل، وعديلة الكحكية، وأنيسة، وفردوس، وأمينة، ومريم الشامية، وأبو أحمد النص، فبدت شوارع أمستردام كحواري الإسكندرية القديمة...قاتمة عابسة حزينة.

دمعت عينا راما وأبدت انفعالات واضحة وشهقات عميقة وهي تستمع إلى كل جزء من الحكاية. ثم أعادت النظر إلى لوحة بديعة فاختلفت نظرتها هذه المرّة. لم يعد في النظرة ذات البرود وحيرة التساؤل. إنما صارت نظرتها حانية عطوفة تود أن تأتي بالفتاة من سطح الكانفس وتغمرها بأحضان تلو أحضان.

– يا لها من قصّة غريبة في قسوتها...أيعقل أن يكون هناك مثل هؤلاء البشر؟!...ثم ماذا جرى لبديعة بعد أن نُفّذ حكم الاعدام على أهلها؟

– ماتت في حريق نشب في الملجأ العبّاسي الذي أودعتها شرطة الإسكندرية فيه، بعدها بثلاثة أعوام.

– أوف! مسكينة...كم قست الحياة عليها. لكن الله رحمها بهذه الميتة العاجلة. خلّصها من مصير وحياة كئيبة كل الكآبة.

أدير رأسي حيث المرآة الجانبية للسيارة. أنظر منها فأرى بديعة مشغولة في مجلسها خلفنا بين فان جوخ وبيتهوفن. لم تنتبه إلى حديثي مع راما هذه المرّة. فإنها مشغولة جدا. تحكي لصديقيها حكاية الوحش الكبير الذي جاء إلى حارتهم في ليلة ما فبيّت كل سكّان الحارة في بيوتهم مرتعبين. إلا هي و هانم: تسلّلتا إلى دكّان من الدكاكين واختبأتا فيه منتظرتين أن تريا الوحش بأنفسهما. تحكي وتحكي وتحكي...وتومئ برأسها ويديها الصغيرتين من الانفعال. إنها قصّاصة بالفطرة! تسترسل في أوصاف دقيقة لملامح الناس وطباعهم، وللأماكن والألوان والأصوات، وتومئ بيديها ورأسها وتصحب كل جملة أو كلمة – كلما توجّب – بنظرة وتجعيدة عين وحاجبين مناسبة تؤكد على المعنى. لو عاشت، لخَلَفت عمالقة الأدب الروسي القدامى من بوشكين إلى دوستويفسكي!

- هل لوحة بديعة ضمن لوحات المعرض الذي تعملين عليه؟

- نعم... بديعة وجه من وجوه الحرب. ليست كل الحروب مدافع ورشّاشات واستيطان (وإن كانت قد عايشت هذا كله بشكل من الأشكال فعلًا أثناء سنين الاحتلال الإنجليزي على مصر).

ثمّت حروب نفسية قوية يُزَج فيها الإنسان ولا يدري أن كل صراعاته تلك حرب يخوضها مع أقداره. ففظاظة أهلها معها، وما شاهدته من جرائم بما تبع ذلك من أحداث جسيمة ونهاية مأساوية، هو حربٌ...حرب تقذف قنابلها على أبنية النفس فتفتك بها.

- المعرض سيكون استثنائيًا! أنا متأكدة من هذا...استثنائيًا! يا الله! «ما بِصير ما اِجِيش! رَحْ اِجِي إنشالله».

- أرجوكِ يا راما، تعالي!

- سأفعل سأفعل...مهما استدعى الأمر. أنا مجنونة وأفعل ما أريد مهما كلّفني، وأظنّك لاحظت ذلك بنفسك. هاهاها! ...أليس كذلك؟

- التحدّي والإصرار يليقان بكِ كثيرًا.

- أنا أحب الحكايات جدا...أحب الاستماع إلى قصص الناس. إلى أحلامهم وهمومهم. لهذا، تُعجبني مثل هذه الأفكار والمبادرات. وأن أقف أمام لوحة منقوشة بالحكايات، فإنّ هذا لأمرعظيم ومثير بالنسبة لي. لست على دراية واسعة بالفنون التشكيلية، كما سبق وأخبرتك، لكنني مع هذا، أحب الفنّانين الذين ينتهجون هذا النهج الذي أراه جليًا في نظرتك إلى اللوحات. أحب فان جوخ كثيرًا. وفريدة كالو...إنها...عبقرية! طبعًا تعرفينها، أليس كذلك؟ إنّ لوحاتها مكتظّة بالقصص الإنسانية والتجارب الشخصيّة. أتعجبك؟

– طبعًا! فريدة من أكثر الرســامين الذين أحب. إنها مميّزة وصــادقة إلى أبعد الحدود. أو، لأقول، إنها صادقة لهذا هي مميّزة. صدقها يأسرني.

– صحيح، صحيح. أحب لوحتها «Thinking about Dealth» («أفكّر في الموت») كثيرًا. أتعرفينها؟ تر سم نفسها أمام أوراق شجر كثيفة نا صعة الخضار وعلى جبينها دائرة تتوسّــطها جمجمة وعظمتان. أليســت رائعة؟ أظنها كانت تفكّر في الموت كثيرًا وتشــغلها فكرة الموت.

– بلى، إنها رائعة. أظنها ر سمتها حين ا شتدّ عليها مر ضها وكانت تحاول مواجهة فكرة الموت. أتدرين أن الموت في الثقافة المكسيكية القديمة يرمز إلى الحياة؟

– حقًا؟! إنّ هذا ليزيد من إعجابي بها...إذن، كانت تحاول مواجهة آلامها والموت المُنتَظر بالتفكير في الحياة الجديدة الأجمل (الخضراء) التي ستحيط بها.

– نعم، أتصوّر أنّ هذا ما قصدته تماما.

كلمة «الموت» التي كرّر نا ها في تلك اللحظات القصــيرة الفائتة، تقع على را ما كالصــاعقة. تقلب حالها ومزاجها ونظرتها فجأة رأسًــا على عقب. إنّ لراما نظرة خاصــة لا تُبديها إلا إذا ذُكِر الموت وم شتقّاته. أظن أنني الآن صرت أفهم تلك النظرة الشاردة التي تذوب فيها بين الحين والحين. إنها علامة السبح في فكرة الموت.

أحاول أن أقطع الصمت الغريب الذي أخشى أن تبتعد راما معه حيث نقطة اللا عودة المظلمة.

- أنا أحب لوحة «Me and My Doll» («أنا ودميتي») كثيرًا أيضًا.

- أي؟

- اللوحة التي تظهر فيها فريدة جالسة إلى جانب دميتها على سرير في غرفة نوم.

- نعم، نعم، تذكّرتها...جميلة كتلك. أليست هذه ضمن ما رسمته معبّرةً عن حزنها لصعوبة أن تُصبح أمًّا؟

- بلى.

بينما اقتربنا من المطار، وانحدرنا باتجاه صالة المغادرة تناقشنا في تفاصيل اللوحة: وضع الجلوس، السرير، الدُمية، الغرفة، نظرة فريدة، السيجارة، الأذرع المنغلقة، الألوان، الخطوط، إلخ؛ حتى وصلنا أخيرًا إلى بوّابة المطار.

أعجبني انتباه راما لتفاصيل كثيرة في اللوحة والتعليق عليها بدقّة فائقة حتى إن افتقر حديثها إلى مصطلحات فنيّة بعينها. إنها تصف كل نظريات الألوان والرسم بألفاظ بسيطة وعفويّة، وهذا ما يُضفي بلاغةً في حديثها تمامًا. أحيانًا تُنسينا الأسماء الكبيرة والنظريات والتحليلات المعقّدة، جوهر الأشياء وحقيقتها. فتتحوّل كل المجلّدات التحليلية «العميقة» إلى مجرد أتربة تتراكم على أسطح الأشياء الثمينة فتُطفيء من لمعتها وتحجب بريقها. ولا يحتاج الأمر إلا ليد طفل صغيرعفوي وجريء، على سجيّته، ليقف أمامها ويزيح التراب المتراكم فوقها فيعود (المعنى) يلتمع ويبرق...«كما لو أنّ العالم قد خرج توًّا من بيضته الكونية الأولى».

وراما هي هذا الطفل. والنفس تتوق إلى هذا الطفل.

سرنا سويًا إلى الداخل وحين أزف آذان الوداع، تسمّرنا قليلًا. لا أنا أريد المغادرة، ولا راما تريد العودة.

- سأشتاق إليكِ كثيرًا يا ليال. لا تنسي اتّفاقنا...نملأ كل يوم جداول الأفكار والمشاعر ونُرسل إلى بعضنا البعض رسائل بريدية أو صوتية أو...«أيْ إِشي»...المهم أن نبقى على اتّصال وأن نكون مخبأ أسرار بعضنا. ارسلي لي أي خاطر يجول في رأسك،

وأنا سأفعل الشيء نفسه. ولن أوصيكِ على بديعة! وإخوتها...المعرض المعرض يا ليال! لا يوقفك خوف أو تردّد. ولا تخافي مواجهة مريم أو سارة أو مايا أو أي إنسان. لو أنهم يحبّونك حقًا لن يتركوك. لو فعلوا، انئ عنهم دون أدنى شعور بذنب. انشغلي بنفسك. بمعرضك، وبتنمية ذاتك والتعرّف على نفسك من الداخل. من يحبك سيتفهّم و سيبقى. وأنا لن أتركك...أعدك.

ثم تعانقنا محاولين مقاومة الدموع بابتسامات عنيدة تُصرعلى استحضارغد أجمل.

– سأفعل...أعدك. وأنتِ أيضًا يا راما. إذا انتابتك تلك النوبات مجدّدًا، تحدّثي إليّ فورًا. ارسلي كل الأفكار السارحة في ذهنك دون تردّد. ومتى شعرت برغبة في زيارة المقابر أخبريني أيًا كانت الساعة...سأقرأ رسائلك وسنكون معًا دومًا. وانتبهي لزهورك وافسحي لها مجالًا كي تأخذ مكان الخوف في قلبك. إنها طيّبة...ومتى تسلّل اليأس إليك، قفي أمام عبّادات الشمس وتذكّري أنها انعكاسك. لأنك الأمل. أنت الأمل الذي حطّ عليّ هنا و سأحمله معي إلى القاهرة وأنسّقه عودًا عودًا إلى جانب سريري ومنضدتي. أنت الأمل فلا يتسلّل إليك يأس خبيث. والكتاب! لا تدعي حلم الكتاب مهما صار. سأكون في القاهرة أحضّر لمعرضي، وتكونين أنت هنا تنجزين سطور كتابك الذي تحلمين بنشره. ستفعلين يا راما...عديني.

– أعدك.

جررتُ حقيبتي ولوحتي وتبعني الثلاثي الصـــدوق. نقترب من الصـــالة المؤدية إلى الطائرة أكثر فأكثر. أخذ خيال راما يتقلّص من خلفنا حتى اختفى تماما وســط الزحام وتباعد المســافات. وحين أيقنت أنه لم يعد ممكنًا أن أرى لراما خيالًا أو كســرَ ظلّ، ثبّتُّ عينيّ إلى الأمام وأسرعتُ الخطو.

بيتهوفن يحمل بديعة التي تخبره بحماس عمّا تودّ أن تفعله حين نعود إلى غرفتنا في القاهرة. أما فان جوخ، فيعدّل من وضـع حامله الثقيل على كتفه وينظر إلى اللوحة التي أنجزها في شــرفة الســيدة آنا طوال فترة إقامتنا في منزلها. ينظر إلى عبّادات الشــمس الزاهية ويفكّر. تُرى...إلى أين سرح ذهنك يا فينسينت؟

وأنا أدمدم تهوينًا على نفسي الفراقَ وهولَ العودة إلى الضباع:

سافر تجد عوضـــاً عمـــن   وانصـب فإن لذيذ العيش في

إني رأيـــت وقـــوف المـــاء   إن ســاح طاب وإن لم يجر لم

والأســد لولا فراق الأرض ما   والسـهم لولا فراق القوس لم

والشــمس لو وقفت في الفلك   لملها الناس من عجم ومـــن

والتبر كالترب ملقـــى فـــي   والعود في أرضـــه نوع من

.. الْجُزْءُ الثَّالِثُ

43..لَكِنّهُ فَعَلَ

عُدتُ إلى القاهرة.

الحماس والفرح الذي رجعت بهما قد بدآ يتلاشان شيئًا فشيئا. إنّ الأماكن والوجوه والأشياء التي رافقتنا في الماضي – إن نحن عُدنا نتلمّس ملامحها وزواياها من جديد – تُعيد معها ذكريات مشاعر معيّنة تستطيع أن تُعكّر سكينةَ وسعادة أكثر الأوقات سكينةً وسعادة.

مع دخولي غرفتي بحقائب السفر وبصحبة رفاقي، شعرت بقلبي ينبض بسرعة. آخر عهدي بهذا المكان وهذا السرير وهذه الطاولة وتلك، هو الخوف والانكماش والظمأ للعُزلة. وكأن ذات المشاعر تلك عادت تطاردني ما إن رأتني أجدّد سكوني إلى المكان وجدرانه.

تعرف الذكرياتُ كيف لا تُهدرُ أوقاتَها.

في الليلة الأولى عقب وصولي، نصبت الحامل واللوحة والألوان، ودفعت بنفسي دفعًا للرسم. لم أستطع. في الليلة التي تلتها، لم أستطع أيضًا. ولا في الليلة التالية. ولا التالية. قضيت الأيام الأولى أُكثر من النوم: ما أنفك أصحو حتى أزج بنفسي إلى قسط آخر من النوم العميق أو غير العميق. أرى كوابيس يسبقها ويتلوها كوابيس. أصحو مفزوعة أتصبّب عرقًا. أذكر بعضها ولا أذكر بعضها.

رأيتني أحمل طفلة رضيعة تكاد تُزهق روحها من فرط البكاء والعويل. ليست ابنتي ولا أعلم من تكون. لكنني أحملها وأهدهدها وأحاول تهدئتها قدر المستطاع.

ثم رأيتني أركض في طريق غريب مظلم تكثر فيه الأخشاب والتعاريج. شخصٌ مجهول يطاردني. ثم أرى راما في منتصف الطريق تُمسك بيدي ونركض سويًا لا أعلم إلى أين.

ورأيت شخصًا – مجهولًا أيضًا – يُعطيني كأسًا أُمسكه وأشرب. فإذ به شراب مُرّ كريه أنزعج من مذاقه أشد الانزعاج فأرمي الكأس وأروح.

عادت الكوابيس.

وعاد إيقاع الحروب إلى القلب... ففي عصر رابع أيام عودتي، بينما جلست أمام لوحة بديعة أحاول استئنافها، تلقّيت رسالة جديدة من سارة:

« لم تعتنِ حتى بالرد على رســالتي. وها قد مضــى أكثر من شــهرين ولم أتلقَّ منك أي ر سائل أو مبرّرات أو اعتذارات. شهران يا ليال؟! صرت أرتاب حقيقة في جديّة صداقتنا هذه. إنها لصــداقة مريضــة حقا. أحتاجك كثيرًا ولا أجدك. تدفعينني دفعًا إلى اعتبارك غير موجودة».

نظرت إلى الرســالة. قرأتها مرارًا. كل شــيء عاد كما كان: ســارة، والغرفة، والرســائل، والخوف، والحاجة إلى الابتعاد أكثر وأكثر.

نظرت إلى بديعة. كانت تقف تحت النافذة حاملةً الوســادة ذات عبّادات الشــمس الأصــفر التي اشــتريناها من الKeukenhof يوم رأيت راما للمرّة الثانية. تنظر بديعة إلى الو سادة وتتحسّسها ثم تذهب بها إلى فان جوخ وتضعها بين ساقيه المتربعتين أمام حامل لوحاته وتنام.

راما...أين ذهب كل الحماس؟ أين ذهب أثر اللقاء وأثر الصــداقة الجديدة؟ أين ذهب الخلاص الساطع من صناديق زهورك؟

الآن أفهم كيف لفتاة فطنة ومرحة وعلى دراية بدهاليز العلوم النفسية و بهذا الCBTوبأسرار الهلع وفنونه القتالية، أن تذهب – مع هذه المعرفة كلها– إلى حالات يأس وتعاسة وكآبة من جديد. كنت أتساءل وأنا أصغي إليها: «كيف لها أن (تعلم) ثم لا (تقدر)؟». الآن أفهم. يبدو أنّ طريق محاربة قوى الخوف والأفكار المضطربة الراسخة في الذهن سيكون طويلًا. أطول مما ظننت.

لكن ماذا بوسع الفهم أن يفعل والروح تغلي والقلب مضطرب والظبية المذعورة تشطح كالمجنونة في كل الغابة؟ تصادف أشجارًا وعصافيرًا وبركا وسُحُبا، ولا تراها كلها من شدّة هلعها.

حوّلت جهازي إلى «صامت» واستلقيت على سريري أحدّق بعينيّ إلى سقف الغرفة الأبيض العالي. ليس في علوّ السماء طبعًا، لكنه عالٍ. وثابت. وأحمق. ويصيب النفس بنوع من الضجر الذي يتحوّل بسرعة إلى شيئ من إدمان النظر المُضجِر. ظللت أنتقل بين فكرتين لا ثالث لهما حتى أنني نسيت تقريبًا رسالة سارة التي لم يمض على قراءتي لها أكثر من خمس دقائق: «سأموت بنوبة قلبية...لا، إنها نوبة هلع يا ليال... بل سأموت، سأموت!....بل إنها نوبة هلع عابرة لا أكثر...لكن ماذا إن مِتّ؟ ماذا إن كانت هذه المرّة، نوبة قلبية حقيقية؟»

بعد عشـــرة دقائق، انجلى الشـــعور وذاب الهلع اللعين الذي لا يوقّر كبيرًا ولا يرحم صغيرًا ولا يرأف بحال مُتعب حزين، وتركني للشعور بالوحدة والألم و«اللا شيء». هذا «اللا شيء» الذي صار صديقي.

وجدتني مع اشتداد الألم أحمل جهاز المحمول وأكتب:

«راما...كنت أتمنّى أن تكون أوّل رسـائلي إليكِ رسـالة مبهجة أملأها بالتفاؤل والأمل اللذين يليقان بك. لكنني...تعيسة. حقا تعيسة. أستحي أن أُخبرك عن سبب تعاستي الآن فهو جد تافه وأحمق. لكنني حزينة ولا أرى للحياة أي معنى يحفّزني على مواصلة السعي في طرقها الطويلة المُعرقلة تلك.

« سأخبرك على أي حال، أما وأنّك أصبحت الآن مرآتي التي أرى فيها نفسي وتتسنّى لي من خلالها فرصة أن أحدّثها بلا خوف.

«أتذكرين سارة؟ صديقتي التي سبق وأن حكيت لك عنها. بعثت إليّ برسالة فجأة منذ قليل. مضمونها الآتي: (.......).

«لم أعد أتحمّل يا راما. ماذا أفعل؟ أريد الفرار. أريد الذهاب بلا رجعة. لكن...إلى أين؟ أخيّب ظنّ أحبابي في دومًا. كنت ولا زلت ابنة مريضة، و صديقة مريضة...ما الفائدة منّي أنا؟ ماما على حق. أنا كرسي. لماذا العيش يا راما؟ لماذا؟ وكل شيء في زوال وكل المباني توشك أن تنهدم».

«عزيزتي ليال...ا شتقت إليك كثيرًا. أرجوك لا تعتذري عن مضمون رسالتك. ألم نَعِد بعضنا البعض بتبادل مشاعرنا الصادقة أولًا بأول؟ أيًا كانت؟ بل إنني سعيدة جدا برسالتك، على الرغم من أسفي وضيقي مما يؤرّقك الآن بسبب هذه الرسالة الغبيّة. لكن...لا بأس. لم نعتقد أن الأمر سيكون هيّنًا على كل حال. لو كان هيّنًا لاجتزناه منذ زمن طويل وحدنا ولما التقينا يومًا عند المقابر. بل أننا صارحنا أنفسنا صادقين بأن الأمر سيكون شاقًّا ومع هذا سنُقدم عليه معا....سنفعل!

«أولًا، كفاكِ جلدًا للذات يا ليال. لست «كرسي».لا ينال منك هذا الابتزاز اللفظي. لست «كرسي» على الإطلاق! مَنْ قابلتها وتحدّثت إليها وأخبرتني عن فكرة معرضها المدهشة، وعن لوحة الفتاة الصغيرة، وعن ولعها بفان جوخ، ومن أوقفتني أمام صندوق عبّاد الشمس لتخبرني بلطفها أنها مرآتي، بالتأكيد ليست «كرسي».

«أما عن رسالة سارة، فلا تجعلك تظنّين بنفسك ما ليس فيكِ يا عزيزتي. لم تخيّبي ظنها يومًا. إنها هي من لم تفهم وضعك وأسباب تقلّباتك الحقيقية. لذا، أرجوكِ يا ليال، أرجوكِ...لا تتحاشيها. لا تبتعدي وتتفادي الردّ هذه المرّة. لا تهربي. أجيبي رسالتها. لا تعتذري فأنتِ لست مذنبة. إنما، اشرحي لها خوفك. اشرحي لها كيف أن سلوكها يؤرقك ويُبعدك عنها. أخبريها عن نوبات هلعك. أخبريها أن تجاهلها لكِ في فترة عملك بالشركة قد أحدث في نفسك خوفًا أكبر ونفورًا بالغًا منها. لا تخافي. كفاكِ خوفًا يا ليال. أخبريها...بكل شيء. بكل ما بِتّ تحملينه بداخلك من مشاعر تجاهها. بعدها، ينبغي عليها – كصديقة – أن تفهم. إن لم تفعل، فاعلمي أنها هي من خيّبت ظنّك كصديقة لا أنتِ».

بعد رسالة راما، هدأت نفسي قليلًا. جلست إلى جانب بديعة وفان جوخ على أرض الغرفة، وبيتوفن يتجوّل حولنا شاردًا مع الEroica. كانت (مارشات الجنازة) تُنذر بالأفول حين سمعتني أصيح: «مات الخوف». ومع بدء حركة (البعث) أخذت أكتب لسارة رسالة طويلة، شاملة، مستوفية، أشرح لها فيها كل شيءبالتفصيل:

معاناتي مع صحّتي الذهنية، وهلعي الغير مبرّر من التواصل «البسيط» مع الناس تحت ظروف شتّى لا زلت بصدد فهمها. أخبرتها عن سلوكها الذي يجعل منها ضبعًا أنفر منه وأتحاشاه. لا أعلم من أين أتتني كل هذه الجرأة والقدرة على الاستطراد في وصف مشاعري ومقارنتها بأمثلة ووقائع بعينها حتى تلك التي كنت أظن أني نسيتها؟! أظنه فعل الأبواق والكمنجات والطبول.

ومع اقتراب حركة (البعث) من المقطع النهائي(finale)، كنت قد أتممت كتابة الرسالة وأرسلتها فعلًا. كتبت الرسالة كأني لن أُرسلها أبدًا، ثم أرسلتها كأن الحياة تنتهي بعدها.مددت ساقيّ أمامي وألقيت ذراعيّ إلى جانبَي خصري كمحارب مستكين أوى إلى ظل شجرة بعد معركة عنيفة خاضها وحده. منهكًا. يلتقط أنفاسه. يمسح عرقه المتصبّب. ويفكّر في فعله البطولي الخطير الذي لم يتخيّل أبدًا أن في وسعه الإقدام عليه يومًا ما.

لكنه فَعَلَ!

44..المُسْيُوهْ

كم اشتقت إليك يا بديعة!

أبحرت خلال رقبتك وكتفيك وجلبابك لفترة لا بأس بها، حتى أني أشعر الآن بشغف حقيقي تجاه فكرة العودة إلى وجهك بعد طول غياب.

أجلب لنفسي فرشاة نظيفة عريضة أطيرُ بها عاليًا من الذقن إلى الأنف، إلى العينين، إلى الجبهة، حتى أهبط بها أخيرًا بسلام على خصلة من خصلات شعر بديعة.

لم أكن قد مضيت خلال الشعر إلى ماهو أبعد من رسم حدوده الخارجية وأُسس تمهيدية لمساحات الظل والنور عليه. لم يكن تأمّلًا بمعناه الحقيقي، إنما مرور كرام عابر. أما الآن، فإنه ليحين وقت الاستماع إلى حكايات هذا الشعر الأسود الكثيف عن كثب.

قلت «أسود»؟ نعم، إنه كذلك. وإنه ليشتدّ سوادًا مع التأمّل. إن لم يكن الأسودُ أسود كهذا الأسود الذي أراه، فإنه لم يبِت أسود ذات يوم.

ثم، كم شُعَيرة مستقرّة في رأس بديعة؟ لا أدري. شعيرات كثيرة لا حصر لها؛ كالنجوم في السماوات العُلا، وقطرات المياه في الأبحر والمحيطات.

ثَمّ أشـياءٌ في الحياة لا نُدركها. نقف عاجزين مكتوفي الأيدي أمام كثرة أرقامها وتفاصيلها.

لكن، لا زال بإمكاننا أن نرى تأثير تلك الأشياء المركّبة المعقّدة في النهاية، فلا يحجب عنّا استحالةُ الحصر، الإحساسَ بالألوان والملامس والمساحات.

لن أحاول إذن حصر شعيراتك واحدة واحدة يا صغيرتي...يكفيني أن أترجم إلى اللوحة ما أراه من مساحات وكُتَل مظلمة ومضيئة عليه في مجملها. وخصال متطايرة وغير منتظمة هنا وهناك. وملمس خشن، جاف، ومتشابك.

ينبغي عليّ أن أعترف بأنه يُزعجني كثيرًا كوني لا أستطيع إحصاء أشياء معيّنة بالنظر المخلص إليها. لكنه يُعجبني – كثيرًا أيضًا – أنني أستطيع بالفرشاة أن أتحايل على هذا العجز الإنساني المتواضع بترجمة (انطباع) لا (تفاصيل دقيقة). فلا أترجم صورة تفصيلية كالكاميرا، إنما أنقل للناظر إحساسًا معيّنًا يفي بالغرض ويُشعره بالمعنى والأحجام والأعداد.

ألهذا أحب المدرسة الانطباعيّة كثيرًا؟ لم أكن فكّرت في الأمر من قبل. لكنني أظن ذلك الآن والفكرة تحوطني من كل اتجاه مضفورة بخصلات شعر بديعة. أحب تحايل الفرشاة على الحركة السريعة الغير مستقرّة كما هو الحال في المدرسة الانطباعية.

الانطباع يُعطي الأشـياء معنى. أَبِالانتقاص من الأشـياء، يتأكّد معناها؟ كيف؟ عجيب! جميل...

وربما لهذا السبب تحديدًا، قد يكون (الانطباع) عن الأ شياء أهم من الأ شياء ذاتها، في أحيان كثيرة. الانطباع يأخذنا من التفاصيل المجرّدة إلى الإحساس المجرّد. إنه تحدّ للزمن ولتغيير الألوان. إنه ثورة وإصـرار على ترجمة (حركة) داخل هذا الإطار (الثابت) المحدود الثنائي الأبعاد المُسمّى بالكانفس. إنه «بطولة». إنه Eroica!

أؤكّد على مساحات الظل والنور في شعر بديعة بالفر شاة. تتخلّلني سيمفونية بيتهوفن الثالثة كما تتخلّل شـعر بديعة. تعلو الأبواق وتعلو وتعلو! والطبول والتشـيللو والكونترباص...والكمنجات تعلو وتقوى كأنها في سـباق مع الطبول والأبواق، تأبى أن تستسـلم لقوّتها فتتعافى وتنطلق وتدفع نفسـها بقوّة نحو السـماء حيث يدوي صـوتها فيتضـاعف؛ كأن السـماء قرّرت فجأة أن تمدّها بجنود خفيّة تعينها على اجتياز المعركة. إنه النور...يا كل المساحات المضيئة، شكرًا.

وكأن بالنصـــر، هدأت الكمنجات بعد معركتها مع الآلات العفيّة؛السُــحُب رائقات وللســـماء زُرقة كريمة. أنظر خلالها. أتأمّل الســـحاب. وأدعو بديعة أن تتأمّل معي. نرى ســحابًا أقول عنه: «عروس بحر». ونرى آخر تقول عنه بديعة: «شــجرة». ونرى ســحابتين متشــابكتين كأنهما أم تحتضــن رأس صــغيرها. ونرى ســحابًا...ما هذا؟ إنه...رأس وجه أعرفه! إنه وجه قفز إلى ذهني فجأة...وجه ال«monsieur»– عرّاب الانطباعية و«الحركة».

***

جلس ال«monsieur» أمام جثّة زوجته الراقدة على السرير قبالته. ما إن تأكّد أنها فارقت الحياة، حتى همّ نا صبًا لوحة بيضاء جديدة، وأخذ يضرب بفر شاته «طاخ طاخ»، ينقل إلى الكانفس وجه زوجته وحبيبته الميّتة بســـرعة، قبل الشـــروع في أخذ أي من الإجراءات اللازمة للدفن.

واقعة لن تنســـاها كليو. فها هو كتابها يضـــم من بين ما يضـــم، لوحة الmonsieur ، Claude Monet (كلود مونيت)، لزوجته: Camille (كامي) وهي على فراش الموت. لوحة شـــديدة الكآبة يغلب عليها الأزرق، ويُرى وجه كامي من وســـطها محاطًا بضـــماد أبيض قد نال حظّه هو الآخر من الزُرقة الطاغية. والأسود حاضر بقوّة،

وملامح كامي ضــبابية خالية من التفاصــيل والألوان، كأنها جزء من المحيط الأزرق الكئيب؛ لا تعلو عليه، ولا تبرز من خلاله. بل أنّك بالكاد ترى وجهها. لقد رحلت إلى عالم آخر، فلم يعد يجدر بها أن تتفاعل مع معطيات الظل والنور كما يتفاعل معها الأحياء؛ إنها شبح. مجرّد شبح.

انبهار مونيت بنظريات الظل والنور وبتفاعلهما مع عنصــر الحركة، وبتأثيرهما على الألوان، كان دائمًا من بواعث إلهامي.

إنّ الثورة الحقيقية – كفكرة بِكر– لا تأخذ شــكلًا أحاديّا لا يقبل التغيير. لكنها تتجلّى آخذةً أشكالًا شتّى. ثار بيتهوفن بنوتاته الموسيقية، بتحدّيه لتقلّباته المزاجيّة الحادّة وفقدانه لســمعه، فكانت الEroica. وثار فان جوخ بتحدّيه لنوباته الهســتيريّة ونوبات صــرعه وهلاوسه، بزجّه للأصفر المُبهج في لوحاته، فكان «عبّاد الشمس له هو». وثار مونيت على الزمان الذي لا يُقهَر ولا يُقاوَم، وعلى «الحركة» التي لا تتمهّل ولا تُمهلنا الوقت الكافي لمواكبة خطواتها، وتتركنا نلهث ورائها كالمعتوهين، فكانت المدرســة الانطباعيّة التي قادها مونيت بنفســه في باريس، متأثّرًا بEduard Manet (إدوارد مانيت)، ومتطلّعًا إلى ما هو أبعد مما وصل إليه مانيت في هذا الشأن.

يقف مونيت بين القطارات منتظرًا بشـغف، لا قدوم حبيبته كامي، إنما دخانَ إشـارات الإنذار المنبعث من القطارات. يقف بلوحته وألوانه على أتمّ الاسـتعداد. حتى إذا انطلق الدخان، ضرب بفرشاته سريعًا ليحاكي بها تأثير حركة الدخان المُنبعث المتقلّب.

ثم ينصب أربع أو خمس لوحات جنبًا إلى جنب في حشيش البستان الواسع، متأمّلًا تغيير الألوان بتغيير الأوقات: من فجر، إلى ظهر، إلى عصـر، إلى مغرب. ينتقل بين اللوحات مع تغيير الأوقات كالمايسترو و سط العازفين والآلات؛ فتلك شجرةُ الصُبحِ...وها هي ذي حين تغربُ الشمس...وحين يجنّ الليل...نفس الشجرة في أوقات مختلفة،وكأنها جديدة في كل مرّة.

ثورة مونيت كانت في إ صراره على محاكاة ما لم يحاكِه أ سلافه من قبل في ستوديوهاتهم الساكنة، من تمايل أوراق وأغصان الأ شجار، ومار شات السُحُب في الأجواء، وانسجام الراقصـين والراقصـات في البارات، وأصـوات أحاديث وضـحكات «المُسـيوهات» و«المدموزيلات» في الشوارع والمقاهي.

أذكره كلود مونيت... كلما اســتوقفتني «حركة» وددت التحايل عليها ومحاكاتها رغم أنفها ورغم أنف «الزمان» الذي يقلّبها بين يديه يمينًا ويســارًا بكثير من اللامبالاة، أذكره كلود مونيت. فها هو ذا يقفز إلى رأسي وتقفز لوحة كامي على فراشها، بينما أشرع في نسج «انطباعي» عن تفاصيل شعر بديعة.

للشــعر حركة تُطلقها صــفاتٌ من ملمس، وكثافة، وألوان. حركة مركّبة من حركات أصغر تكوّنها خصلات شعر مجتمعة.

شعرٌ كثيف. مجعّد أشد تجعيدًا. أسود أشد سوادًا. تفاصيل خصلاته وشعيراته لا تُعد ولا تُحصى...شعر بديعة.

كم شــعيرة لديكِ أنتِ يا صــغيرة؟ لن أعرف أبدًا. أنا عاجزة. لكن...كيف العجز والEroicaيقف دويها عند كل ركن من أركان الغرفة، ولوحة كامي أتت لتزورونا على حين غرّة؟ لا.

أتحدّى الحركة الصامتة في صورة بديعة بضربات انطباعيّة داكنة توحي بحركة شعرها. إنها حركة شديدة التعاريج وعدم الانتظام والخشونة. وإنني لأشعر بملمسها الخشن على خدّي الأيسر بالأخص (لسبب لا أعلمه...حقًا لا أعلمه)،

كما أشم رائحة أتربة وحرارة (هل للحرارة رائحة؟ أظن هذا) منبعثة منه. وإنه – لسبب ما أيضًا – ليُزعجني تشتّت نظري إلى شعرها كأنما أحاول النظر مباشرةً باتجّاه الشمس وأشعّتها الحارقة.

شعر بديعة من أكثر ملامحها حركةً. لذا، أشعر بخصوصيّة وصعوبة معيّنة تجاهه أثناء تأمّله لاهثةً وراء خصلاتها الكثيرة السريعة.

وأخيرًا أفرغ من تتّبع إيقاع حركة شعر الصغيرة. أُرجع الفرشاة إلى كوبها وأستبدل بصورة بديعة على الآي باد صورة للوحة كامي لمونيت. كأن الإيقاع يُشبه الإيقاع؟ كم يبدو لي الأمر كذلك.

وكم يبدو لي أيضًا تشابه الإيقاعين مع إيقاع ثالث: حركة التحوّل في قلبي من إيقاع الظبية المذعورة – شيئًا فشيئًا – إلى إيقاع قلب جُندٍ محارب. إنهما إيقاعان سريعان، لكن شتّان بين ما في قلب الظبية الفارّة من سرعة، وبين سرعة خفقان قلب الجندي وهو يُقدم على النيل من العدو...وجهًا لوجه!

ربما تكون لحظة عابرة، كلحظات كثيرة عابرة تمرّ بنا. لكنني أتمنّى أن ينتصر الجندي على الظبية ويحتل مكانها في قلبي إلى الأبد.

الماكرة الصغيرة تلاحظ صورة جديدة غير وجهها على الآي باد فتأتيني ركضًا. أسمع خطواتها المُسرعة تقترب فأعلم هذا على الفور. وأبتسم منتظرةً وابلًا جديدًا من الأسئلة أو الحكايات.

تُمسِــك بديعة بالآي باد وتأخذه من يدي ثم تحوّله نحوها. تنظر إلى لوحة كامي بتمعّن وتأخذ تعد الأسئلة في بالها على الفور.

- ايه ده يا ليال؟

- دِه رسمة يا بديعة.

- هو اللي رسمها؟ (تشير إلى فان جوخ).

- لا، دَه واحد تاني، اسمه (كلود مونيت).

- دَه خواجة برضه؟ من البلد اللي كنّا فيها؟

- خواجة آه. بس من بلد تانية جنب البلد اللي كنّا فيها. اسمها فرنسا. عارفاها؟

- أيوه...ما هم الفرنساويين دول كانوا عندنا برضه في إسكندرية قبل الإنجليز.عَم عبد العال جوز خالتي ســكينة كان بيحكي لأبويا عنهم بعد ما رجع مِ الســلطة (أي الخدمة في الحرب).

أخذت بديعة تسترسل في الحكايات الواحدة تلو الأخرى. تُضفر قصصًا وتفاصيلًا وأحداثًا لا علاقة للواحدة منها بالأخرى. لكنها كانت في حالة تحمّس شديد عبّرت عنه في شكل الحكايات التي ترويها. من حديث إلى حديث، ومن رواية إلى رواية؛ لا تُنهي أيًّا مما بدأته البتّة. حتى أنني لم أنتبه كيف انجرفتُ وراءها إلى حديث طويل عن حَشَرَة غريبة وجدتها ذات يوم بين صخور الشاطئ.

- كان ليها جناحات. لا يا ربّي! ماكانش ليها جناحات...مش فاكرة أوي. بس كان عندها رجلين كتيرة أوي! وطويلة أوي أوي! وكانت سودا وكبيرة وتخوّف. كان نفسي نمسكوها ونشوف ايه اللي حيجرى. بس أمي جَت هي وخالتي وأخدوني ع السوق.

في تلك الأثناء، كنت بدأت أنتبه إلى بيتهوفن الذي كان يسير إلى جانبنا ببطء. عندما لاحَظَت بديعة نظرات الانتباه الشديد عليّ، تحوّل انتباهها الهَش سريع التأثّر إليه أيضًا. عدّلت مجلسها وجاءت تستقر بين ساقيّ وكلانا ننظر إلى المايسترو أمامنا بترقّب تام.

بدأ حال بيتهوفن يهدأ بشكل ملحوظ. كان أثناء الEroicaمتأهّبًا، سريع الانفعال، الغضب واضح على وجهه وفي تعابير عينيه. وهنٌ مكسو بعنف. كانت خطواته أثناء إقامتنا في أمستردام وحتى عودتنا، سريعة وقويّة ومسموعة للجميع.

أما الآن، فيسير بهدوء غريب بين آلاته بعدما انتهت الEroica. يمسح بمنديل ذهبي (لا أعلم من أين جاء به) آلاته منظّفًا لها واحدةً واحدة، متحاشيًا أن يمسح أكفّ بديعة الملوّنة التي كانت قد زيّنتهم بها سابقًا.

الآن فقط ينتبه فان جوخ إلى ما سبقناه أنا ثم بديعة في الانتباه له. ينظر إلى بيتهوفن وتملأ عينيه أسئلة كثيرة تُشبه التي تملأ عينينا أنا وبديعة. ثم ينظر إلينا لعلّه يجد عندنا إجابة، لكننا مثله، حائرتان.

ماذا يحدث؟ ما الأمر؟ ما خطبه المايسترو الطيّب؟

بدا لنا جميعًا أنّه يعدّ نفسه للرحيل. ليس من تفسير آخر للحالة التي هو عليها والتي شدّت انتباهنا الخالص إليه.

لكن...حقًا؟ أتتركنا يا صديقنا العزيز؟

45..رَامَا وَلَيَالْ

«عزيزتي ليال، كم اشـتقت إليكِ...كنت في أمَسّ الحاجة إليكِ بالأمس. حاولت الإمساك بهاتفي لأتّصل بكِ أو أُرسل إليك لكنني كنت في حالة سيئة جدا. البارحة جاءتني نوبة جديدة. أظنّها اسـتمرّت قرابة الخمس عشـرة دقيقة. لم أنتبه لأفكاري وهي تسـوقني إليها رويدًا رويدا، فاستسلمت بسرعة للهلع دون أن أشعر (....)».

«راما...أتوق لرؤيتك والجلوس معك وجهًا لوجه نحتسـي القهوة ونتبادل الأخبار وسـط الطبيعة الخلّابة. لكن لا بأس يا عزيزتي. كل هذا سـيمر. أنت من تؤكدين على هذا باستمرار. وأنا أصدّقك وأكرّر على مسامعك: سَيَمُرّ. (...)».

«(...) لاحظت شيئًا غريبًا جدا يا ليال! يعني...أقصد...ليس غريبًا، وقد يكون بديهيًا أيضًا، إنما لم أكن لاحظت ارتباط الأمرين ببعضهما من قبل: بينما أخذت أسجّل بعضًا من أفكاري في الجدول منذ يومين، انتبهت لأوّل مرّة كيف أن معظم أفكاري عن الموت مبعثها الأحاديث النبوية ضعيفة الصحّة والسند، عن سكرات الموت وعذاب القبر

والأفاعي الغليظة التي تطوّق الرقاب، وغيرها، مما أصابني بالكثير من الهلع في صغري. كان والداي يكثران من الإتيان بكتب ومجلّدات ضخمة أو حتى كُتيّبات صغيرة، عن عذاب القبور. هذا كله علاوة على الحكايات الغريبة التي كنت أسمعها في جلسات دين كانت تجرّني ماما لها. هذه تروي للجلّاس كيف اضطرّت المُغسّلة أن تَقُص ملابس فتاة شابّة متوّفية عن جسدها، مدلّلة بهذا على «مشي الفتاة البطّال» وارتدائها لملابس «لا تليق». وهذه تروي لنا كيف كان وجه الشاب المتوفّى يُنذر بعذاب شديد قد تكون روحه تعايشه بسبب «الحشيش». وأخرى تعقد مقرانة بين جنازة أختين توفّيتا خلال سنتين: الأولى – على حد وصفها – «متديّنة». والأخرى – على حد زعمها – «غير متديّنة». فكان نعش الأولى «المتديّنة» «يطير طيرًا كأن الملائكة تحمله». أما الثانية، فكان حاملو نعشها «يتصبّبون عرقًا من ثقله ومن عناء رفعه».

«كنت في صغري، شديدة التأثّر والتفاعل مع مثل تلك الحكايات والأفكار الموروثة. لكنني أصبحت وأنا في طريقي نحو البلوغ والنضج، ومن خلال البحث الجاد في الأمر، أرى فيها الكثير من الخرافات والأوهام التي لا تمت للدين ولا للمنطق بأي صلة من قريب أو بعيد. ومع هذا، فإنني إلى الآن،

ومع يقيني أن كل هذا مجرّد «خرافات» الدين بريء منها، إلا أن ذات الصور تحضرني كلما احتلّتني أفكار الموت. لا زلت أرى الأفاعي الغليظة، والنيران المُرعبة، ولا زلت أشعر بجدران القبر الضيّق وهي تنغلق على الجثث فتكسّر ضلوعهم وتمزّق أحشائهم.

«لماذا تظنين تأتيني وتسيطر عليّ تلك الصور والأفكار بينما أكرّر لنفسي وأكرّر أنها خرافات، وأعلم علم اليقين فعلا أنها خرافات؟ أيمكن أن يحدث شيء كهذا يا ليال؟ أؤمن بشيء ثم أخشى نقيضه؟ (...)».

«(...) والله كدتُ أُطبق عليه يا راما وهو يقول: «نسيت أنّك هنا يا ليال! لم تتفوّهي بكلمة واحدة منذ بداية السهرة!». الناس حين يجودون علينا بتعليقات من هذا النوع، ماذا يظنون بأنفسهم؟ مُضحكون؟ «لُذاذ»؟ ما هذا السَخَف! (...)».

«(...) سيسعدك هذا الخبر يا ليال...بدأت في كتابة روايتي كما وعدتك. أظنها ستكون مزيجًا من الواقع والخيال إذ يتفاعل شخص حيّ مع أرواح أناس ميّتين يلقاهم عند المقابر فتدور بينهم نقاشات وتجري من ثمّ الأحداث. العجيب أنّ الكتابة عن الموت تريحني جدا يا ليال. لا أدري كيف. كأنني أتعافى بها شيئًا فشيئًا. كم أتمنّى...(...)».

«(...) أوه! كيف نسيت أن أخبرك بما جرى مع سارة منذ ذلك اليوم! هِهْ...لأخبرك بما قالته ردًّا على رسالتي الطويلة المفصّلة. أو أقول بما «لم تقله»؟ فنصّ رسالة ردّها جاء هكذا بالضبط: «طيّب». أتراها بهذا تكون أجابت رسالتي أم لا؟ (...)».

«(...) مع كل شحنة عبّادات شمس جديدة تأتيني أتذكّركِ يا ليال. لهذا، حين تأخّرت آخر شحنة، لا أدري...توجّستُ بعض الشيء...هل أنتِ بخير؟ ألن تزورين أمستردام قريبًا؟ (...)».

«(...) وجدتني أكتب: «أخشى الكلام أحيانًا لأنني أشعر أن نبرة صوتي منخفضة جدا وغير مسموعة. إن تحدّثت، لن يسمعني أحد. فألتزم الصمت». لم أكن أعي أبدا هيمنة هذه الفكرة على سلوكي (...)».

«(...) ليال! نَطَقَ عمّار اسمي لأوّل مرّة! كم أسعدني هذا...(سعادة لا تخلو من الخوف طبعًا، صرنا نألف هذا، أليس كذلك؟ هاها (...)».

«(...) أما عن معرضـــي، فقد بدأت في لوحة جديدة أنتقل بينها وبين لوحة بديعة على حد ســواء. أرســم أخًا شــابًا يحتضــن أخاه الرضــيع واقفًا بين أنقاض منزلهما بعد غارة صهيونية على غزّة. وعلى وجه الشاب ملامح ذُعر وألم شديدين. أظنهما قد فقدا والديهما في الغارة. (...)».

«(...) علينا أن نفهم هذا جيدًا يا ليال ونذكّر أنفســنا به دومًا: نحن لا نســعى إلى قتل الخوف أو التخلّص منه. نحن نســعى إلى إيجاد طرق لمجاورته بســلام. هذا كل ما في الأمر».

46..إِلَىْ سَارَة

لم تغضبني رسالة سارة ذات الكلمة الواحدة: «طيّب»، رغم كل ما بذلتُه من جهد للتعبير عن مشاعري لأوّل مرّة بهذه الدقّة وهذا الوضوح. بل ولم يدهشني ردّها كذلك ألا أنني أتفهّم تماما طبيعة تكوين سارة النفسي والعقلي. (أو أظنني بدأت أفهمه إلى حد كبير، في تقديري أنا على كل حال).

إنّ سارة، بكل ما تملكه من مشاعر رقيقة وصادقة، لا تمتلك هذا البُعد في تكوينها الفكري الذي يجعلها تقف وقوف الحائر المتسائل الباحث عن أسرار النفس البشرية. بل أنّ الأمر لا يحتاج إلى أي دهاء أو فطنة من جانبي لمعرفة هذا عنها، فسارة قالتها فعلًا صراحةً ذات يوم أخذنا نناقش فيه تحوّل سلوك أحد أصدقائنا المشتركين:

- أعتقد أن التحوّل المفاجئ هذا في سلوكه مدعاة حقيقي للتأمّل. تُرى ما الذي أصابه؟

- لا مدعاة يا ليال «ولا حاجة». الأمر بسيط. ألم تلاحظي معي أنّه بدأ يتخلّف عن صلاة الجماعة في المكتب منذ فترة؟ بل أنه لم يعد يترك مكتبه البتة ليصلّي وحده حتى. الأمر بالنسبة لي واضح كل الوضوح...تقرّب إلى الله تَصِح، ابتعد عن الله تمرض. «بس».

– طبعًا...لكن...ربما كان في الأمر ما لا نعرفه. يعني، ليست دائمًا الأمور بهذه البساطة والوضـــوح يا ســـارة. إنني أتحدّث عن ســـلوكه الطارئ الغريب من حيث ازدياد نوبات غ ضبه، والحزن الوا ضح عليه في معظم الأوقات. بل وأنه أ صبح يتغيّب كثيرًا عن العمل. وغير ذلك من أمور تعلمينها. ربما يحتاج إلى استشارة طبيب مُختص.

– مختص؟ أتعنين طبيب نفسي؟ لا، لا...مستحيل!

– وما المشكلة؟

– أنا أكرههم ولا أؤمن بهم أ-ب-دً-ا! ولا أؤمن بالطب النفسي هذا جُملةً وتفصيلًا. الأمر بسيط، صدّقيني. صلّ، صُم، تزكّى، ا ستغفر، سبّح. ما يدّعي البعض أنه مؤ ّشر إلى احتياج تدخّل «مختص»، هو حقيقةً (وأرجو أن لا يُزعجك كلامي) حُجَج لا أكثر. التقرّب إلى الله وحده كاف بأن يُذهب أي اكتئاب إن وُجد اكتئاب. ويُذهب القلق، إن شعر الإنسان بقلق. ويُذهب اليأس والضير وكل شيء، كل شيء! اللهم إلا تلك الأمراض الغريبة مثل الشيزوفرينيا وأمثالها. تلك فقط يمكنني تقبّل أن يلجأ أصحابها إلى طبيب نفسيّ.

– لكن اســـمحي لي يا ســـارة، حتى الاكتئاب منه ما هو «مرض» حقيقي له أســـباب بيولوجية من خلل في إفراز هورمونات أوإنزيمات أوسلسال من إشارات عصبية مضطربة، أثبت العلمُ أنه قد يورّث حتى بالجينات من جيل إلى جيل.

- مرض أو غير مرض. المُسمّى لا يهم. في النهاية إن تقرّب الإنسان من الله حقّ تقرّب، لذهب هذا كله. ذهب «المرض» إذا أراحكِ هذا التعبير أكثر، «يا ستّي».

- وهل يُعقل هذا يا سارة؟ أليس الله بمسبّب الأسباب؟ والطبيب، إن كان نفسي أو عضوي، هو في النهاية سبب الله على الأرض لإيجاد الدواء لكل داء. كان الداء إنفلوانزا، أو ورم حميد أو خبيث، أو التهاب رئوي، أو شيزوفرينيا، أو اكتئاب.

- لا أرجوك يا ليال! ما علاقة الأنفلونزا والأورام بالاكتئاب؟ هذا شيء وهذا شيء آخر.

- علاقة الإنفلونزا والأورام بالاكتئاب هي ذاتها علاقة الأنفلونزا بالأورام! أقصد أنّ الأمراض لا يجمعها ببعضها سوى كونها أمراضًا حقيقية تحتاج إلى علاج مناسب لها. لا تتشابه الأمراض إلا في كونها أمراضًا. وهذا يكفي.

- لا...ما زلت أرى أن نوع (المشاكل) النفسية مختلف، ويذهب بالتقرّب إلى الله لا غير.

- حسنًا. لكن إن صحّ هذا، فأرجوكِ...إن أُصبت ذات يوم بأي مرض عضوي، لا داعي لاستشارة طبيب «مختص» يُشخّص حالتك الصحيّة ويرشدك إلى سُبُل العلاج المناسب.

لا داعي إلى أي دواء أيًا كان. عليك فقط بالصلاة والدعاء والاستغفار. ولننبذ كل ألوان الطب جُملةً، ما رأيك؟...أرى هذا حلًّا و سطًّا عادلًا. وأ شدّد على كلمة «عادلًا» هذه. فلا مرضى الصحّة النفسية يبحثون عن دواء لدائهم، ولا مرضى الصحّة العضوية يبحثون عن دوائهم أيضًا. هكذا يكون المرضى متساوين...في الحقوق. اتفّقنا؟

حين أرسلت رسالتي الطويلة الأخيرة إلى سارة موضحةً الأمور التي بدأت أكتشفها عن نفسي لأوّل مرّة، وبدأت أعي منها مُسبّبات اضطراب صحّتي الذهنية المنعكس في سلوكي «الغريب» الواضـح، والمُزعج لسـارة، لم أكن آمل أن تفهمه سـارة. كنت أعرف أنها نهاية صـداقتنا بشـكل من الأشـكال. كانت بمثابة رسـائل الانتحار التي يتركها المنتحرون إلى أحبّائهم قبل الرحيل. إن الرسـائل من هذا النوع تحديدًا، لا تعود على مُرسـلها بأي عائد. فغالبًا حين تُقرَأ الر سائل هذه، يكون كاتبها قد رحل إلى عالم آخر بعيد كل البُعد عن ر سالته وقارئ رسالته. لكن هذا الشخص المنتحر اليائس، وهو على مشارف الموت، في لحظة ما، يبقى جزءٌ ما بداخله يودّ أن يزيح المتاعب والهموم من على صـدره ويريح نفسـه منها قبل القفز في الهاوية.

كنت أودُّ بالرسـالة أن أبوح بما أخذ يؤلمني ويعزلني عن أحبّائي لسـنوات عجاف طوال، لا أكثر. وكنت على يقين من أنها ستقطع آخر الحبال المو صولة بيني وبين سارة إلى الأبد،

لأنها غالبًا مثل صــوفي، لن تفهم. ولأنني «ســأرحل» أنا بعدها فورًا. لا رحيل المنتحر اليائس الكاره لنفسه قبل كرهه للحياة، إنما رحيل من يودّ أن «يطلق السنونو من صدره»؛ رحيل الباحث عن حريّته.

أعي تماما أنّ فعلًا كهذا هو شكل من أشكال الثورة التي قد لا تفهم سارة دوافعها، أو المغزى من اندلاعها «المفاجئ». لكنها ثورة واجبة مُســتَحَقّة، أدين بها لنفســي منذ زمن طويل.

اعذريني يا سارة. قد لا أعود. فأنا بصدد إعادة هيكلة ذاتية تحتاج إلى الكثير من التفهّم والدعم الخارجي الذي لن أجدهما في ربوعك أغلب الظنّ. لكن، من يدري...ربما يزورك في يوم من الأيام (وصــدقًا أتمنّى أن لا يزورك أبدًا) خوفٌ ليس كالخوف، فتُعيدين قراءة رسالتي من جديد. عندها ستدركين أنّك حينها، وحينها فقط، تقرأينها لأوّل مرّة.

وربما لا يحدث أبدًا، وأظل الفتاة «غريبة الأطوار» عجيبة الطبع. تحكي عنّي لذويكِ فتقولين: «كان لي صــديقة غريبة. تفعل كذا وكذا. لم أطق طبعها. ولم نعد صــديقتين». ربما أظل في هذا المكان المعيّن الذي يخصّصه بنو البشر للمنبوذين الغرباء من أمثالي، وتظلّين أنت في مكانك، تنظرين إلى العالم أمامك، وإلى المنبوذين من أمثالي، من خلال منظورك الضيّق الفقير.

47 ..ثِيُو وسَيِّدْ

«عزيزي ثيو،

(...) إن كنتُ بلا صـــداقتك، لكانوا دفعوني حتمًا إلى الانتحار، ولأنني جبان، يتوجّب عليّ فعل هذا. في هذه اللحظة، أتمنّى أن يُســمَح لنا بأن نتظاهر ضــد المجتمع للدفاع عن أنفسنا (...)».

ظل فان جوخ يطوف الغرفة ممسكًا برسالة من رسائله الكثيرة إلى أخيه. يدور بها حول لوحته الجديدة. لا أدري إن كان انتهي تمامًا من لوحة عبّادات الشــمس أم أنها لا زالت تنتظر بعض التعديلات أو الزيادات من جانبه. لكنه لم يعد ينظر إليها طويلًا كما أخذ يفعل على مدار الأيام الفائتة. فالآن أجده منشــغلًا بالرســالة المعيّنة تلك، وحين باغتته فكرة جديدة (أُدركُ هذا لأنني صــرت أعرف نظراته وحركاته حين تباغته فكرة جديدة) اندفع ســريعًا دون أن ينظر إلينا أو إلى لوحته، وســار إلى الحائط؛ إلى موضــع من الحائط يقع بين باب الغرفة وظهر السرير. أتى بفرشاة كساها بالأزرق ثم بدأ في كتابة تلك السطور السابقة خاصةً من رسالته إلى ثيو.

بعدها، جلب ألوانه كلها وفراشيه وبدأ بذات الاندفاع والسرعة في رسم شيء ما تحت تلك الكلمات (الزرقاء). واتّضح بعد وقت قصير أنه يرسم وجه أخيه: ثيو فان جوخ.

يمزج لونًا بلون ثم يقترب بفرشـاته على الحائط باندفاع لا أدري كيف يحافظ عليه، ثم يتوقّف قليلًا يتأمّل الكلمات المكتوبة أعلى البورتريه. ثم يعود لمزج الألوان والضرب على الحائط. وهكذا. إنه لا يعيرنا أي اهتمام حين يتحمّس للوحة جديدة. تأخذه رياح الألوان فلا يعود إلا حين تهدأ زوابع الرياح ويكفّ صريرها. كم يُشبه بيتهوفن في حماسه واندفاعه! وبديعة...حين تسرد الحكايات.

أقف أتأمّل حركاته و سلوكه من بعيد. وإنّ بديعة الصغيرة تغار جدا من تلك اللحظات الخاصة الفارقة التي تأخذ الرسّام بعيدًا عنّا وتعزله. تقترب منه لتُشاكسه وتُلفت انتباهه لها دون ما يرسمه. لكنني ألحق بكتفها في آخر لحظة وأمنعها بلطف.

– استنّي يا بديعة...خلّيه يركّز في اللي بيعمله. حيرجعلنا لما يخلّص.

تنأى بديعة بوجهها عنّي وتُشـبك ذراعيها الواحد فوق الآخر، في غضـب طفولي وامتعاض لما منعتها عنه. ثم تدافع عن نفسها وتبرّر اندفاعها قائلةً:

– ما كُنّاش حنضايقوه. أنا بس كنت رايحة نشوف بيرسم ايه.

أقرفص على الأرض وأقرّبها منّي وأنا أتحسّس أعلى ظهرها.

- بيرسم أخوه.

ولأن للأطفال ذاكرة طيّبة، تنسى وتسامح بسرعة، نسيت بديعة فورًا غضبها منّي وعلّقت على كلامي بحكاية أطلّت في ذهنها:

- أنا كمان كان عندي أخ. بس مات أوّل ما أمي جابته. وفِضِلِت تعيّط عليه ييجي شهر بحاله.

- شُفتي وشّه؟

- لأ.

- طب غمّضي عينك.

تُغمض بديعة عينيها وألاحظ ارتجاف جفونها ورموشها الشديد وهي تحاول التأكيد على إغماضهما بإحكام، آخذةً طلبي بجديّة كبيرة:

- اتخيّلي وشّه. ممكن يكون كان شكله إزاي؟

- صغيّر أوي أوي. قد لُقمة العيش. وعينيه خطّين. مش باين منهم حاجة. ومناخيره وبُقُّه صغيّرين برضه. بس أصغر مِ اللُقمَة بشويّة.

– طب ايه رأيك، على ما يخلّص هو رسـمته، ترسـمي إنتِ على الحيطة دِه (أشـير إلى الحائط المقابل للحائط الذي يقف عنده فان جوخ) وش أخوكي.

تُفتِح عينيها على اتّساعهما ويصاحب ابتسامتها الهادئة، بريقٌ تسطع به عيناها وهي تنظر إليّ:

– طيّب...

أقف وأ شدّها إلى ألواني وفرا شيّ. والبالتة المكسوّة بالألوان التي ر سمتُ وجهها بها. آتي بفرشاة متوسّطة الحجم وأناولها إيّاها. ثم أناولها البالتة وأسير بها إلى الحائط. أقرفص، فتقرفص.

– يللا...ارسمي.

تنظر بديعة إلى الحائط الكبير بشيء من خوف وتردّد. تنظر إلى فان جوخ إنما هذه المرّة لا تفكّر كيف تجذب انتباهه لها، لكن تتأمّل مسكته للفرشاة وطريقة مسحه على الحائط بالألوان. لعلّها استنتجت شيئًا. فها هي تعود بنظرها إلى الفرشاة التي تُحيطها بكفّها الصغير، وتبدأ فورًا باختيار أوّل ألوانها. تنظر إلى البالتة وأراها تُسقط فرشاتها على عجين اللون الأزرق الموضوع. أظنّ أنها متأثّرة بالأزرق الطاغي على حائط فان جوخ.

أوّل ضربة كانت ضربة بطيئة، مرتعشة، استكشافية، تلمّست بها بديعة الحائط تتعرّف عليه وعلى إحساس الفرشاة وإحساس النزول بها على هذا السطح الأملس الكبير. ثم بدا أن حاجز الخوف والرهبة قد انكسر مع هذه المسحة اللطيفة الأولى، إذ أنها استدارت نحوي تضحك بكثير من خجل تُكمشُ رأسها بين كتفيها اللتان ترفعهما على استحياء. أومئ برأسي تعبيرًا عن إعجابي بأوّل مسحاتها اللونية، وأُحفّزها على المواصلة.

- ارسمي كل اللي شُفتيه لمّا غمّضتِ عينيكِ.

ثم لم تكن ضرباتها التالية تُشبه ضربتها الأولى تلك أبدًا. فإن بديعة الآن في أوج حماسها، وإن بها ثقة لا أدري إن كانت اكتسبتها من النظر المستمر إلى فان جوخ الواثق فحسب، أم من الأُلفة التي بدأت تكتسبها شيئًا فشيئا مع الحائط، أم من صدق إحساسها وإيمانها بصورة الوجه الذي رأته حين أغمضت عينيها ومن توقها له.

- حتسمّيه ايه؟

- حسمّيه....(سيّد). على اسم الجَدَع بتاع صندوق الدنيا. ولا أسمّيه (أبو العلا)؟ على اسم خالي؟

صمتت قليلًا، ثم حسمت أمرها:

- لا، لا...حنسمّوه سيّد.

ابتَسَــمتُ. ورحت بعدها أتأمّل بورتريه فان جوخ الجديد. إنّ وجه ثيو محفورٌ في ذهنه تمامًا. لا يبدو لي أنه يجاهد في سـبيل اسـتدعاء ملمح ما، أو تفصـيلة ما. ولا يُغمض عينيه كذلك لاسـتحضــار روح أخيه قبل نقلها إلى الحائط. بل أنّه يرســم بعينين مفتوحتين واسعتين، حاضر الفكر، كأنّ أحدهم يُملي على مسمعه التفاصيل الدقيقة. أو كأنه يكتب ما يعلمه عن وجه يحتفظ بكثير من ملامح فينسـينت بين تفاصـيله – لا لأن العين كالعين أو لأن الفم كالفم بالجينات الوراثية، إنما لأن الروح كالروح: واحدة، متآلفة، متجانســة، ومتناغمة.

أما الآن وقد أصبح الجميع لديه ما يشغله، فلم يعد يبقى أمامي إلا أن أعود أنا أيضًا إلى لوحة بديعة. لكن... شعورٌ ما يُبعدني عنها. لم يبقَ إلا أن أوقّع أدناها باسمي، فتَتِم. ولست متأكدة إن كنت حقا أريد لها أن تَتِم.

للنهايات رَهبةٌ تمامًا كالبدايات يا بديعة. تصوّري؟

أوه! للتو أنتبه إلى الشـعور بالبرد الذي تســلّل إلى جســدي الصـغير. ها هما ذراعاي المتشــابكان قد بدآ يمســحان الواحد على الآخر في حركات قصـيرة متكرّرة بغرض التدفئة...وبديعة، لا أدري ماذا دهاها؟!

ترمي الفرشـــاة من يدها فتقع على الأرض فجأة وتركض إلى بيتهوفن الذي يقف خلفنا عند النافذة. تُخبره بشـيء فيقرفص ويرد عليها، ويتحوّل سـؤالها بسـرعة إلى حديث ليس بالقصير بينهما.

أعود إلى تأمّل فان جوخ. إنه في عالمه الخاص. لا أعلم إن كان حتى انتبه إلى بديعة التي كانت ترسم على الحائط الملاصق له. ولا أظنه كذلك قد شعر بهذا النسيم البارد الذي حلّ على الغرفة. إنه وحده مع ثيو. يرسم عينيه بضربات من أزرق وأخضر وبرتقالي وبنّي. لكن النســمة الباردة عاودت إتيانها من جديد. إنها ليســت باردة تمامًا لكنها نســمة هواء خفيفة مدفوعة مؤقّتة كتلك التي يُحدِثها شخصٌ حين يمر بالقرب من شخص آخر. مرّة بعد مرّة بعد مرّة...فأتأكّد أنها إشارات مرور لعدّة أشخاص لا واحد.

أحوّل عينيّ إلى النافذة فأجد جلجلات بديعة ســبقتني إلى المشــهد. وأجد مجموعة أشخاص غرباء. رجالًا ونساء. يتساقطون تساقطًا عبر النافذة المشروعة...إنهم كُثُر! يهبط الواحد منهم على ســتارة النافذة فيتبعه الآخر. كلهم من ذوي البشــرة البيضــاء، طويلي القامات (الرجال والنساء منهم)

تتراوح أحجامهم بين ضخم ونحيف، وتختلف زُرقة أو خُضرة أو بنّي أعينهم وذهبيّ شعورهم. إنّ لهم هيئة أوروبية لا شكّ في هذا. وقد جاؤونا في كامل هندامهم الأنيق: الرجال في بذل سوداء كلاسيكية، والنساء في فساتين سهرة مُطرّزة ومنقوشة وطويلة، وشعورهن مصفّفة في «شينيوهات» مرفوعة وأنيقة.

خفتُ أن تهاب بديعة كثرة الزاوّار الجُدُد الغامضين الغرباء، فسرت إليها. لكنها احتفظت بكامل هدوئها وغبطتها فامتدت ابتسامتها طوال الوقت الذي أخذه زوّار النافذة للطيران إلى قلب الغرفة. فاطمئننت عليها. بل أنها بدت لي كأنها تعلم شيئًا لا أعلمه أنا. بالتأكيد. فإنها لم تنفك تتبع خطوات بيتهوفن وتلاحقه منذ أن علمنا أنه لم يكن يجمع آلاته ونوتاته ليرحل. بل كان يجهّزهم ويجهّزنا إلى معزوفة جديدة، لا أكثر. عانقته وقبّلته وشكرته لبقائه.لفّت ذراعها بذراعه لا تريد أن تفترق عنه. فبادلها العناق والقبلات وحملها وأخذا يتبادلان الحديث قبل أن تلتفت إلى فان جوخ وتُسرع نحونا.

تُرى، ماذا أخبرها بيتهوفن عنهم لتسعد بحضورهم كل هذه السعادة؟ إنها تقف بينهم مدهوشة. تنظر حولها إلى أعلى فاغرة فاهها ومدورّة العينين كأن الذي أخذ يتساقط من حولها منذ برهة لم يكن سوى أكياس حلوى لا أجسام بشرغرباء. تُشبك يديها الصغيرتين ببعضهما واضعتهما على صدرها. إنها سعيدة ومتحمّسة ومنتظرة...وإنها للتوّ تتذكّرني فتنظر إليّ من خلفها وأسمع صوتها الرقيق يقول:

- ليال، ليال، بُصّي!

- مين دول يا بديعة؟ تعرفيهم؟

- عم بيتهوفن حكالنا عنهم...دول اللي حيغنّوا معاه غِنّوته الجديدة.

أظنها تقصد «الكورَس». آه! الكورس! إذن، لا يمكن بأي حال من الأحوال إلا أن تكون هي...سيمفونيته التاسعة. والأخيرة.

48..لِمَا عِنْدِي خَبَرٌ سَارٌّ

لا أستطيع السيطرة على مشاعر الفرحة الطفولية التي انتابتني حين علمت بأن بيتهوفن قرّر الجود علينا بسيمفونيته التاسعة. أبتسم وأتأمّل الحضور الجُدد بعينين جديدتين وأطيل النظر إلى بديعة، والآلات، وبيتهوفن. أتبصّرهم كلهم...

بديعة تشاكس مُطرب الكورس الأساسي الضخم. إنّ له قامة وهيئة كصوته، قويّة: فهو عريض المنكبين، قويّ البنية، أبيض البشرة، أصلع، يلتمع رأسه بأبيض وجهه وجسده، عيناه عسليتان جاحظتان، أنفه دقيق ومدبّب، شفتاه صغيرتان ولهما لون ما بين الوردي الفاتح والأبيض. يقف مستقيمًا واثقًا مشدودًا يحمل أوراقًا أظنّها نوتات السيمفونيةوإرشادات الكورس. تُمسك بديعة بأناملها طرفي جلبابها، وترقص. وتميل بجذعها وتحرّك منديلها وهي تضحك وتنظر إليه هو دون غيره. الله أعلم لماذا هو بالذات!

أما عن بقية الكورس، فهم في حضرة المايسترو الذي يحيّيهم ويجتمع بهم ليحدّثهم عن السيمفونية ويعطيهم ما يُشبه التوجيهات الجادّة. لا مزاح في لوحات بيتهوفن.

الآلات تُحدث أ صواتًا ليست بالمو سيقى، فهي متقطّعة وعشوائية. يُحدثها العازفون بينما يجربون آلاتهم ويجهّزونها للعرض القادم.

صــوتٌ دخيل يقطع المشــهد ويُزعجه: إ نه جرس باب منزلنا. مَن الطارق؟ لا يهم...سأعود إلى لوحة بديعة. لا بل أعود إلى فان جوخ.

من الواضــح أنني لن أعود لهذه ولا ذاك. فها هي ماما تطرق باب غرفتي ثلاث طرقات متتالية، وتحرّك المقبض وتدخل.

- ليال...فرح وطنط ليلى (والدتها) في الخارج. قدمتا لزيارتنا. تعالي «يللا».

أتت فرح.

أتى وجهٌ يُربكني ويعيدني إلى أيام لا يســعني إلا أن أصــفها «بكئيبة». و« قاســية». و«حزينة». كآبة وقسوة وحُزن ضيّعوا عليّ الابتهاج الذي آلت إليه الأحداث في الغرفة. لن أبرح الغرفة. لا، بل أبرحها وأواجه.

أجدني أوتوماتيكيًا أُمسك بالآي باد وأكتب:

«راما...أتت فرح. إنها بالخارج. في صالون منزلنا الآن. أ سمع صوتها و صوت أمها. أشعر بارتباك شديد. قلبي يخفق بسرعة. أخشى ما أخشاه أن أخرج وأرى في عينيها ا ستنكارًا منّي ومن غرابة سلوكي. أخشى أن لا أُبلي بلاءً حسنًا أمامها كما ينبغي على شابة في عمري، وأن لا أكون عند حُسن ظن ماما كالعادة. أو أن...أرمي بين الحديث بكلمة غبيّة لا محل لها، أو أقوم بحركة سخيفة، أو أتصرّف كالأطفال. أو أتخبّط في الحوائط والطاولات وأنا أسير نحوهم.لكنني سأخرج الآن. سأحاول. وسأخبرك بعدها بما جرى».

لم أنتظر ردًّا من راما. كفاني أن أشعر أن روحها معي تباركني ولو من بعيد. خرجت فورًا إلى الصالون حيث جلست فرح ووالدتها وماما. لكن شيًا لم يكن في حسباني قط قد وقع.

إنّني حين خرجت، لم أجد ذات (الفرح) الصغيرة، الحيويّة، النشيطة، الثرثارة، العفوية، الصريحة، التي تقفز مثل «الفرقع لوز» هنا وهناك بينما تحاول جيوش «الطنطوات» السيطرة عليها وإلجام نشاطها الزائد، أو إسكاتها عندما تسأل عجوزًا في العائلة: «لماذا لكَ شكلٌ مرعب هكذا؟»، أو تسألني: «لماذا أنتِ هادئة لا تتكلّمين دومًا هكذا؟».

وجدت شابّة طويلة القامة، معالم بلوغ الأنوثة قد بدت عليها، مصفّفة شعرها المجعّد أصلًا بالمكواة فيبدو أملس لا يتخلّله أي تمويج، تلتمع خصلاته الملساء وتُعكس ضوءًا أزرق خافتًا على أسوده الممتد. تكحّل عينيها بكحل أسود، وترتدي زيًّا بسيطًا (casual) وحذاءًا رياضيًا أبيض. لم تكن هيئتها هي ما لم أتوقّعه، ولو أنها فاجئتني فعلًا إذ لم أكن رأيتها منذ ما يقرب من ثلاث سنوات أو أكثر تغيّر قدّها خلالهم كثيرًا.

إنما ما فاجأني كان هدوؤها الذي لم أجدها عليه قط، والخجل الواضح في سلوكها ونظراتها وابتسامتها. حيّتني بكثير من الحياء وهي تُبعدُ عينيها عنّي. سألتها «كيف حالك؟»، فلم تُزد على «الحمد لله». جلست إلى جوارها فلم تلتفت إليّ إلا نادرًا وعلى استحياء. ودون كلمة واحدة.

ظللت شاردة طوال فترة زيارتهما لنا التي لم تدم إلا ساعة (تزيد أو تقصر بقليل). لم أشارك في الحديث إلا بالرد المُختصر على سؤال ما من أسئلة طنط ليلى الموجّهة إليّ بشكل شخصي.

أما ما هو دون ذلك، فلم أشارك فيه. ظللت أنتقل من فكرة إلى أخرى بين سلسلة أفكار كثيرة. أسترجع الماضي، أتأمّل الحاضر وأفكّر في المستقبل. أنظر إلى فرح ثم أنظر إلى ماما. وأتخيّل وجه راما وبديعة من الحين إلى الحين.

ودّعناهما حتى غادرتا. وقبل أن أعود إلى غرفتي، استسلمت إلى المشاعر التي كانت تسيطر عليّ لحظتها، واستدرت إلى ماما أسألها بنبرة هادئة لا أنكر تشبّعها بكثير من الغضب بل وربما حتى عداوة مستورة موقوتة على وشك الانفجار.

- ماما...لكِ عندي خبرٌ سار! لا أظن أن فرح لا زالت تنظر إليّ باعتباري (كرسي). أظن أنها أصبحت كرسيًا نفسها! أليس كذلك؟ ألم تري هذا بنفسك اليوم؟ أتظنين طنط ليلى تعود اليوم وتنهرها على هدوئها وخجلها؟ أتظنينها تصارحها اليوم أو غدًا بحقيقة تحوّلها إلى كرسي، أم أنها لن تفعل؟ أو تخبرها أنني أنظر إليها محتارة لا أدري إن كانت (هي) جمادًا أم إنسانًا «عاديًا» (مثلنا)؟ كم أخشى أن يحدث ذلك.

دمعت عينا ماما وتركتني دون أن تجيبني بكلمة واحدة. عادت إلى غرفتها. وعدت إلى غرفتي.

«لا أعلم بماذا أُخبركِ. فأنا لا أعلم كيف ينبغي أن أصف مشاعري. ثمّت راحة وذكرى مؤلمة معًا. وثمّت مؤشّــر جديد لاحتمال صــدق مناظير شــتّى يمكننا أن نرى العالم من خلالها. الاحتمالات كثيرة والتناقضات والتقلّبات واسعة ومُدهشة!

لكن الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أؤكّده لكِ الآن وأؤكّده لنفسي، هو أنني لم أعد إلى الغرفة الآن كما تركتها. خرجت منها قبل قليل (كرســي)، والآن أعود إليها بحقيقتين جديدتين: إما أنني لم أعد (كرسي)، أو أنني (كرسي) وسط عالم مليء (بالكراسي)».

49..زَيْنَبُ بِنْتُ مُصْطَفَى

أشعر بالذنب ولا أشعر بالذنب.

كنت قد لاحظت تغيّرًا واضحا على ماما قبيل سفري إلى أمستردام بفترة. صارت أهدأ وأكثر تبسّمًا. كما أنها لم تعد تقضي معظم أوقاتها وحيدة في غرفتها مثلما كانت تفعل. صارت أكثر نشاطًا وحياة. تتفادى وقوع أي مشاجرات محتملة مع بابا (الذي ما زال على وضعه: سريع الانفعال، لاذع العبارات، منغلقًا على نفسه في عالمه). تذهب كثيرًا مع طنط عزّة في نزهات صباحية أو مسائية، تتفاعل مع الآخرين على شبكات التواصل الاجتماعي، تطرق باب غرفتي من وقت لآخر لتسأل عن أحوالي، تطلب منّي أن أشاركها جلسة قهوة في البلكون أو أشاركها نشاطًا ما تقوم به.

لم يسعني انشغالي بنفسي المُتعَبَة أن أتأمّل أحوال ماما أم لم أشأ أن أتأمّل أحوالها؟

ربما لأن التحوّل المحمود، والحنان الذي بدأت تُبديه لم يخفّفا من الغضب الكامن في صدري. لا زلت ناقمة على طفولتي البائسة – أو هكذا أظن. حين يمضي الماضي فإنه لا يمضي كليًا، إنما يترك لنا «تذكرات»، نحبها أو نبغضها، إلا أننا نصحبها معنا أينما ذهبنا. وتبقى حاضرة جليّة واضحة المعالم مهما باعدت بيننا وبينها سُفُن الوقت المُبحِرة بعيدًا.

على كل حال، لم يبق في الوقت متّسع. أريد أن أُنهي لوحة بديعة قبل أن يبدأ الحفل. أريد لنفسي، هذه المرّة، أن أكون بين الحضور لا على نُصُب الهوامش. أُفسح لنفسي طريقًا خلال الفرقة المزدحمة. أمر خلال الفراغات الضيّقة بين البيانو، ومقاعد وآلات العازفين، وبعض أعضاء الكورس الواقفين الذين تتخبّط أكتافي بسواعدهم بصورة مستمرّة: يبدو لي أن الحفل على وشك أن يبدأ. فها هو الكورس قد انتشر، والعازفون جلوس، وبيتهوفن عند النافذة، ينظر إلى السماء متأمّلًا الغروب الدافئ والعصافير العائدة إلى أعشاشها.

وفان جوخ مع ثيو. وبديعة التي ظننت أني سأعود لأجدها إما تستأنف ر سم « سيّد» أو الرقص أمام رجل السوبرانو، وجدتها مشغولة بلعبة جديدة لا أدري كيف جاءت بها وتعلّقت بها بهذه السرعة. فها هي تجلس على السرير مُمسكةً بصندوق أحمر قديم. أقترب منها فأرى داخله خيوطًا ملوّنة: أحمر، أزرق، أصفر، أخضر، بنفسجي، برتقالي، وغيرها. كأنني أعرف هذا الصندوق...

– فاكره الصندوق دَه يا ليال؟ شُفناه في بيت عَم أبو بيت أ صفر (تقصد متحفه) في بلد الخواجات. فاكراه؟ عَطَهولي هديَة.

أوه! الآن تذكّرته. إنه صندوق فان جوخ فعلًا الذي رأيناه أنا وبديعة في متحفه بأمستردام. صندوقه الحاوي على كرات من خيوط الصوف على ألوانها. وها هو يقترب منّا ليُمسك بكرة زرقاء يضعها إلى جانب أخرى حمراء. ثم يضع الحمراء ويأتي بصفراء. إنه يتفحّص ويدرس تفاعل كل لونين مع بعضهما. وأخيرًا يرتاح إلى الأزرق مع الأحمر ويعيدهما إلى الصندوق، ثم يعود إلى الحائط. ويُمزج أحمر ليضعه على خلفيّة بورتريه ثيو المُشبّع بكثير من درجات الأزرق الطاغي على بقية الألوان.

وها هو بورتريه ثيو يوشك أن يتم كذلك. لا أظن أن العالم قد عرف شخصًا يندفع في رسم لوحاته فينهيها بسرعة مثلما يفعل فان جوخ.

أما أنا، فأعود إلى لوحتي. قلبي يخفق خفقانًا مدويًا. ألتفت إلى بديعة: أحقًا انتهى هذا يا بديعة؟ أتتركيني فعلًا؟

أجلس بين الألوان والفرشات. أتأمّل اللوحة. أسبح من الخطوط الخارجية إلى بقع الظل والنور، إلى العينين، إلى الفم، ومساحة الأنف، والذقن، والرقبة، إلى الجلباب، وأعيد الرحلة إلى أعلى ثانيةً حتى أرسو أخيرًا على تجاعيد الشعر. كلما أرسو على ملمح من ملامحها، أعود لأُبحر خلال ملمح آخر من جديد. أدمنت السفر حتى كرهت فكرة «الوصول».

آتي بالصورة الأصلية الفوتوغرافية على الآي باد لأتأمّلها كذلك. أتأمّل ذات العناصر والروح الغالبة على الأجواء. كما أتأمّل بقية العناصر في الصورة التي لم أنقلها – بالأخصّ ريّا. أتأمّل وجهها وجلستها وملاءتها الملفوفة حول جلبابها، والممتدة حتى أعلى منديل رأسها المربوط بإحكام حول جبهتها. ثم أسافر جنوبًا حيث كفيّها. كفّ مستقرّ على فخذها، وكفّ...مهلًا، مهلًا...أين الآخر؟

أدقّق وأعود وأكبّر حجم الصورة حتى أرى أخيرًا شيئًا من أصابع كفّها الآخر يحيط بخصر بديعة. لم أكن أتصوّر أنّ الأيادي التي تقتل وتبطش وتسعى في الأرض فسادًا، يمكن أن تحيط بخصور صغارها. إنها لعلاقة غريبة، تستدعي التأمّل بكل المقاييس. أعود إلى عينيها. كأنني أحاول أن أجد الإجابة فيهما. أمعن النظر. أحدّق فيهما بكثير من التساؤل وبقليل من الخوف (أو بالكثير. لا أدري). وهذا لُغزٌ آخر قد يستوجب لوحة بأكملها، أحدّث ريّا خلالها فتصير طلاسم وجهها كتابًا بيّنًا يُقرَأ ويُفهَم ويُحفَظ بين طيّات كليو.

تترك بديعة الصندوق وتأتيني ركضًا. أظنّها لمحت وجه أمّها.

- أمّي!

- بتحبيها يا بديعة؟

- بنحبوها أوي...كانت تأكّلني وتشـتريلي جلاليب. وتاخدني السـوق. وكانت بتقولي إنها رايحة تاخدني ونهرب احنا الجوز. ونسـيب أبويا وأهلي. ولما كانت تجيب لُقمة، كُنّا بنقسموها سوا، ونُعُدوا ناكلوها على الأرض قدّام السكّة. وساعات مع خالتي أمينة.

غريب...أللتشـوّه قلبٌ؟! أيمكن فعلًا أن تكون ريّا بكل ما أوتيت من قسـوة وغِلظة مكنّتها من ا ستدراج أعز صديقاتها و صديقات شقيقتها الواحدة تلو الأخرى و« سحبهنّ» إلى قبورهن الأبدية، أن تكون حقًا قد أبقت جزءًا من الطيبة والحنان تختصّ بهما ابنتها؟ أم أنّ بديعة ر سمت في خيالها صورة الأم المعطاءة الحنونة تلك لأنها حلمت أن يكون لها أم على هذه الشاكلة، لا أكثر؟

تُكمل بديعة وقد بدا على وجهها التوق الجم لأمها ولأيام خَلَت:

- صـحيح ما جابتليش المنديل البامبة اللي كان نفسـي فيه من السـوق، بس اشـترتلي الجلبية دِه. وكانت تدّيني ملّين (تقصد ملّيم) أجيب بيه عسليّة من عوف الأعمى.

كأن بديعة ترجوني أن أستحضر صورة معيّنة لأمها؟

حاضر يا بديعة.

أُغمض عينيّ وأحاول أن أتخيّل ريّا بملامح مختلفة: وجه أصــغر، وعينان أكثر حياةً وبراءة، وفم صغير، وذقن دقيق. أتخيّلها بقامة أقصر وقوام كقوام الأطفال. أراها تضحك وتأكل إصــبع العســليّة التي حكت عنها ابنتها بديعة. أراها تقفز في الهواء فرحًا بالمولد المُقام في إحدى ضواحي الصعيد. أراها تنظر إلى شاب وسيم على المقهى فتُدير وجهها حياءً ثم تعود إلى البيت فتظل تحلم به إلى أن تنام. أراها تصادف كلبًا صغيرا ميّتا في «الغيط» فترتبك وتبكي وتركض بعيدًا من سوء المنظر ومن هذا الشيء الغريب الذي يتحدّث عنه (الكبار) كثيرًا ويولولون له إذا حضر بيتًا من البيوت: «الموت». لكنها لا تفهمه.

ثم أراها شــابّة مُتعَبَة مُشَــرَّدة من مكان لمكان. أَلِفَت الرحيل والغُربة وفراق الأمكنة والأحبّة. تتزوّج من شــاب طائش فظ لا يكن لها لا حبًا ولا احترامًا. بل يحتقرها وينهرها ليلًا ونهارًا لأن «بطنها شــوم على الولاد». تلف جســدها النحيف من قلّة وســوء التغذية بملاءتها الإسكندرانية السوداء، وتمضي تائهة خائفة في شوارع الإسكندرية وحواريها. تلك المدينة الكبيرة المخيفة لشابة قادمة من الصعيد. تطيح بها الحياة بين من أطاحت بهم من الفقراء المعدمين في تلك المرحلة التعيسة من تاريخ مصر؛ تشبع يومًا وتجوع عشرة.

أسمع صوت بديعة (التي كانت قد تركتني مجدّدًا وعادت لفان جوخ) تقول:

- كل دول؟!

إنّ فان جوخ يجلس إلى جوارها على السرير مُمسكًا بصندوق آخر، ويُطلعها على رسائله إلى أخيه ثيو. أظنّها سألته عن الكلمات التي كتبها بالأزرق أعلى الحائط حتى يجيء لها برسائله كلّها هكذا. يأتي برسالة، ينظر إليها، يقلّبها بين يديه، يفتحها، يقرؤها، يبتسم، ثم يناولها لبديعة ويُمسِك بأخرى.

- بُصّي يا ليال! مراسيل كتيرة أوي مكتوبة بلغوة (تقصد «لغة») الخواجات. هاهاها...كام دول يا عَم؟!

أقترب منهم وأجلس إلى جوار فان جوخ. كانت الرسائل موضوعة في مجموعات مربوطة بخيط جلدي رفيع. حوالي عشر مجموعات أو أكثر. أُمسك بمجموعة منها. أقلّب بين ر سائلها: ر سالة بتاريخ 21 فبراير 1888. وأخرى بتاريخ 25 فبراير 1888. ور سالة بتاريخ 9 مارس 1888. وبتاريخ 30 مارس 1888...ثم....تقع يدي على ورقة صغيرة تُشبه الإيصال أو الفاتورة. وهي بتاريخ 1922.

تستوقفني الورقة الصغيرة التي تبدو غريبة وخارج سياق بقية الرسائل. أنظر فأرى خلالها خيالَ أُمّ مهلوعة، تقف أمام موظّف مكتب بريد «الباب الجديد» بالإسكندرية تفكّر في مصير ابنتها الوحيدة المُهدّد بالخطر بعد أن قُبِض على شقيقتها.

فتطلب من موظّف البريد أن «يشيّع» تلغرافًا بأقصى سرعة إلى أخيها في كفر الزيّات وأمها بأن يأتوا إلى الإسكندرية ويأووا طفلتها. ساقاها تكاد تنثنيان من تحتها من شدّة الخوف، تنظر ولا تنظر إلى الموظّف، ثم تطلب منه أن يكتب في التغراف:

«عرّفوا زينب بنت مصطفى بالحضور حالًا».

50..رَامَا ولَيَالْ

«صـــديقتي الحبيبة، ليال...لا زلت أرتعش رُعبًا منذ البارحة. أتتني بالأمس أخبار لا تَسُر. تلقّيت مكالمة هاتفية من ديالا تُخبرني أن اليوم سنأخذ عمّار إلى مدينة الألعاب. منذ أن بدأ يمشـــي ويتكلّم وهو يُلِحّ عليها أن تأخذه، وها قد جاء اليوم «الســـار». لم أنم طوال الليل. أتقلّب يُمنةً ويُســرةً كالممسـوسـة. كلما غفوت أتتني كوابيس. مرّة أراه يقع من على القطار العالي المُسرع. ومرّة تصدمه سيّارة فيسقط على الأرض محاطًا بالدماء. أنا مرعوبة يا ليال. فكّرت أن أتفادى الذهاب وأُقنع ديالا بالبقاء في المنزل لأي ســبب، لكنني لا أريد هذا...أريد أن أقاوم وأن أواجه هذا الأمر. سئمت الاستسلام للخوف. سئمت! هأنا أستعد للذهاب. سأوافيك بالأخبار. دعواتك».

«عزيزتي، راما...حملت مجموعة أوراق وقلم وانطلقت إلى مقهى صــغير في شـــارعنا. أخذت أحتسي القهوة وأنا أفرغ أفكاري كلها على الورق. أكتب كل فكرة تأتيني. وبعد فترة من الكتابة، ولما لاحظت تكرار كلمة «ماما» بين الأفكار، صــوّبت انتباهي كله تجاهها: أســأل، أفكّر، أرســم دوائر، وأوجد علاقات وأعقد مقارنات بين ماما وبين كل الأســماء الأخرى التي جالت ببالي. أصف ماما بكلمات مقتضبة. أرسمها

وأكتب حول وجهها أكثر الصــفات التي تُعجبني فيها، وأكثر ما لا يُعجبني فيها. أســترجع ذكريات من الطفولة. أرســم نفســي. أكتب أكثر ما أحب وأكره في نفســي وفي الآخرين. ملأت خمسة أوراق تقريبًا بكل تلك الأفكار وأشباه الأفكار والدوائر والخطوط. والحقيقة أني لاحظت الآتي:

- أن كل الصفات التي كتبت أني أكرهها في الآخرين، هي ذات الصفات التي و صفت بها ماما.

- أنه ثمّة شبهٌ ما بين ماما ومريم وسوزان وسارة وحتى بابا؛ كلهم مشتركون في العصبية ولذاعة اللسان، وعجزي عن توقّع حجم و شكل ردود أفعالهم في معظم الأحيان (لا أعلم إن كان لهذه العلاقة أية دلالة معيّنة...لكن، «أهُه. أدينا بنحاول».

- أنني إن أردت حلّ مشــكلتي في التواصـــل مع الناس، عليّ البدء بحل الحواجز الحديدية السميكة التي تراكمت بيني وبين ماما لسنين طوال».

« (...) ليس هناك أجمل من الحُلم يا ليال...لا معنى لهذه الحياة من دون أحلام نتعلّق بها ونعيش من أجلها. الحلم دواء يطيّب كل الأوجاع ويجعل من الأيام القاســية مجرّد طُرُق مشبوكة بطُرُق تأخذنا إلى طريق الوصول. وبعد الوصول، يبدأ طريق جديد...(...)».

« (...) سألني ذات الشخص السخيف الذي أخبرتك عنه في رسائل سابقة: «هل أكلت القطّة لسانك يا ليال؟». فأجبته: «نعم. وتقيّأت بعد أن أكلته لأن لساني مُرّ». كم وددت لو أني ألتقط لوجهه حينها صورة لأُريكِ إيّاها! بوغِت تمامًا. لم يتصوّر أن العصفورة الصغيرة التي «أكلت القطة لسانها» فلا يُسمَع لها صوت في المجالس (حتى أنه «ينسى أنها موجودة»)، تبقّى في فمها شيء من لسان لم تأكله القطّة بعد. كما أنني لم أستطع أن أقاوم. انفجرت ضاحكةً في وجهه! فازداد ارتباكًا. أظن أنه لن يُعيد الكرّة ويُلقي عليّ أسئلته السخيفة مثله تلك بعد اليوم. (...)».

«(...) وأمستردام تُناديكِ! الشهر المُقبل يخصّصون في متحف «الرايكس» (Rijksmuseum) قاعة (أو أكثر) لعرض مجموعة نادرة من أعمال (ريمبراندت) المملوكة لمتاحف مختلفة حول العالم! لا يمكنكِ أن لا تأتي لحضوره. أرجوكِ تعالي، ولنذهب سويا. آه، كم سيكون هذا رائعًا! (...)».

«(...) أخبريني...كم شوطًا قطعتِ تقريبًا في روايتك؟ هل أصبحت كل الشخصيات فيها حاضرةً واضحة في ذهنك؟ كم أنا متشوّقة أن أعرف كل التفاصيل. (...)».

«(...) قرأت رسالتك الأخيرة. كم أثّرت في نفسي وأعادتني إلى أيام طفولتي أنا أيضًا. رأيت خيالي في مواضع شتّى منها يا ليال. أظن أن طفولتنا – أنا وأنت – بها عنصرٌ مشترك قوي، وهو نوع الabuse (الابتزاز) الذي تعرّضنا له من قبل أهلنا: الneglect (التجاهل). طبعًا هذا عوضًا عن أشكال أخرى من الemotional abuse (ابتزاز عاطفي)، وال verbal abuse(ابتزاز لفظي) الذي لاقيناه كذلك. كم هو مؤلم...(...)».

«(...) إنّ المشوار طويل. لكنه يبدو جميلًا بوجودك ودعمك. شكرًا على كل شيء يا راما. (...)».

«(...) كم شوّقني حديثك عن لوحة الطفل الفلسطيني إلى رؤية اللوحة! أريني صورة لها. حكيت لبابا عن فكرة معرضك وعن فكرة تلك اللوحة تحديدًا، ووقع في غرامها. أظن أنني لن آتي إلى القاهرة وحدي. آه! صحيح... ماذا عن لوحة بديعة؟ هل انتهيت منها؟ (...)».

«(...) وهذا استنتاج آخر خَلُصت إليه: يبدو أنه حين صارت مصادر الأمان (أقصد والديّ)، مصادر إرهاب، أصبح الكون كله مدعاة للرعب. وأصبحت كل الوجوه ضباعًا.(...)».

«هذه رســالة بلا أي هدف محدّد تقريبًا. لكنني...أريد فقط أن تعلمي شــيئًا. ألا وهو أنّك إنســانة رقيقة وجميلة يا ليال، وأنا فخورة جدا بصــداقتك وســعيدة جدا جدا بمشــاعر الأخوّة الصــادقة التي بدأت تقوى بيننا. يومًا ســعيدًا يا عزيزتي. لا تنســي أن تحلمي اليوم (وكل يوم) أحلامًا جميلة. (...)».

«(...) أستأنف الآن لوحة كنت بدأتها منذ فترة طويلة وتركتها قبل البدء في لوحة بديعة. إنها لوحة لعجوز سوري لاجئ يقف على الحدود اللبنانية السورية. آه يا راما لو ترين نظرة عينيه! سأُرسل إليكِ صورته... أما عن لوحة بديعة،فلم يبق على انتهائها إلا أن أُسلّم بأنها انتهت. لا أدري لماذا أخشى من إنهائها، ولماذا أتشبّث بها إلى هذا الحد؟! (...)».

51..رَسَائِلُ كْلِيُو

أبقى فان جوخ صندوقه الأحمر مع بديعة. أما رسائله إلى ثيو، فأخذها كلها ووضعها على طاولة الكومودينو إلى جانب السـرير، أسـفل لوحة ثيو التي صـارت تزيّن الحائط.وَقفَ يتأمّلها فوقفتُ أتأمّلها معه في صمت.

لم أكن متأكّدة إن كان قد أنهى رسمته أم أنه سيُفاجؤني كعادته ويتحمّس لضربة أصفر أو ضربة أحمر جديدة. لكنني علمت أنه لن يضرب الحائط مجدّدًا حين مضى نحوه، وأمسك بفرشاة دقيقة من بين فراشيه، كساها ببُنّي داكن، ثم وقّع «Vincent»(فينسينت) تحت وجه أخيه. ثم اتّجه إلى لوحة عبّاد الشمس ووقّع با سمه على الفازة الحاملة لفروع عبّاد الشمس بداخلها. ثم سار إلى السرير، تفادى جسد بديعة الصغير الجالس عليه، ونام خلفهاممدّدًا ساقيه وواضعًا ذراعيه خلف رأسه. نظر إلى السقف نظرة سريعة، ثم أغمض عينيه وراح في نوم عميق. أم أنه سرح في فكرة ما طويلًا فبدى كأنه نائم؟ لا أعلم، لكنه ظلّ ساكنًا على هذا الوضع لمدّة طويلة.

لا بد أن تنالني شجاعة كشجاعته لأسير أنا أيضًا إلى لوحة بديعة وأرسم اسمي عليها فتَتِم. ولا بد أن أقبل بأنها تمّت، وبأن الحياة ستمضي بعدها. وأن لوحات أخرى تنتظرني. ووجوه أخرى ترغب في ذات النافذة التي تطُل منها بديعة الآن على العالم – ولو كان هذا العالم لا يتخطّى أعتاب هذه الغرفة. ولا بد أن أتقبّل فكرة أنني لن أعود أتأمّل وجهها وأحدّث ملامحها وأكلّمها هي.

كانت رحلتي مع بديعة جميلة ومشوّقة. أتعبني الغوص في الجروح. وأمتعني الاستئناس بصحبتها والدفء المنبعث من منديلها وجلبابها وابتسامتها ولمعة عينيها.

بعد قراءة رسالة ماما، شعرت بحاجة لرسم بديعة، فَفَعلت. لم أسائل تلك الحاجة أو أناقشها. فقط، رضخت لما تُمليه عليّ دون تفكير. وما علاقة هذه بتلك: الرسالة باللوحة؟ لازلت أقف حيث بدأت: لا أدري.

سحبت أول أدراج الكوميدينو وأخرجت منه الصندوق الأزرق الصغير. فتحته. جئت برســالة ماما وأخذت أقرؤها من جديد وأنا أجلس إلى جوار بديعة على الســرير. أبكي. أنتحب. ثم أبتسم كالمعتوهة؛ لا أدري بماذا أشعر. أشرع في تمزيقها. أهدأ وأتراجع. أشرع في إعادتها إلى الدرج. أتراجع. أسير إلى الكومودينو وأضعها مع رسائل فان جوخ الكثيرة.

ليس من شـأني التصـرّف فيها. هذا شـأن كليو. لأدع كليو هي من تقرّر مصـير الرسـالة والحكم عليها. فمعنى الرسـالة يتّضـح في سـياق بقية رسـائل الكون التي بحوذتها من كل الفئران المذعورة، كل الغرباء في هذا العالم، كل القلوب الحائرة، والأحلام التي تُسـلّم من جيل إلى جيل إلى جيل.

أقرّر الآن أخذ الفرشـاة التي نقش بها فينسـينت اسـمه تحت وجه أخيه، وأعود بها إلى اللوحة (لوحة بديعة طبعا). أنقش اسمي على جلبابها بخط مُرتعش: «ليال». لم أعتد أن أقوم بتوقيع أيًا من اللوحات التي أرسم. أكتب التاريخ أيضًا؟ لا، لا يهم. أحمل اللوحة وأمضي بها إلى الحائط حيث وجه ثيو.

وإلى جانب وجهه، أعلّق لوحة بديعة. صارت بديعة حيث صار ثيو. ثم آتي بلون أصفر وأكتب إلى جانب كلمات فان جوخ الزرقاء (هذا لأن الأصفر والأزرق يُظهران بعضهما البعض؛ أعلم أن هذا سيروق لفينسينت المتيّم بنظريات الألوان): «العصافير المجروحة تطير إلى ذات الأعشاش، والفئران المذعورة تأوي إلى جحور متجاورات».

- بديعة...لمّا عَم بيتهوفن ييجي يبدأ، قوليلي.

- طيّب.

ومضت بديعة تُكمل رسم «أخاها سيّد». وعُدت أنا إلى السرير حيث ينام فان جوخ. أزحت غليونه الذي سقط من معطفه الأخضر قليلًا، واحتّك جسدي بجسده فأعجبني دفء التلاصق...

...ونِمتُ.

52 ..الْعَودَةُ

كُنتُ بين الصحو والنوم، والروح على أعتاب الانسلال كليًا من الجسد ودخول بيت من بيوت عالم الأحلام الغريب. أظن أنّ روحي كانت تسير نحو مكان ما بشارع ما من شوارع أمستردام. ولسبب ما، كان غليون فان جوخ في يدي. إلى أين؟ مع من؟ ما المناسبة؟ لا أعلم. ولن أعلم، لأن بابا يطرق الباب ويعيد روحي إلى جسدها الحسّي، فأفيق.

- ليال، ليال! تعالي لحظة...

- حاضر يا بابا.

أهمّ واقفةً على عجل. ألتفت إلى بديعة:

- بديعة، إوعي تبتدوا من غيري. قولي لعَم بيتهوفن إنّي رايحة أعمل حاجة وجاية على طول.

تجيبني بديعة وقد تركت لوحة « سيّد» وانشغلت بكرات الصوف في الصندوق الأحمر. ترتّبهم وتعيد ترتيبهم، وتتخيّل أنها في سوق «الزنقة» بالإسكندرية، تبيعهم للزبائن فتنادي: «صوف بريال، صوف بريال».

- طيب يا ليال.

ثم تعود فتنادي: «صوف بريال، صوف بريال».

أخرج. صوت الضجيج بغرفتي يأخذ ينخفض شيئًا فشيئا حتى يغيب تمامًا عند وصولي إلى غرفة المعيشة حيث ينتظرني بابا وهو يرتكن بكوعيه على سطح البيانو. فوق البيانو مجموعات من كتب الموسيقى الكثيرة، لموزارت الحظ الأوفر منها. لكنها أيضًا تحتوي (ولو على استحياء) على كتب ونوتات موسيقية أخرى لبيتهوفن وهايدن وليزت وشوبان وريمسكي خورساخوف.

- تقضين كل وقتك في غرفتك الكئيبة! ماذا تفعلين؟!

- أرسم.

- حقا؟ وماذا ترسمين؟

- أرسم بورتريه لبديعة...ابنة ريّا.

- «ريّا وسكينة»؟

- نعم.

- شأنك غريب عجيب يا ليال! لا أفهمك أبدًا!

- صَدَقت.

ضـحك بابا ظنًّا منه أن «صَـدَقت» جاءت ردًا على غرابة شـأني، ولم يخطر بباله أنني قد أقصد بها (وهذا ما قصدته فعلًا) تأكيدًا على فكرة أنه «لا يفهمني».

كم أتمنّى لو أنه يسـتطرد أكثر في السـؤال عن اللوحة أو يطلب (زيارة) غرفتي لرؤيتها. لكن بابا منعزل تمامًا عنّا إلى الحد الذي لم يعد يؤلمني الأمر كثيرًا. ربما لأنني لم أعد أتوقّع منه سوى هذا السلوك، وهذا القدر وهذا النوع من الاهتمام.

- المهم، المهم...أبوك يا ليال قام بتأليف أوّل مقطوعاته الموسيقية! إنها خلاصة عمل ودأب ثلاثة أ شهر بأكملها. أ سمّيها «العودة». وهي قصّة رجل مغترب يعود أخيرًا إلى بلده وبيته ويسترجع أثناء رحلة عودته ذكرياته: ذكريات الطفولة والشباب...اسمعي...

يبدأ أبي في العزف. يبدأ اللحن بإيقاع بطيء ورومانسي، يسرع تدريجيًا بعد عدّة دقائق. لكنني مع بداية تســارع الإيقاع، كان انتباهي قد ذاب تمامًا ولم تعد الموســيقى إلا خلفيّة مصاحبة للأفكار الراقصة في رأسي والتي تسيطر عليّ في تلك الأثناء.

أجدني أستحضر جدول الأفكار، وأتخيّلني أدوّن الآتي فيه:

«- المكان: غرفة المعيشة.

الزمان: السابعة مساءً.

الحدث: بابا يُســمعني مقطوعة ألّفها بعد إدراج لوحة بديعة في حديث قصــير قبلها، ووصف غرفتي «بكئيبة».

الأفكار الأوتوماتيكية المسيطرة:

(بابا لا يهمّه أمر اللوحة 90٪)

(بابا لم تهمّه أموري أبدًا 90٪)

المشاعر وقوّتها:

(حزينة 90٪)

(مخذولة 100٪)

الأفكار التي تنفي صحّة مشاعري:

(لكنه سأل عمّا أفعل في الغرفة، وعمّا أرسم. وهذا أيضًا يُعَدّ اهتمامًا)

(اهتمّ بأن يُسمعني معزوفته. لا أظنّه حتى قد أسمعها لماما. يهمه رأيي أنا)

(هو وماما أوّل من لاحظا اهتمامي بالرسم في سنّ صغير واشتروا لي الsketchbook والألوان. لا يمكن أن يكون لا يهتم)

(في حضـــوره لأوائل نوبات هلعي في المنزل، كان قلقه فائق وشـــعرت بصـــدقه. وهذا أيضًا اهتمام)

قوّة المشاعر السابقة، حاليًا:

(حزينة 40٪)

(مخذولة 40٪)».

عجيب هو سـحر الأفكار وقوّة تأثيرها على المشـاعر التي تغمرنا. والأعجب هو لمس هذا المفعول في اختلاف قوّة المشـــاعر ذاتها خلال دقائق معدودة بمجرّد تحويل الأفكار إلى مسار مختلف. فهأنا أتحوّل من أقصى الحُزن إلى منتصفه، ومن شعور (كبير) بالخُذلان إلى شعور (أقل) خُذلانًا. وهذه المساحة بين (الكبير) و(الأقل)، مساحة واسعة من الحرية

والابتهاج للقلب الحاضن للشعور، حتى إن لم يصل «الخُذلان» إلى أدنى مستوياته. هذا لأن الفرق بين الحزن الشديد والحزن المتوسّط، والخُذلان الشديد والخُذلان المتوسّط، هو الفرق بين الأحمر والأزرق، والبنفسجي والأصفر: مقابلة (على طريقة كرات الصوف في صندوق فان جوخ)؛ تضاد يؤكّد المعنى ويوضّحه.

صـــارت لعبة اســـتحضـــار خانات الجدول وملئها في ذهني، لعبة ممتعة جدا. تُطلعني احتمالاتها اللا متناهية على عوالم شتّى، وتعيد ترتيب أفكاري، بل وتُكسبني أفكارًا جديدة كثيرًا. إنها لذّة الmonologue (الحديث الذاتي) الهادف. أسأل نفسي وأناقشها، وأعاتبها أو أصالحها، وأقنعها أو تقنعني، وأعرّفها أو تعرّفني، وأعيد اكتشاف العالم معها من جديد فيبدو لي كأنه قد «خرج توًّا من بيضـته الكونيّة الأولى». في كل مرّة، كأنني أراه وأكتشـفه من جديد. يتبدّد شعوري بهذه الصالة، وشعوري بمجالسة بابا، وشعوري بالبيانو، وشعوري بموســيقى بابا. حتى ملامحه تبدو لي جديدة. كأنني أتعرّف عليه الآن. كأن لي أبًا جديدًا. أراه أحن وأضعف وقلبه أكثر اتّساعًا وعيناه أكثر إشراقًا.

كأن الشمس تسطع الآن...

- ما رأيك؟

- جميلة جدا يا بابا. إنني أشعر بالفخر الجم...

يقترب منّي ويربت على رأ سي برفق. أراه قد تأثّر تأثّرًا وا ضحًا من إعجابي بمو سيقاه، إلا أن طبعه الخجول – على عكس ما يظهر عليه من قوّة وغلظة – يدفعه لتفادي هذا النوع من الإحراج بإدراج تعليق ساخر أو مضحك بشكل سريع ومفاجئ في الحديث.

- مَن الأفضل، إذن؟ أنا أم حبيبك بيتهوفن؟

أضحك وأجيبه:

- كلٌ الأفضل في عالمه فلا داعي للمقارنة يا بابا.

- هاهاهاها! أين تعلّمتِ هذه الدبلوماســية يا بنت؟ بالتأكيد لم تتعلّميها لا منّي ولا من والدتك...فكلانا يُعرَف بصراحته المُفرطة التي تؤذي أحيانًا كثيرة.

- وربما لهذا تعلّمت نقيضها منكما.

- وفيلسوفة أيضًا؟! لكن، لا، ا سمحي لي هذه المرّة ولتسمح لي أمّك كذلك،فأنت في هذا الشأن تُشبهينني أنا...ألست ترينني فيلسوفًا يا ليال؟...أوه! صحيح! كدتُ أنسى...لقد خرجت أمّك مع طنط عزّة وتركت لكِ هذه الرسالة.

عاد أبي إلى البيانو وجاء بالر سالة حيث تركها فوق كتب المو سيقى. مدّ يده يناولها لي، فأخذتها وعدت إلى الغرفة.

قلبي يخفق. ما سبب هذه الرسالة هذه المرة يا تُرى؟

سئمت الرسائل.

لكنني لن أقرأها قبل أن أتأكّد من أن الحفل لم يبدأ بعد. أخشى ما أخشاه أن تكون بديعة التهت في لعبة البيع بسوقها الافتراضي، ونست أن تخبر المايسترو بما أوصيتها به. أو تكون أخبرته فعلًا، لكن شياطين الموسيقى زارته فاندفع ولم يستطع الانتظار.

تخيفني الفكرة كثيرًا! أهرول في الطُرقة من الصالة إلى الغرفة بين بين: بدأ الحفل أم لم يبدأ بعد؟ أحرّك المقبض وأدخل....بففففففف! الحمد لله. لم يبدأ الحفل.

لا زال فان جوخ نائمًا ولا زا لت بديعة ترأس د كّا نها المُتَخيَل. وبيتهوفن ينفرد بالعازفين، خاصّة عازفي الكمنجات الكُثُر. أما الكورس، فيقومون باللمسات الأخيرة: مطرب الكورس الأساسي يحتسي مشروبًا ساخنًا

وهو يتجوّل في الغرفة بينما يردّد همسًـــا كلمات فقرته (في تقديري). وســيدتان ترفعان فســتانيهما الطويلين الثقيلين وتســيران إلى المرآة المعلّقة أعلى تســريحة غرفتي، وتزيّنان وجهيهما بشيء من بودرة وحُمرة وجه،

وحمرة شــفاه. ثم تلقيان على نفســهما نظرة أخيرة. واثنان أو ثلاثة مســتمتعتين بمراقبة الطريق عبر موقعهم بالقرب من النافذة. والبعض يناقش أمرًا ما أمام الســرير حيث الحامل الذي كان يحتضــن لوحة بديعة. والبعض يجلس على الأرض في وضــع انســجام منتظرًا إشارة البدء من قائدهم المبجّل.

أجلس حيث كنت إلى جانب الرسّام. أفتح الرسالة بسرعة وأقرأ.

53..سِرُّ الْصُنْدُوقِ الْفِضّيِّ الْصَغِير

«ابنتي الحبيبة ليال،

أخطو إليكِ برسالة جديدة لأنني لا زلت متأكّدة من فرط حساسيتك التي قد تجعل من قول هذا الكلام لك وجهًا لوجه، أمرًا صعبًا. لا زلت أجده مستحيلًا إن أمكن الوصف.

أعرف أنني لم أكن خير أُمّ لك. وأعرف أنك عانيت كثيرًا في طفولتك بسبب أخطاء ارتكبناها أنا وأبوك في حقّك دون أن نشعر. لكنني لم أتصوّر حجم الأذى الذي يمكن أن أكون تسببت لك فيه بقدر ما أتصوّره الآن؛ خاصة بعد زيارة فرح وطنط ليلى لنا. لم تدمع عيناي استياءً منكِ لما قُلتِه، أو لتلك النظرة الحادة التي نظرت إليّ بها وأنت تقولين هذا الكلام. إنما بكيت استياءً من نفسي أنا، ولشعوري بالذنب تجاهك.

لم أعِ أبدا مدى الضرر الذي ألحقته بك – دون قصد – وأنا أوبّخك مرارًا وتكرارا في سن صغيرعلى هدوئك وانطوائك. عندما وصفتك «بالكرسي» لم أكن حقا أعني ما أقول. لم أكن إلا أمًّا خائفة على حال ابنتها وعاجزة عن فعل أي شيء، أو التصرّف كما ينبغي لأم ناضجة أن تتصرّف. كنتِ صغيرة، لكنني أيضًا كنتُ صغيرة.

أعلم كم هو صـعب على الأبناء تصـوّر آبائهم في مواضـع أخرى غير موضـع «الأم» أو «الأب». أنا بالنسـبة لك، أمّك التي طلبوا منكِ في المدرسـة أن ترسـمي لها وردة احتفالًا بعيد الأم، والتي غنّيتِ لها في حفلاتك المدرسـية مع زملائك وزميلاتك أغاني كثيرة عن حنانها، وحبّها، وعطائها، إلخ. لقد كبرتِ ترينني على هذا النحو. لهذا، أنا لا ألومك. فأنا أيضًا كنت أنظر إلى جدّتك ذات النظرة القاصرة. لكنني يا ليال، كنت طفلة مثلك تمامًا. لها تجارب وأحلام واحتياجات. وكنت مراهقة متمردّة تسـعى للإمسـاك بنجمات السـماء. وكنت طالبة، وأخت، وابنة عم وخالة، و صديقة، وحبيبة. وأ صبحت فيما بعد، زوجة. ثم أُم.

أتت مرحلة الأمومة بعد سلسلة طويلة من التجارب القاسية التي شكّلت الجزء الأكبر من تكويني. ولأنني لا أريد أن أُزعجك بأطنان من القـصص والتفا صيل الكثيرة، سأكتفي بإمدادك ببعض من أبرز ملامح تلك المراحل حتى تتمكّني من رؤية أمك، هالة، بشـكل مختلف أعمق وأصدق.

سـأبدأ من أبي، جدّك (عصـام). جدّك الذي كنتِ ولازلتِ تركضـين مع أبناء وبنات خالاتك لرؤيته كل جُمعة وعيد، ويغمركم بأحضـانه وقبلاته وأكياس الحلوى، لم يكن هكذا حينما كنا أنا وخالاتك صغارًا.

ستكبرين يا ابنتي وتعرفين كيف يهدّ العُمرُ الحَيلَ.

كان جدّك قويًّا، شديد البأس، لا يجرؤ أحد على مناقشته حتى في أقل وأصغر الشؤون. إن سمع إحدى بناته تقول: «لكن يا بابا...» حبسها في المنزل أسبوعًا كاملًا. لأنها تجرّأت على تحدّيه (هكذا تصوّر هو). إن سلمت إحدانا من الضرب بالعصا تأديبًا على نتيجة فحص مدر سيّ، أو تأخير عن ميعاد، أو ما شابه، فإنها لم تسلم من نظرته الحادّة الشرسة التي تنم عن غضب كبير. كانت تلك النظرة الشرسة، أهون العقوبات على كل حال. صدّقيني.

كان غليظًا معنا كلنا: أنا وجدّتك وخالتك (نادية)...إلا خالتك(فاطمة)، ابنته الوسطى. كان لها مكانة خاصّة في البيت كما في قلب بابا. العصا التي كانت تنهال على ظهورنا لأهون الأسباب، لم تعرف يومًا طريقًا إلى ظهر فاطمة. والغرفة التي لم تكن إحدانا مسموحًا لها دخولها، كانت فاطمة تدخلها وقتما شاءت. والنظرة التي كانت تقذف في قلوبنا الرُعب وتبيّتنا في غرفنا حتى الصباح، لم تصِب فاطمة في يوم من الأيام.

كبر نا نرا قب المعاملة المختلفة التي تميّزت بها فاطمة دونًا عنّا. لكننا لم نكن نعرف الأ سباب. ولم نجرؤ أن نسأل أو حتى نناقش أو نُفصح عمّا نلاحظه بين بعضنا البعض، ولو بالهمس أو الإشارة. لكن ما كان منّي إلا أن ألتفت إلى خالتك نادية حتى أرى مدى الأسى الذي خلّفه هذا الوضع في نفسها كما في نفسي. ولأن جدّتك (سُعاد) كانت على شاكلة الأم «المثالية» النمطية المعتادة في تلك الأثناء، فلم تكن تجرؤ هي الأخرى على معارضة زوجها أو مساءلته أو التدخّل في تربيته لنا. في طفولتي كنتُ أرتمي في أحضانها خوفًا من أبي. وفي مراهقتي ازداد غضبٌ صامت بداخلي تجاهها لما رأيته عليها من سلبيّة وشيء من لا مبالاة.

وبالرغم من أن كل الأسباب كانت تؤدّي إلى توثيق علاقتي بخالتك نادية أكثر، إلا أن هذا الوضع لم يزد كل أفراد البيت إلا فتورًا وبُعدًا عن بعضنا. العلاقة الوحيدة الوطيدة والمُبهجة، كانت علاقة جدّك بفاطمة. وظلّت على هذا النحو طوال سنين طفولتي ومراهقتي.

ثم أنهيت مرحلتي الثانوية. ولأنني كنت أحب الرسم، طلبت من أبي أن يكتب «كلية الفنون الجميلة» على رأس الكليات المُقدّمة إلى مكتب التنسيق. لم يجِبني يومها. لكنه عاد من مكتب التنسيق وسمعته يُخبر أمي أنه كتب «كلية العلوم» في أول الخانات لأن «هذا أفضل». لم يخبرني حتى. ولم أجرؤ أن أعترض أو أ ناقش. ظللت أبكي لأسبوعين متواصلين. حتى بدأت أتأقلم على الوضع الجديد.

نعم، أمّك كانت تحب الر سم والفنون. كنت أحلم بأن أُ صبح مثّالة وأن أنحت تماثيلًا من الرخام والبلّور مثل منحوتات (مايكل أنجلو). كنت أعشق مايكل أنجلو. وكنت أحلم بأن أصبح مثله يومًا ما. وأن تنير منحوتاتي شوارع القاهرة الكبيرة.

لم يعلم عن تلك الأحلام كلها إلا خالتك نادية. أما جدّك وجدّتك فكانا بعيدين عنّا بالقدر الكافي كي لا يلاحظا هواياتنا وميولنا أو يعيراها أي اهتمام. «هم كبار، ورؤية الكبار دائمًا أصوب». دفنت حلم الفن مع كثير من الأحلام والمشاعر الأخرى التي تراكمت عبر السنوات. وازددت بؤسًا.

لم يهوّن عليّ أمر ذهابي إلى كلية العلوم سوى أن طنط عزّة التي كنت قد تعرّفت إليها وصرنا صديقتين حميمتين منذ سنوات المدرسة، التحَقَتْ بها أيضًا. غير أنها التحقت بها بكامل إرادتها ودون أن يُملي عليها أحد هذا القرار. كانت تلك رغبتها الخالصة. وفي أولى سنوات الجامعة، تعرفنا أنا وطنط عزّة إلى فتاة رقيقة طيّبة ومرحة اسمها (ماجدة). صارت فيما بعد الضلع الثالث لنا. وتقرّبت أنا إليها بشكل كبير حتى صارت في فترة معيّنة أقرب إليّ حتى من طنط عزّة التي تعرّفت إلى مجموعة أخرى من الطلبة والطالبات صارت تقسّم وقتها بيننا وبينهم. فصرنا أنا وماجدة كالتوأم الملتصق. نتقابل كل صباح عند شريط مترو مصر الجديدة الذي يأخذنا إلى جامعة القاهرة. نحضر المحاضرات كلها معًا. ندرس سويًا في مكتبة الجامعة أو في بيت إحدانا. وفي أوقات الفراغ بين المحاضرات، نتنزّه خارج الجامعة قليلًا أو نأكل وتحتسي مشروبًا في كافيتيريا الجامعة. وفي السنة الرابعة، ماتت ماجدة.

كنت أنتظرها عند شريط المترو حين التفتُّ لأراها تبتسم وتلوّح بيدها مشيرةً إليّ أنها وصلت. لكنها لم تصل. سيّارة مُسرعة دهستها وهي تقطع الطريق. ماتت لحظتها قبل أن تُنقَل إلى المستشفى.

كان لهذه الفاجعة التأثير الأكبر في السلوك الذي لازمني منذ حينها إلى أن تخرّجت وتزوّجت من أبيك. صرت بائسة، سريعة الانفعال، شديدة الخوف. أسائل كل الأمور وأفكّر كثيرًا في مسائل وجودية. أسأل أسئلة من نوع: «لماذا خُلِقنا؟». «ما معنى أن يموت إنسان؟». «أين يذهب؟». «بماذا يشعر؟».

وبدأت رحلتي مع الخوف.

على كل حال، لست أكتب إليك تبريرًا لموقفي أو لتصرّفاتي الطائشة معك. إنما لأخبرك بما لم أخبرك به من قبل. أخفيته عنك لأنني ظننت أن هذا سيكون لصالحك. أما الآن، فلديّ شعور حقيقي بأن الوقت قد حان. وأنك صرت أنضج من أي وقت مضى، وأنك قادرة على فهم ما سأقول.

الآن أستطيع أن أعلمك بسرّ الصندوق الفضّي الصغير الذي ارتبكت جدا في تلك الليلة من العام الماضي عندما وجدتِه في غرفتي صدفةً. وقتها انفعلت انفعالًا مبالغًا فيه. هذا لأنني أحتفظ به في مخبأ سرّي لا يعلم عنه أحد (لا ولا والدك حتى). هذا الصندوق الفضّي يا ابنتي أحتفظ فيه ببعض أدويّة من نوع «خاص».

أقراص مهدّئة ومنظّمة للهرومونات ونبضات القلب. لأنني يا صغيرتي، مريضة اكتئاب وفوبيا من الأمراض. و شاءت الأقدار أن تتضخّم متاعبي وتتفاقم حدبًا عليّ لتتصادف مع طفولتك أنت، وبصحبة زوج غير ناضج لا يتفهّم هذا النوع من المتاعب ولا كيف يتعامل معه. فوقعت الفاجعة.

عندما جاءتك تلك الحالات المتكرّرة أثناء وبعد عملك السابق بالشركة، كنت أفهم تماما الأمر. كانت نوبات هلع يا عزيزتي كتلك التي كنت أمر بها. ولكم أحزنني وأتعبني أن أراك تتألّمين هذا الألم، إما أنني قد أورثتك جيناته فسرى إليك الخوف سريانًا سهلا كل السهولة، أو أنّك دون أن تعي تعلّمته بما اضطررتِ أن تعايشيه بالقرب من هذه «الأم» الكئيبة الحزينة الهلوعة دومًا. وكلا الأمرين يفجعني ويقتلني من الداخل.

أفهم خوفك، وأفهم رفضك الذهاب لعُرس مريم. وأفهم رغبتك في الانعزال. ولأنني أفهمك، وربما أفهم أكثر قليلًا عن هذا اللون من المتاعب بسبب رحلتي العلاجية مع طبيبي النفسي، كنت وسأظل أدعمك وأدفعك إلى الذهاب لاستشارة طبيب.

أظن أنك الآن لاحظت تغييرًا إيجابيًا في سلوكي خلال تلك السنوات الماضية على كل المستويات.

أؤكّد لك يا حبيبتي أن الفضل كله يرجع إلى الدكتور (عُمَر) الذي دعمني و ساعدني في التغلّب على تلك المخاوف المبالغ فيها، وعلى إخراجي من حالات الاكتئاب المتتالية التي – على حد و صفه – جعلت مني في السابق أمًا، وزوجة، وإنسانة «ميّتة». وأنا لا أريد هذا. أريد أن أكون لك أنت بالأخص أمًا صالحة محبّة وداعمة.

لو أعتذر منك على كل ما تسبّبت لك فيه من صراعات نفسية إلى أن أموت، لن يكون كافيًا. لكنني أعرف أنك ستتفهمي وتغمرينني بدعمك. وأنا أعدك أن أدعمك إلى الأبد.

أمك المحبّة الداعمة دومًا، هالة.

(نسيت أن أخبرك أن أباك لا يعلم بمرضي أو بذهابي إلى دكتورعمر. لهذا أرجوك ليظل هذا سرًّا بيني وبينك، لأن لك أبًا ولي زوجًا لا يعترف بهذا الفرع من فروع العلم. ومع هذا فأنا أفهمه ولم يعد يؤلمني أنه لا يفهم).

(ويا ليال، أنت لست (كرسي). أنت زهرة جميلة كتلك التي تزيّنين بها غرفتك. بل أنّك أجمل منها)».

حبرُ الرسالة الأزرق لم يعد جافًا ولا دقيقًا كما وجدته حين فتحت الرسالة. دموعي المنسالة عليه أذابته فابتلّ وامتد الحبر خارج حدود الكلمات، وصار الكثير من أبيض الرسالة مُلَطّخًا ببقع حبريّة زرقاء. أُعيد طيّ الرسالة بسرعة قبل أن تُذهب الدموع بالكلمات كلها فيذوب مضمون الرسالة.

كان تلغراف ريّا من الباب الجديد إلى أمها، «زينب بنت مصــطفى»، مُلقى وحيدًا على السـرير أمام قدمي فان جوخ الممدّدة. أخذته وأخذت رسـالة ماما ووضـعتهما برفق بين ر سائل فان جوخ لثيو، ور سالة ماما السابقة المو ضوعة بين ر سائل فان جوخ كذلك على الكومودينو.

أجلس على الـسرير محدّقة العينين إلى لا شيء. مُـسمّرة مدهو شة. أمـسك بغليون فان جوخ وأقلّبه بين كفيّ. أنتبه إلى بديعة في «دكّانها» فأجدها تُفا صل مع أحد «الزبائن»: «بريال يا عَم، قُلنا بريال. إنتو حتعرّفونا شُـغلنا ولا ايه؟!». أبتسـم. يباغتني صـوت رنين هاتفي المحمول...

مريم تتّصل.

لا أ ستطيع أن أنكر أن الخوف لا زال رد الفعل الأول التلقائي لـصوت جرس الهاتف. ولا زالت الفكرة الأولى التي تقفز إليّ من الصـوت هي أنني لا أريد أن أجيب. لكن القليل الذي مررت به في هذه الفترة السـابقة، أوجد محاربًا إيطاليًا يواجه الخوف بشـجاعة لينال حريّته، ليجاور مسـكن المحرّر الصـحفي وسـيادة المحقّق. والبطل المحارب هذا يعرف كيف يعايش خوفه وكيف يأخذه معه إلى سـاحة المعركة. ويعرف كيف تصـاحب خفقان قلبه سرًا، ضربات سيفه علنًا في الهواء أمام مُقل العدو.

أنا خائفة جدا. لكنني سأجيب. لا بأس أن أخاف أي شيء. بل لا بأس إن أنا خفت كل شيء. لكن الشيء الوحيد الذي سئمت الخوف منه، هو الخوف ذاته. لن يخيفني الخوف وإن زارني كل يوم. بل أنني أنا من سأدعوه ليصاحبني كل يوم وفي كل مكان. و سأ صادقه. سأصحبه معي... بهدوء...وأ نا أ حمل سيفي إلى سا حة المعر كة. سأصحبه معي...بهدوء...وأنا أحمل هاتفي المحمول وأجيب:

- ألو مريم.

- ألو ليال... كيف حالك؟

- الحمد لله، وأنتِ؟

- الحمد لله (إن يهمّك الأمر طبعًا). أعرف أنني وعدتك بأن لا أحاكيك أبدا. ولا زلت على وعدي. لكن الفضول يأكلني أكلًا! فقط أريدك أن تخبريني...أرجوك...كيف تهون صداقتنا عليك إلى هذا الحد؟! كيف؟!

- لم تهن يومًا يا مريم صـدّقيني. ولم يكن الأمر أبدا بهذه البسـاطة التي تظنينها. أخبرتك أنني أعاني. وظننت أن يوم واقعة البلكون قد صـار الأمر جليًا أمامك كيف أنني أعاني. وكيف أنني أحتاجك أكثر مما تظنّين...و...حاولت...

قاطعتني بكثير من الجفاف، وتنهّدت تنهيدة من ملّ السماع إلى ذات الحكايات مرة بعد مرّة. ثم أردفت تقول بحزم قاطع وبلهجة من يقول كلامًا عاقلًا لا يستوجب نقاش:

- لا يعنيني. كلنا غارق في معاناته. لا علاقة لهذا بأن تتخلّفي عن عُرسـي وهو أهم يوم بالنسبة لي.

صمتّ قليلا ثم لا أدري كيف خرجت الكلمات منّي لأجيبها بذات الحسم:

-...وهذا لا يعنيني أيضًا.

54..حُلْمُ فرِيدَة

«راما...قابلت مؤخّرًا فتاة جميلة اسمها (ريم). لا أقصد جمال مظهرها إنما جمال روحها (ولو أن مظهرها كروحها، جميل). تعرّفت عليها صدفة في الأوبرا! لا أتذكّر كيف بدأ الحديث لكنني وجدتنا نتكلم عن الموسيقى قبل العرض، ثم أثناء الفاصل. حتى إذا ما انتهى الحفل، كان الحديث قد أخذنا إلى أمور شخصية بعيدة كل البُعد عن الموسيقى. إنها عازفة عود.ومع هذا فهي متيّمة بالموسيقى الكلاسيكية مثلي، وحريصة على حضور كل حفلات الأوبرا الموسيقية. حين تزورين القاهرة سأُعرّفك إليها. إنها تُشبهنا في أمور كثيرة، وإن صحبتها دافئة وممتعة والحديث معها شائق ومثمر ومختلف. إنها تحلم بتكوين فرقة موسيقية جديدة تُعيد مذاق التراث الشرقي بشكل مبتكر. لن أطيل عليكِ...سأخبرك المزيد عنها فيما بعد».

«(...) مع تطوّر نُطق عمّار، صار يقول كلمات أكثر ويصيغ جملًا أطولًا. ولا أُخفيكِ سرًا أن الأمر أصبح يمتعني قليلًا إذ يُضحكني الكثير مما يقول. إنه يسمّيني: «يانا»...هكذا يسمعها...وينادي ديالا وزوجها اثنيهما: «ماما». ويسمّي حليبه لسبب ما: «تاتا».

.وحاول مناداة القطّة في الشارع فسمعناه يقول: «سِسّة» (يقصد بِسّة). ويطلب من أمه شوكولاتة فيقول: «طا». (....)».

«(...) قرّرت الذهاب إلى دكتور عُمر، طبيب ماما الذي حكيت لكِ عنه. أشعر بسعادة، وقلق، ورهبة، وحماس في آن واحد. نعم أ شعر بكل هذا في نفس الوقت. أيمكن هذا؟ أتوق إلى الا ستماع إلى رأي طبيب مختص في هذا الأمر. من يدري...فلعل تقدرينا بأن نوع القلق الذي أعانيه يرجع إلى الرهاب الاجتماعي، يكون خاطئًا. لعله يفاجئني برأي آخر بشـــأن صـــحّتي الذهنية. وأظن أنني أحتاج إلى دعمه خاصـــة في تلك الأيام التي لا أقوى فيها على الاتّكاء على قدميّ لأدعم أنا نفسي. (...)».

«(...) أما عنّي، فلا أظن بصـراحة أنني سـأعود إلى جلسـاتي مع دكتور فينسـينت، على الأقل في الوقت الحالي. لكنني سـعيدة ومتحمّســة جدا لفكرة ذهابك إلى دكتور عُمر. كما أنني مرتاحة إلى فكرة وجود هذا الباب المفتوح الذي أسـتطيع عبوره في أي وقت (أقصـد الباب المُفضـي إلى عيادة وكرسـي دكتور فينسـينت). ومرتاحة طبعا لوجودك وبدعمك المستمر لي يا ليال. (...)».

«ســآتي إلى أمســتردام الشــهر المقبل! لا يمكن أن يفوتني معرض لوحات ريمبراندت النادر بصــحبتك. أخبري الوالدة أنني متحمّســة جدا لتناول (المقلوبة) الفلســطينية التي حدثتني عنها كثيرًا...أشتهيها من الآن! (...)».

«الحياة قا سية ومخيفة يا ليال. لِمَ نتشبّث بها هكذا إلى هذا الحد حتى أن مجرّد التفكير في حُفَر في الأرض، تُقلقنا؟ ربما كان الموت أحنّ من الدنيا على مَن هم تحت الأرض».

«توقّعنا صــحيح. أكّد دكتور عُمر أن ما أعاني منه هو رُهاب إجتماعي فعلًا مصــحوب بشــكل من أشــكال الاكتئاب إلى درجة كبيرة. وأكّد على ضــرورة المواظبة على العلاج السلوكي المعرفي. سَعِد لما أريته الجداول التي دوّنتها بنفسي سابقًا. ووافاني بطرق جديدة ونظريات وبيانات جديدة أخرى. سأخبرك عنها كلها بالتفاصــيل عندما آتي إلى أمســتردام. (...).

«(...) واشــتريت كتابين لنجيب محفوظ: (ميرامار)، و(الســمّان والخريف). وكتاب آخر لباولو كويلو...اســمه (الخيميائي) لوتســمعين عنه؛ إنه كتاب مشــهور جدا. وآخر لميتش ألبوم: (أوّل اتصال هاتفي من الجنّة). بدأت بقراءة هذا الأخير. آه يا ليال! عليك أن تقرئيه، أكثر من رائع!..أشــعر بحاجة إلى القراءة الكثيرة المتعمّقة كي تعينني على الكتابة الأفضل. أليس كذلك؟ (...)».

«(...) هذه صــورة للوحة بديعة على حائط غرفتي، كما وعدتك. ما رأيك؟ أخيرًا سـلّمت بأنها تمّت فتمّت...ولا أخفيك سـرًّا أن فكرة اللوحة الجديدة التي أتتني أشـعلت بداخلي نار الحماس الذي لا ينطفئ إلا بالتبنّي. أتذكرين لوحة فريدة كالو «Me and My Doll») التي تحدّثنا عنها في طريقنا إلى مطار أمســتردام؟ أظن أنني بصــدد أن أرســم لوحة ردًّا على لوحة فريدة تلك...

سأرسم فريدة كالو حاملة طفلةً رضيعة بين ذراعيها. وأجعل على وجهها نظرة سعادة وأمل. وأرســم لها ابتســامة هادئة مطمئنة. وأســمّي اللوحة: «Frida's Dream» («حُلم فريدة»). لن تكون ضــمن لوحات المعرض. لكن إلحاح ما بداخلي يدفعني لرســمها الآن بقوّة...وسأرضخ لما يُمليه هذا الإحساس عليّ».

55 ..إِلَى الْسَعَادَةِ

أشــقّ ورقة صــغيرة من كرّاســة لي أحتفظ بها في الدرج الأول من الكومودينو. آتي بقلم حبر أزرق من ذات الدرج وأكتب على الورقة: «وأنا أفهم، وأحبّكِ، و سأدعمك إلى الأبد». ثم أتسلّل سرًا إلى غرفة نوم والديّ حيث «المخبأ السرّي» في خزانة ملابس ماما، وأطوي الورقة بإحكام ثم أضعها في الصندوق الفضّي الصغير المُرصّع بالأحجار الملوّنة. أخرج بسرعة قبل أن يراني بابا؛ أجعل الورقة فوق الأدوية وأعود إلى الغرفة لأجد بديعة تقف عند الباب في استقبالي:

- يللا، يللا يا ليال! الحفلة حتبدأ!

تجرّني جرًّا حيث الفرقة. ثم تتراجع بضـعة خطوات إلى الوراء لتقفز على السـرير وتُفيق «عَم أبو بيت أصفر» وتشدّه إلى حيث نجلس منتظرين.

نجلس ثلاثتنا: فان جوخ، وبديعة، وأنا على الأرض. تتذكّر بديعة فجأة الصندوق الأحمر فتقوم وتركض لتأتي به ثم تعود حيث كانت بيننا، خشية أن يضيع أو أن تأخذه هذه السيدة الطويلة العريضة من الكورس.

إذ لاحظت بديعة أكثر من مرّة أن السيدة كانت تنظر إليه بإعجاب: «الوليّة ما شالتش عينها من ع الصندوق». وفان جوخ ممسكًا بغليونه والدخان الرمادي يطير منه فيبدو كأنه سُحُب كثيفة تسير فوق الآلات. والآلات تلتمع بأكف بديعة الملوّنة لا زالت. والعازفون جلوس. آلاتهم وأصابعهم في وضع الاستعداد. والكورس مُصطّف أمام العازفين. والمايسترو شجرة غنيّة تمتد ثمارها إلى الأوركسترا كلها عبر فرع واحد صغير فضّي يُمسكه المايسترو بيده.

يُعطي المايسترو إشارة البدء الآن...فيبدأ العازفون بتأسيس القواعد الأولى لآخر ما ألّف بيتهوفن في حياته: السيمفونية التاسعة.

السيمفونية التاسعة لها وضعٌ خاص، لا بين مؤلّفات بيتهوفن فحسب، إنما في عالم الموسيقى الكلاسيكية ككل. جاءت بيتهوفن فكرتُها عشرة سنوات قبل أن يشرع في تنفيذ الفكرة ويعكف عليها كليًا في السنة الأخيرة قبل إتمامها وعرضها.

إنّ إيقاعها ليس كالإيقاع بتاتًا. لا يشعر المرء فيها بهذا ال«الخوف فأمل فخوف فأمل» الذي نجده في الباثيتيك، ولا التحدّي الثائر الواضح في ال «Eroica». بل إنها حالة أقرب إلى حالة السلام الإنساني. كأنها احتفال بالإنسانية جمعاء. احتفال بالوحدة. احتفال بالبهجة والأمل.

وهي ككل سـيمفونياته (وكل السـيمفونيات الكلاسـيكية عمومًا) مُقسّـمة إلى أربع مقاطع. تبدأ أولاها بأ صوات كمنجات خافتة جدا. حتى أن بديعة لم تنتبه أن المو سيقى قد بدأت فعلًا إلا عند ما أخبر تها وأشـرت لها إلى عازفي الكمنجات، فانتبهت. افتتحت الكمنجات المقطع الأول بهدوء أقرب إلى الصـمت منه إلى الموسـيقى. ليس في البداية أي من إشـارات الإنذار القويّة التي عادة ما يبدأ بها بيتهوفن ألحانه طلبًا للانتباه بصـيغة الأمر. إنما هنا، مع بداية هذه السيمفونية، نجد سحر المياه الجارية حين يقترب الإنسان منها أكثر ليستمع إلى صوتها الخافت الآ سر، فتملؤه السكينة. لا يريد لنا بيتهوفن أن نضطرب أو أن نُفزَع لننتبه. لا يريد إرغامنا على شيء. إنما...يريدنا أن ننتبه له بسلام، طوعًا لا كرهًا.

يعلو صوت الكمنجات شيئًا فشيئًا حتى يأخذ شكل لحن معيّن واضح النغمة والإيقاع. يعيد نفسه المرّة بعد المرّة بصورة مختلفة وكأن التيمة تنضج وتبين مع الوقت.

ثم يبدأ المقطع الثاني ال«Scherzo» («الشيرزو») حيث النغمة الأقوى والتلاحم الأشد المؤدي إلى المقطع الثالث صـاحب أكبر مسـاحة من مشـاعر النداء الإنسـاني:الجو (هنا) هادئ. الجميع في تآلف وانسجام.

أما المقطع الرابع والأخير، فهو بطل هذه الســيمفونية. وقد يكون المقطع الأشـــهر في عالم المو سيقى على الإطلاق. يُسمّى «Ode to Joy» («إلى السعادة»). كان المايسترو هو أوّل من فكّر في إدماج الصــوت البشــري مع الآلات في الموســيقى على شــكل «كورس». جاءته الفكرة حين ذاب عشقًا في قصيدة «إلى السعادة» لشاعر ألماني يدعو فيها البشرية أن تتّحد وأن تتقبّل وتحترم بعضها البعض.

تستمر ال«Ode to Joy» لعشرين دقيقة. تبدأ أولًا بألحان متقطّعة تعكس أجزاء معيّنة من المقاطع الســابقة مُجمّعة ومُعادًا صــوغها من جديد. إنه ملخّص لطيف لما ســبق قبل الfinale. و شيئًا فشيئًا، تبدأ مو سيقى ال«Ode to Joy» تكتمل ببطء حتى تتّضح. كأنها وُلدت من رحم التجربة، ومن التأمّل والتفكّر المتروّي.

أصبح اللحن واضحًا الآن. إنه جميل. ولا شك أنه يعكس الحالة النفسية التي كان عليها المايسترو في هذه المرحلة – الأخيرة – من حياته. إذ كان قد خسر سمعه تماما. نعم، إنه لا يسمع ما تعزفه فرقته الآن. ومع هذا، فحالة التقبّل ومسايرة الأقدار تلتمع خلال كل مقاطع السيمفونية الأربع بكل ما فيها من هدوء ودعوة للانصهار الآدمي الجميل.

وفجأة، مطرب الكورس الرئيسـي يتقدّم. يبدأ التغنّي بصـوته الجهوري بأول كلمات القصيدة. ثم يصمت ليرد عليه بقية الكوراس. إنه يُعلي من صوته ويشد على حروفه ويؤكّد لحنه. إنه مُصِرّ على اتّحاد الإنسانية. والكورس يُثني على طلبه وإصراره. ثم يغنّي الأبيات كاملة بانسيابية ودون تقطيع، فتلتمع الـ« Ode to Joy » كما لم تلتمع من قبل. تُعجب الفكرة مجموعة أخرى فتردّد وراءه. ثم مجموعة أكبر، ثم أكبر، وأكبر. فيعلو الصوت أكثر وأكثر وأكثر: الإنسانية تتحدّث وتتمنّى.

- بُصّي يا ليال! (تشير بديعة إلى شعر ذراعيها وقد اقشعرّت من روعة ال Ode to Joy).

- أنا كمان يا بديعة...بُصّي. (أشير إلى ذراعيّ وقد اقشعرّ بدني أنا أيضًا).

- وهو كمان! (تشير بديعة إلى فان جوخ وقد ناله ما نالنا).

انتهت السيمفونية. يقترب المطرب الرئيسي من بيتهوفن ليُعلمه بانتهاء السيمفونية وبتحيّة الجمهور له. كنا أنا وبديعة وفان جوخ نقف ونصفّق بحرارة.

انتهى الحفل.

صمتٌ نسبيّ يخيّم على الأجواء. العازفون يحيّون بعضهم. الكورس يتبادل التعليقات والتهاني. و بديعة تركض إلى بيتهوفن الذي يحملها. تقبّله ويقبّلها. ثم تنزل وتركض إلى بورتريه «سيّد». إن ما أحدثته السيمفونية فينا لا يو صف! فها هي الملاك الصغير تحمّست لا ستئناف ر سم أخيها المتخيَّل. وفان جوخ قد تحمّس أيضًا وهمّ أن يبدأ في لوحة جديدة. إنه...بدأ فعلا! تُرى ماذا سيرسم هذه المرّة؟

وأنا متأثّرة تأثيرًا إيجابيًا مشبّع بذات الحماس. متأثّرة إلى حد أنني أريد أن آخذ هذا التأثّر وأذهب به نحو كانفس أبيض جديد أضعه على الحامل الخالي لأبدأ فورًا في لوحة «حُلم فريدة».

لكن...صوت غريب يقترب ويربك الجميع. أصوات أقدام تدنو من باب الغرفة خارجًا. وأ صوات لأ شياء ذات أحجام وماهيات مختلفة تتخبّط ببعضها البعض. ثم يعلو فوق الأصوات الكثيرة المشتّتة صوت لرجل يضحك ويتحدّث بصوت عالٍ. إنه يفتح الباب فعلًا! وإن جميع من في الغرفة يكفّون عما كانوا منشغلين فيه محدّقين في الباب متوجّسين.

ينفتح الباب فنرى رجلًا ممسكًا بعصى. على رأسه قبّعة سوداء. له شارب طويل. يدخل ويتفرّس معالم المكان ووجوه الحضــور. ينظر إلينا بتفحّص كأنه يبحث عن شــخص أو شيء ما بيننا. والجميع يبادلونه نظرات الاندهاش والتفحّص.

وأخيرًا يُغلق الباب من ورائه، ويرفع قبّعته بينما يســير إلى قلب الغرفة. ثم يضــحك بصــوت عالٍ بشــكل مفاجئ. ينظر إلى الجميع بثقة لا تخلو من الفكاهة والمودّة، يدب بعصاه الخشبية على الأرض مرّة قويّة ثم يقول:

Salut! Je suis Claude Monet.

«مرحبًا! أنا كلود مونيت».

المحتويات